العدد التالى من المجلة

العدد الثانى ـ المجلد التاسع

يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر

قسم خاص عن

الاتجاهات الحديثة فى النقد الادبي

بالاضافة الى الابواب الثابتة

البلد	السعر	العملة	البلد	السعر	العملة
الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٠٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت .

مطبعة حكومة الكويت



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر ١٩٧٨
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية ـ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

النقد الادبي

★★★

آفاق المعرفة

★★★

ادباء وفنانون

★★★

عرض الكتب

الاتجاهات الحديثة في النقد الادبي



ربما كان سقراط هو اول من فرق بين تاليف الأدب ونقد الادب وميز بينهما ، وذلك حين ذهب الى انه قلما كان يجد من بين الشعراء من يستطيع ان يشرح ما كان يعنيه بشعره . وكأنما كان سقراط يود ان يقول فى هذه العبارة انه لم يكن ثمة من بين الشعراء من يستطيع ان ينقد شعره . وقد ادى ذلك بالأستاذ **لاسيل ابركرومبى**، وهو يستعرض راى سقراط فى مقاله الرائع عن قواعد النقد الادبى الذى نقله الى العربية منذ سنوات طويلة المرحوم الدكتور محمد عوض محمد الى ان يميز بين ثلاثة انواع من القدرات هى : **القدرة على تذوق الادب ، والقدرة على تحليل الادب تحليلا منطقيا ، ثم القدرة على نقد الادب** ، وحاول ابركرومبى ان يرد هذا التمييز بين القدرات الثلاثة الى وجود ثلاث ملكات مختلفة هى ملكة الانشاء او الانتاج الادبى ، وملكة التذوق ثم ملكة النقد . وهذه الملكة الثالثة يمكن ان تكتسب وان تنمى بالدرس والممارسة والمران ، وان كان هذا لايمنع من ان النقد قد يكون غريزيا فى كثير من الاحيان ، وان يصدر على ما سنرى من القارىء بطريقة تلقائية دون ان يعد لممارسة هذا العمل اعدادا متعمدا مقصودا .

ومهما يكن من امر ، فالمهم هو ان « الناقدعادة يكون مدركا » للخطة التى يتبعها فى نقده ، وأن هذه الخطة تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لان ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص . ومن الممكن دراستها وتطبيقها فى دقة وعناية » ،بينما ليس هناك فى رايه « قواعد ترشدنا الى كيفية ابتكار الادب ولا الى كيفية الاستمتاع به » .بل الاكثر من ذلك ان النقد الادبى يعجز تماما عن « ايجاد هاتين الملكتين عند الناس اذا لم يكن لهما وجود من قبل . فهو يفترض اذن وجودهما افتراضا » (انظر كتاب **قواعد النقد الادبى** ـ دار التاليف والنشر والترجمة ـ القاهرة ـ صفحتا ٤ ، ٥)

ولكن على الرغم من اختلاف القدرة على النقد الادبى اختلافا تاما عن المقدرة على ابتكاره والمقدرة على تذوقه فليس ثمة ما يمنع بطبيعة الحال من امكان اجتماع القدرات الثلاث في شخص واحد ، بحيث يكون الاديب قارئا للادب وناقدا فى الوقت ذاته . وعلى اى حال فان النقد يبدأ بمجرد ان يأخذ قارىء الادب نفسه بالتزام « قواعد عقلية » يطبقها اثناء قراءته ويستعين بها فى تذوق الادب مع تقدير ما يقرأ بحيث يصبح الاستمتاع بالقراءة « مبنيا على اساس من الفهم وحسن التخير » وبذلك يكون النقد عبارة عن « اسئلة معقولة يسالها المرء عن كل شيء يتعلق بالادب ثم الاجابه عنها كذلك اجابه عقلية » **(ص ٧)** سواء اكانت هذه الاسئلة والاجوبة متعلقة بنظرية الادب ذاتها ، او بما يسمونه « بالنقد الاساسي » اوالنقد الخاص لاعمال ادبية معينه ومحددة بالذات ومع التسليم بهذا كله فليس ثمة ما يمنع من ان يكون النقد الادبى على ما ذكرنا من قبل « عملا شخصيا كالتأليف الادبى سواء بسواء ، ويكون كالادب وليد النبوغ العبقرى » بحيث يصدر عن مواهب معينة قد لا تستند الى اى قواعد راسخة صلبة ـ او مدروسة ، بل وقد تنفر من مثل هذه القواعد الجامدة فلا تلتزم بها ، وبذلك لا يتمسك الناقد بنظرية محددة او بمبدأ معين بالذات يلتزم به طول الوقت ويحاول تطبيقه على كل ما يقرأ . وهذا هو ما يسميه أبركرومبى **بنقد الالهام** الذى يصدر عن الخصائص والمميزات والقدرات الذاتية للناقد ، وان كان هذا النوع من النقد لا يعتبر فى راى الكثيرين ، وبخاصة من المهتمين بنظرية النقد الادبي ومدارسه أهم انواع النقد ، لان الذى يهم فى ذلك هو مدى ما يضيفه النقد والناقد الى قواعد النقد وطرائقه واسهامها في شرح تلك القواعد والطرائق وتفسيرها والعمل على اثرائها وتقدمها . فمثل هذه الجهود هى التى ادت وتؤدى الى ظهور الاتجاهات المختلفة ، وتنوع المدارس والمذاهب فى النقد الادبي . **وسوف يجد القارىء عرضا لبعض هذه الاتجاهات والمذاهب فى هذا العدد .**

• • •

والواقع انه ليس هناك اسلوب او منهج واحد « صحيح » لمعالجة مشكلات الادب ، كما انه لا يوجد مدخل واحد يمكن اعتباره محكاً ومعيارا لتقييم كل انواع الادب وكل الكتابات الادبية على اختلافها . ذلك لان الاعمال الادبية كثيرة ومتنوعة الى ابعد حدود الكثرة والتنوع ، وتغطي حقبة طويلة جدا من تاريخ الانسان والحضارة . ومع الاعتراف بالدور الذى تقوم به الدراسات النقدية ، وكذلك نظرية الادب في توضيح ماهية الادب ومساعدة القارىء على فهم طبيعته وعلى الوصول الى درجة اكبر من الاستمتاع والتذوق من قراءته للاعمال الادبية ، فان من الخطأ الزعم بأن التذوق والاستمتاع وتقدير هذه الاعمال لن تتاح للقارىء الا عن طريق الالمام بنظرية الادب او الدراسات النقدية فيه . وكما يقول ديفيد ديشيس David Daiches انه من السخف ان نزعم ان اليونانيين القدامى لم يستطيعوا الاستمتاع باعمال سوفو كليس وتذوقها وتقديرها حق قدرها قبل ان يجيىء ارسطو ويكتب كتابه الشهير عن الشعر Poetica ، او أن نزعم انه كان يتعين على رواد المسرح في بريطانيا ان ينتظروا مجيىء برادلى A. C. Bradley او الاستاذ هيلمان Heilman حتى يمكنهم الاستمتاع بمسرحية « الملك لير » . ذلك ان التذوق والتقدير يمكن ان يكونا مستقلين تمام الاستقلال عن نظرية النقد ، ولو ان الاستعانة بهذه النظرية قد تساعد على توضيح معنى العمل الادبى وبالتالى تساعد على الاستمتاع به ، والغوص الى اعماقه . وهذا معناه ان النقد الادبى لا يمكن ان يكون غاية فى ذاته ، اوانه حسب تعبير T. S. Eliot ليس غاية ذاتية autotelic وانما هو بالاحرى وسيلة للوصول الى فهم اعمق للعمل الادبى والى تحقيق درجة اكبر من التذوق والاستمتاع . ويحقق النقد وظيفته بتحقيق ذلك الهدف .

والذى لا شك فيه هو ان الفن اكبر بكثير من شراحه على ما يقول Daiches ايضا ، وانه ليس هناك من بين النقاد من يمكنه ان يزعم انه استطاع ان يحدد قيمة الفن الادبى ومعناه بكل ما تحتوى عليه من معنى . فنظريات النقد نظريات جزئية ومتحيزة وذاتية وقابلة للمناقشة والاختبار ، وان كان هذا لا يعني انه لا توجد مقاييس او معايير للقيمة ، او انها تعتمد نقط على الذوق الخاص او الانطباعات العامة الباهتة . وكل مايعنيه ذلك هو انه لا يوجد حكم نقدى لاى عمل ادبي يمكن ان يكون حكما كاملا مطلقا وصحيحا او مقبولا من الجميع . ومع انه يمكن من الناحية النظرية البحته ـ وضع بعض المبادىء العامة القويمة فالواقع ان الاحكام التى تصدر من الناقد عن اى عمل أدبي هى بالضرورة احكام تقريبية ، وانه على الرغم من كل ما يبذله الناقد من جهود للكشف عن طبيعة العمل الادبى وماهيته فلن يستطيع فى الاغلب ان يحيط بكل جوانبه واعماقه . فالعمل الادبى مجموعة متشابكة ومعقدة من الافكار والآراء والاحاسيس والعواطف والتجارب التي خضع لها الكاتب او الشاعر ، ومن الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، ان يصل الى كل جزئيات

تلك التجربة ، وان يتعرف فى دقة وعمق على كل جوانبها ودقائقها . ومن هنا كان النقد الادبى اقرب فى طبيعته الى الفن منه الى العلم ، ومن هنا ايضا كان الناقد الذى يحرص على اخضاع الاعمال الادبية لعدد من المبادىء الجامدة المطلقة ويعمل على تطبيق هذه المبادىء بطريقة منهجية دقيقة وصارمة عرضة لكثير من المخاطر ، كما يشوب عمله كثير من اوجه العيب والنقص .

ومع ان بعض النقاد المحترفين قد يميلون الى وضع قواعد ومناهج ومبادىء محددة لكي يسترشد بها المبتدئون في فهمهم لاصول فن النقد الادبى وللاستعانة بها فى خطواتهم الاولى فكثيرا ما تنقلب الاوضاع وتخرج هذه القواعد والمناهج عن الاهداف التى وضعت من اجلها ، بحيث تصبح دراسة النقد الادبى فى آخر الامر مجرد دراسة للاسلوب الذى يتبعه الكاتب والعبارات التى يستخدمها وما الى ذلك وبدلا من ان يكون دراسة لطريقة الكاتب فى عرض تجربته بوضوح وعمق ، واداة لمساعدة القارىء على فهم تلك التجربة وادراك اعماقها وجوانبها المختلفة .

ومن هنا كان لا بد من ان نفهم وظيفة الادب او على الاقل الغرض منه . ولقد اختلفت الآراء في ذلك اختلافا كبيرا . ولكن الظاهر ان من اهم هذه النظريات التى يعتنقها لفيف كبير من المشتغلين بالنقد الادبي والتى نجد لها صدى عند كثير من علماء الانثربولوجيا والاجتماع المهتمين بدراسة الادب وتحليله وعلاقته بالمجتمع ، الاتجاه الذى يذهب الى ان الغرض الحقيقي من الادب هو « التعبير » « والتوصيل » فالادب نوع من التعبير عن تجارب المؤلف وحياته واحاسيسه وانفعالاته وما يدور فى نفسه وعقله من مشاعر وافكار ، كما انه فى الوقت ذاته وسيلة لتادية هذه التجارب والانفعالات والافكار الى الآخرين بنفس القوة التى يشعر بها الكاتب الذى يمر بتلك التجربة . والاخفاق او الفشل فى ذلك يعنى الاخفاق والفشل فى انتاج ادب يستحق ان يطلق عليه هذا الاسم .

هذه الوظيفة المزدوجة للادب ، اعنى **التعبير والتوصيل** ، تكشف لنا عن الجانبين الاساسيين اللذين يجب توفرهما في اى عمل ادبى ، وهما الجانب الذاتى للادب والجانب الموضوعي وتوكيد احد هذين الجانبين او الآخر ، والاهتمام به وابرازه هو الذى ادى الى ظهور مذهب الرومانتزم من ناحية ، والمذهب الواقعي من الناحية الاخرى ، والجمع بين هاتين الناحيتين (الذاتية والموضوعية) هو الذى يتمثل فى اعتبار الادب نوعا من توصيل او نقل التجربة الحية العميقة التى يمر بها المؤلف التى يعبر عنها فى كتاباته ، وليست العبارة اللفظية فى آخر الامر سوى « اداة » ووسيلة لتحقيق هذه العملية .

وعلى هذا الاساس فانه يمكن القول مع آبركرومبي — مرة اخرى — ان الادب يفترض وجود اطراف ثلاثة هم المؤلف والقارىء ثم العبارة اللفظية — او الكلام — الذي يكون بمثابة الوسط بين هذين الطرفين . وليس المقصود بالتوصيل هو توصيل (المعلومات) كما هو الشأن في الكتب العلمية؛ فنحن لا نحكم على الكتابة الفنية او العمل الادبي بمدى صحة ما قد يكون به من (معلومات) ، وانما الذي نأخذه في الاعتبار والذي نصدر عنه احكامنا هو مدى صدق ذلك العمل الادبي في التعبير عن التجربة التي يمر بها الكاتب بكل اعماقها وقوتها ، وقدرة ذلك العمل الادبي على نقل هذه التجربة الذاتية بكل جوانبها وتنوعها واصالتها .

فالناقد اذن ينظر الى التعبير على ان له قيمة ذاتية خاصة به بصرف النظر عن الاحكام التي قد يتضمنها ، وذلك على الرغم من كل ما يقال عن الادب التطبيقي الذي قد يهدف الى الاقناع ، والى قبول قضية او رأى او حكم .

فالغرض اذن من الادب الصرف « هو ان يؤدي عمق الاحساس دون ان يكون له غرض اخر غير مجرد وجوده ، كما ان الحكم عليه بالقوة اوالضعف انما يكون بالنظر الى قدرة الكاتب على توصيل تلك التجربة والتعبير عنها » .

وما دام العمل الادبي تعبيرا عن تجربة معينة مر بها الكاتب فان النظرة الى ذلك العمل وتقديره وتقييمه يجب الا تكون مجرد نظرة جمالية خالصة وانما لا بد من ان نأخذ في الاعتبار المناخ العقلي والثقافي والحضاري الذي تم انتاجه فيه ، ومحاولة التعرف على العوامل السيكولوجية والظروف الاجتماعية التي خضع لها الكاتب . فهذه كلها امور من شأنها ان تزيد قدرة القارىء على فهم ما يقرا والاستمتاع به وتقديره ، وعلى الغوص الى اعماق التجربة الانسانية التي يعكسها الكاتب على ما يقول ديشيس .

فكان الادب على ما يذهب اليه انصار هذا المذهب ، ومعهم المهتمون بالدراسات الادبية من علماء الاجتماع والانثربولوجيا — هو عمل اجتماعي ثقافي الى جانب كونه انتاجا فنيا او جماليا . ومن الطريف ان نذكر هنا ان الكثيرين من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين تعرضوا لهذه المسالة ينظرون الى الكاتب او الاديب على انه انسان يمارس حرفة او مهنة معينة . والى العمل الادبي على انه وسيلة للاتصال ، اى سلعة ثقافية ، والى القارىء على انه مستهلك لتلك السلعة الثقافية بشكل او بآخر .

والمعروف انـه منذ عـام حاول شوكنـج L. L. Schü King على ما يقـول سكاربت Robert Scarpit في مقاله عـن « الادب » في **الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية** ـ ان يضـع نظرية من علم الاجتماع الادبي او سوسيو لوجيا التذوق الادبي . ومع ان هذه المحاولة صادفت كثيرا من الصعوبات ، على الاقل في بداية الامر ، فانها اثارت الاهتمام بالموضوع لدى عدد مـن المفكرين الاجتماعيين الذين اهتموا بالتعرف على العوامل الاجتماعية التي تؤثر في العمـل الادبي ومدى تعبير الادب عن الواقع الاجتماعي وانعكاس البيئة الاجتماعية للكاتب في كتاباته ، واثر البناء الاجتماعي عموما في الانتاج الادبي . ثم بدات بعض المدارس التي تأثرت بكتابات الفيلسوف المجري **جورجي لوكاش** Gyorgy Lukâs تنظر الـى المجتمع على انه هو الحقيقة الواقعية التي تختفي وراء مظاهر الادب ، وان كان ذلك لا يتنافى في الوقت ذاته مع اعتباره الادب غاية في ذاتها . وقد بلغ الامر ببعضهم الى حـد اغفال دور القارىء في عملية الاتصال الادبي ، بل ان منهم من انكر ان يكون الادب عملية اتصال بالمرة ، وبذلك انكروا وجود ما يمكن تسميته بالاتصال الادبي .

وهذا موقف متطرف يتعارض تماما مـع موقف كاتب مفكر مثل **جان بول سارتر** Jean-Paul Sartre الذي يرى في كتابه « ما هو الادب » الذي صدر عام ١٩٤٨ ان العمل الادبي الـذي هو نتاج مكتوب للفكر لن يكون له وجود واقعي الا حين يقرأ بالفعل ، لان الكتابة بغير القراءة هي مجرد لغو ، كما ان الكتاب الذي لا يجد من يقرؤه لن يكون اكثر من مجموعة من الاوراق الملوثـة بالحبر . وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن اعتبار الظاهرة الادبية مجرد حصيلة للفن نفسـه ، وانما هي لقاء او تقابل ، بل واحيانا صدام بين فعلين صادرين عن الحرية ، الاول فعل انتاج والآخر فعل استهلاك ، بكل ما يقتضيه هذان الفعلان من نتائج وآثار على العلاقات الاجتماعية والاخلاقية . وعلى اية حال فلا بد من ان يكون هناك دائمـا « رجل اخر » في الادب : كاتب بالنسبة لقارىء وقارىء بالنسبة لكاتب .

• • •

وهذا كله معناه ان من الخطورة الى حـد كبير اخضاع النتاج العقلي المكتوب للمحكـات الجمالية وحدها او اغفال غيرها من المحكـات الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، خاصة وان اداة الادب هي اللغة والكتابة ، وهمـا اداتـان اجتماعيتان .

وليس من شك في ان الكاتب يأخذ في اعتباره في معظم الاحوال الافكار والاحكام والقيم التي تسود في مجتمعه ، فضلا عن الاحكام التي يصدرها القراء انفسهم على ما يكتب . فالتفاعل بين الكاتب

والقارىء قائم وقوى ويعمل فى اتجاهين متكاملين ،بحيث يلعب الكاتب دورا ايجابيا يتمثل فيما يحاول توصيله من « رسائل » او تجارب انسانية الى جمهرة قرائه الذين تصدر عنهم « استجابات » لهذه « الرسائل » تتمثل فى الاحكام التى يصدرونها على ما يكتب والتى تنعكس بدورها على كتاباته الاخرى وهكذا .

ولقد كان من الطبيعى ازاء ذلك ان يشغل دارسو الادب انفسهم بوضع الحدود واقامة التمييزات بين « التاريخ الادبى » و « النقد الادبى » .

فالتاريخ الادبى على مايقول **الاستاذ بيتشون** Bateson يهتم بتبيين ان استمد من ب ، بينما النقد الادبى يحاول البرهنه على ان أ افضل من ب ... التاريخ الادبى يعالج حقائق مؤكدة ، او يمكن البرهنة عليها ، اما النقد الادبى فيتناول امورا تتصل بالاعتقاد أو الراى ، وقد تتعلق باصدار الاحكام التقويمية . وهذه تمييزات معقولة ومقبولة الى حد كبير ، وان كانت المناهج والاساليب المتبعة كثيرا ما تخلط بينها ، كما انه كثيرا ما يصعب تصور تاريخ الادب بغير الرجوع الى نظرية الادب أو النقد الادبى ، او ممارسة النقد بغير الرجوع الى نظرية الادب وتاريخه . وليس من شك فى ان النقد الادبى يأخذ فى الاعتبار الاحكام التى كانت تسود فى عصور انتاج العمل الادبى الذى يتعرض له بالدراسة والنقد ،ويحاول ان يتعمق فى فهم اتجاهاتها ومواقفها وفلسفاتها ويتعرف على المعايير الادبية والفنية الموجودة حينذاك . وتعرف هذه النزعة بوجه عام ــ كما يقول ويليك Wellek ووارين Warren فى كتابيهما عن **نظرية الادب** Theory of Literature بالنزعة التاريخية historicism . وكانت هذه النزعة شائعة فى المانيا بوجه خاص فى القرن التاسع عشر رغم اعتراض الكثيرين عليها ،ثم انتقلت من المانيا الى انجلترا فالولايات المتحدة ولا يزال الكثيرون من « مؤرخي الادب » يتمسكون بها ، وادى ذلك الى ظهور ما يعرف باسم « النسبية النقدية » Critical Relativism ,,ــ على ما يسميها فردريك بوتل F. Pottle وهذه تسمية تتضمن الاعتراف بوجود نوع من عدم الاستمرار في تاريخ الادب ، ما دام انتاج كل عصر سوف يقاس بمعايير عصره فحسب .

ومع التسليم بما في هذا الموقف من وجاهة ، فقد تعرض لكثير من الهجوم والنقد ، على اعتبار انه يغفل أذواق القراء المعاصرين ، ويحصر العمل الادبى داخل اطار ضيق من الوحدة الزمانية والمكانية ، وبذلك يسلبه خاصية العمومية اوالكلية التى يجب ان يتصف بها اى عمل ادبى جيد . فالعمل الادبى يجب للحكم الصحيح عليه ان يخضع لمعيارين ، وان يدرس من بعدين متكاملين هما الذوق الفنى الذى كان يسود عصر انتاجه ، ثم الذوق الفنى أو الادبي العام ، ما دام

الادب يعبر عن تجربة انسانية ، حتى وان كانت هذه التجربة تتمثل فى شخص المؤلف الذى يجب ان يبرز النواحي الانسانية العامة العميقة فى تلك التجربة .

ونحن حين نقرأ اى عمل ادبى انما نقرؤه فى ضوء عصره ومجتمعه وثقافته على ما ذكرنا ، ولكن ايضا فى ضوء التجربة الانسانية العامة وفي ضوء المواقف والاتجاهات الحديثة . وهذا الموقف المزدوج له ما يماثله فى الدراسات الانثربولوجية مثلا ، حيث ينظر الباحث الانثربولوجى الى اية ثقافة فى ضوء الظروف التى انتجتها وكذلك فى ضوء ثقافته هو نفسه ؛ على اعتبار ان تلك الثقافة الجزئية التى يدرسها ما هى الا مظهر من مظاهر الثقافة الانسانية ككل . وكذلك العمل الادبي ما هو الا تعبير عن جزء معين من التجربة الانسانية العامة ، بقدر ما تعرض لها الكاتب .

فكان من الصعب الفصل فصيلا قاطعا وحاسما بين وجهة النظر التاريخية والمعاصرة في دراسة الادب دراسة نقدية ومحاولة تقييمه . ومع ذلك فانه يتعين على الناقد ان يعمل على ان يتجنب بقدر الامكان الوقوع فريسة فى « النسبية النقدية » او فى « النزعه المطلقة Abolutism » ، بحيث يتخلص من قصور النسبية دون ان ينزلق الى الاحكام المطلقة الجامدة التى تعتقد ان الطبيعة الانسانية ثابتة لا تتغير . **فالعمل الفنى او الادبي (ابدى) (تاريخي) معا** . وليس من السهل الجمع بين هذين (البعدين) ، ولكنه امر لا بد منه اذا اريد فهم العمل الادبى فهما صحيحا يزيد من معرفة الانسان بطبيعة النفس البشرية وعمق التجربة الانسانية وتعقدها .

* * *

محمد زكي العشماوي

الشكل والمضمون في النقد الادبي الحديث

شغلت قضية الشكل والمضمون فى الادبالمشتغلين بالدراسات الادبية والنقدية على مر العصور ، لا فى الآداب الاوروبية وحدها ، ولكنفى ادبنا العربي كذلك ، وخطورة هذه القضية انما تنشأ من ارتباطها الوثيق بتقدير قيمة العمل الادبي وتبين تاثيره . فان اي خلط في فهم طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون سيؤدي بالضرورةالى الخلط فى الحكم على الآثار الفنية ، والى اختلاف النقاد والادباء فى حقائق ؛ ان جازالاختلاف فيها فى العصور الماضية فلا يجوز ان يختلف عليها احد اليوم . وعلى الاخص بعد انتطورت دراسات علم الجمال الحديث وبعد ان وضحت من خلال هذه الدراسات الاسس التيينبنى عليها الفن ايا كان نوعه .

وقبل ان نبدأ فىدراسة هذه القضية وتتبعهافى مراحلها المختلفة يحسن بنا ان نحدد ما يعنيه النقد الحديث باصطلاحي الشكل والمضمون اوالشكل والمحتوى ،وقد يستخدم احيانا اصطلاح الصورة بدلا منالشكل فيقال:الصورة والمضمون.

والشكل عندهم هو الصورة الخارجية ، اوهو الفن الخالص المجرد عن المضمون والذي تتمثل فيه وتتحقق من خلاله شروط الفن الادبي ،سواءاكان قصيدة غنائية أم قصة أم مسرحية . فاذا حكمنا على قصيدة غنائية من حيث الشكل مثلاقصرنا احكامنا على كل ما يتصل بتحقيق الصورة

الخارجية لهذا الفن من وزن وموسيقى وصــورشعرية ، وصياغة فنية ، وبما قد يتحقق من خلال ذلك من جمال او انسجام في الوحدة او تناظر فيالاجزاء . وبالجملة كل ما يتصل بالعنصر الشعري الغنائي في القصيدة وصياغته واسلوب تصويره .وكذلك الحال في المسرحية ، فالشكل فيها هو كل ما يتصل ببنائها الدرامي وتماسك هــذا البنــاءوتدرجه من بداية ، الى وسط ، الى نهاية ، ثم التحام اجزائه وروعة تصويره بغض النظر عمــايشمل من مضامين او يثير من قضايا انسانية او اجتماعية او نفسية او اخلاقية .

اما المضمون او المحتوى فهو كل ما يشتملعليه العمل الفني من فكر او فلسفة او اخــلاق او اجتماع او سياسة او دين ، او غير ذلك منموضوعات ذات شان تاريخي او وطني . ومن هنا يكون المضمون او المحتوى هو في غالب الامر المادة**الخام التي يستخدمها الاديب او الشاعر ، والتي** يشكلها الفنان في الصورة التي يريدها .

وانقسم النقاد وفقا لهذا التمييز بين الشكلوالمضمون الىمدرستين:احداهما مدرسةالشكل والاخرى مدرسة المضمون . واخذت كل مدرسةتقيس الفن بمقاييسها الخاصة . فاصحاب الشكل لا يرون في المضمون اية قيمة فنية ، ويحصروناحكامهم في دائرة الصياغة الفنية وما يتحقق عنها من جمال . واصحاب المضمون يرون ان الفن كلهمضمون . وحددوا المضمون كما يقول **كروتشه** تارة بما يلذ ، وتارة بما يتفق مع الاخلاق ، وتارةبما يسمو بالانسان الى سماوات الفلسفة والدين، وتارة بما هو صادق من الناحية الواقعية ، وتارةبما هو جميل من الناحية الطبيعية المادية » (١) .

والمسالة مرتبطة في جذورها بفلسفة ادراكالاشياء : هل ماهية الشيء متحققة فيه ، او ان الماهية فكرة منفصلة عن الشيء ؟ او بمعنى آخر :هل المدرك الحي الذي امامنا يحمل في ذاته حقيقة كامنة فيه أم انه يمثل ظلا زائلا لحقيقة منفصلةعنه وبعيدة عن كيانه ؟

أما ارسطو فيرى ان الماهية ليست فكــرامنفصلا عن الاشياء ، والحقيقة عنده كامنــة في المدرك الحسي ، ومن ثم فان جوهر الشيء عندهلا ينفصل عن تحققه المادي ، ومن هنا كان عالم الشعر عند أرسطو كامنا في المظاهــر الحسيـــة ،ويستطيع الباحث ان يستنتج من نقد ارسطو انه مؤمن بالتلازم بين الصورة والهيولى .

والذين يفصلون الشكل والمضمون انمـــايعزاون الى حد كبير بين الافكار او المهايا وبــين المدركات الحسية .

والكلمات لا تعني الدلالة على اشياء ، وانماتعني افكارا او اشياء في الوقت نفسه . فاذا ذكرنا كلمة اسد يتداعى الى الذهن شيئان :

اولا جملة الصفات التي تحدد شكل الاسدوتكتسب عن طريق الملاحظة والتفرقة بين الصفات الجزئية والعرضية والصفات المشتركة :

---

(١) المجمل في فلسفة الفن ـ تاليف بندته كروتشه ـ ترجمة سامي الدروبي ص ٥١

وثانيا جملة الارتباطات والانطباعات القائمةحول الكلمة ، او بمعنى آخر ما يمكن او تضيفه الكلمة من احساس. من اجل ذلك كان من الصعبان تفصل بين ماهية الاسد وبينالاحساس المرتبط بما تثيره الكلمة في النفس من ايحاءات خاصة الافى نطاق التقسيم النظري بين ما يدرك بالعقل وما يدرك بالحس . وقد يمكن القول بأن ماهيةالبدر مستقلة عن جمال البدر الذي يستمد عادة من جملة الايحاءات والارتباطات ، وفى وسع ايإنسان ان يقول ان استدارة البدر واستنارته شيء وجماله شيء آخر ، كما فى وسع الدراسةالنظرية البحتة ان تقول ان وصفنا للبدر بالجمال شيء نابع عن الذوق . أما ماهية البدر التيتتمثل فى فكرته كنجم مستدير مستنير فى السماء ليلا فشيء آخر اكتسبناه من طول النظر والتامل،لا عن طريق الذوق .

ومن الممكن ان نقول ذلك ، وان نفصل بينماهية الشيء وبين الانطباعات او الارتباطات القائمة حوله ، ذلك اذا اردنا ان نفرق بينالادراكالعقلي المحض وبين الادراك الحسي . (٢)

ولكننا في مجال اللغة والادب نخضع لمبداعام لا ينبغي الاختلاف عليه وهو مبدا رمزية اللغة، فليست الكلمات فى اللغة والشعر مجرد علامات اواشارات نتخذها لنشير بها على وجود شيء او سواه ، وانما هي رموز تتضمن شحنا من المشاعروالاحساسات .

« فالرموز بالمعنى الدقيق هي تلك التيلا يكتفي فيها على مجرد الدلالة بحيث يكون هناك طرفان فقط : طرف العلامة الدالة من جهة ،وطرف الشيء المدلول عليه من جهة اخرى ، بل يضاف الى مجرد الدلالة شحنة عاطفية من نوعمعين مقصود يراد لها ان تنزو فى نفس الرائي او السامع كلما وقع على رمز معين ، فعلم جمهوريةمصر العربية – مثلا – له ما لهذا الاسم من دلالة على البلد المراد الدلالة عليه ، لكنه يضيف الىمجرد دلالة الاسم على مسماه ضربا من الشعور يراد له ان ينشأ فى النفوس كلما وقعت العين علىذلك العلم ... والهلال رمز للاسلام ، والصليب رمز للمسيحية ، فكأنهما كلمتان ، لكنهما يزيدانعلى كونهما مجرد كلمتين لكل منهما مدلوله المعين ، اذ هما تضيفان الى عملية الدلالة موقفاشعوريا خاصا » (٣)

فالكلمات اذن ليست قطعا من الخشب اوالفسيفساء يوضع بعضها الى جانبالبعض ، وانما الكلمات ارواح تختزن فى داخلها مشاعرواحساسات . وهي وبتفاعلها مع غيرها فى داخل سياق لغوي قادرة على منح بعضها البعض دلالاتوفاعليات خاصة . وبذلك تكون اللغة في يد الكاتب أو الاديب فى حركة خلق مستمرة ، والفن الادبياستثمار لامكانات اللغة التي لا تنتهي عند حد .

واذا فهمنا رمزية اللغة على هذا النحويصبح الفصل بين الفكر الخالص المجرد ، وبين الشعور او الاحساس او ما تتضمنه كلمات اللغةمن ارتباطات او ايحاءات امرا بعيدا كل البعد عن المفهوم الحقيقي لاثر اللغة فنيا .

---

(٢) نظرية المعنى في النقد العربي ص ٧٠ وما بعدها ـ دكتور مصطفى ناصف .

(٣) فلسفةوفن ص ٤٣ ، ٤٤ دكتور زكي نجيبمحمود.

من اجل هذا حق لارسطو الا يفصل بين**الصورة والهيولى** ، ولكن فهم ارسطو للغة لم يصادف هوى عند مدرسة اللغويين الاسكندريين ، وعند **هوراس وشيشرون** فقد راى هؤلاء ان الشعر عالم من الالفاظ ، واختلط عندهم مفهوم الشعر بمفهوم الخطابة ففصلوا بين الشكل والمضمون تحت اصطلاحي الالفاظ والاشياء (RES) ، واستمر هوراس فمن جاء بعده وحتى فى عصر النهضة فاصبح النظر الى الشعر يتساوى مع النظر الى الخطابة والمنطق وفلسفة الاخلاق (٤) .

ومن الغريب ان يمتد هذا التأثير الى القرن التاسع عشر فينقسم فلاسفة الفن فى هذا القرن الى مدرستين : مدرسة الشكل ومدرسة المضمون ، والاعجب من هذا كله ان نرى بيننا اليوم من المعاصرين من يفهم الشعر والادب على انه شكل ومضمون او لفظ ومعنى . ويرجع الفضيلة فيه الى الشكل دون المضمون او الى المضمون دون الشكل . فما اكثر ما نسمع من النقاد ان قصيدة ما جيدة فيما تشتمل عليه من احساسات ومشاعر ، ولكنها فقيرة من ناحية اسلوبها او صياغتها . وكثيرا ما نسمع بعض النقاد يتحدثون عن مسرحية ما فيقولون انها سليمة من حيث البناء الدرامي ، ولكن يعوزها الموضوع الهام ذو الشأن التاريخي او الوطني او الاجتماعي .

وهذه جميعها اخطاء يأباها الذوق بل وينفر منها العلم والفهم الصحيح لعمليتي الخلق الادبي والنقد الادبي على السواء .

وليس من شك فى ان هذا الخلط فى مفهوم العمل الفني خلقا ونقدا انما يرجع الى ظهور النظريات الكثيرة مثل نظريات اللذة ، والنظريات الاخلاقية والمادية في الفن وغير ذلك كما يرجع اساسا الى اهمال العنصر الفني اما افلاسا اوعجزا . الامر الذي جعل اصحاب لنظريات يعتبرون الفن عنصرا لاحقا أو عرضيا .

وليس هناك ما هو اشد حسما الخلاف القائم بين انصار الشكل والمضمون من نظرية الخيال عند **كولردج** فقد حددت النظرية الخطوط الاساسية التي ينبني عليها الخلق الادبي بدرجة لم يعد هناك مجال بعدها للتشيع أو الانقسام . فقد عرفنا ان الخيال هو الذي يبدع الشكل العضوي ، وهذا الشكل العضوي ينبع من داخل العمل الفني ، كما انه خاضع لتجربة الشاعر لا لشيء آخر يفرض عليه من الخارج . ومن هنا اصبح الشكل الخارجي فى الشعر ليس بذي قيمة في ذاته ، أن قيمته فى اتحاده اتحادا عضويا مع سائر العناصر المكونة للعمل الفني . واعتماد كل جزء من اجزاء العمل الفني اعتمادا كليا على الاجزاء الاخرى هو معيار جودة الشكل عنده . وقد نتج عن هذا كله نتائج غاية فى الاهمية نجملها فى النقط الاتية :

اولا : اصبح نقد العمل الفني عند كولردج يقوم على اساس هام هو ان الشكل والمضمون يتحدان اتحادا تاما ، وان الشكل العضوي أمر غير مكتسب ، وليس مصنوعا صناعة آلية ولكنه فى باطن العمل الفني ويتحدد فى تطوره من الداخل ومعنى شكله هو بالضبط اكتمال نموه (٥) .

---

(٤) فن الشعر ص ١٩١ ، ١٩٢ دكتور احسان عباس

(٥) كولردج ص ٩٣ الدكتور مصطفى بدوي

ثانيا : ان قيمة العمل الفني تأتيه من اتحاداجزائه ، واذا كان ثمة قوانين للعمل الفنى في قانون العبقرية ، لا القانون المفروض على الفنانمن الخارج . انه قانونه الخاص الذي يستطيع ان يطرق به افضل السبل لتحقيق اهدافه ،وبهذايقضي كولردج على ما كان يلجأ اليه الكلاسيكيون فى نقدهم عندما كانوا يحددون للقراء اصولا بعينهالا يحيدون عنها ، ويلتزم بها النقاد فلا يحكمون بالجودة او الرداءة على عمل فني الا اذا توافرت'هذا العمل شروط محددة . وبذلك يحطم كولردج فكرة القانون الصارم في النقد ، ويرى انهامسألة نسبية يحددها العمل الفني نفسه الذي يختلف من شاعر الى آخر ومن عصر الى عصر .

ثالثا : القضاء على ثنائية اللفظ والمعنى التيكانت سائدة فى النقد الادبي قبل كولردج . وله فى هذا المجال فهمه الدقيق للغة ووظيفتها فىالعمل الفني .

فهو يميز بين الكلمات كأصوات وبينها كمعان . أو بينها كأدوات اصطلاحية الغرض منها الاشارة ، وبينها كوسيلة من وسائل الدلالة علىحقيقة الشيء . غير ان اللغة فى الشعر تجمع بين لغة الاشارة الباردة وبين اللغة الحية الناقلةللمشاعر . وهو يصف لغة الشعر فيقول عنها : « انها اللغة الاولى ممتزجة باللغة الثانية ، اللغةالاصطلاحية المستخدمة بحيث لا تكتفي بمجرد الاشارة الى الصورة الباردة ، وانما بحيث تعبرعن حقيقة لشيء (٦) . » ويقول فى موضع آخر :

ان الفرق الشاسعبين الالفاظ التيتستعمل كمجرد علامات اصطلاحية للفكر ، والتي هي بمثابة عملة للتخاطب ، عملة ناعمة الملمس امحىما كان عليها من رسم وكتابة لكثرة الاستعمال . وبين تلك الالفاظ التي توصل لنا صورا . سواءاكانت هذه الصورة مستعارة من موضوع خارجي معين لكي تحيى وتخصص موضوعا آخر ، أم كانتمستخدمة بطريقة رمزية لكي تجسد حالة المتكلم الباطنة ، او مستخدمة بحيث تعبر على الاقل عننزعاته الخاصة » (٧) .

ويعرف الشعر بقوله :

« انه أفضل الالفاظ فى افضل الاوضاع »(٨) .

ومعنى هذا ان اي كلمة فى العمل الفنيلا يمكن تغييرها او استبدالها بأخرى دون ان يفقد السياق معناه . فكل لفظة مستقلة بوجودهامتميزة بشخصيتها . فليس هناك لفظة يمكن ان تتساوى مع لفظة اخرىفى محصولها من الشعو .خذ اي كلمتين متشابهتين فى المعنى وحاول ان تستجلي ما وراءهما من احساس فستجد ان لكلمنهما مزاجا مختلفا وروحا متباينة . من اجل ذلك قال كولردج : « ان الشعر الرائع هو الذيلا يمكن ترجمته الى الفاظ اخرى دون ان يفقد جماله شيئا » (٩) .

---

(٦) المرجع السابق ص ٩٦

(٧) المرجع السابق ص ٩٦

(٨) المرجع السابق ص ٩٦

(٩) المرجع السابق ص ٩٦

ولو كانت الكلمة مجرد رمز يشير الى معنى او فكرة فحسب لكان يمكن للكلمتين المترادفتين ان يتساويا او ان تحل الواحدة منهما مكان الاخرى. ولكننا عرفنا ان الكلمة ليست مجرد اشارة باردة لمعنى او فكرة ، وانما هي نسيج متشعب من احساسات . بل ان لكل كلمة تاريخا طويلا مرت به ، وظروفا نشأت فيها ، وارتباطات احاطت بها ، وهذا كله كفيل ان يزيد الكلمة خصبا وحياة ، وان يجعلها شخصية متميزة تماما وهذا هو ماعناه كولردج بقوله :

« ولا يتضمن معنى اللفظة في رأيي مجرد الموضوع الذي يقابلها ، بل يشمل ايضا جميع الارتباطات التي تبعثها اللفظة في اذهاننا . فطبيعة اللغة لا تمكنها من نقل الموضوع فحسب ، وانما تجعلها أيضا قادرة على نقل شخصية المتكلم الذي يعرض الموضوع ونواياه » (١٠) .

يتضح لنا من كل ما سبق ان علاقة اللفظ بالمعنى عند كولردج علاقة حية ، وان ارتباطهما وثيق بحيث لا يمكنك ان تغير اللفظة او تنقلها من مكانها او تستبدلها الا اذا تغير المعنى .

رابعا : من النتائج الاخرى الهامة التي تولدت من مفهوم كولردج للشكل والمضمون اعتباره الوزن الموسيقي في الشعر جزءا لا يتجزأ من التجربة الشعورية ، وعنصرا ملتحما التحاما كليا بسائر العناصر الاخرى المكونة للقصيدة . بل ان الوزن عنده ثمرة من ثمار الخيال ، يقول :

« انني اعتقد انه من البشائر المرضية جدا في تأليف الشاب الولع بالصوت الفني العذب حتى وان كان في ذلك افراط معيب . ذلك بالطبع اذا كان من الواضح ان الموسيقى في شعره اصيلة ، وليست نتيجة تقليد آلي سهل ... فالصور الشعرية (حتى ولو كانت مستقاة من الطبيعة ولا سيما حين يكون مصدرها الكتب مثل كتب الاسفار والرحلات وعلم الاحياء) شأنها شأن الاحداث المثيرة ، والافكار الصادقة والمشاعر الشخصية او العائلية الشيقة . كل هذه الاشياء بالاضافة الى فن جمعها او صياغتها في صورة قصيدة ، قد يستطيع أي فرد موهوب ، وعلى قدر من الاطلاع ان يكتسبها بالجهد المتصل مثلما يكتسب المرء حرفة من الحرف . اما الاحساس بالمتعة الموسيقية بالاضافة الى القدرة على توليد هذا الاحساس لدى الغير فانما هي هبة الخيال وحده . ومن الممكن تنمية هذا الاحساس وتثقيفه ، ولكنه يستحيل تعلمه ، مثله في ذلك مثل القدرة على خلق اثر موحد من الكثرة ، وعلى تعديل سلسلة من الافكار بواسطة فكرة واحدة سائدة او انفعال واحد مهيمن . ان هذه هي الاشياء التي يصدق عليها المثل القائل بان المرء يولد شاعرا . ولا يمكنه ان يصبح شاعرا عن طريق الصنعة » (١١) .

ومصدر الوزن عند كولردج هو العاطفة او الانفعال بمعنى ان الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه فعندما تثور في نفس الشاعر عاطفة جياشة يلجأ الى الوزن او الى الموسيقى لانهما اقرب الوسائل للتعبير عن العواطف المشبوبة ولانها هي الاخرى بدورها

---

(١٠) المرجع السابق ص ٩٧

(١١) كولردج ص ٩٩

اكثر الوسائل قدرة على تبليغ العاطفة واثارتهاعند القارىء او السامع . على أن الوزن الذى هو وليد الانفعال والعاطفة المشبوبة بحاجة الىان يفرض عليه الشاعر درجة من التوازن ، وهنا تتدخل الارادة التي تستطيع أن تحول العاطفةالثائرة المشبوبة عند الشاعر الى ارتفاع محدد خاضع لنظام ، وليس مجرد تفجر عاطفي غيرخاضع لسيطرة الارادة . ومن ثم لا يتحقق الوزن فى الشعر الا نتيجة لدرجة من التوازن بينالعاطفة والارادة . وفي هذا يقول كولردج :

« وبما أن الوزن نتيجة فعل ارادى لاجلمزج اللذة بالانفعال فانه يجب أن تكون اثار هذه الارادة واضحة فى سائر اللغة المنظومة حسبتدخل هذه الارادة » (١٣) .

ويربط كولردج بين الكلام المنظوم ولغته .وهو يرى أن اى كلام موزون بحاجة الى لغة خاصة تناسبه ، فلما كان الوزن وليد الانفعالوصادرا عن عاطفة الشاعر فكذلك لغته . هذا بالاضافة الى أن جزءا هاما من موسيقى الشعرنابع من علاقات اللغة واصواتها ونبراتها ، وما تحمله تلك النبرات والاصوات من مشاعر .ومن هنا نشأت العلاقات العضوية الحية بين الوزن وغيره منمقومات العمل الفنى وعلىالاخصاللغة التى هي مستودع الانفعال والموسيقى والصورة .

اما تأثير الوزن عند كولردج فيرجع الىناحيتين : الناحية الاولى ناشئة من تكرار وحدة موسيقية معينة تنتشر فى العمل الفنى كله ،وتعمل على تشويق القارىء ودفعه للقراءة واثارة حب الاستطلاع فى نفسه . اما الناحية الثانيةفهى النغمة غير المتوقعة ، والتى لا تنشأ عن التشابه بين وحدات موسيقية متكررة وانما تلكالتى تنشأ من عنصر المفاجأة او خيبة الظن كما يحلو لريتشاردز أن يسميها . فالايقاع عندهلا يتحقق من قانون التوقع وحده وانما يتوقف على قانون المفاجأة او خيبة الظن . يقولريتشاردز :

« والنسيج الذى يتألف من التوقعاتوالاشباعات أو خيبةالظن أو المفاجاتالتي يولدها سياق المقاطع هو الايقاع . وربما كانت معظمضروب الايقاع تتألف من عدد من المفاجات ، ومشاعر التسويف وخيبة الظن لا تقل عن عددالاشباعات البسيطة المباشرة . وهذا يفسر لنا لماذا سرعان ما يصبح الايقاع المسرف فىالبساطةشيئا تمجه النفس » (١٣) .

وهذه النغمة الناشئة عن عدم التوقعأو المفاجاة هى التى تولد الدهشة وتثيرها لدى القارىء فى الكلام المنظوم .

ومجمل القول فى الوزن عند كولردج انهجزء لا يتجزأ من التجربة ، يصدر عن درجة عالية من التوازن بين العاطفة المشبوبة والارادةالواعية ، ويثير فى النفس حب الاستطلاع والتشويق والدهشة . وبتألف الوزن مع مادةالقصيدة يمكن للشاعر ان يحقق عملا فنيا رائعا

---

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٠

(١٣) مبادىء النقد الادبي — تاليف رتشاردز ـترجمة د. مصطفى بدوى ص ١٩٢

اما الوزن وحده فلا يمكنه أن يحقق قيمة غنيةفى ذاته . من اجل ذلك يشبهه كولردج بالخميرة فيقول :

« ان الوزن اذا ما قصد استعماله لاغراض شعرية أشبه ما يكون بالخميرة ، فالخميرة فى ذاتها عديمة القيمة ، بل انها كريهة المذاق ، ومعذلك فهى تضفى على الشراب الذى تمتزج به بنسب معقولة روحا وحيوية » .

ومن هذه العبارة الاخيرة يتضح لنا أن قيمةالوزن فى الشعر لا تتحقق الا اذا استطاع ان يتحد ببقية العناصر فى القصيدة اتحادا تاما .

الشكل والمضمون عند كروتشه :

ومناهم من تعرض لقضية الشكل والمضمون في العمل الفنى الفيلسوف الايطالى المعروف بندتو كروتشه واضع كتاب « علم الجمال » وصاحب مدرسة كبيرة فى الدراسات الجمالية والفنية .

ولقد لاحظ كروتشه أن هناك ثلاثة تمييزات خداعة تملاء ساحة فلسفة الفن وتغرى المرء بسهولتها وبداهتها الظاهرة وكلها يتعلق بالشكل والمضمون وأشهر هذه التمييزات هو التمييز بين **المضمون والصورة** (١٤) .

وخطورة هذا التمييز فى راى كروتشه يرجع الى ان الناقد سوف يجد نفسه أمام قيمتين اثنتين للعمل الفنى لا قيمة واحدة . احداهما ترجع للشكل والاخرى للمضمون . فيرى أشياع المضمون ان الفن هو العنصر الصورى المجرد ،ويرى أشياع الصورة ان الفن هو العنصر المجرد من المضمون .

ويسخر كروتشه من هؤلاء وهؤلاء ، حين يتتبع دراستهم وفلسفاتهم ويجد فى نهاية الامر ان كل ما دار من جدل حول المدرستين لم ينته الا الى حقيقة واحدة هي أن أصبح أشياع المضمون ، على غير ارادة منهم، أشياعا للصورة ،أصبح أشياع الصورة على غير ادارة منهم اشياعا للمضمون . وهكذا وقفت كل من الطائفتين موقف الاخرى ، ولكن على غير استقرار ولا اطمئنان ، ثم تعود الى موقفها على غير اطمئنان ولا استقرار كذلك .

ولكن قضية الشكل والمضمون عند كروتشه قد وجدت الحل تلقائيا في تفسيره للفن وتحديده لمفهومه . وقد عرفنا ان الفن حدس عند كروتشه . وعرفنا ما يعنيه بكلمة الحدس ، وادركنا ان تعريفه للفن بأنه حدس قد ميز الفن عن المفاهيم المنطقية والفلسفية والاجتماعية ، كما ميزه عن اللذة والاخلاق ، ولكنه مع تمييزه للفن عن كل المفاهيم فهو لم يقلل من شان المضمون بل لقد جعله نقطة البدء التى تتفرع منها التجربة والحقيقة التعبيرية أو الفنية . ولكنه مع ذلك لم يجعل للمضمون خصائص فنية سابقة على العمل الفنى . فاذا كان للمضمون قيمة فهو لا يكتسبها الا من خلال العمل ذاته .

(١٤) يستخدم كروتشه (الصورة) بدلا من (الشكل)

وينتهي كروتشه فى مناقشته لموضوع التمييزبين المضمونوالصورة الىالحقيقة الآتية ،فيقول :

« والحقيقة هى ان المضمون والصورة يجبان يميزا فى الفن ، لكن لا يمكن ان يوصف كل منهما على انفراد بأنه فنى ، لان النسبة القائمةبينهما هى وحدها الفنية ، أعنى الوحـــدة ، لا الوحدة المجردة الميتة . بل الوحدة العيانيةالحية » (١٥) .

ويقول فى موضع اخر :

« فسيان اذن (او قل انهما وسليتان منوسائل التعبير الموافق) أن نعد الفن مضمونا أو صورة ، شريطة ان يكون المفهوم دائما ان المضمونقد برز فيصوره ،وأن الصورة متمثلة بالمضمون، أى ان الشعور هو الشعور المصور . وان الصورةهى الصورة المشعور بها » (١٦) .

ويقول كذلك :

« والعاطفة او الحالة النفسيـــة ليستمضمونا خاصا ، وانما هى الكون كله منظورا اليه من ناحية الحدس . وليس فى وسعنا ان نتصورفى خارجها اى مضمون اخر ليس فى الوقت نفسه صورة مختلفة عن الصور الحدسية :

لا الافكار التي هى الكون بأسره منظورا اليهمن ناحية التعقل ، ولا الموضوعات الفيزيائيـة والعناصر الرياضية التى هى الكون بأسره منظوراليه من ناحية الارادة » (١٧) .

وبهذه العبارات الاخيرة المحددة يحســـمكروتشه في القضية كلها عندما يربط بين المضمون والصورة هذا الربط المحكم ، فلا يمكن تصـــورمضمون مهما يكن شأنه خارجـا عـــن الصورة الحدسية . وما الفكر والعقل ، والتخطيــــطوالتجربة ، والارادة الا وسائل خادمة للفن ولكنها ليست بذاتها فنا .

أما التمييز الثانى الذى لا يقل عن التمييزالاول خداعا والذى تمتلىء به أيضا ساحة فلسفة الفن فهو التمييز بين **الحدس والتعبير** او بمعنىاخر التمييز بين الصورة وترجمتها المادية .

فمن الناس من يميز بين التجربة باعتبارهاموضوع الانفعال والتصوير وبين ما يستخدمـه الفنان من كلمات او أصوات الوان للتعبير عنها .ويرى هؤلاء ان الاولى هى باطن الفن والثانية هى ظاهرة . ويعتبرون الاولى هى باطن الفن والثانيةهى مادته .

ويرد كروتشه على هؤلاء فيرى أن التفريقبين الباطن والظاهر قد يكون سهلا أمره ولو فى القول على الاقل ، ولكننا اذا انتقلنا من عمليـــةالتفريق الى تقرير النسبة او التركيب فسوف نصطدم بعوائق تخيب الظن وتحطم الامال ،واذابنا ندرك ان تمييزنا كان خاطئا . يقول :

---

(١٥) المجمل فى فلسفة الفن ص ٥٥

(١٦) المجمل فى فلسفة الفن ص ٦٦

(١٧) المجمل فى فلسفة الفن ص ٥٦ ، ٥٧

« فانى لشيء خارج عن الداخل وغريب عنه ان يجتمع الى هذا الداخل ويعبر عنه ؟ كيف يمكن لصوت او لون أن يعبر عن صورة مجردة من الصوت واللون ؟ كيف يمكن الجسم ان يعبر عما ليس بجسم ؟ باية طريقة يمكن أن يساهم فى فعل واحد الخيال التلقائي والتفكير والنشاط المادى ؟ متى فرقنا الحدس عن التعبير ، وجعلنا طبيعة الاول مختلفة عن طبيعة الثاني ، لم نجد هنالك حدا وسطا يستطيع ان يجمع بينهما ويلحم أحدهما بالآخر . ولا تستطيع جميع نظريات التداعى والعادة والآلية والنسيان التى ارتآها علماء النفس أن تحل مسألة الاتصال هذه بين التعبير والصورة . وهذا ما اضطر بعضهم الى افتراض ان فى المسألة سرا ... فمنهم من رأى ان هذا السر تزاوج عجيب ، وهؤلاء من اصحاب الذوق الشعرى ، ومنهم من رأى انه نوع من الموازاة النفسية الجميلة .

وكان ينبغى قبل ان نلجأ الى السر ان نبحث هل كان تفريق العنصرين صحيحا ، بل هل يمكن ان نتصور حدسا من غير تعبير . وفي رأيي أن ذلك لا يقل امتناعا على التصور عن تصور نفس بلا جسد ... والواقع أننا لا نعرف الا حدوسا معبرا عنها . **فالفكرة لا تكون بالنسبة الينا فكرة الا اذا امكن ان تصاغ بالفاظ ، ولا اللحن الموسيقى يمكن أن يكون لحنا موسيقيا ما لم يتحقق بانغام ، ولا الصورة التجسيمية يمكن ان تكون صورة تجسيمية مالم تظهر بخطوط والوان .** ولست أحتم أن تنطق الالفاظ جهارا ، ولا أن تعزف الموسيقي على آلة ، ولا ان تثبت الصورة على خيش . ولكن من المحقق انه متى بلغت الفكرة حد النضج واصبحت فكرة حقا دارت الالفاظ فى كياننا كله ، فحركت عضلات الفم ، ورنت فى داخل الاذن . ومتى كانت القطعة الموسيقية قطعة موسيقية حقا رأيتها تترنح على الشفاه ، وتحرك الاصابع حتى لكان الاصابع تلعب على أوتار خيالية » (١٨) .

ويقول كذلك :

« انك لو جردت الشاعر من ابحره والفاظه وقوافيه . لما بقى هنالك فكرة شعرية كما يخيل الى بعضهم . بل لما بقى شيء البتة . فانما نشأ الشعر مع هذه الالفاظ وهذه القوافى وهذه الابحر . وليس في وسعنا كذلك ان نقول ان التعبير أشبه بالبشرة بالنسبة الى الجسم . اللهم الا ان نقول : ان الجسم كله ، في كل خلية من خلاياه ، وفى كل عنصر من هذه الخلايا . هو فى الوقت نفسه بشرة » (١٩) .

وهكذا ينتهى كروتشه في مناقشاته بفكرة الفصل او التمييز بين الحدس والتعبير الى حقيقة هامة مؤداها : **انه لا يمكن تصور الفصل بين الفن ومادته طالما كانت العبقرية الاصيلة لدى الفنان هى فى الحقيقة كامنة فى قدرته الفائقة على استغلال مادة فنه واستثمارها على النحو الذى** يبلغ به درجة عالية من الكمال . اذ كيف يمكن لانسان أن يكون شاعرا عظيما وهو يسيء نظم الشعر أو مصورا كبيرا وهو لايجيد الملاءمة بين الالوان . أو موسيقيا موهوبا وهو لا يحسن تحقيق

---

(١٨) الرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١

(١٩) الرجع السابق ص ٦١

التنافم بين الاصوات . او يكون فنانا كبيرا وهولا يحسن التعبير ؟ من أجل ذلك قالواعن روفائيل لو لم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، غيرانهم لم يقولوا لو لم يكن له احساس بالرسم لظل مصورا عظيما . (٢٠)

اما التمييز او التفريق الثالث الذى ملأساحة فلسفة الفن والجمال والذى خدع الناس طويلا وما زال يخدعهم ، والذى يحرص كروتشهعلى أن ينبه الاذهان اليه لخطورته على نظرية الفن ، وعلى المذاهب النقدية هو موضوع التفريقبين **التعبير والجمال** .

وهؤلاء ، فى نظر كروتشه ، يقسمون مفهومالتعبير الفنى الى لحظتين « لحظة التعبير بالمعنى الخاص للكلمة : يعنى الوصول الى التعبير ، ثملحظة جمال التعبير : يعنى زخرفة التعبير .وعلى هذا الاساس صنفوا التعبيرات في زمرتين :التعبيرات العارية، والتعبيراتالمزخرفة » (٢١) .

ويرى كروتشه أن هذا الاتجاه فى التفريقبين التعبير وزخرفة التعبير منتشر فى ميادين الفن المختلفة ، ولكنه قد نما واتسع فى ميدان اللغةبوجهخاص ، بل انه يحمل اسما مشهورا هو اسم البلاغة . ذلك لان البلاغة في اعتقاده هى الميدانالذى تنفصل فيه الصورة البيانية عن التعبير . فكثيرا ما نرى الدارسينفىالميادين البلاغية يعنونعناية خاصةبزخارف التعبير من تشبيهواستعارة ومجاز ، ويفردونها بالبحث والدراسة ، وكثيراما يقفون عند هذه الصور وقفاتخاصة يتناولونها منفصلة عن التعبير مما جعل بعض الناس يظنونان للصور البيانية قيمة مستقلة عن التعبير الذى وردت فيه .

ويعلق كروتشه على هذا الاتجاه بقوله :

« وقد كان للبلاغة تاريخ طويل منذ بلغاءاليونانالى ايامنا هذه ولا تزال تدرسفىالمدارس ، ويعني بها فى الكتب ، بل في المباحث اللغوية التىتزعم لنفسها انها عملية ، فضلا عن الافكارالعامية بطبيعية الحال ، ولو انه فقد فى ايامنا هذه كثيرامن قوته الاولى ، وقد قبله اناس من أهلالذكاء والحصافة لا ادرى اعن كسل ام لقوة التقاليد ،وتركوه يعيش قرونا طويلة . ولم تكد تحاول الثورات النادرة التى قامت فى وجهه انتشيدثورتها مذهبا ، وان تنتزع الخطأ من جذوره . ولم يقتصر شر البلاغة التى تقول بوجود لغة« مزخرفة » مختلفة عن اللغة العارية وسامية عليها ، لم يقتصر شرها على ميدان فلسفة الفن ،بل تعداه الى ميدان النقد » (٢٢) .

وليس من شك في أن المنهج البلاغى الذىيرجع مقياس الجمال والجودة فى الشعر أو فى النثر الى ما فيه من صور بيانية منهج لا ينهضعلى اساس من فهم صحيح للادب . ولقد نبه

---

(٢٠) المرجع السابق ص ٦٣

(٢١) المرجع السابق ص ٦٤

(٢٣) دلائل الاعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ٧٩

عبد القاهر الجرجاني الى خطورة هذا المنهج في القرن الخامس الهجري ، وذلك عندما قضى على فكرة التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة بقوله :

« ان من الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظام والوقوف على حقيقته » . (٢٣)

وقد كان لناقدنا العربي الكبير منهجه الخاص في دراسة البلاغة وهو منهج يختلف كثيرا عن منهج من استمسكوا بالتقسيمات البلاغية الشكلية من أمثال السكاكي والقزويني .

وما نظن أن هنالك اليوم من النقاد المحدثين من يجادل في أن الجمال ليس محصورا في الزخرف أو الاستعارة . ومن البديهي أن يخلو بيت من الشعر من الصور البيانية ويحقق قمة الجمال في الجمال في التعبير الفني ، بل أن من الشعر مالا يعدو مجرد التعبير عن حالة نفسية تعبيرا بالغ التأثير قوي الايحاء ، وهو بهذا وحده قادر على أن يبلغ الجودة لسذاجته وصدقه ، ويقول كروتشه في هذا :

« ان التعبير المناسب اذا كان مناسبا ، كان جميلا كذلك ، لان الجمال ليس الا القيمة المحددة للتعبير وبالتالي للصورة . ولذا كنا نعني بنعته بالعرى أنه يعوزه شيء يجب أن يتوافر فيه . فمعنى ذلك في هذه الحالة أنه ليس مناسبا ، أو أنه ليس تعبيرا ، او لم يصبح بعد تعبيرا . وكذلك التعبير المزخرف ، فانه اذا كان تعبيرا في كل اجزائه لم نستطع ان ننعته بأنه مزخرف ، بل بأنه عار كالاول وبأنه سليم كالاول كذلك » (٢٤)

ويقول :

« ليس التعبير والجمال مفهومين اثنين ، فما هما الا مفهوم واحد يمكن ان ندعوه بأحد اللفظين على السواء . ان الخيال الفني لا يكون بدون جسد ، ولكنه ليس بدينا ، ولباسه من ذاته ، لا يلبس شيئا غيره ، وليس اذن بمزخرف (٢٥) .

ويرى كروتشه أن موضوع التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة يرجع في الحقيقة الى تأثير المنطق والفكر على دراسي اللغة وعلمائها الذين كثيرا ما دارت بينهم المناقشات حول علاقة الفكر بالخيال والفلسفة بالشعر ، والمنطق بالفن ، والجدل بالبلاغة . ووجد هؤلاء أن التفريق بين الفكر والخيال يقتضيهم أن يصنفوا اللغة الى لغتين : الاولى لغة الفكر والثانية لغة الشعر . وذهبوا الى أن التعبير العادي أو العاري هو المطابق للفكر والفلسفة ، وأن التعبير المزخرف هو المطابق للخيال والشعر . واستمسكوا بهذه القسمة النظرية التي ان جاز لها أن تصح في مجال التفريق بين لغتين ، احداهما لغة عملية صارمة تستخدم خارج ميدان الشعر ، والثانية لغة الانفعال التي تستخدم في ميدان الادب والشعر . ان مثل هذه القسمة لا يجوز لها أن تصح ، هذا ، اذا قصرنا كلامنا على ميدان التعبير الادبي سواء منه المزخرف أو غير المزخرف . وذلك أننا في مجال

---

(٢٣) المرجع ص ٦٤
(٢٤) المجمل في فلسفة الفن ص ٦٥
(٢٥) المجمل في فلسفة الفن ص ٦٥

الادب لن نجد الا خيالا وشعرا وفنا ، وان ادخال المنطق او الفكر الفلسفي المجرد هاهنا ، ظلما ، خليق كما يقول كروتشه أن يلقى ظلا خادعا ،حقيقا بأن يلبس الامر على العقل ، ويوقعه فى الاضطراب ، ويحول بينه وبين رؤية الفن فى كامل رحابته ونقاوته بدون أن يريه منطقا ولا فكرا . (٢٦)

ثم يزيد كروتشه الامر توضيحا حين يهاجم النظرة المنطقية الى اللغة تلك النظرة التى فصلت بين النحو والبلاغة . فقد ظن أصحاب هذه النظرة أنه ما دامت اللغة نحوا فينبغى ان تكون نظرتنا اليها نظرة منطقية . والذى زاد الأمر فظاعة انهذه النظرة المنطقية للغة قد فرضت هى الاخرى سلطانها على منهج البلاغة ودراستها . وحين يهاجم كروتشه هذه النظرة المنطقية الى اللغة انما ينبه الى خطورتها على مناهجنا فى دراسة الأدب والبلاغة يقول :

« على أن أسوأ الشرور التى سببها مذهب التعبير «المزخرف» لتصنيف صور الفكر الانسانى تصنيفا نظريا هو ما تعلق بنظرة أصحابه الى اللغة . فاننا اذا سلمنا بوجود تعبيرات عارية نحوية فحسب ، وبوجود تعبيرات أخرى مزخرفة اوبلاغية لزم عن ذلك أن ترجع اللغة الى تعبيرات العارية وان ترد الى النحو . وبالتالى ، (اذلا مكان للنحو فى البلاغة ولا فى الفن) الى المنطق حيث يسند اليها دور ثانوى . والواقع أن فساد اللغة المنطقى مرتبط ارتباطا وثيقا بالمذهب البلاغى فى التعبير ، وهو يتقدم معه جنبا الى جنب ، فقدنشآ معا فى العصر اليونانى القديم ، ومعا يعيشان فى أيامنا هذه ، رغم تعارض الاول مع الآخر . وقد كانت الثورات على النظرية المنطقية في اللغة نادرة جدا ، ولم يكن لها نتائج ذات بال ، شأنها شأن الثورات التى قامت فى وجه البلاغة .

وظل الأمر على هذا المنوال حتى العهد الرومانطيقى ، فاصبحنا نرى لدى بعض المفكرين او فى بعض المراكز المصطفاة ، شعورا قويا بما تمتاز به طبيعة اللغة من قوة خيالية او مجازية ، وبما هنالك من روابط تجعل اللغة اوثق بالشعر منها بالمنطق .

على أن كثيرا من خيرة هؤلاء المفكرين ممن ظلوا يرون فى الفن رأيا خارجا عن الفن « كالمذهب المفهومى او المذهب الاخلاقى او مذهب اللذة » ظلوا كذلك ينفرون نفورا واضحا من **التوحيد بين اللغة والشعر** . وفي رأينا ان هذا التوحيد محترم وسهل معا ، ما دمنا فهمنا الفن على أنه حدس ، وفهمنا الحدس على أنه تعبير ، ووحدنا بذلك ، ضمنا ، بين التعبير واللغة ، اذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع . فما قصرنا تحكميا على ما يدعى باللغة الملفوظة ، ولا حذفنا منها ، تحكيما عنصر النبرة والاشارة ، واذا فهمناها بكامل قوتها ، اى اذا فهمناها فى واقعها ، من حيث هى فعل الكلام نفسه ، فما خلطنا بينها وبين مجردات النحو والمفردات . ولاظننا ـ يا للحماقة ـ أن الانسان يتحدث وفقا للنحو ووقفا للمفردات . ان الانسان يتحدث فى كل لحظة كما يتحدث الشاعر لانه كالشاعر ، يعبر عن تأثيراته وعواطفه فى هذه الصورة التى يسمونها كلامية او مألوفة ، والتى لا تفصلها اية

(٢٦) المجمل فى فلسفة الفن ص ٦٦

قوة عن سائر الصور التي يسمونها نثرية ،او نثرية شعرية ، أو قصصية ، أو ملحمية او حوارية درامية ، أو غنائية أو موسيقية وما الى ذلك . ولئن كان لا يسيء الانسان أن يعد كالشاعر (وهو في الحق كذلك ، لكونه انسانا) فما ينبغي ان يسيء الشاعر أن يجمع الى عامة الناس ، فان هذا الجمع يفسر لنا لم كان للشعر الراقي سلطان عظيم على كافة النفوس الانسانية ، فلو كان للشعر لغة خاصة ، لو كان « لغة الآلهة » لما استطاع البشر ان يفهموه لئن كان الشعر يسمو بالبشر ، فانه لا يسمو بهم فوق ذواتهم ، بل داخل ذواتهم : وهكذا نرى الديمقراطية الحقة والارستقراطية الحقة ، في هذه الحالة ايضا تلتقيان: فيلتقي الفن باللغة ، وتلتقي فلسفة الفن بفسلفة اللغة حتى ليمكن ان تعرف كل منهما بالاخرى ،اى أن تعدا شيئا واحدا ... وان هذا التوحيد بين الشيئين يعود على الدراسات الفنية والشعرية بفائدة عظيمة ، فيخلصها من رواسب النظريات المفهومية والاخلاقية ، ونظريات اللذة التى لا تزال تلاحظ بوفرة عظيمة في النقد الادبي والنقد الفني. كما انه يعود بفائدة عظيمة على الدراسات اللغوية التي يحسن ان نخلصها من المناهج الفسيولوجية والنفسية الفسيولوجية التى تجرى الآن مجرى المودة ، وان نحررها من نظرية الاصل الاصطلاحي هذه النظرية التى ما تفك تتجدد، والتى تستتبع وراءها المزاوجات الغيبية بين الصورة والاشارة ، لان اللغة لا تفهم على انها اشارة ، بل على انها صورة اشارة . اى على انها اشارة للصورة ذاتها، وبالتالى صورة ذات لون موسيقي وغناء . ان الصورة هي نتاج عفوى للخيال ، لان الاشارة التى يتفاهم بها الانسان مع الانسان ، تفترض مقدما وجود الصورة وبالتالى وجود اللغة (٢٧) .

هذا العرض الممتع الذى عرضه علينا كروتشه للنظرة المنطقية للغة ، وما ترتب عليها من آثار في المذاهب البلاغية والنقدية جدير بأن يلقى الضوء على كثير مما التبس على أذهان الدارسين حين يفرقون بين لغة الخيال ولغة المنطق ، وحين يفصلون بين اللغة والشعر ، وحين يميزون بين اللغة العارية واللغة المزخرفة وحين يزاوجون بين الصورة والاشارة ، وكلها تقسيمات خطرة تعود على النقد الادبى والبلاغة بالضرر البالغ ، وتباعد بين الدارسين وبين الفهم الصحيح لطبيعة اللغة الادب .

ولما كانت هذه الافكار وثيقة الصلة بدراساتنا البلاغية ومنهج العرب القدماء في درس البلاغة ، وفى تصورهم للغة ، فقد حرصنا كل الحرص على ان نثبت هنا ما قاله كروتشه كاملا حتى ينتبه مؤرخو البلاغة الى ما ينهض من مناهج البلاغة على مبدأ سليم ، وما لا ينهض منها الا على ضيق في النظرة وفساد في الحكم .

الشكل والمضمون ووظيفة الادب

تؤمن المدارس المثالية في الادب بأن الاثر الادبي ــ أيا كان نوعه ــ انما يصدر عن تجربة خيالية او حدسية تلتمس لذاتها ولا تهدف لغاية من ورائها ، اللهم الا ما في التجربة ذاتها من جمال

(٢٧) المرجع السابق من ص ٦٦ ــ ص ٦٩

او لذة او جدة . وبمعنى آخر وعلى حد قول وولتر باتر ، ليست الغاية فى الاثر الفنى هى ممارسة التجربة بل التجربة ذاتها . وواضح ان اصحاب هذه النظرة لا يعنون فى التجربة الشعرية او الادبية الا بقيمتها الجمالية والفنية وحدهما ، والفن عند هؤلاء ليس وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، بقدر ما هو وسيلة لخلق صور واخيلة واحساسات تبعث على اللذة ، وتنشر الجمال للجمال وحده . اما ما فى العمل الفنى من نشاط آخر عقلى او اجتماعى ، او فلسفى او اخلاقى فليس له قيمة فى ذاته ، وفى هذه الحالة لا تتوقف قيمة العمل الفنى على ما فيه من خير خلقى او اجتماعى او فلسفى ، ولا يتوقف معيار صدقه على اى شىء يقع خارج العمل الفنى نفسه .

وواضح أن أصحاب هذه النظرة لمفهوم الاثر الادبى وطبيعته ووظيفته قد تورطوا فى خطأ جوهرى ، فهم بهذا الاتجاه انما **يعزلون مادة الفن عن صورته ، ولا يلقون بالا لكل ما يتضمنه الادب من أمور تتعلق بالمجتمع والاخلاق وسائر مقومات الحياة الفكرية العميقة** ، وما يتصل بالحياة الانسانية من مشاكل هى فى الحقيقة من صميم تفكير الفنان . فاذا كانت مشكلة الفنان الحقيقية هى فى محاولته الربط بين شعوره بفردية الحياة ، وبين حقيقة العالم حواليه ، فان الشاعر الذى يبدو فى وصفه للعالم مفرقا فى الرومانسية اوالمثالية انما هو **شاعر لم يصب الا قسطا ضئيلا** من النجاح ، بل لعله ان يكون فى بعض الاحيان عازفا عن محاولة الخوض فى موضوعات تحتاج الى تقمص مشاعر الآخرين ، والى قدر من قوة الخيال التى بدونها لا تتوافر للادب اصالته وقدراته . أضف الى هذا اننا اذا زعمنا أن ليس فى دولة الفن الا عبادة الجمال ، وأن الجمال وحده هو غاية الغايات فى دولة مستقلة ذات سيادة ، فقد حجزنا الادب عن ممارسة الحياة ، بل قل جعلنا الحياة شيئا ساذجا لا يستحق أن يعاش .

وفى هذا يرد عليهم الناقد الماركسى **جوزيف فريمان** بقوله :

« أن الناقد الليبرالى يطلب منا ان نعتقد اننا حين نكتب عن رياح الخريف وكيف عبثت بشعر فتاة ، أو نكتب عن النهود العطشى ، انما نكتب عن تجربة . فان كتبنا عن ثورة اكتوبر أو مشروع السنوات الخمس أو عن شنق الزنوج فى جنوب الولايات المتحدة او عن اضراب سان فرانسيسكو ، فهذه الموضوعات لا تسمى تجربة » (٢٨) .

وفى هذا ايضا يقول **ستيفن سبندر** : « الشعر ليس مجرد تصوير لحظة احمرار وجنات الحبيبين او رؤية جمال الزهرة او روعة لون الغروب ، بل الشعر هو الذى يمتد سلطانه فيشمل الحياة بأسرها ، بل وما بعد الحياة ، هو ذلك النهر الهائل الذى يروى الحياة كلها ، لا يحتقر الضئيل الغض ، وان كان يتجاهل التافه » (٢٩) .

---

(٢٨) الاشتراكية والادب ص ٥٢ د . لويس عوض

(٢٩) الحياة والشاعر تاليف ريتشاردز ترجمة ترجمة د. مصطفى بدوى ص ١٨

هذاما وقع فيه المثاليون من خطأ أما اليساريون المتطرفون فخطأهم لا يقل فظاعة عن خطأ المتطرفين من اليمينيين. فاذا كان اليمينيون قدعبدوا الجمال والفرد وحدهما، فان اليساريين قد أحلوا عبادة الجماعة محل الفرد ، وعبادة المادة محل الجمال ، وجعلوا ظواهر المجتمع بشتى صوره السياسية والاقتصادية غاية يسخر لخدمتها الانسان ، وليست وسيلة تسخر لخدمة الانسان .

وما نظن أن القضية بحاجة بعد هذا التحليل الى أن ينقسم فيها النقاد الى فئتين ، احداهما تقول بوجوب أن يكون الادب هادفا ، والأخرى تنادى بضرورة أن يترك الأدب حرا من قيود الاهداف ، ذلك أن جذور الخلاف كائنة كما يقول الشاعر الالمانى الحديث « أريك نوساك » فى خلط الناس بين مفهومين متميزين : مفهوم « الانسانى » ومفهوم الاجتماعى ولو أدركنا فى وضوح أن « الاجتماعى » وسيلة تحقيق لنا « الانسانى » لزالت عن المشكلة عقدتها ، لو أدركنا ان كل ظواهر المجتمع بشتى صورها السياسية والاقتصادية انما جاءت ، او جىء بها لتخدم الانسان – والانسان لا يكون الا فردا – لادركنا تبعا لذلك أن الادب لابد أن يكون هو الانسان المتعين المتجسد . فاذا شغل الاديب نفسه باحداث عصره ، فانما يشغلها بها من الجانب الذى يصور لنا وقفة الانسان ازاء هذه الأحداث ، بحيث اذا زالت الاحداث ، واختفت امارتها ، بقيت صورة الانسان حية فى كل عصر وفى شتى الظروف (٣٠).

وما دام التوجه الى الانسان هو غاية الادب الحقيقية فى كل عصر وكل زمان ، بغض النظر عن اتجاهات الأدب ومدارسه ، فان الادب العظيم هو الادب الذى يتامل العالم والانسان وقوانينه، ويتساءل لماذا تجرى الامور على هذا النحو ، والادب الباقى هو الذى يستمد قوته من الحياة والجمال معا ، وهو الذى ينظر بعين يقظة الى المجتمع الانسانى ، فيناصر من هذه المجتمعات ما يتمشى مع القيم الانسانية ، وما يساير الحق والعدل والجمال . فالاديب الحق يحرص على ان يكون لنظم المجتمعات غاية تعكس ما فى نفوس البشر ، وافراد المجتمع الواحد من هموم وآمال وشعور بالحب والحاجة الى التطور والتقدم .

على أن التوجه الى الانسان – أيا كان محتواه الفكرى او الفلسفى او الاجتماعى – لا يرتقى الى مستوى الفن الا اذا توافرت فيه شروط العمل الفنى ، ذلك اننا نعلم ان الذى يحدد القيمة النهائية لاى عمل فنى هو ما يحتوى عليه من قيم فنية وجمالية . ومهما تكن قيمة المضمون واهميته فلا بد له في النهاية ان يتحول الى فن ، والعمل الذى لا يقنعنا فنيا يظل قاصرا عن بلوغ كماله .

---

(٣٠) فلسفة وفن ص ٢٧٥

عبد العزيز الدسوقي

نحو علم جمال عربي

« تصور وتطبيق »

● تمهيد ...

شغلتنى ـ عبر أعوام طويلة من حياتى ـ فكرة ظلت تلح علي الحاحاً متواصلا . وكانت تتجسد بين الحين والحين فى بعض كتاباتى ،بطريقة نظرية او تطبيقية . ولقد فجر فى نفسى هذه الفكرة ، سؤال القيته على نفسى بالمصادفة : لماذا لا يكون لنا « علم جمال عربى » ؟

ووجدتنى ابحث عن تحديد دقيق لهذا المصطلح . وفضلت فى البداية أن اكتفى بالتعريفات العامة المبسطة . فعرفت هذا المصطلح بانه « النسق الفكرى المترابط الذى نبحث من خلاله عملية الابداع الفنى ، ونختبر على ضوئه طبيعة الاعمال الفنية فى اللغة العربية ، وسيكلوجية مبدعها ، والعناصر التى شكلت ذوقه بطريقة فلسفية » .

ويمكن أن نحدد هذا التعريف بعض التحديد ونعتبر علم الجمال العربى : هو « مجموعة الأسس النظرية والقواعد والقوانين التى ندرس على ضوئها التجربة الجمالية .

ونمتحن من خلالها الخبرة الجمالية ، ونتذوق عناصرها الفنية ، وقيمها التصويرية والتعبيرية والتشكيلية » . فعلم الجمال العربي ــ اذن ــ يؤدي الى ادراك ماهية الجمال الفني ، في الأجناس الادبية والفنية المختلفة .

ورحت أفتش عن سبب لاختفاء هذا اللون من ثقافتنا العربية المعاصرة . على الرغم من أنها حفلت بكل الأجناس والانواع الأدبية ، حتى تلك الاجناس الادبية ــ التي قيل ان تراثنا العربي قد خلا منها خلوا تاما ، او على الاقل ، لم يعرفها بصورتها المتطورة الناضجة ــ كالرواية والاقصوصة والمسرحية ، عرفتها ثقافتنا العربية الحديثة ، وطورتها ، واصلتها وانضجتها ، وتحولت الى اجناس ادبية عربية ، لها اصولها الجمالية وتقاليدها الفنية .

فلماذا خلت ثقافتنا العربية الحديثة من هذا العلم ، مع انه ضارب بجذوره في حضارتنا العربية ، وتراثنا العربي ؟

من الممكن ان نؤجل الاجابة على هذا السؤال ، حتى نتعرف على بذور هذا العلم وجذوره المتأصلة في تراثنا العربي القديم .

● تاريخ وموازنة ...

ولكي تتضح في اذهاننا الصورة كاملة ، نشير الى نشأة علم الجمال وكيف انتقل الى الحضارة الاوربية وكيف تطور في الثقافة الغربية ... وبدون الدخول في تفصيلات ، نحب أن نقدم عرضا سريعا بين يدي القارىء لنحدد له طبيعة هذا العلم ونشأته ومساره في الحضارات القديمة والحديثة .

نشأ هذا العلم نشأة طبيعية في حضن الثقافة اليونانية القديمة ، وكان طبيعيا أن يكون فرعا من فروع الفلسفة . وقد اهتم به **سقراط وافلاطون وأرسطو** ، وبحثوا في ماهيته ووضعوا له الحدود والتقسيمات . وتشير الكتب التي اهتمت بفلسفة الفن وعلم الجمال الى بذور هذا العلم في المحاورة التي جرت بين **سقراط** وتلميذه « **هبياس** » عندما سأل سقراط تلميذه .

ــ ماذا عسى ان يكون الجمال ؟

ــ وأجاب (هبياس) أستاذه ، بأن راح يعدد له بعض الاشياء الجميلة .

فلم يجد سقراط بدا من أن يلفت نظر تلميذه الى انه لم يكن يسأل عن « الجزئيات » التي تنطبق عليها صفة الجمال . وانما قصد من وراء سؤاله : معرفة ماهية ذلك (المدرك) الكلي الذي نسميه باسم (الجمال) . فليس من شأن فلسفة الجمال أن تبحث في احصاء أنواع الجمال ، وانما تنحصر مهمتها في تعريف ماهية الجميل » (١) .

---

(١) الدكتور زكريا ابراهيم : فلسفة الفن في الفكر المعاصر ص ٦ (مكتبة مصر سنة ١٩٦٦) .

ويحدثنا **الدكتور زكريا ابراهيم** فى كتـابه« فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » أن هذا المفهوم الافلاطونى الذى اشرنا اليه فى المحاورة السابقة ،ظل كما هو فى الفكر الاوربى الحديث ، وبخاصة عند هؤلاء الفلاسفة المثاليين فهو « بعينه فهم **هيجل** فى القرن التاسع عشر لمهمة (علم الجمال). ففى كتابه (دروس فى علم الجمال) ، أكد : انه لابد من ان نتخذ نقطة انطلاقنا من (الجمـال) بوصفه (فكرة) أو حقيقة كلية لاننا بذلـك ،وبذلك فقط نستطيع أن نتجنب الوقوع فى الكثير مـن المآزق التى تسببها لنا كثـرة المواضـيع الجميلة . او تعدد مظاهر الجمال فى الطبيعة والفن على السواء » (٢) .

ثم تطور هذا العلم بعد ذلك فى الثقافـة الاوربية تطورا كبيرا ، وبخاصة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، على أيدى الفلاسفة والمفكرين ،وتنوعت اتجاهاته ومدارسه وتصوراته حسب فلسفة . كل فيلسوف من فلاسفة هذين القرنين . ويبدو ان ازدهار هذا العلم فى أوروبا فى هذيـن القرنين يعود الـى ازدهار فلسفاتهم وتطورهـا الكبير ، وكان مـن الطبيعى ان يهتم الفلاسفـة بفلسفة الفن وعلم الجمال ، لانهما من العناصر التى تدخل فى مجـالات بحوثهم واهتماماتهم . وكان اهتمامهم بدراسة الظاهرة الجمالية والنفاذ الى باطن العمل الفنى لا يعنى وضع معايير للجمال يطيعها منتجو الأعمال الفنية ، بل كان مجـرد دراسة نظرية معرفية .

فعالم الجمال « ليس بمتأمل تنحصر كل مهمته فى الادراك الحسى ، كما انه ليس بفنـان يصدر فى عمله عن الهام فنى ، وانما هو باحـث تتمثل وظيفته فى فهم الظاهرة الجمالية ، والعمل على توضيحهـا فى اذهاننـا ... فليس (علم الجمال) علما معياريا يبين لنا ما ينبغى ان يكون عليه العمل الفنى ، وانما هو علم وصفى يدرس العمل الفنى باعتباره ظاهرة بشرية تدخـل فى صميم النشاط الروحى للموجود البشرى ... وعالم الجمال لا ينصح الفنان بشىء ولا يلزمه بشىء . بل يقتصر على دراسة النشـاط الفنى ،والنفـاذ الـى المعنى الباطنى العميـق للعمـل الفنى . (٣)

ثم اخذت نظره الفلاسفة المحدثين لدراسة علم الجمال تتطور وتأخذ مسـارات جديـدة . فبعضهم اعتبرها مجرد دراسة تجريبية للذوق الانسانى . والبعض الآخر يحولها الى دراسـة لسيكلوجية الابداع الفنى والتذوق الجمالى .والبعض ، مـن الذين يهتمـون بالتفسـيرات الاجتماعية ، ربطوها بالنشـاط الحضـارى ،وغدت دراسة تعنى بالبحث فى العلاقة بين منتج الفن وجمهوره . وقد كانت هذه التحولات ثمرة من ثمار اهتمام الأدباء وغير الفلاسفة ببحـوث علم الجمال . وان كان من الحـق ان نقـرر ان الفلاسفة والمهتمين بالدراسات الفلسفية ظلـوا على اهتمامهم بدراسة علم الجمال ، والاهتمـام بالخبرة الجمالية فى حد ذاتها ، باعتبارها نشاطا انسانيا يؤكد حرية الفرد وقدرته الابداعية .

---

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) المصدر السابق ٧ ـ ٨ (بتصرف)

على ان اهم تحول طرأ على دراسة علم الجمال ، هو ما حدث فى مطلع القرن العشرين ، او فى ربعه الأول على وجه التحديد ، وعلى ايدى مجموعة من الباحثين الألمان من امثال « دسوار » و « أوتيتس » . وغيرهما ، فقد حولوا « علم الجمال » وفلسفة الفن وبحث الظاهرة الجمالية، الى (علم عام للفن) وهجروا بصورة نهائية هذه التسميات السابقة : « علم الجمال » او « الاستطيقا » لتصورهم ان التسميات الاولى ، غير محدده وغير علمية ، وترتبط فى اذهان الناس بالتأمل الفلسفى المجرد . فى حين انهم كما يقول الدكتور (زكريا ابراهيم) « قد ارادو ان يجعلوا من (علم الفن العام) دراسة وصفية تستوعب شتى مظاهر الخبرة الجمالية دون ان تصطبغ بأية صيغة معيارية » (٤) .

وقد كان هدف هذه الدراسة الوقوف على نشأة الظاهرة الفنية وتقويمها « ومعرفة وظائفها البدائية وبيان علاقتها بما عداها من الظواهر الحضارية الاخرى . وقد كتب (أوتيتس) مجلدين ضخمين بعنوان « اسس علم الفن العام » حاول ان يبين ـ فيهما ـ ان الفن لا يمثل ظاهرة نوعية مستقلة ... بل هو واقعة من وقائع الحضارة او الثقافة بمعناها العام ... وليس علم الفن العام مجرد دراسة علمية وصفية ، أو موضوعية للظاهرة الجمالية ، تختفى فيها شتى التأملات الفلسفية حول طبيعة الجمال ، وتنعدم فيها كل الاحكام التقويمية ، بل هو أيضا دراسة بشرية عامة ، تظهرنا على الوظائف الدينية والقومية والنفعية والوجدانية » (٥) .

واذا كان هذا الاتجاه فى دراسة الظاهرة الجمالية قد حاول ان يحولها الى علم تجريبى وضعى فان الفلاسفة ظلوا يعرضون للخبرة الجمالية على ضوء تأملاتهم الميتافيزيقية ، وتأثراتهم العميقة التى انتقلت اليهم من التراث اليونانى . وواجهوا « المشكلة الجمالية فى ضوء فهمهم العام لطبيعة الوجود البشرى ، ولصلة الخبرة الجمالية بما عداها من خبرات بشرية اخرى . ومن هنا فقد ظلت فلسفات الفن فى القرن العشرين متأثرة بالتيارات الفكرية التى ظهرت فى هذا العصر ، مطبوعة بطابع الاتجاه المذهبى لكل فيلسوف من الفلاسفة على حدة . والا فهل يمكننا أن نفهم نظرية **برجسون** فى الفن ، ان لم نكن على علم بمذهبه العام فى (الحدس) ؟ ... وهل يكون فى وسعنا ان نقف على جوهر « (الخبرة الفنية) عند **جون ديوى** ان لم نكن على دراية واسعة بنزعته التجريبية المتطرفة واتجاهه البرجماتى الواضح ؟ ... وهل يتسنى لنا أن ندرك معنى العمل عند (هيدجر) اذا لم نكن على وعى تام ، بنوع اتجاهه الفكرى ، وطريقته (الفنومنولوجية) فى تحليل الظواهر البشرية » (٦)

ومن خلال هذه التيارات والاتجاهات المتعددة فى دراسة الظاهرة الجمالية تغيرت المفهومات التى كانت سائدة قبل القرن العشرين ، على يد مجموعة متنوعة من الفلاسفة ودارسى فلسفة الفن من امثال « **بندتو كروتشه** » و « **جورج سفنتيانا** » و « **ديوى** » و « **آلان** » و « **مالرو** » و « **البيركامى** » و « **ميرلوبونتى** » و « **سارتر** » و « **مارتن هيدجر** » و « **ارنست**

(٥٤ ـ ٥) المصدر السابق (١٠)

(٦) المصدر السابق (١٠ ـ ١١) « بتعرف »

كاسيرر » و « سوزان لانجر » و « هربرت ريد »و « سوريو » و « باير » وغيرهم من الفلاسفة والباحثين الذين تناولهم الدكتور زكريا ابراهيمفى كتابه القيم « فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » .

ولم يكتف هؤلاء الباحثون فى فلسفة الفنفى القرن العشرين باعادة النظر الى المفاهيم التى درج علماء الجمال على استخدامها مثل مفهـوم(التعبير) ومفهوم « الصورة » ومفهوم (الحدس) ومفهوم (الرمزية) ... بل ربطوا علم الجمـالبمباحث اخرى مثل (علم اللغة) و « علم النفس » وغيرهما من العلوم التى تهتم ببحوث الذكـاء ،والعبقرية ، والابداع الفنى . تلك هى الصورة العامة لنشأة علم الجمال وتطوره وتأثيره علـىالفكر الأوربى الحديث ، اعترف انها اثرت تأثيرا كبيرا فى دراساتنا الأدبية والنقد الآدبى ، ولكنهالم تبلور تيارا محددا واضحا من تيارات علـوم الجمال كما حدث فى البلاد الاوروبية .

وان كانت هناك بعض الجهود الفردية التىقامت بترجمة بعض بحوث علم الجمال من اللغات الاوروبية الى اللغة العربية . وجهود خرى قامبها اساتذة فى تأليف بعض البحوث القريبة مـن مباحث علم الجمال ، وان كانت اقرب الى النقدالادبى ومناهج التحليل النفسى منها الى علم الجمال ومن هؤلاء وهؤلاء على سبيل المثـال :**يوسف مراد وامين الخولى والعقاد وزكى نجيب محمود ومحمد خلف الله احمد . ومحمد النويهىومصطفى ناصف وعز الدين اسماعيل وزكـريا ابراهيم وأميرةمطر ومصطفى سويف وفؤاد البهىالسيد وغيرهم** من بعض اساتذة الجامعة الذين قدموا دراسات جامعية فى الابداع الفنى .

ولكن كل هذه الجهود العلمية الصادقـةالمخلصة ، لا تشكل ما يمكن أن نطلق عليه (علم الجمال العربى) وهى فى معظمها دراسات متأثرةتأثرا شـديدا بعلم الجمـال الأوربى وتيـاراته والجاهاته ، ويمكن ان ندرجها فى مجال النقـدالادبى والدراسة الادبية .

ويبقى السؤال قائما : لماذا لا يكون لنا علمجمال عربى ؟ وهل اختفى هذا العلم من ساحتنا الثقافية الحديثة ، لأن رواد الحضارة العربيـةالقدامى لم يلتفتوا اليه ؟ وهذا التساؤل الاخـير لا يمثل الحقيقة ولو رجعنا الى تراثنا العربى ،فسنجد كثيرا من فلاسـفة الاسـلام والمتكلمين والعلماء والأدباء من اجدادنا ، قد عرفوا هـذاالعلم معرفة دقيقة ، وهم الذين نقلوا هذا العلم الى العالم الاوربى القديم ، قبل النهضة الاوربيةالحديثة ، فقد ترجموا كثيرا مـن تراث اليونان الفلسفى والأدبى . وقد تأثروا بهذا التـراث .وهم الذين ترجموا اهم كتابين من كتب «أرسطو» يعتبران اساسا هاما من أسس علم الجمال ، هماكتاب « الخطابة » و « فـن الشعر » ، وهـذا الكتاب الاخير ترجمه ولخصه من فلاسفة الاسلام« **ابو بشرمتى » ويحيى بن عدى و « الكندى » و « الفارابى » و « ابن سينا » و « ابن رشد »** ،ولا شك ان هؤلاء المفكرين والفلاسفة ، قد عرفوا افكار الفلاسفة والشعراء والخطباء اليونـان ،ووقفوا على كثير من اتجاهاتهم الأدبية والعلمية . وكان يمكن ان يفيدوا فوائد كبرى فى مجال علمالجمال والنقد الادبى . ولكن اهتماماتهم كانت تتجه فى المقام الأول الى الفلسفة والمنطق وعلمالكلام . وجاءت اهتماماتهم الادبية والجماليةعلى هامش رسالتهم الاساسية وتبعا لها .

ولكن هذا الا يمنع من ان نجد عند هؤلاءومن تأثر بهم من الكتاب والادباء العرب القدامى بدورا تعتبر اساسا نظريا لعلم الجمال ، أزدهرتعلى ايدى بعض الفلاسفة المسلمين ، وبعض رجال المعتزلة والاشاعرة . وبعض فلاسفة المتصوفين .

وكان هم هؤلاء جميعا الوصول الى الدروةفى التأثير فى الناس واقناعهم بأفكارهم . وكان سبيلهم الى ذلك التأثير والاقناع ، هو الكلمةالواضحة ، او الكلمة الملهمة المؤثرة . ومن هنا جاء اهتمامهم بدراسة عناصر الابداع الفنى فىالكلام ، ووجوه تأثيره والهامه وايحائه . وتحولت نظراتهم فى هذا المجال الى تأصيل فكرى لعلمالجمال .

ويمكن ان نشير على سبيل المثال الى كاتبموسوعى كبير **كابى عثمان الجاحظ** ، وهو من فرقة من فرق المعتزلة ، كيف شغل هذا الكاتبالكبير ببعض الموضوعات التى تعتبر على نحو ما ، من بحوث علم الجمال ، ومن امعان النظر فى كلامهعن هذه الموضوعات نشعر أنه كان يمتلك تصورا فكريا لعملية الابداع الفنى ، فهو يرى مثلا أنالموهبة الفنية هى الأساس فى كل ابداع فنى . وان الكاتب الموهوب يندفع بفطرته الفنية الىابداع اعمال ادبية مكتمله الاداة قادرة على التأثير فى الناس . ومعيار جودة العمل الفنى عندالجاحظ هو هذا التأثير فى نفوس الناس أولا . ثم يأتى بعد ذلك ما فى الكلام من صواب ومنفعة .ونستطيع ان نجد دليلا على هذا الكلام فى تلك النصيحة التى يسديها الى الناشئين من الادباء ،يقول « فاذا اردت ان تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب الى هذا الادب ، فقرضت قصيدة أوحبرت خطبة . أو الفت رسالة ، فاياك ان تدعوك ثقتك بنفسك أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك الىان تنتحله وتدعيه ، ولكن اعرضه على العلماء فى عرض رسائل أو أشعار ، أو خطب ، فان رأيتالاسماع تصغى له ، والعيون تحدج اليه ، ورايت من يطلبه ويستحسنه ، فانتحله . فاذا عاودتأمثال ذلك مرارا ، فوجدت الأسماع عنه منصرفة ، والقلوب لاهية ، فخذ فى غير هذهالصناعة . واجعل رائدك الذى لايكذبك ، حرصهم عليه او زهدهم فيه » . (٧)

وحول استقباح الجفاف العلمى فى الشعروعدم بناء القصيدة على الافكار وحدها ، يقول الجاحظ : « لو أن شعر صالح بن عبد القدوسكان مفرقا فى أشعار كثيرة ، لصارت تلك الأشعار ارفع مما فى عليه بطبقات ... ولكن القصيدةاذا كانت كلها امثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شىء الىشىء ، لم يكن لذلك عنده موقع » . (٨)

ويمكن ان نجد فى كتابات الجاحظ افكاراكثيرة حول « الوحدة العضوية » وحول « اللفظ والمعنى » وحول « فكرة التأثير » او « الخيال »وغيرها من الأفكار التى تعتبر من مباحث علم الجمال .

---

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ٢٠٣ (تحقيقعبد السلام هارون)

(٨) المصدر السابق ٢٠٦

فحـول اللفظ والمعنى يقـول « والمعانىمطروحة فى الطريـق يعرفهـا العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى. وانما الشأن فى اقامةالوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعرصياغـة ، وضرب مـن النسج . وجنس مـن التصوير » ، (٩) ، فالجاحظ فى هذه العباراتيتحدث كعالم من علماء الجمال الفاقهين الذيـن يرون ان العمل الادبى لا يكتمل الا من خلال البناءالفنى والموهبة التى تلتقط المعانى المطروحـة فى الطريق فتصوغها وتنسجها فى كلمات وتعبيراتشفافة ، تبرز جمالها وتزيد فى تأثيرها. ولا اعتقد ان الجاحظ كان يهدف من وراء هـذه الأفكاروامثالها الى تفضيل اللفظ على المعنى : كما ذهب الى ذلك كثير من دارسينا ، ولكنه كان يؤكد تلكالفكرة الجمالية التى ترى أننا لا نستطيع فى مجال الابداع الفنى ، ان نفصل اللفظ عن المعنى ، أونفصل المعنى عن اللفظ ، فهما مقترنان ممتزجان، ولعل هذه الفكرة هى التى الهمت ـ فيما بعد ـ**عبد القاهر الجرجانى** فى نظريته عـن « النظم » التى تعتبر بكل المعايير من مباحث علم الجمال ،وهى تلامس كثيرا مـن افكار علمـاء الجمـال المحدثـين ، والذيـن يعاودون النظر فى كتابى« اسرار البلاغة» و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر يتأكدون من صحة كلامى هذا .

ويمكن ان نشير الى حكيم آخر من حكماءالمعتزله هو **بشر بن المعتمر** ، وقد كانت له نظرات فى علم الجمال والنقد الادبى . وصحيفته التىسميت باسمه تحمل تلك الأفكـار والنظرات . ويقول فى هـذه الصحيفة حـول قضيـة اللفظوالمعنى « التوعر يسلمك الى التعقيد . والتعقيد هو الذى يستهلك معانيـك ، ويشين الفاظك ،ومن اراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريمـا فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (١٠).

ويحدثنا عن مناسبة المعانى للالفاظ بقولهلابد « أن يكون لفظك رشيقا عذبا فخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ،اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، والمعنى ليسيشرف بأن يكون من معانى الخاصـة ، وكذلـك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، انمـامدار الأمر على الصواب واحراز المنفعة معموافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال » (١١) .

وهناك كثيرون مـن الفلاسـفة والادبـاءوالباحثين العـرب القدامى يمكـن ان نستشهد بأقوالهم في هـذا المجال مـن امثـال (**الآمدى**)و (**قدامة بن جعفر**) و (**ابن طباطبا العلـوى**) و (**ابن رشد**) و (**ابن سينـا**) و (**الكنـدى**)و (**الفارابى**) . ولكن المجال لا يتسـع لهـذا .

---

(٩) (الجاحظ : الحيوان ج ٢) ١٣١ ـ ١٣٢)

(١٠) نقلا عن البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣٨ ـ ١٣٩

(١١) (المصدر السابق

وكذلك الامر بالنسبة للمتصوفة .. ولكن لابـدمن ان نقف عند قضيتين هامتين فى هـذا المجال هما :

قضية اعجاز القرآن

وقضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين

فقد ثارت حول القضيـة الاولى قضـاياكثيرة ، والفت مباحـث متعددة . وكان مـن الطبيعى ان يهتم أصحاب هذه القضايا والمؤلفاتبدراسة الظاهرة الجمالية فى التراكيب الادبيـة حتى يتمكنوا من فهم المغزى الأدبى والفنى لاعجازالقرآن الكريم .

وقد الف كثير من علماء الكلام من المعتزلةوالأشاعرة واهل السنة . كتبا تدور حول اعجاز القرآن ، ويعنينا هنا بصفة خاصة كتابان بعنوان« اعجاز القرآن » الاول « **لأبى سليمان الخطابى** » والثانى « **لأبى بكر الباقلانى** » .

ولست اقف عند هذيـن الكتابـين لأعرفرأى الخطابى والباقلانى فى قضية الاعجاز ، ولكن لاتبين موقفهما من فهم الظاهرة الجمالية فى نتاجالادباء . ففيهما أفكار وتصورات فى الابداع الفنى والتشكيل البيانى وروعة التجارب الادبية تحتاجالى تأمل ودراسة ، فالخطابى (مثلا) له مفهوم عام لأجناس الكلام ودرجات جودتها يحدثنا عنهابقوله « ان أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغـةمتباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصـين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل . ومنهـاالجائز المطلق الرسل . وهذه أقسام الفاضل من الكلام ،فالقسم الأول اعلى طبقات الكلام وارفعه، والقسم الثانى أوسطه واقصده . والقسم الثالث أدناه واقربه . فحازت بلاغات القرآن من كـل قسم من هذه الاقسام حصة . وأخذت من كـل نوع من انواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذهالأوصاف نمط من الكـلام يجمـع بين صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهماكالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكاناجتماع الامرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر ـ فضيلة خص بها القرآن » (١٢) .

ويمكن ان نقف عند معنيين هامين فى هذاالكلام للخطابى هما « الجمال » و « الجـلال » واثرهما فى النفس الانسانية ، وهو يعبر عـنالجلال فى الاثر الفنى بالرصانه والجزالة والفخامة والمتانة وعـن الجمـال بالعذوبـة والسهولـةوالسلاسة .

ومما يلفت النظر فى كلام الخطابى حـولالابـداع الفنى : ادراكه العميـق للمعاناة التى يتحملها مبدع العمل الادبى وما يجب ان يتوافرله من ثقافة وبراعـة وقدرة على تحمـل المعاناة وبصر بمواضع التراكيب ونظمها . وهو يحدثناعن كـل ذلك بقوله « وأمـر معاناة المعانى التى

(١٢) اعجاز القرآن ـ للباقلاني . تحقيق السيد صقرص ١٦

تحملها الالفاظ شديد ، بالغ الشدة ، لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام وبنات الأفكار ... وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحذق فيها اكثر ، لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى . وبه يتصل أخذ الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم لـه صـورة فى النفس يتشـكل بهـا البيان » (١٣) .

وهذا كلام لا يختلف كثيرا عن نظرات بعض علماء الجمال فى الحضارة الاوربية الحديثة ، عن علاقة المعانى بالالفاظ التى تحملها ودور الثقافة . والتقاليد الفنية الخاصة بنظم الكلام .

أما ((**الباقلانى**)) فهو عالم من اهم علمـاء الأشاعرة ، وكتابه (اعجـاز القرآن) مـن ادق الكتب العلمية المبكرة التى تناولت بالتفصيل هذه القضية ، ولكنه تناول الى جانب ذلك ، كثيرا من قضايا النقد وعلم الجمال . وتعرض فى معظم صفحات كتابه لدراسة الخبرة الجماليه عنـد الشعراء والادباء ، والموازنة بينهما وبين اساليب القرآن الكريم فى التصوير والتعبير ، وطريقته فى عملية النظم ، وقد تحول الكتاب الى معرض أنيق للتذوق الشعرى العميق .

ويمتاز الباقلانى عن غيره من المتكلمين ومن كثير من اللغويين والكتاب ، بأنه كان يختار نصا كاملا يجرى عليه تجاربه فى التذوق الفنى ، فوقف عند « معلقة امرىء القيس » . واستشهد بأشعار كثيرة تناولها فى دراسته ووازن بينها وبين البلاغة القرآنية .

وفكرته عن اسلوب النظم فى الكلام جيدة ، وآراؤه حول اللفظ والمعنى ، وعملية الابـداع الشعرى ، سليمة مستقيمة تدل على ذوق مرهف وحس فنى عميق . وهو يميز تمييزا كبيرا بين ذوق العلماء ، وذوق الأدباء والشعراء فى عمليـة التقويم الشعرى والتذوق الفنى . وله تصور فنى متكامـل لطبيعـة التعبير الأدبى والفنى .

فالكلام عنده موضوع للابانة عن الأغراض التى فى النفوس . واذا كان كذلك وجب ان يتخير من اللفظ ما كان اقرب الى الدلالة على المراد ، وواضح فى الابانه عن المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ، ولا مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته فى اللفظ عن الافهام ، أو يمتنع لعويص معناه عـن الابانة . ويجـب ان يتنكب ما كان عامى اللفظ مبتذل العبارة ، ركيك المعنى ، سفسافى الوضـع ، مجتلب التأسيس ، على غير اصل ممهد ولا طريق موطد » (١٤) .

يبقى أن اشير فى نهاية هذا العرض السريع لبذور علم الجمال وجذوره فى تراثنا العربى ، الى قضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين . وهى قضية هامة ومتشعبة تحتاج وحدها الى دراسة متخصصه وتكاد تكون نظرية مستقله فى علم الجمال ورائد هذه النظرية بلا مراء ، هـو الشيخ الاكبر ((**محيى الدين بن عربى**)) . فقـد اهتدى هذا الفيلسوف المتصوف ، الـى نظـام رمزى كامل ، طبقه على اللغة والفكر ووصل من خلاله الى كشوف فكرية وفنية كبيرة .

---

(١٣) المصدر السابق ١٧

(١٤) المصدر السابق ١٧٨ .

وقد درس (ابن عربى) هذا النظام الرمزىفى موسوعته الكبرى « الفتوحات المكية » . درسه فى السفر الأول تحت عنوان « علم الحروف »وعاد اليه فى السفر الثانى بالبحث والدرس . ولست بصدد تقويم هذا النظام الرمزى الذىاهتدى اليه ابن عربى ، فهذا الأمر محتاج الى فترة طويلة للتفرغ الكامل لهذا النسق المفصلالذى استغرق مئات الصفحات فى الفتوحات المكية ، ولكن الذى لاشك فيه ان قدرة ابن عربىعلى التذوق الفنى والادراك الجمالى ، تسلكه فى زمرة علماء الجمال ، وان كان الرجل لم يكنيقصد الى هذا ولا يسره ان ينال هذا اللقب ، فقد كان همه الأكبر الوصول من خلال هذا كلهالى علم الباطن ، ليكون طريقه الى الروح الأعظم ، وسر الاسرار ، الذى كان الهدف من كل مكابداتهالصوفية ، واشواقه الروحية .

● ● ●

اذن لماذا اهملنا كل هذا التراث الرائع ..؟ولماذا لم تتطور هذه النظرات العميقة فى دراسة الخبرة الجمالية ، كما تطورت فى الحضاراتالمختلفة ؟

ولماذا بقينا بلا علم جمال عربى حتى الآن ؟

ولا أريد أن اغامر بالرد على هذا السؤال. فليس يكفى ان نقول ان انقطاع تيار الريادة فى مجال الفلسفة الاسلامية والعربية كان وراء هذاالأمر . فلاشك ان عندنا مجموعة من المفكرين والدارسين للفلسفة الاسلامية والمهتمين بالأدبوالتدوق الجمالى والفنى ، كان من الممكن أن يقوموا بتأصيل نظرى حديث لعلم الجمال العربىفى ساحتنا الثقافية .

وعلى كل حال فليس المهم أن نجيب علىالتساؤلات التى تثيرها ، ولكن الأهم ان نفجر المزيد من هذه التساؤلات ، ثم نترك الاجابة عليهاللتطورات الفكرية والروحية واحداث الحياة وتقلباتها ، ومرور الايام وكر الليالى . فهى كفيلةبأن تحل أعقد المشكلات ، وتجيب على أصعب الاسئلة .

وقد نجيب على السؤال بطريقة اخرى ،وذلك بأن نقوم بمحاولات فى سبيل الوصول الى علم جمال عربى . وقد قمت ـ على امتدادعشرين عاما ـ بمحاولتين ، او بمعنى أدق بمغامرتين فى هذا السبيل لا مفر من أن أعرضلهما مادمت أتحدث عن خلو ساحتنا الثقافية من « علم جمال عربى » .

واتمنى ان نثير حول هاتين المحاولتين مزيدامن الجدل والحوار والنقد والتفنيد حتى نبلور هذه الأفكار ونحدد المصطلحات ، مادمنا نسعىالى « علم جمال عربى » .

محاولتان :

المحاولة الاولى :

اما المحاولة الاولى فقد عرضت لى واناأقوم بدراسة تفصيلية فى شعرنا المعاصر سنة ١٩٥٨ وكنت اقف عند شعر الرائد الكبير **محمودحسن اسماعيل** طويلا ، اعيش بين‌صوره واتذوق

تجاربه الفنية ، واحلل طرائفه التعبيرية وقيمهالجمالية . ولكن كنت احس فى شعر محمودحسن اسماعيل بشيء آخر غير كل هـذا ، شيء يغمرنفسي ، ويهز وجداني ، ويحرك عقلي . واحيانا كنت اسمع همسه واضحا فى اذنى . . ما طبيعةهذا الشيء ؟ هل هى القدرة اللغوية الفائقة عند الشاعر ؟ هل هى الطاقة الشعرية ؟ هل هـوقاموس محمود حسن اسماعيل المتفرد ؟ هـل هى طريقته فى تشكيل صوره الفنية ، وتراكيبـهوتعبيراته ؟ هل هو مزيج من كل هذا . .)

ووجدتني ابحث عن تصور جديد لاكتشافهذا الشيء . وبعد معاشرة طويلة لمعظم شعر محمود حسن اسماعيل ، وجدتني اهتف : حقالقد وصل هذا الفنان الكبير الى درجة « الوجد الشعرى» وسحرني رنين هاتينالكلمتين ،وفرحتبهما فرحا كبيرا فقد مهدا لى الطريق الى المحاولة الاولى . واكتشفت ان الفنان الموهوب لابد انيصل في مرحلة من مراحل حياته الى ذروةالنضج الفنى ، وكما يصل المتصوفة والسالكون اليالوجد الصوفى يصل الفنان الى شيء قريب من هذا ، لابد من الكشف عنه وتحديده بطريقةموضوعية .

الوجـد الفـني

وقررت ان اطلق على هـذا الشيء اسـم« الوجد الفنى » .

واعترف ان فكرة (الوجد الفنى) هذه ،تراءتلى فى الاصل خاطرة صوفية عابرة ، فى لحظة من تلك اللحظات المرهفة النافذة العميقة التيتشبه الاشراق الصوفى ، وقـد اقتنصت تلك الومضه الحالمة ومزجتها بفلسفة الجمال ،ومصطلحات النقد الادبى ، واستيقظ طموحى العارم وتذكرت خلو ساحتنا الثقافية من علمجمال عربى ، فحاولت أن اجعل من تلك الومضة العابرة لبنة من لبنات هذا العلم . فاستعرتمصطلح «الوجد» من قاموس المتصوفةوالسالكين واسندته الى التجربه الفنية فصار « وجـدافنيا » . ورحت ادرس على ضوء هذا الاكتشاف « جهاز الابداع الفنى » وطبيعته وطريقته فيابداع التجربة الفنية وادوات الابداع التى يعمل من خلالها هذا الجهاز . وجعلت اتساءل هـلاللغة وما يحيط بها من اشعاعات وظلال ، وما تفجره من شحنات وصور ورموز ، هى ادواتهذا الجهاز ؟ وكيف يعمل هذا الجهاز من خلال هذه الادوات والرموز ؟

وما علاقة كل هذا بالعالم الخارجى ، اوعالم الفنان الباطنى ؟

ثم عكفت ـ بعد ذلك ـ على وضع بعـضالاسس الموضوعية لهذا (الوجد الفنى) منخلال دراسة التجربة الفنية في مراحلها المختلفة حـتىتصل الى ذروة التوهج والاشراق ونقلت معنى كلمة « الوجد » من قاموس الفلاسفة الالهيينوالمتصوفة وحولته الى مصطلح جمالى يصور ارتباط مبدع الفن بتجربته الفنية ارتباطا عضوياحميما متوهجا ، فيه جدة الفن وعمق الشعور ونضج الاداة الفنيه. وحددت السماتوالخصائصالتي تميز الوجد الفنى . ومنها :

التنبه الحاد المصحوب بيقظة الحسورهافةالشعور وعمق الاحساس بالحياة .

جيشان النفس واحتدام العاطفة ،والروحالانسانى العميق الذى يحتضن الوجود بما فيـه من كائنات .

غزارة الموهبة ، وثراؤها ،واكمال الاداةالفنية ، مع الاحساس بالدهشة الدائمة مـن مظاهر الوجود ومرائى الطبيعة .

ووضحت ايضا الزوايا المتعددة التى يمكنأن نطل منها على الوجد الفنى والتى يمكن ان يتحول اليها :

فقد يكون معيارا فنيا نختبر من خـــلالهالتجربة الفنية ، وندرس ظروف مبدعها وطبيعته

وقد يتحول الى فلسفة جمالية اذا درسناعلى ضوئه ، تصور الفنان للجمال ، وادراكه للعلاقات والنسب التى تشكل معمار العمـــلالفنى .

وقد يصبح حالة تلم بالفنان ، فتغير نظرتهالفنية ، وتصبغ ادراكه للاشياء ونظرته للعلاقات الانسانية .

وقد يتحول الى سمة من سمات العمـلالفنى ، وخصيصة من خصائصه ، ويكون ادراك تلك السمات والخصائص الجمالية ، منهجانقديايمكن أن نفيد منه ونفسر على ضوئه الاعمـــال الادبية والفنية . على ان هذه التحديداتالصارمةلم تمنعنى من القيام بعمليات متعددة من التذوق الجمالى من خلال منهج « الوجد الفنى » فقمتبدراسة لشعر محمود حسن اسماعيل بعنـوان « الوجد الشعرى عند محمود حسن اسماعيل »... ودرست على ضوئه بعض التجاربالصوفية كاحياء علوم الدين ومشكاة الانوار للغزالى .والرعاية لحقوقالله للمحاسبى والرسالةالقشيرية القشيرى . والفتوحات المكية لمحيى الدين بنعربى .

وقمت بدراسة فكرة الموت على ضوء منهجالوجد الفنى . ومن خلال هذا المنهج تذوقت القصيدة العينية لابن سينا « هبطت اليك مـنالمحل الارفع » . وهى تجربة عميقة تمتزج فيها الرؤية الفكرية بالرؤية الفنية امتزاجا تاما ،حتىليصعب علينا ان نفصل فيها بينالتفكيروالتصوير والتعبير . ولعل ذلك يعود الى ان الشاعر كانقد وصل الى تلك الحالة المتوهجة المشرقة ، التى تلم بمن يصلون الى درجة الوجد الفنى ،فتحولتالفكرة فى وجدانه الى تجربة مشبوبة فى اعماقه ، فخرجت القصيدة الى الوجود على هذا النحـوالمركب الذى تسوده وحدة عضوية ووحـــدة فنية ووحدة شعورية . وقد تراءت لى اشـــياءجديدة فى اثناء الدراسات التطبيقية التى كنت أقوم بها على ضوء نظرية « الوجد الفنى » .

مثلا . وانا ادرس الفتوحات المكية لابنعربى تبين لي انه اصل مجموعة من النظـرات الجمالية . ووضع نسقا متكاملا للمعرفة يتلاءممع افكاره وتصوراته ، وتوصل الى مجمـوعة من الرموز الفنية فى الباب الذى سماه « عـلمالحروف او « علم الاسرار » . واشاع مجموعة من المصطلحات الفنية واللغوية من الممكن انتكوننواة صلبة لعلم جمال عربى . الى جانب ماتوصل

اليه من رموز واشارات ، واستخدامات للغـة :مكنته من ابداع مجموعة من النصوص الادبية والفنية ، اعتقد انها تثرى نقدنا العربى الحديث،لو صبرنا على فهمها وسبر اغوارها ، واخضعناها للذوق العصرى .

واكتشفت وانا ادرس (مشكاة الأنوار)للامام ابى حامد الغزالى ، انه توصل الى النور الباطنى والظاهرى وربط بين الذين يدركون هذه الانوار وبين من يتذوقون الموسيقى ويدركون طبيعة الالحان ويتذوقون الاغانى ويميزون بين الاوتار وقال « فانظر الى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس ، وهو نوع احساس وادراك . ويحرم منه بعضهم ، حتى لا تتميز عندهم الالحان الموزونة المتزحفة . وانظر كيف عظمت قوة الذوق فى طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والاغانى والاوتار » .

وقد نشرت بعض هذه الدراسات التطبيقية التى قمت بها . ولفت نظرى بصفة خاصة ما اثاره البعض حول دراسة التراث العربى واستلهامه واستيحائه على ضوء هذا المنهج ، فقد ظن البعض أن هذه حيلة الجأ اليها لاحياء التراث العربى ، ولا ادرى لماذا نحتال لاحياء تراثنا ، وهو واجبنا جميعا . ولكن الحقيقة المجردة ان « الوجد الفنى » معيار نقدى يصلح لدراسة الادب المعاصر والادب القديم على السواء .

فليس طريقا لتلخيص آراء العرب القدامى فى علم الجمال وتصورهم لفلسفته .

وليس منهاجا لاعادة النظر فى مدلول كلمة الوجد عند الصوفية على اختلاف مدارسهم وتصوراتهم .

وليس دعوة تلفيقية لمزج افكار مختلفة من مدارس علم الجمال فى الحضارة الاوربية ،وخلطها بأفكار مشابهة فى تراثنا العربى .

فالوجد الفنى معيار نقدى معاصر استلهم فى البداية التراث العربى ، ثم تحول بعد ذلك الى مصطلح جديد له اسسه وخصائصه وسماته التى حددتها فى هذه الدراسة .

وهذا فى نظرى ،هو المعنى الحقيقى لاستلهام التراث ، فنحن نعمل عقولنا وذوقنا المعاصر فى خامات مشعة عبقة من تراثنا ، لنحولها بعد ذلك الى شىء جديد ، له غزارة الايحاء وعبق التراث فى اطار المنهج العلمى الحديث .

ليس معنى ذلك اننى لم استفد من نظرات العرب القدامى فى علم الجمال وتصورهم للعملية النقدية ، او لم استفد من معانى الوجد عند الصوفية ، او من افكارهم فى الذوق والجمال والخير والحب والوهم والخيال ، والابداع الفنى بل الصحيح ان هذه الاشياء كلها ، كانت الخميرة الاساسية لهذه الفكرة ، اختلطت بهذه العناصر كلها وتغلغلت فيها فانتجت هذا الذى نسميه « الوجد الفنى » .

واعتقد اننى افدت كثيرا من تطبيق (معيار الوجد الفنى) على الاعمال الفنية والادبية للمتصوفة والسالكين ، لان اصحاب تلك التجارب وصلوا فى معظم الاحيان الى حالة من الوجد

الصوفي ، وهي وقدة روحية مشحونة بالالوان والظلال تهز النفس الانسانية وتفجر كل طاقات الابداع ، ومن ثم تكون الاعمال التي يبدعونها ،على هذا المستوى المشحون المتوتر المتوقد ؛ وانتهيت من هذا الى ان كل أديب لا يصل الى تلك الوقدة الروحية والشعورية وهو يبدع عمله الفنى ، لا يكون أديبا بالمعنى الحقيقى . قد ينتج فى غير هذه الحالة أعمالا كثيرة ، ولكنها تظل اعمالا فاترة ، لا تهز الوجدان ، ولاتلذ العقل ، ولا تسر القلب ، ولا تثير الشعور ، ولا تلهب الخيال ، ولا توصلنا الى هذه الغبطة الفكرية والجذل الروحى ، الذى نشعر به عادة بعد أن نقرأ الاعمال الادبية الشامخة .

وتبين لى ــ بعد أن وصلت الى هذا الحد ــ ان « الوجد الفنى » معيار خاص لا يصلح لسبر أغوار كل التجارب الادبية . فهو يهمل التجارب المتوسطة والجيدة ، وينأى عن التجارب العادية . ويسقط من حسابه كثيرا من الادباء والفنانين الذين لم يصلوا الى تلك الحالة من التوهج والاشراق التى تصاحب عادة من يصلون الى درجة الوجد الفنى . وبذلك يكون معيارا خاصا بالقمم والشوامخ والاعمال الادبية والفنية الكبرى .

على اية حال ليس عيبا ان يكون الوجد الفنى معيارا خاصا . وليس عيبا ان يصل الفنان ومبدع الأدب الى تلك الحالة ، من التوهج والاشراق التى نسميها وجدا فنيا ؛ لانهما عندما يصلان الى تلك المرحلة ، يبدعان أعمالا فنية رفيعة ، تمتزج فيها التجربة الشعورية بادوات الفنان والأديب التعبيرية والتصويرية والتشكيلية وتنصهر فى باطنهما التجربة اللغوية بالتجربة الشعورية ، ويخرج العمل الفني موجدا ،تتلالأ في داخله رؤية الفنان ممتزجة بادواته اللغوية ، وصوره التعبيرية وتدفقه الشعورى .

ولكن هذه الخصوصية فى المعيار تستلزم خصوصية فيمن يستخدمه ... واذا كان مبدع الفن قد وصل الى حالة الوجد الفنى ، فلابد ان يكون الناقد الذى يتناول عمله ، قد وصل هو الآخر الى تلك الحالة من التوهج والاشراق ، أى قد تربع على قمة الوجد الفنى .

ولا شك ان تذوق الجمال فى الحروف والاصوات والانغام والاضواء والاشكال ، يعطى الناقد رصيدا من التجارب المتعددة والدربة والخبرة في استكناه اسرار الجمال فى العلاقات بين الاشكال وبمضى الزمن والنضج واكتمال الاداة ، والامعان فى دراسة الخبرة الجمالية ؛ تتحول هذه الخبرة عند الناقد الى « حدس فنى » وبذلك يصل الى درجة التوهج والاشراق والوجد الفنى ؛ التى يصل اليها مبدع العمل الادبى والفنى . وبذلك يتساوى ــ حيال معيار الوجد الفنى ــ الفنان المبدع مع عالم الجمال والناقد الذى يتناول الاعمال الفنية ، ويصبح الناقد والدارس للخبرة الجمالية فنانا مبدعا .لا فرق بينه وبين الفنان المبدع الا ان الاول يأخذ تجاربه من الحياة مباشرة . بينما يأخذ الفنان الناقد تجاربه الابداعيه من الاعمال الفنية . على اننى اعترف ان معيار (الوجد الفنى) لم يستكمل حظه من الدراسة ، ولم يتحدد بصورة نهائية . ولعل ذلك يرجع الى اننى عنيت فى المقام الاول بالدراسات التطبيقية على ضوء الاصول النظرية القليلة التى اهتديت اليها . ولم اشأ أن انفرغ للتاصيل النظرى فى بداية الأمر ،وتركت

الباب مفتوحا امام الجديد الذى اكتشفه علىضوء الخبرة الجمالية ومن خلال تذوق الاعمال الادبية . وظل الأمر على هـذا النحـو حـتىاستغرقتنى المشاغل ، وانصرفت نهـائيا عـن « معيار الوجد الفنى » ولم أعد أتناوله فى مجالالتنظير ، أو فى مجال الدراسات التطبيقية .

ولكن يبدو أن فكرة « علم الجمال العربى »ظلت تقبع في اللاشعور ، ولم تفارقنى ابدا . حتى اتيح لها ان تخرج فى شكل جديد يختـلفعن « معيار الوجـد الفـنى » وكان ذلك نواة المحاولة الثانية .

المحاولة الثانية :

منهج الرؤية الفنية

ولهذه المحاولة قصة ، فقد اكتشفت أننافى مجال الدراسة الأدبية لاعلام شعرنا العربى لا نزال نجتر الأفكار التى اهتدى اليها الرواد فىمطلع هذا القرن والعقود الثلاثة التى تلت ذلك ، وقد نستثنى بعض الدراسات القليلة التى حاولتأن تضيف جديدا ، أو تقدم شيئا مبتكرا ، مع ان الدراسة الادبية تطورت فى العالم تطورا كبيرا،واحتدمت السـاحة الثقـافية فى أوربا وامريكا بالنظريات النقدية الكثيرة والحديثة .

ثم رأيت ما طغى على معظم دراساتناالادبيةمن وقوع فيبراثن المناهج الاجتماعيةوالاقتصادية والسياسية ، فوقعت فى خلل كبير أصابالتذوقالجمالى بنكسة كبرى . وتحولت معظم دراساتنا الأدبية وخاصة فى الثلث الثانى من القرنالعشرينالى وثائق سياسية ونظـرات فى الاجتـماع والاقتصاد .

وعن لى ان اقف مع القلة القليلة منالاساتذةالجامعيين الذين لا يزالون يولون القيم الجمالية عناية كبرى . ويحاولون اعادة الدراسة الادبيةالى طبيعتها الأصيلة .

وفكرت فى القيام بعمل ايجابى يجمع بينأمرين . **الامر الاول** : اعادة دراسة اعلام شعرنا العربى من جديد ، حتى هؤلاء الذين درسـواعلى أيدى الرواد وأعلام النقد العربى الحديث . فى محاولة لتقديمهم للأجيال الجديدة من خـلالتصور جديد يستلهم ما جد من تطورات عـلى مناهج النقد والدراسة الادبية فى العالم .

والامر الثانى : ان اصطنع منهجا جـديدايتيح لى ان انفذ من خلاله الى جوهر التجـربة الفنية لهؤلاء الشعراء ، وان اقدم شيئا جديدا ،يحمل بعض النظرات المبتكرة .

واخترت ان أبدأ دراساتى هذه ، بتقـديمشاعر من أكبر شعراء العربية على امتدادعصورها هو « **ابو الطيب المتنبى** » وكان السبب فى اختيارهذا الشاعر ، وتقديمه فى طليعة هذه الدراسات لونا من المعاظلة ، ونوعا من التحدى ، فهـذاالشاعر بالذات حظى بدراسات كثيرة والفت حوله مئات الكتب فى القديم والحديث . والاقبالعلى دراسته من جديد ، يؤكد للأجيال الجديدة، ان طبيعة الدراسات الانسانية تختلف عن طبيعةالعلوم ومناهجها ، وان احدا لا يستطيع انيقول فيها الراى الاخير ، وان التجارب الفنية والادبيةمهما قيل حولها ، فى حاجة دائمة الى من يقول

فيها رأيا جديدا . واهتديت ـ بعد معاناه ـ الى منهج متميز ، تناولت على ضوئه المتنبى . وسميته « منهج الرؤية الفنية » . وقمت بتحديد هذا المنهج تحديدا نظريا ، وفصلت قواعده واسسه العلمية . وان كنت في دراستي لعالم المتنبى الشعرى لم اشأ أن أثقله بتلك التفصيلات النظرية ، وهذه الاسس الفكرية (١٥)

واكتفيت بتقديم بعض الاصول النظرية العامة في مقدمة المقالة الاولى من هذه المقالات التى نشرتها عن المتنبى ودخلت فيها عالمه من خلال رؤية فنية .

وكنت انشر بين الحين والحين ـ وفى اثناء الدراسة ، بعض ملامح نظرية لهذا المنهج .

معالم منهج الرؤية الفنية

ويمكن فى هذا المجال ان أتناول بصورة عامة معالم منهج الرؤية الفنية ، واحدد سماته المميزة ، واشير الى بعض ادواته وبعض مصطلحاته الجمالية .

ولا اريد أن اضع له تعريفا جامعا مانعا منذ الوهلة الاولى ، ولنقتصر على وصفه حتى نتيح له النمو بعد ذلك . وهو على أية حال « منهج ينظر الى العمل الادبى من الناحية الفنية والادبية . وليس مقيدا بصورة سابقة ولا بنمط فكرى معين ، أو مذهب سياسى او اقتصادى أو عقيدة من العقائد ، ولكنه يلج مباشرة الى داخل العمل الادبى مجردا من كل الافكار السابقة ثم يحاكم العمل من خلال مقاييسه الجمالية والفنية ، ويصل الى أهدافه ومراميه من خلال معايير فنية بحت .

ولكن ليس معنى ذلك أن هذا المنهج يتنكر للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمبدع العمل الادبى والفنى ، فلا شك ان هذه الظروف تؤثر تأثيرا عميقا بصورة او بأخرى على الاعمال الادبية والفنية ، وتشكل طابعها العام ، وملامحها الاساسية ، وتميز تقاليدها الجمالية فى عصر عن عصر آخر . ولكن هذا التأثير لا يكون بصورة مباشرة فقد يكون بذرة صغيرة تنمو داخل التجربة الادبية والفنية وتحول مسارها وجهات متعددة ، وقد يكون هذا التحول ملائما لطبيعة هذه الظروف ، وقد يكون على النقيض منها ، وقد يكون مزيجا مركبا من هذين النقيضين ، المهم ان الفنان عندما يجبل تجربته الفنية ، لا يصوغها من جزئيات العالم الخارجى بطريقة مباشرة ، ولكنها تتحول بجزئياتها وعناصرها داخل جهاز ابداعه الفنى هذه التحولات المركبة المعقدة . ثم يزداد تعقيدها بما يحيط بها من عناصر الابداع الاخرى غير المنظورة والتى ترجع الى طاقة الفنان وموهبته .

ومن أجل هذا كان على الناقد الذى يتناول عملا أدبيا أو فنيا ، ان يطرح كل افكاره السابقة، ويدخل مباشرة الى داخل العمل الادبى والفنى يتذوقه ويتعرف على عناصره الجمالية والفكرية، ويعرف طبيعته الفنية وتقاليده الجمالية . ولاشك ان كل عمل فنى له عالم خاص مستقل

---

(١٥) الثقافة ـ مايو سنة ١٩٧٧ وراجع الاعداد ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ من مجلة الثقافة .

كل الاستقلال عن كل الظروف الخارجية ؛ وله معاييره ومقاييسه الخاصة به ، وقد يكتشف الناقد أن جزئيات العمل الادبى والفنى الذى يعيش فى داخله ، قد تشكلت من بعض عناصر العالم الخارجى ، ومن كل عناصره ، وقد يجد فى داخل العمل اصداء واضحة للظروف السياسية والاقتصادية والعقائدية التى أحاطت به . هنا لا يمكن لمنهج الرؤية الفنية ان يتنكر لهذه العناصر التي اكتشفها الناقد من باطن العمل الفني والادبى .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الافكار، ما شاع فى بعض الدراسات الادبية التى تصطنع المناهج الاجتماعية والعقائدية مما يسمى (بالحتمية والجدلية) بين ظروف مبدع العمل الادبى والفنى وبين ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وطبيعة حياته ونزعاته . لأن الذين يقولون بهذه الحتمية ، مقيدون بمعايير أخرى ، تختلف عن معايير العمل الأدبى والفنى ، ثم هم يبدأون دراستهم من خارج النص الادبى والفنى ، فاذا دخلوا الى باطن العمل الفنى ، فلكى يبحثوا فيه عن السياسة والاقتصاد والاجتماع وأصداء المذاهب والأفكار ، ويقيسوا على ضوئها شعر الشاعر وعمل الأديب وفن الفنان ، ويبحثوا عن مطابقة هذه الاعمال لتلك الظروف الخارجية ، فاذا طابقتها فهى أعمال ادبية صادقة وممتازة ، واذا لم تطابقها فهي في نظرهم أعمال غير صادقة أو ضعيفة أو زائفة . وبذلك تتحول الاعمال الادبية والفنية . عند هؤلاء الى وثائق سياسية وتاريخية واجتماعية وفى بعض الاحيان الى وثائق نفسية .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الافكار ، جذريا عن تصور هؤلاء ، يختلف فى طبيعة عمله ، وفى تصوره وفى ادواته الفنية . فهو ـ كما قلت يبدأ من داخل العمل الادبى والفنى نفسه فهذا العمل الأدبى والفنى فى نظره ، كون مستقل عن عناصره الأولى وجزئياته التى أسهمت في تشكيله ، كون خاص له قوانينه الموضوعية وتقاليده الجمالية الخاصة به . فشعر المتنبى مثلا عالم لغوى جمالى ، مستقل كل الاستقلال عن عناصره الاولى التى شكلته ، وهى ظروف الشاعر السياسية والاجتماعية وتأثره بافكار عصره وعقائد مجتمعه ، هو خلق لغوى مستقل ، ولكن يمور فى داخله كل ما يمور فى الحياة من تيارات ، ولكنه ليس الحياة ذاتها ، وقد نصل من خلال هذا العالم الفنى الى احداث وظروف تطابق احداث حياة الشاعر وظروف نفسه ، وقد نصل الى احداث تناقض الاحداث التى نعرفها عن الشاعر لان الشاعر عندما يشكل تجربته الشعرية تتفاعل وتتحول الى خلق لغوى وعالم فنى مستقل عن جزئياته التى شكلته ، فظروف الشاعر وأحداث حياته ، قد تكون مجرد مثير للتجربة ، وقد تلهمه تلك الظروف والأحداث صورا عكسية . وقد يحور الشاعر فى تلك الاحداث وقد يضيف اليها احداثا من عنده يخترعها اختراعا . وقد يطمس كل الاحداث الخارجية طمسا تاما . ولهذا فالربط الحتمى الساذج بين الظروف الخارجية وبين العمل الفنى ، عمل تأباه طبيعة (منهج الرؤية الفنية) . وهذا هو الفرق الاساسي الذى يميز هذا المنهج عن بقية مناهج الدراسة الادبية التى تهتم بالرؤية الاجتماعية .

(الرؤية الفنية) منهج فنى يهتم بالعمــل الفنى وحده ومن داخله يصل الى كل القيـــم الفكرية والجمالية . وقد تكون هذه القيـم من عالم السياسة او من عالم الاجتماع او من طبيعة النفس البشرية ، المهم ان نتوصل اليها مــن داخل العمل الفنى وفى اطاره ، وبهذا يختـلف منهج الرؤية الفنية ايضا عن مناهج الدراســة الادبية ، التي لا تهتم الا بالنواحي الجمالية او تصطنع مناهج التحليل النفسى ، او التحليــل اللغوى .

انه منهج يجمع فى اطار واحد بين جوهــر كل تلك المناهج ، ولكنها تتفاعل وتتوحد وتتحول الى معيار واحد هو ما اطلقت عليه « منهج الرؤية الفنية » .

لقد افاد هذا المنهج من كل مناهج النقــد الموضــوعية والتاريخيــة والجمالية والاجتماعية والنفسية . ولكنه في النهاية حدد لنفسه نســقا معينا ميزه عن كل هذه المناهج ، وجعل له طبيعة مختلفة ووظائف متغايرة .

على أن هذا المنهج لم يقتصر فى تنــاوله للأعمال الادبية والفنية على الادوات المتعــارف عليها فى مجال الدراسات الادبية ، ولم يكتــف بمصطلحات البلاغة القديمة ولا مصطلحات النقد السائدة . وانما اصطنع لنفسه مصطلحات جديدة وصك تعبيرات جمالية جديدة، ونوع فى استخدام الادوات النقدية وافاد فى كل ذلك بعلم اللغــة الحديث والدراسات الصوتية . كما افاد مــن مجالات فنون اخرى كالفنون التشكيلية والموسيقى والتصوير .

ولقد كانت الدراسات التطبيقيــة مجــالا لاختبار هذا المعيار الجديد وامتحان المصطلحات الجديدة التى حاولت ان احكمها . لان الاصــول النظرية لاى منهج من المناهج ، تظل قيما جامدة ساكنة ، لا تنبض فيها الحياة الا اذا نزلت الى ساحة الاستعمال التطبيقى . وقــد اتاحت لى دراسة شــعر المتنبي مــن خلال منهج « الرؤية الفنية » ان اختبر بصورة تطبيقية معظم هــذه المصطلحات الجديدة . فاسهمت بشكل جيــد فى حل كثير من المشكلات التى كانت تواجهنى ،وانا اقوم بعملية التذوق الفنى ، قبل ان اهتدى الى هذه المصطلحات . وارجو ان استشهد فى غير هذا المجال بنماذج تطبيقية تبين كيف كنت اتغلب على هذه المشكلات. لاننى خصصت هذه الدراسة للجانب النظرى .

ولست أرغب فى استقصاء كل المصطلحات التى حددتها خلال « منهج الرؤية الفنية » ويكفى ان اذكر اهم هذه المصطلحات مع التعريف به .

ولعل من اوائل المصطلحات التى اهتديت اليها مصطلح ((**التشكيل اللغوى**)) والفنان العظيم يملك الى جانب موهبته الفنية وطاقته الابداعية موهبة التشكيل اللغوى ، وهى التى تعينه عــلى تشكيل العمل الادبى والفنى من خلال الصور ،او من خلال براعته فى استخدام الكلمات وتتابع المقاطع ، والقدرة على استخراج ظلال الالفــاظ وايحاءاتها وجرسها ، واكتشاف المعانى المستكنة فى باطن الكلمات .

وهناك مصطلح آخر يتصل بفكرة التشكيل اللغوى فى الشعر اطلقت عليه ((**بناء القصيدة على طريقة اللوحة**)) فالشاعر الذى يملك القدرة على هذا التشكيل الفنى . يبنى قصيدته بالطـريقة

التي يشكل بها الفنان لوحته . فكما يهتم الفنان ـ وهو يبدع لوحته ـ بالاضواء والظلال ، والفراغ والنسب فى المساحات والالوان ومعالم الاطـارالذى يضم كل هذه العناصر ، يهتم الشاعر بكل هذه الاشياء . ولكن في حدود وسائله التعبيريةوالتصويرية ؛ فادواته التي يبنى منها قصيدته على طريقة اللوحة : هي الحـروف والالفـاظ والمقاطع . والشاعر الذى يملك هذه القـدرة الفنية ، يستطيع أن يشكل عمله من خلال تتابعالحروف وانتقاء الالفاظ والمقاطع . يستطيع ان يحدث ظلالا وفراغات ومساحات ويفجر فيهـاالضوء ؛ وقـد يستخدم موهبتـه السـمعية والبصرية فى مراعـاة النسـب فى القصيـدةوادراك التوازن والتبـاين والتـدرج والايقـاع والتماثل فى الاطار العام الذى يشكل فيهالقصيدةوبذلك تتحول القصيدة الى لوحة نبحث فيها عن كل هذه العناصر التشكيلية . وقد اتاح لى هذاالمصطلح أن اسمى قصائد المتنبى لوحات . وحللت بصـورة تفصيليه على ضوء هذا المصطلح الجديدثلاث لوحات من شعر المتنبى . هى اللوحة الاولى وهى قصيدته التى مطلعها

« ضيف الم براسى غير محتشم — والسيف احسن فعلا منه باللمم »

واللوحة الثانية : قصيدته التى مطلعها

« واحر قلباه ممن قلبه شبم — ومن بجسمى وحالى عنده سقم »

واللوحة الثالثة : قصيدته التى مطلعها :

« ليالي بعـد الظاعنـين شـكول — طـوال وليل العاشقين طويل »

وقد تبين لى بعد تذوق هذه اللوحاتالثلاثان المتنبى يملك حسا فنيا متفوقا وقدرة باهرة على الاحساس بالالوان والظلال فى الكلمات ،ولقدكان يشكل منها لوحاته الفنيه تشكيلا اخاذاجذابا لا يتأتى الا لفنان موهوب يملك ناصية اللغـة ،ويعرف كل مفرداتها ؛ ويتفهم دلالالتها المختلفة.

هناك مصطلح آخر اطلقت عليه « الاشعاعالفنى » وهو مترتب على سجية شخصية تكون فى الفنان الموهوب . وهى « جاذبية الشخصية »الفنية . والفنان الذى يملك جاذبية الشخصية يتمكن بسهولة من ادراك الالفـاظ والتعبيـراتوالحروف والمقاطع التى تسهم في عملية البنـاء الفنى وتزيد فى حيويه العمل الفنى ، ولكن هذهالجاذبية تتحول الى شيء آخر عند الفنان المبدع هو الذى سميته « الاشعاع الفنى » . وهو شيءلا يمكن أن نقف عنده فىتعبير او تصوير او تركيب او صورة ، ولكننا نحسه عندما نقرأ العملالفنى،ساريا كالنور يضيء بين اجزائه وفصوله ،وندرك آثاره بالتذوق ، متمثلا فى تلك الغبطة والنشـوةوالجذل الروحي ، الذى نحس به بعد فراغنـا من قراءة عمل فنى ممتاز .

اننا نحس آثار هذا « الاشعاع الفـنى »ونطرب لها ؛ لا مجرد طرب حسي عابر ، ولكـن على صورة جيشـان فكرى وروحى وفنى ،يلازمناوقتا طويلا ويغيرنا . وبذلك نصير شيئا آخر غير الذى كنا عليه ، قبل القراءة .. شيئا جـديدايضيء داخلنا ذلك (الاشعاع الفنى) الذي سرى الينا من العمل الفنى العظيم .

• • •

هذه أهم المصطلحات الجديدة التى أضافها(منهج الرؤية الفنية) ، الى مصطلحات النقد الادبى وعلم الجمال .

وهناك مصطلحات أخرى ثانوية وغير دائمةتجيء من داخل العناصر التى تشكل العمل الفنى او من الافكار التى يحتوى عليها العمل .

مثلا « فكرة الزمن » قد تتحول عند فنان موهوب من مجرد فكرة تدل على معنى محدد ، الى مصطلح جمالى يسهم فى تشكيل العمل الفنى كله ، فتصهر كل الادوات التعبيرية والتصويرية وتذوي فكرة الزمن فى كل جزئية من جزئيات العمل الفني .

ولا اريد ان اتابع الحديث عن هذه المصطلحات الثانوية ويكفي هذا المثال دليلا عليها .

ونعود مرة اخرى الى منهج (الرؤية الفنية) بعد أن عرفنا طبيعته ووظيفته وادواته التى يستخدمها صاحب هذا النهج في تذوق الاعمال الفنية ، لنتساءل . :

هل هذا منهج جديد حقا ؟ ! وهل من حق الباحثين والدارسين ان يحاولوا اصطناع مناهج جديدة فى النقد الادبي وعلم الجمال ؟

وسأترك الرد على الشق الاول من السؤال للقارىء ، الذي عرف هذا المنهج من هذا العرض النظري ، وتابع تطبيقاته التي نشرتها فى مجلة الثقافة القاهرية . واتخذت شعر المتنبي مجالا لتطبيقه ، وتمحيص قيمة الفنية . واختبار معاييره الجمالية .

أما الرد على الشق الثاني من السؤال . فيتلخص في ان من حق كل باحث او دارس فى كل عصر من العصور ان يتذوق العمل الفني بالطريقة التي تروق له ، وان يعيد قراءة الاعمال الفنية القديمة ، قراءة جديدة ، وان يستخرج من تجربة الاديب والفنان ، ملامح جديدة فى الابداع والفن ، وان يعيد تحليلها وتركيبها على ضوء قراءته الجديدة من خلال ما يصطلح من مناهج .

وهذا هو العمل الذى يعمله منهج « الرؤية الفنية » والذى حاولت استخدامه .

قرءاة جديدة للتجارب الادبية والفنية ، وتحليل لمكوناتها الجمالية ، وتفسير لخصائصها الفكرية والروحية ، وتركيب جديد ــ على ضوء هذا التحليل والتفسير ــ حول التجربة الفنية والحديث عنها ، الى شيء جديد . وبهذا يتحول العمل النقدي الى عمل فني ابداعي ، يثير من الامتاع واللذة العقلية والفنية ، ما تثيره التجربة الأصيلة من متعة جمالية وروحية . وتتحول ــ بذلك ــ التجارب النقدية الى تجارب فنية . وبقدر ما تتعدد الاعمال الفنية ، يجب ان تتعدد الاعمال النقدية التي من هذا الطراز الفني ، بل يمكن ان تتعدد الاعمال النقدية تعددا كبيرا حول عمل فني واحد . فالعمل الفني لا يبوح بكل أسراره لناقد واحد مهما كانت مواهبه وقدراته واكتمال ادواته . وسيظل لكل ناقد جديد ــ عنده ــ سر جديد يبوح له به دون غيره ، ومن الممكن ان يظل العمل الفني محتفظا باعظم خصائصه واجمل سماته واكبر اسراره لناقد معين قد لا يجيء الا بعد ألف عام او اكثر .

ولعل هذا ما يفسر لنا ما نراه الان من جدةوطزاجة وابتكار في دراسات نقدية جديدة . تعرض لاعمال جاهلية وعباسية واموية . كما نجدفى دراسات الدكتور مصطفى ناصف عن الشعر العربي ودراسات الدكتور عبد القادر القط عن الادب الاسلامي والاموي ودراسات الدكتور محمد النويهي عن الشعر الجاهلي ، ودراسات الدكتورابراهيم عبد الرحمن . وغيرها من الدراسات التي تتناول جوانب الادب القديم .

لكن يبقى ان اطرح على نفسي سؤالا ، هل هاتان المحاولتان اللتان قدمت لهما تأصيلا نظريا فى هذه الدراسة يمكن ان تكونا نواة لعلم جمال عربي ؟

* وهل تصلحان اساسا نظريا لمزيد من الدراسات التطبيقية ؟

* وهل تصمدان للنقد والتمحيص ؟

* وهل حقا هما محاولتان جديدتان ؟

وادع الاجابة على كل هذه الاسئلة للمتخصصين فى الفلسفة والنقد الادبي وعلم الجمال وعلوم اللغة ، ولا شك انني سأفيد من توجيهاتهم فائدة كبرى .

ولكن ردي على السؤال بصفة مبدئية انني لم انظر الى هذين المنهجين الا على انهما محاولتان . وهذا وحده يؤكده انني لا ازال فى مجال المحاولة والتجريب . وقد اصل في يوم ما الى أساس نظري متكامل يصلح ان نقول عليه : هذا هو « علم الجمال العربي » ولكن هاتين المحاولتين ـ وحدهما ـ لا تصلحان اساسا لهذا العلم الذي نهفوا اليه ؛ ونسعى الى تأصيله فى ساحتنا الثقافية ، ولكنهما بالتأكيد خطوة نحو علم جمال عربي .

تقويم المحاولتين ....

واذا كان لي فى نهاية هذه الدراسة ، ان اقوم بنقد هاتين المحاولين ، فانني اعترف أولا بالعيب الاساسي ، الذي تسلل اليهما ، على الرغم من محاولتي الشديدة تجنب الوقوع فيه ، وهو الاختلاط وعدم التحديد الدقيق للمصطلحات ، وان كان هذا الامر فى النهاية سيتيح لي ان أمعن النظر طويلا حتى انتهى الى التحديد الدقيق للمصطلحات ، والتعريف الجامع المانع لها .

وهناك مشكلة تثور حول هذين المنهجين ، ومن الممكن ان تكون عيبا ، ما لم نحاول العمل على تحديد حجمها وتوضيح ما تثيره من اختلاط .

وهذه المشكلة تتلخص فى ان هذين المنهجين يتشابكان مع مدلول « النقد الادبي » بشقيه النظري والتطبيقي .

وفى رايي ان النقد الادبي يقف على ارض مشتركة مع « علم الجمال » وهناك مساحات كبيرة يتجولان عليها معا .

على ان علم الجمال ظل لفترة طويلة فرعامن فروع الفلسفه ، وعندما انفصل عنها احتضنه النقد الادبي ، وظل رافدا من روافده حتىالان ، والنقد الادبي نفسه ظل ممتزجا لفترات طويلة بالدراسات الادبية والادب المقارن وتاريخالادب والنظريات الادبية . ولم يستقل كل علم منهما استقلالا تاما الا بعد تقدم الدراساتالعلمية وقيام المتخصصين بتحديد دقيق صارم لكل نوع من هذه الانواع .

ولهذا لن افزع كثيرا اذا وجدت هاتينالمحاولتين تدخلان على نحوما في مجال النقد الادبي .

وان كنت اعتقد انهما اقرب الى علم الجمالمنهما الى النقد الادبي . لانهما تحاولان اساسا البحث فى ماهية الجمال . والخبرة الجمالية فىالادب والفن .

و (معيار الوجد الفني) موغل فى القربمن علم الجمال ، لانه يقوم فى البداية على اساس فكرة فلسفية ، اقتبستها من قاموس فلاسفةالمتصوفة . ولان الاسس التي يقوم عليها اقرب الى التنظير الفلسفى ، وهو من هذه الناحية يكاديكون علما « معياريا » وان كانت له جوانب اخرى تتمثل فى الادوات الفنية التي يستخدمها لدراسةالخبرة الجمالية ، وتذوق النصوص الادبية والفنية . وهذا الجانب يقرب من النقد الادبيويجعل « الوجد الفني » يلامس مناهج العلوم الوصفية .

اما منهج « **الرؤية الفنية** » فعلى العكسمن (منهج الوجد الفني) جانبه الاهم ، موغل فى القرب من النقد الادبي وهو الجانب الذى يهتمبتذوق العمل الفني من خلال ادوات النقد الادبي، ولكن يغلب عليه من ناحية اخرى الاهتمامبدراسة الظاهرة الجمالية وتحديدها تحديدا علميا كلون من الوان المعرفة الفلسفية . وهوصميم علم الجمال .

وهناك عيب اعترف به فى نهاية هذا التقديموهو الحماس الشديد الذي غلب على بعض اجزاء الدراسة فى هاتين المحاولتين . وقد كان هذاالحماس ناشئا عن احساسي بانني لا بد ان آتي بشيء جديد . ولعل هذا الاحساس هو السببالرئيسي فى كل العيوب التي لحقت بالمنهجين .

ولكن حسبي ــ في هاتين المحاولتين ، انيبذلت جهدي ، واستنفدت ، فى البحث والتذوق طاقتي ، فان اخطات فلى اجر المحاولة ، واناصبت فلي اجران ، كما يقول العلماء . والله من وراء القصد . وما توفيقي الا بالله عليه توكلتواليه انيب ›› .

* * *

عبدالعزيز محمد الزكي

يحيى حقي بين المصرية والتركية

لا جدال فى ان دراسة فن يحيى حقى الادبي يستلزم التعرف على نشأته واساليب تربيته ، خاصة وانه نشأ وتربى فى اسرة ذات اصلاب تركية ترعرعت فى احضان المجتمع المصرى ، وتعرض بذلك لكثير من الصراع بين المصرية والتركية ، كما تراوحت حياته بين الانتماءات الصوفية الاسلامية والبوهيمية الرومانسية .. واساليب التفكير الشرقى والحياة الغربية الحديثة . ثم محاولاته للنجاة من تلك المتناقضات فى رحاب حرية الفنان .. ومع ذلك فاذا كان هذا البحث يركز على مشكلة صراع يحيى حقى بين تركيبته الموروثة ومصريته التي يحياها فان الهدف الاخير منه هو أن يبين كيف انتصر يحيى حقى على ذاته ووصل الى نوع من السلامة النفسية التي شق على الكثيرين من اقرانه الوصول اليها . وقد حقق له ذلك الكثير من وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة مما جنبه التخبط والضياع . وعاونه على ممارسة الفن وهو متحرر من مختلف العقد الموروثة والمكتسبة ...

— ١ —

ان جذور يحيى حقى ليست مصرية صميمة، فقد نشأ جده « ابراهيم حقى » فى بلاد المورة بجنوب اليونان ، في حين كانت تنتشر اصول العائلة فى ربوع تركيا وفروع منها فى مصر .

وشاهد ابراهيم حقى من قـرب بعض نواحـي النهضة الاوروبية الحديثة الى أن بدأت أوروبا تضيق الخناق على العناصر التركية في حركـة مناهضة الحـكم العثمانى بقصد تحـرير بـلاد اليونان ، وصاحب ذلك هجرة الكثيرين من الاتراك من اوروبا الى تركيا وغيرها من اقطـار الدولـة العثمانية ، وبذلك رحـل ابراهيم الـى مصـر بعد أن توسطت له خالته السيدة « حفيظة هانم » خازندارة قصور الخديو اسماعيل ، ونجحت فى تعيينه فى خدمة الحكومة المصرية التى كانت تعانى نقصا في مختلف الوظائف الحكومية ، التى لايشغل كوادرها العليا فى غالب الاحيان الا مـن لـه صلة قرابة بالعناصر المصرية التركية الاصل ...

وهكذا حضر ابراهيم حقى التركى المقيم فى بلاد اليونان .. والجامع بين الحضارة الاسلامية وحضارة الغـرب الحديثة ـ الـى مصـر فى عهد الخديو اسماعيل طلبا للدخـل المستقر ورغبة فى الامن ... واستلم مهـام وظيفته ببلده دمياط ، واخذ يتدرج فى وظائف الحكومة حتى اصبح مدير مصلحـة في بندر المحمودية بالبحيرة(١) فى ظروف سياسية معقدة تتشـابك فيهـا الصراعات بين العناصر التركية والمواطنين المصريين ...

وعاصر ابراهيم احداث الثورة العرابية ، وعاش كل ما تعرضت له العناصر التركية من انفعالات ومشاعر ، وانساقت فيه من اعمال وتصرفات نتيجة للتطورات السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية التى تمر بها مصـر فى ذلك الحين .. ومـع ذلك استقر فكر ابراهيم حقـى على البقاء في مصـر ، وتزوج من سيدة تركية تعيش فى مصر ، انجب منها ثلاثة من الابناء اكبرهم محمد والد يحيى حقى ؛ والثانى محمود طاهر الذى الهبت مشاعره الفنية وهو فى فورة الشباب «مذبحة دنشواى» فانفعل باحداثها وخرج علينا برواية « عذراء دنشواى » ، وهى أول رواية فيها مشاركة وجدانية وطنية من العناصر التركية للمواطنين المصريين . اما الابن الثالث فهو « كامل » ولايكاد يذكر عنه يحيى حقى شيئا ..

والذى يهمنا هنا هو الابن الاكبـر محمـد حقى ... ولقد ولد محمد حقى فى مصر ، وحاول والده ان ينشئه فى اول الامـر تنشئة اسلامية صرفة ، فالحقه باحـد المعاهد الازهريـة حيـث حصل على نصيب مـن الثقافة الاسلامية العربية قبل أن يلتحق باحدى المدارس الفرنسـية ، ولكنه لم يلبث ان قطـع تعليمه عندما ادرك ان ظروف اسرته المتوسطـة الدخـل لا تقوى علـى تكاليف المدارس الفرنسـية ، ورضـى بوظيفته فى وزارة الاوقاف .. ولكـن صلته بالثقافـة والعلم لـم تتوقف ، وحداه طموحه الثقافى الى قراءة عيون الكتب العربية كديـوان المتنبى وكتب الغزالـى ومقامات الحريرى، استجابة لنزعات ادبية وميول فنية ساعدته على حفظ روائـع الشعر العربى ، فاكتسب فصاحة فى اللسان وقدرة على البيان . وتزوج محمد حقى ايضا من سـيدة البانية الام تركية الاب تعيش مـع اسرتها فى بندر المحمودية حيث كان والدها يعمل دليل مكتب البـريد .. وكانت السيدة/سيدة السيد حسين تجيد القراءة والكتابة ، كما كانت شديدة التدين تقبل على قراءة

(١) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .. مجلة « عالم الفكر » المجلد الخامس ـ العدد الثالث : اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٤ ـ الكويت .

القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف والسيرة النبوية المطرة ، كما المت كذلك بكتب الادب العربى القديم ... وهكذا شب يحيى حقى بين والدين يعشقان الادب ويميلان للقراءات الاسلامية ..

ولقد انجب محمد سبعة من البنين واثنتين من البنات ، وكون أسرة كبيرة العدد تحملت الأم شتى المسئوليات وكثيرا ما اشاد يحيى حقى بتضحيات والدته ودورها الفعال فى حسن تربيته هو واخوته واخوانه فقال : « ربتنا بيدها تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك أشد العناء متمايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ... ربتنا بلسانها تحث بغير الحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة كسوط صاحب الجواد الاصيل له دفع وليس له لسع .. وبتنا بنظراتها اذا كنا فى تجمع من الناس تحوط علينا وتعلمنا كيف ينبغى ان نجلس وكيف ينبغى ان يكون الكلام المهذب ، تقيد علينا كل زلة لسان وان كانت بريئة، وتنبهنا اليها اذا انفض الجمع ... بل من عادة أمى أن لاتنام الا ان اطمانت اننا عدنا جميعا »(٢)

ولد يحيى – وهو الثالث فى تسلسل قائمة الابناء – فى السابع من يناير – الموافق – يوم عيد ميلاد السيد المسيح عند اقباط مصر – عام ١٩٠٥ – وقت أن كانت حركة مصطفى كامل الوطنية على اشدها ، فى بيت ضئيل من بيوت الاوقاف بحارة الميضأة وراء مقام السيدة زينب المتفرع من شارع الصليبية بحى قيسون المعروف حاليا بقسم الخليفة ، وهو حى من الاحياء الشعبية الصميمة .. فشب يحيى حقى فى الاجواء الشعبية القاهرية ، وشاهد منذ الصغر « ابن البلد » عن قرب شتى احواله : فى جده ودعابته ،فى حرمانه وسخريته ، فى ذكائه وقناعاته ، في ايمانه وانحرافاته ، فنما فى قلبه وهو مازال صبيا حب ابن البلد وميل التردد على الاحياء الشعبية، خاصة بعد أن ترك حى قيسون وسكن بعيدا ..بل ان أول ما عرف قلبه الحب تعلق بحب بنت من بنات البلد رغم انه كان يعيش في اسرة تنتمى الى مجتمع مهاجر يميل لنوع من العزلة الانطوائية، يرقب المجتمعات عن بعد دون اندماج ويشعر بأن مستواه الحضارى ارقى من المستويات المصرية ، وان جمعه بين الثقافة الاسلامية والحضارة الغربية اعطاه ميزات لا تتوفر فى كثير من جماعات عامة الشعب .. ولكنه مع ذلك حرص على الا يظهر باى مظهر من مظاهر الاستعلاء ، مما يدعوه الى تصنع ضروب من التواضع لا تخلو من تكلف يكشف عن معالم التعالى الكامن .. ومع انه كان لا يتكلم الا باللغة العربية فان الكلمات التركية كانت تظهر عادة في حالات انفعالات الغضب والضيق التى لتحرر من التصنع والتكلف ...وحتى حين كانت تقوم علاقات مع بعض الافراد من عامة الشعب فانها كانت مجرد علاقات سطحية تهتم بتوثيق الروابط مع من يتعاملون معه ، ويقدم لهم خدمات يومية لا يستغنى عنها احد ..ويؤكد يحيى حقى ذلك حين يذكر ان « اسرتى كان يشملها منذ وعيت روح من الديموقراطية الشعبية.. لا ادرى من اين جاءتها .. ؟ هى طبع وخلق

---

(٢) يحيى حقي – خليها على الله : المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر – دار الكتاب العربى للطباعة والنشر – القاهرة – بدون تاريخ .

لا ثمرة علم واقتناع ... فما دخل بيتنا خادم والاخالطنا مخالطة الاهل .. ولم ننظر بأنفة الى القصاب والبقال وبائعة الجبن والصابون .. ولكننى اظنها ديمقراطية معاملة فحسب »(٣) .

هكذا كانت تعيش الاسر المصرية ذات الجذور التركية سواء من الناحية النفسية أو الاجتماعية اصة منذ قيام الثورة العرابية .. ونشأ يحيى حقى وتربى وتعلم وهو يعايش شتى محاولات المعاناة التى كانت تقاسى منها المجتمعات المصرية ذات الاصلاب التركية فى جهودها للمواءمة بين بواعث الاتجاهات التركية واغراض الاستقرار فى مصر ... ويبدو ان يحيى حقى لم يستطع ان يتخطى الحواجز الاسرية وان يندمج فى الحياة المصرية التى لم يشهد غيرها الا خلال واقعية روحية بعواطفه وعقله جميعا بعد ان عايشها بكل كيانه وارتضاها طواعية حتى استمد منها رغباته وآماله واحلامه وأوهامه ويعكس عليها كل ماينفعل داخله من مشاعر وافكار وخيالات وهواجس .. لم يحس اطلاقا فى قرارة نفسه بأن هذا التباين الذى يوجد بين حياته المنزلية بتقاليدها التركية وحياته العامة فى مختلف مجالات المجتمع المصرى تدعو الى اى نوع من الانفعال ترغمه على ان يستقل بحياة اسرية بعيدة عن مجتمع القاهرة .. ولذلك لا نكاد نلمح اى احساس يجعلنا ندرك أنه يشعر بأى نوع من التغاير او الاختلاف بينه وبين اى مواطن آخر يزامله الحياة فى المدرسة او فى العمل او فى اللهو رغم معرفته الاكيدة باصله التركى ... بل يلحظ عليه احيانا علامات من الضيق والتأفف اذا ما نبهه احد عَرَّضَ بطريقة اواخرى من قريب أو بعيد الى اصل عائلته الالبانى خاصة اذا ما كان يحاول ان يشكك فى اصالة انفعالاته المصرية وعمق تجاوبها مع الحياة المصرية ..

واذا كانت احداث الحرب الالبانية اثارت وجدانه عام ١٩١٢ والهبت مشاعره التركية وهو ما زال صبيا فى السابعة من عمره ، وحثته على قول الشعر ليعلن السخط على الاستعمار الاوروبى الذى يهدد كيان الدولة العثمانية ويعرض مسقط راس أجداده للخطر ، فان فظائع دنشواى ـ التى اطلع على احداثها عام ١٩١٤ فى قصة « عذراء دنشواى » التى كتبها عمه محمود طاهر حقى ـ زادت من سخطه على طغيان الاستعمار البريطانى فتعلق قلبه بجهاد الزعيم مصطفى كامل الذى يدعو باصرار الى ضرورة جلاء الانجليز عن مصر دون شروط مسبقة .

ولقد سحر مصطفى كامل العناصر التركية ببلاغته الكلامية فى الخطب والمقالات التى اخذت تتصاعد لهجتها وتشتد وتقوى حتى بلغت الذروة حين أعلن حربا لا هوادة فيها ضد احكام الاعدام الظالمة فى حادثة دنشواى . واذا بالعناصر التركية يجرفها تيارات المشاعر الوطنية وتجد نفسها تعيش هذه المشاعر بكل وجدانها ، واذا بها تحس بأنها اكثر التصاقا بأرض مصر مما تظن . ويكاد محمود طاهر ينفرد بعرض هذه المشاعر فى رواية « عذراء دنشواى ». ويرجع يحيى حقى حماس هذه الانفعالات الفنية الى انه قد تم « التحام كامل بين محمود طاهر

---

(٣) يحيى حقي : دمعة .. فابتسامة . روز اليوسف ــ القاهرة . ديسمبر ــ ١٩٦٥ .

حقى وشعب مصر .. واصبح ابن بلد مصفىجذوره الحديثة نزلت الى الطمى السفلى المتخلف من ايام الفراعنة هيهات ليد أن تقتلعها ، أو لماربلد آخر ان يهبها الحياة .. وقد ظهر هـذا الالتحام فى رواية عذراء دنشـواى (٤) .. ولاشك أن رواية عذراء دنشواى نجحت فى تقريب المصريين الاتراك من المصريين الفلاحين اكثر فاكثر .. حتى انه لم يظهر من بين الاسر التركية من قبل ان يترافع ضد الفلاحين المتهمين فى حادثة دنشواى بخلاف ابراهيم الهلباوى المصرى الصميم الذى ارتضى ان يجرب بلاغته ضدهم ، ويجنى على مواطنين ابرياء من بني جنسه ويسوقهم الى ساحة الاعدام متملصا مـن وطنيته .. ولكـن بلاغة الهلباوى حفرت له قبره اذ ظلت مرافعته فى دنشواى سحابة سوداء تطل على كـل عمـل يصدر عنه وتشوه اخلاصه وتعترض مسـتقبل حياته العامة ، حتى فشل فى الحصـول علـى الغفران عندما حاول الدفاع عن ابراهيم ناصف الوردانى بعد أن اغتال بطرس غالي الذى كـان رئيسا لمحكمة دنشواى .

ولقد تصدى الكتاب الاتراك الى هذه النزعات فكتب « ولى الدين يكن » فى مقال الشقاق (٥) « انا تركى .. وابغض عباد الله الى تركى يعتدى .. احب العناصر العثمانية كلها وآخذ بناصر المستضعف منها .. ثم احب العرب حبا خالط الروح وجرى مجرى الدم فى العروق .. وانا عربى الادب والقلم ، عربى النزعة ، ومن ابغض العرب فانا مبغضه .. » ولكن اذا به يعود ويقول بعد اغتيال بطرس غالى فى مقال رومانسي الافكار والعواطف عنوانه «بطرس غالي فى موكبه الاخير» (٦) قال القضاة : قتل احد الباغين بطرس باشا غالي قلت لقد قتل مصر .. كل قطرة من ذلك الدم البرىء عند الله اجرها وعلى الانسانية والعصر العشرين عارها .. ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم .. ؟ صاح اكثركم مذكرا بحادث دنشـواى ، وتشدق آخرون باتفاق انكلتـرا ومصـر علـى السودان ، وشكا غيرهم من قانون المطبوعات ..

ولقد تصدى كذلك عبد الخالـق ثـروت باعتباره النائب العام لمهمة التحقيق فى الاعتداء بنفسه ، ثم قام بالمرافعة فى الدعوى ضد ابراهيم ناصف الوردانى .. واتسـمت كلمته بالاعتدال وان استنكرت اغتيال الاكفاء المخلصين « نحن اول من يحل الاشتغال بالمسائل العامة ، ونرى أن السعى بالطريق المشروعة فيما ترقى به البلاد واهلها من فروض العين على المصرى ، وان كل مصرى مطالب بتضحية شىء من وقتـه ومالـه وهمته فى خدمة بلاده .. نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمـال اشق المشقات في اعلاء كلمة مصر وزيادة شرفها ورفعتها ، وكذلك نرى من مرقيات الامم الدارجة فى رقيها النظر فى اعماق القابضين على أزمة الامور فيها ونقدها ... ولكننا لا نسـلـم بحال مـن الاحوال أن يتطلع الى مقام ناقد الحكام الى رجل

---

(٤) يحيى حقي : عطر الاحباب : دار الكتاب الجديد . القاهرة ١٩٧١ .

(٥) الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. المنفلوطي .. العقاد . جمعه محمد محمد زكي الدين . الناشر حسين حسنين .. القاهرة بدون تاريخ .

(٦) الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. المنفلوطي .. العقاد . جمعه محمد محمد زكي الدين الناشر حسين حسنين .. القاهرة بدون تاريخ .

جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان في القول والفعل حتى يقدر الاعمال حق قدرها وينظر الى الامور بفكر صحيح فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة العامة وبالا ، وارادة الخير شرا .. » (٧)

لاشك في أن استنكار الكتاب ، خاصة الاتراك منهم حادث اغتيال بطرس غالى وتولى العناصر التركية مهمة توجيه الاتهام الى الورداني اثار الريب في نفوس الشباب المثقف في مصر بينما كسب الورداني عطف الكثيرين منهم .. فاذا نال ثروت بكلمته الحكيمة المعتولة اعجاب المسئولين وتقديرهم ، الا انها بعثت الضيق والسخط بين الشباب رغم اعجابه بكفاءاته وحسن بيانه كالمسئولين سواء .. ولكن الحكم باعدام الورداني حرك ماخبا في النفوس من مشاعر التذمر والاحساس بالقهر ، والاستبداد جددت اللوعة من قوة احكام الاعدام الظالمة في حادثة دنشواى .. وسرعان ما اجتاح البلاد حركة اغتيالات اخرى تولى تنفيذها اجهزة سرية اشترك فيها الوطنيون من المصريين والعناصر ذات الجذور التركية على حد سواء .. واذا بها تخطط من اجل التخلص من الخونة على اختلاف اجناسهم ودياناتهم مناصبهم ، ومن الانجليز الذين يقيدون الحريات في مصر ..

الا ان المحتل البريطاني لم يدع الوحدة الوطنية تسير في طريقها الطبيعي وتحقيق ما تصبو اليه النفوس من قوة وترابط وثيق بين كافة المصريين ، واخذ يضرب على وتر فرق تسد .. ولذلك كثيرا ما حاول ان يستغل اى خلاف ظاهري ويثير ضروريا من التنافس ، خاصة بين اعيان المصريين وقادة العناصر التركية حول السلطة خلفت صراعات انحرفت عن طريق الوحدة الوطنية واثارت الشكوك بين الجميع ، حتى ارتابت كل فئة في نوايا الفئات الاخرى ... ولقد نجح الانجليز بالمماطلة المماثلة في تفجير حدة الخلافات بين سعد زغلول الممثل الشعبي لكافة المصريين وبين عدلى يكن صهر اسرة محمد على الذى زوج ابنته لشريف صبرى شقيق نازلى زوجة السلطان احمد فؤاد باثارة الاشاعات حول عرض الانجليز العرش على سعد زغلول شريطة قبول الحماية البريطانية وفصل السودان عن مصر مما اشعل مخاوف السلطان فؤاد من اطماع سعد زغلول .. الا ان عدلى يكن ، والحق يقال كان في موقف صعب ، فهو لا يستطيع ان يقف في جانب السلطان والانجليز ويعادى الشعب الذى يمثله سعد زغلول ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يجارى الشعب في اندفاعاته الوطنية التى لا يقبل الانجليز الخضوع لها ، فلم يجد امامه الا ان يقف موقفا وسطا ، وحاول ان يوفق بين مبادىء سعد زغلول في الوطنية التى تتمسك بالاستقلال التام وجلاء القوات البريطانية وسيادة الشعب المصرى على القدارة وبين حرص الانجليز على البقاء في مصر بصورة او اخرى يرضى عنها جميع الاطراف المعنية ... واستطاع عدلى بموقفه الوسط المرن ان يكسب ثقة السلطان فؤاد وتعاون الانجليز وان يتوصل بمجهوداته

(٧) الدكتور محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية.. كتاب روز اليوسف رقم ٢ القاهرة يناير ـ ١٩٥٤ .

الخاصة الى ان يقنع بعض الاعيان الاقطاعيين من المصريين داخل حزب الوفد نفسه ويكسب تأييدهم لسياسته التى تقبل ان تقابل الانجليز فى منتصف الطريق (٨) .

واحسب ان أسرة حقى ، رغم انها اسرة موظفين يغلب عليها الحياء والانطوائية ، لم تكن فى منأى عن الاحداث سواء التى تقع فى تركيا او فى مصر ... فكانت تتعاطف مع كل ما يدور حول الدولة العثمانية . فما ان نشرت قصيدة احمد شوقي فى البكاء على خلع السلطان عبد الحميد فى الصفحة الاولى من جريدة الاهرام حتى « كان البيت كله يقف على رجل .. كنا نقرؤها بصوت عال . ونحفظها ونظل نرددها فى مختلف المناسبات (٩) و تعاطف ايضا مع اتجاهات مصطفى كامل التي تتمسك بجلاء القوات البريطانية ولا تعادى الخديو عباس الثانى ، وتستعدى الدولة الفرنسية على الانجليز .. ولذلك كانت جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطنى هى جريدة الاسرة المفضلة .. ومع ذلك « لم يمنعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة احداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة .. في اكثر ما كنت اصحب ابى وشقيقى ابراهيم واسماعيل الى الازهر أو بيت الامة او شادر مقام فى ساحة فسيحة لاستمع الى خطباء الثورة ... واحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للازهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة .. فكنت اسير مع أبى واخوى فى طرق ملتوية وازقة ضيقة حتى نصل الى الازهر ونستمع الى خطباء الثورة ونردد مع الجموع اناشيدها ... وكان افراد الاسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل الى ايدينا من منشورات الثورة ... وقد سرت فى بعض المظاهرات الصاخبة التى كانت تكتسح شوارع القاهرة .. وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت اجرى مع الجارين ... وفي تلك الايام قرات كل ماوقع فى يدى من كتابات عبد الله النديم ومصطفى كامل .. وكل ما نشر عن حادثة دنشواى ... وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر » (١٠) ولكن لما دب النزاع بين سعد زغلول ابن الفلاح المصرى وبين عدلى يكن ذى الاصل التركى « اجتاحت بيتنا موجه عارمة من الكآبة وخيبة الامل لفرقة الصف الوطنى » (١١)

• • •

لاشك فى ان ثورة ١٩١٩ ضد المحتل البريطانى الذى يماطل فى خروج قواته من أرض مصر صهرت كثيرا مما تبقى من مشاعر الغربة التى كانت تعانى منها العناصر التركية المصرية في بوتقة الوحدة الوطنية ، واقتربت من التخلص النهائى من نزعات تعدد الولاء لاكثر من وطن ، خاصة بعد انحصار الدولة العثمانية فى نطاق الاراضى التركية فقط .

---

(٨) محمد كامل سليم : ازمة الوفد الكبرى : سعد وعدلى : كتاب اليوم برقم ١٠٧ ، مؤسسة اخبار اليوم ــ القاهرة ــ مارس ١٩٧٦ .

(٩) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(١٠) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب .. سيرة ذاتية .. مجلة عالم الفكر ١٩٧٤ .

(١١) نفس المرجع .

واذا ما انتقلنا من المجالات السياسية والعواطف الوطنية الى المجالات والعواطف الانسانية نجد انه ، لكل تستقيم الحياة للعناصر التركية فى مصر ، ينبغي ان يبلغ حبهم للمصريين نفس قوة حبهم لارض مصر ووظائف مصر ..ولا يتاتى ذلك الا اذا اتسع حب الوطن بشفافية الحب الانسانى وودعة الحب الاجتماعى الذى لا يهدف الى اى نوع من السيطرة العسكرية او التفوق الاقتصادى او السيادة السياسة ،ويتجنب بقدر الامكان اثارة التنافس على مراكز القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية ويعتمداكثر ما يعتمد على أصول الحضارة العصرية من فكر وفن وادب ، ومن علم وثقافة ، ليحتفظ بدرجة عالية من الرقى الاجتماعى والتفوق الحضارى .. فأقبل أبناء الاسر التركية المصريةعلى دراسة القانون والهندسة ، لان معرفة القانون تسمح بتولى مناصب القضاء ، والنيابةاخطر المناصب واكثرها رهبة بين عامة الناس .. بينما تسمح دراسة العلوم الهندسية بالتغلغل فىشتى شئون المرافق العامة المصرية فى المدن وفي القرى ، نظرا لشدة حاجة الجميع للخدمات الهندسية ... وكثير من ابناء الاسر التركية لم يقفوا عند حد التعليم العالى فى مصر بل اهتموابطلب المزيد من العلم والثقافة والحضارة فى أوروبا .. ولذلك كان هناك تنافس مثير على التفوق الدراسى للفوز بالبعثات المجانية الى الخارج خاصة بين النابهين غير القادرين على تحمل تكاليف العلم فى اوروبا . وبذلك فقد اتيحت للكثيرين منهم فرص الاتصال الوثيق بالتطور الفكرى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى في العالم الحديث .

ولا نعجب اذا ما شعرت العناصر التركيةبانها اكثر قدرة على خدمة مصر حضاريا من المصريين الاصليين ، لانها تشعر بأن لها خبراتاوسع فى المجالات الحضارية الحديثة .. ولقد كان لها بالفعل الاسبقية والفاعلية فى تنشيط كثير من مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية في مصر .. فلم تقف هذه العناصر عند حد التمنىبأن تصل مصر الى ما وصلت اليه أوروبا من نهضة وازدهار ، اوتكتفى بأن تشيد بذكر حضاراتها السابقة .. بل اخذت تسهم اسهاما جديا فى مختلف مجالات الاصلاح تحت احساس بأنهم على مستوى حضارى متقدم يسمح لهم بسرعة استيعاب الحضارات الغربية مما يعطيهم امكانيات ثقافية تضعهم على رأس قادة الفكر والادب والاصلاح الاجتماعى فى مصر .. واذابهم يكونون شتى الجمعيات التقدمية الثقافية والاجتماعية ، ويظهرون كثيرا من النشاط الجادالصادق لبعث نهضة فكرية مصرية تطور المجتمع المصرى وترفع من مستواه الحضارى . ولقدتنافس كل من احمد شوقى ــ وهو من أصل تركى ــ وحافظ ابراهيم ــ وهو من ام تركية ورباه خاله المهندس زميل والده ــ على الترنم باشعار تسبح بحمد مصر ، وتشيد بمجدها الخالد وتظهر الحب العظيم الخالص لمصر ، وتشدو بالوطنية المصرية وتغلبها على كل وطنية وقومية.. بينما اعطى محمد تيمور ومحمود طاهر لاشين ومحمود طاهر حقى ــ وكلهم من أصل تركى ــ اهتمامات زائدة لواقع الحياة المصرية في المدن والقرى . وكتب كل منهم قصصاتتناول احوال الفلاحين فى الريف ، وتعرض ميل

ابن البلد فى المدن للفكاهة والدعابة ، وتعلقه الزائدبالنكتة الساخرة ، وتمسكة بروح الشهامة التى تظهر في كثير من تصرفاته الانسانية ... كمـابرز من بين العناصر التركية قاسم امين علىراس الداعين لقضية تحرير المراة المصرية ورفع الحجابحتى تستطيع ان تكون أكثر حركة وقدرة علـى الاسهام فى تحرير الوطن وتقدم المجتمع المصرى.

ولكن كيف يمكن لهذه العناصـر التركيـةالتي تكاد تعيش فى الواقع في شبه عزله اجتماعية وتعودت على ان تتقوقع داخـل نطـاق الاسـرالتركية وتبتعد بقدر ما تستطيع عن كـل مـا يحيطها من مشـاكل يومية ان تفهم واقع الحياةالمصرية فى الصميم في الريف وفى المدينة ، وتعى ما يدور فى خلجاتها الداخلية وهى لاتنظر الـىاهل الريف وسكان المدن الا من علو الفكر ؟ ان الحنين الوطن الاصلى لا ينمحى من الوعى مهماطال الزمن .. وان اختفى من الوعى الظاهـر فلا بد ان يكون كامنا في الوعى الباطن يؤثر فىالفكر وفى الوجدان وفى التصرفات .

وليحيى حقى راى خاص يفسر بـه نجاحالعناصر التركية في تناول الحياة المصرية فى قصص ومسرحيات .. فزعم ان محمد تيموروجد « ان المجتمع المصرى فى المدن والريف قادر على أن يمد الكاتب بقصص فنى مما يشهد علىان نزعته الادبية مبعثها حب صادق لمصر واهلها وليس من الغريب كما يظن لاول وهلة ان الذىيغمر هذا الحب كله ويحمل لواء المناداة بالادب المصرى الصميم فتى لا تجرى فى عروقه دماءمصرية بل دماؤه خليط من التركية والكرديـة والاغريقية . هذه ظاهرة طبيعية مالوفة عندالآخرين ، كما عندنا في أن العرق الحديث اشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباهـالنضاله وجماله .. ولذلك نرى محمد تيمور ، ومن بعده محمود حريصين اشد الحرص علىتاكيد خبرتها بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن . وليست العبرة ان يولد الكاتب فىاحضانهذه الطبقات بلفى قدرته على الاحسـاس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى . » (١٢)ولكن يحيى حقى يعود ويتساءل « لا ادرى لماذا أستشف في كتابات محمد تيمور ــ رغم خفةدمها وميلها للدعابة نغمة حزن دفين » (١٣) كأنه يريد ان يقول ان اثار مشاعر الغربة الاليمة رغمكل ذلك الحب لمصر وللمصريينقد اظهرها الوعى الباطن في تلك النغمة التى تئن بحزن دفين .. !!

الا أن تردد كثير من الافراد منبين العناصرالتركية على اوربا واحتكاكهم المستمر باوروبيين أتاح لهم فرص الاطلاع على الدراسات العلميـةالغربيـة في الشئون الاجتماعيـة والاتجاهـات الاقتصادية والمذاهب السياسية التى تتصارعفى مختلف مجالات الحياة الاوروبية .. وتكاد هذه الدراسات تتفق جميعا فى ضرورة تحقيـقنوع من العدالة الاجتماعية ومـن المسـتوى الاقتصادى اللائق بكرامة الانسان ، ومن الحريةالتى تساوى الكل في الحقوق والواجبات ..

---

(١٢) يحيى حقي : فجر القصة المصرية .. المكتبة الثقافيةرقم ٦ ــ القاهرة .

(١٣) نفس المرجع السابق .

مما حدا ببعض الافراد من هذه العناصر الى الاهتمام باحوال الفلاح المصرى وفقراء المدن .. ومما يثير الدهشة حقا هو الحاح قوم من الارستقراط فى الدعوة لرفع مستوى حياة الفلاحين وعامة الفقراء . !! هل قامت هذه الدعوة تحت تأثير مشاعر من القلق لم ترتح لاوضاع اجتماعية تقسو على أناس وتحرمهم من كثير من ضروريات الحياة وتهدر كرامة آدميتهم ؟ أم ترجع لمجرد بواعث انسانية صرفة بعثت فى النفوس الاحتكاك بالحياة الغربية ويسندها فكر متعال لا يقبل ان يكون اتباعه على هذا الوضع المهين المخجل .. ! ؟ ولكن كيف تحولت نظرة التعاطى الى مشاعر من العطف والرحمة والحنان . ؟ هل الاحساس بسوء معاملة الفلاح واستغلاله من قبل الحكام الاتراك وحاشيتهم حرك عقد الذنب وحملهم الشعور بالاثم مسئولية عما انتهى اليه الفلاح من حالات بؤس وشقاء وتخلف .. ؟ هل استيقظ فيهم الضمير الحضارى وحثهم الاحساس بالواجب على بذل اقصى ما يستطيعون بذلك من فكر من صيانة انسانية هذا الفلاح وتعويضه عما ضاع عليه من فرص الحياة الكريمة وتخليصه من الهوان الاجتماعى الذى يعانيه حتى يستطيع ان يرفع رأسه ويشعر بتمام المساواة مع جميع الناس .. ؟ ..

لا ريب في أن الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى لا تعدو وان تكون مجرد عملية تطهير ذاتية ، قصد بها ممارسة عمل فكرى نبيل يعطى نوعا من الامان الذاتى والاطمئنان الروحى ، تمنح من السيادة الفكرية والقيادة الانسانية والنفوذ المعنوى ما يعوض العناصر التركية عما فقدته من جاه سياسى وسلطان اقتصادى وزعامة عسكرية ، قد تحقق نوعا من الشعبية تعزز من صدق المشاعر الوطنية ، وتدعو الى مزيد من الالتصاق بمصر وشعب مصر ، يساعد على تحطيم دعائم العزلة الاجتماعية التى تحاصر الاسر التركية المصرية ، وتيسر اندماج افرادها فى شتى ثنايا المجتمع المصرى دون عقد ، وتقاوم كل ما يعترض الاندماج الكامل فى الحياة المصرية .

ولذا فان جيل الشباب من العناصر التركية فى اوائل القرن العشرين اثناء حركة مصطفى كامل الوطنية وثورة سنة ١٩١٩ الشعبية تعرض لهزات نفسية اوقعته في ازمات فكرية ، فاذا به يعانى مرارة حيرة الآباء بين الولاء للدولة العثمانية من جهة وتعلقهم بالقطر الذى ولدوا على أرضه ثم هاجروا منه من جهة ثانية ...بينما يعانون هم انفسهم من تضارب العواطف وتناقض التصرفات ، ولا يدرون كيف يوفقون بين التعالي العائلى على عامة المصريين وبين التواضع الاجتماعى فى المعاملات اليومية مع عامة الناس ، والتعاطف الفكرى والمشاركة الوجدانية التى تجارى المصريين فى تطلعاتهم وآلامهم . !! ولا يعرفون كيف يجمعون بين التمسك بالتقاليد التركية داخل البيت وبين مجاراة العادات المصرية خارج البيت ... ويتأملون كيف داخ الجميع من محاولات المزج بين الدعوة للوحدة الاسلامية التى تحث على تكتل الدول الاسلامية فى جانب تركيا ضد الاستعمار الاوربى ، وبين ضرورة الارتباط بالوطنية المصرية التى تلزم جميع العناصر والطبقات بالتكتل من أجل مصر ضد اى تدخل أجنبي .

لا شك في أن شباب هذا الجيل وجدصعوبة ما بعدها صعوبة فىحفظ التوازنالنفسى والتماسك الفكرى واليقين الروحى ، الذىيدعو الى التصرف الحكيم السليم فى خضم هذه المتناقضاتالاجتماعية والثقافية والقومية.ولم يكن امامهم لتحقيق مثل هذا التوازى الا اتخاذ ضروب من التظاهر بدماثة الخلق وادبالحديث ورقة المعاملة ، لاخفاء معالم التعالى الذى لا يرتاح اليه عامة المصريين .. ويبدوناعجابهم باخلاقيات ابن البلد . ولا يتورعون عن محاكاته فى دعاياته وفكاهاته الى حد الرغبة فيتقمص هذه الشخصية او اظهار البراعة فى تصويرها فى أعمال فنية او التخلق بمثالياته فيالحياة العملية .. كأنهم يحاولون بكل الطرق تعميق احساساتهم المصرية الصميمة،والتخلصنهائيا من التناقض الرهيب الذى يعيشون فيه، وتحقيق نوع من الانضباط السلوكى لا يثيرضيق المواطنين من التصرفات المتعالية . وكل ذلك اكسبهم قدرة على المواءمة بين الشخصيةالتركية والشخصية المصرية ، بحيث نجحوا فى تجنب غضب العناصر التركية المتزمنة من ناحيةوالابتعاد عن اثارة حفيظة المواطنين المصريين من ناحية أخرى . الا أن كل ذلك لم يغب عنعامة المصريين وخاصتهم ، وكثيرا ما يلقون عليهم نظرات ترتاب فى تمام اخلاصهم للمصريين ..الا ان هذه النظرات تسبب كثيرا من الآلام القاسية ، خاصة لشباب ذلك الجيل الذى ولدونشأ وتربى فى ارض مصر ، ولم يعايش غير المصريين ولم يمتحن غير مشاكلهم ، وشب علىمشاعر وطنية لا تحب سوى الوطن المصرى .. ولذلك نلحظ كيف يبدو الالم على وجه يحيىحقى عندما يحس بانه ما زال يوجد هناك من المعارف من يعتبره دخيلا على المصريين ، ولاينظر اليه على انه مصرى صميم الا بنوع من المجاملة.. وكثير من شباب الاسر التركية المنبتيحاول أن يتحاشى ذكر أصله التركى ، حتى يتناساه ويغفل عنه الجميع ويبعد شبحه الىالابد ، حتى لا يتعرض لشبهة الاتهام بأنه مواطن غريب دخيل على المصريين .. ولعل مساهمةهذا الجيل اسهاما ايجابيا فى ثورة سنة ١٩١٩ عن صدق واخلاص بريئين من كل غرض وطدفيه نوعا من الامان النفسى ، حرره كثيرا من قلق الشكوك وبلبلة الريب التى تراكمت داخله على مر الاجيال ، فانطلقت آماله من جديد واخذ يوسع من دائرة طموحه ، وبعد ان كان يقصر نشاطه على مجالات النقد الاجتماعى والاشتغال بالآداب والفنون والحرص على تولى وظائفبالآداب والفنون والحرص على تولى وظائف النيابة والقضاء والاشغال الهندسية اذا بهلا يلتحق بمدرسة الحقوق الا لانها توصله الى مناصب الوزراء او السلك الدبلوماسى ، ولايتردد فى فصول المدارس العسكرية رغبة فى بلوغ مناصب قيادية في الجيش .. وكاد يختفىذلك التزمت الذى يقف أحيانافى سبيل مصاهرة العائلات المصرية .. وهكذا نجح هذا الجيل فىتحقيق خطوات اوسع نحو ضرب من الاندماج يقترب شيئا فشيئا من الاندماج الكامل ، ويبدوانه تخلص نهائيا من مشاعر الغربة ، واصبح لا يستولى عليه سوى وطنية صادقة خالصةلمصر وشعب مصر .

ولعل المحاولات التى بذلتها هذه العناصرمن اجل التوفيق بين الحياة الخاصة للعائلات التركية داخل البيوت والحياة العامة فى خضمالمجتمع المصرى خارج البيوت .. وكذلك

الجهود التى صرفت للمواءمة بين اتجاهـــاتالشخصية المصرية ونزعات الشخصية التركية اكسبت افراد الاسر المصرية التركية نوعا منالمرونة النفسية ،رسبت خبـرات وقـــدرات ومهارات تساعد على وضع الحلول الوسط ،وتحقيقنمط من التوازن بين كثيرمن الاختلافات المتضاربة يرضى عنها الجميع رغم الصراعاتالتى بينهم .. واذا بالظروف تكاد تلزمهم بأن يلتزموا على الدوام بالمواقف الوسط فيالمنازعاتالسياسية التى غالبا ما تنشأ بين المصريـين والانجليز حول الجلاء والحرية والاستقلال ..ولذلك ارتاح لهم الانجليز ، واستغلوا وساطتهم فى اخضاع المصريين لمطالبهم ، واطمأن اليهـم القصر السلطانى واعتمد عليهم فى المفاوضات مع الانجليز ، بل قدر عامة الشعب وخاصته كذلكمجهوداتهم فى تخفيف حدة التوترات السياسية .. ولا نعجب اذا مالجأ اليهم الجميععلىاختلافمواقفهمعندما تستبد بالبلاد الازمات السياسية .. وأحيانا كانوا ينجحون في تخفيف حـــدةالشقاق وتجنيب البلاد مخاطر التطرف فى أي نزاع ، مما مكنهم من أن يلعبوا على الدوام دوراايجابيا فى تحقيق ضرب من الوحدة الوطنيـة تمتص خلافات كل العناصر المتنافرة ، فترضىمواقفهم الوسط جميع الاطراف المتنازعة ، على اساس الاعتقاد بأن الوحدة الوطنية كفيلة بأنتتعدى شتى العقبات ، وقادرة على ان توصـل الى الامانى المنشودة ، وتخص بالذكـر موقفعدلىيكن الذى حاول ان يوفقبين خداعالانجليز وتمسكهم بالبقاء ، وبين صراحة سـعد زغلول ومواجهته للانجليز وتشـبثه بتحقيـق المطالب الوطنية فيالجلاء والحرية والاستقلال ... ورغمحسن نوايا عدلى يكن الوطنية ، ورغبته الاكيدة في تحقيق استقلال مصر فان محاولاته فى لقاءالانجليز فى منتصف الطريق ، واتباع سياسة الخطوة خطوة ، وتحقيق الاستقلال على مراحلأفسد عليه كل شيء وتعرض لمقاومة سعـد زغلول الذى رفض فى النهاية التعامل معـه ،وأثار ضده غضب الشـعب الذى اسـقطه فى الانتخابات وهو رئيس الوزراء فانسحب مـنالحياة العامة ويرجع كل ذلك الى ان جيل العناصر التركية في هذه الايام رغم قوة نزعاتهالوطنية ما زال يعانى من ميول ارستقراطية لم تعايش المشكلات الشعبية معايشة واقعية ، ولمتسمح له بالاندماج فيها اندماجا متكاملا ، وانما سمحت له باندماج محدود يتأملها من علو الفكردون ممارسة شاملة .. ولذلك خلا هذا الفكر من يقين المعايشة ووضوح التجربة . . بل عاشرفى استرخاء يحتل بعض المناصب القياديـــة والرئيسية لتعدد قدراته وكفاءاته وخبراته ،واستعداده لتحمل شتى المسئوليات ، وتفوقه في الثقافة من علم وفن وأدب يحدوه حماسمتدفق يرعى النزعات الانسانية الاصلاحيـة ، دفعته للاشراف على الجمعيات الخيريـة التىتوزع المساعدة والعون لكل من يستطيع انيصل اليها بطريق او اخر او لكل من نريد ان نصـلاليه لسبب او لاخر .. وحثته كذلك على تنفيذ بعض المشروعاتالاقتصادية التىلاتعود مكاسبهاالا على فئات معينة دون بقية الفئات الاخرى .. وتعتمد اكثر ما تعتمد فى السيطرة على جوانبمتعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصاديـــة والسياسية على نقص الخبرات المصرية وضعفوعيها الحضارى من ناحية ، وانتهاز فرصـة

انحسار النفوذ الاجنبى تدريجيا بسبب المقاومةالوطنية لتتسرب بسرعة ، وتستولى على المواقع التى تركها الاجانب قبل ان ينتبه الى خطورتهاالمواطنون المصريون من ناحية اخرى .. وكل ذلك ينم عن ان هناك نوعا من الانانيةكانت تتحكم في تصرفات العناصر التركية ، افقدتها القدرة على الرؤية عن بعد ، والتصور السليم ، لتطورالمواقف المصرية الصميمة ، وقدرتها علىمواجهة مختلف الصعاب واسترجاع شتى حقوقهـــاالمغتصبة .

ولذلك كانت مفاجاة ثورة ٢٣ يوليه التىلم تصدم القوى العاليــة والنفـــوذ الاجنبي وسلطان الاقطاع فقط ، وانما صدمت كذلـكالعناصر ذات الاصول التركية صدمة مباغتة ، جددت فى نفوسهم كل ما كانت تثيره الثـــورةالعرابية من مخاوفومواجع وتهديدات .. واذا بهم يرون احمد عرابى جديدا يعود فى ثوبجمالعبد الناصر ، وما لم يستطـــع احمد عرابى تحقيقه فى المجالات الداخلية استطاع جمال عبدالناصر ان يحققه فلقد اطاح بالنظـــام الملكى من اساسه ، وازال القصر ومن كان يدورفي فلكه من امراء وحاشية واتباع دون تمييز بين مختلف العناصر ، سواء أكانت من اصلاب تركيةاو مصرية صميمة او اجنبيــــة ، دون نظر لخبراتها وامكانياتها الحضارية وسرعان ما الغيتالالقاب الفخرية واختفى ما تثيره من حساسيات التعالى التى تباعد بين طبقات الشعب ، وضاعكل ما تحاط به من هيبة مفتعلـة واصبحت مقامات الجميع على قدم المساواة .. ولعـلقوانين تحديد ملكية الاراضي الزراعية وتأميم الشركات والمصانع والمصارف وتاسيس القطاعالعام كانت من اشد الضربات التى انزلتهاالثورة الناصرية باقتصادياتالاسر ذات الاصولالتركيةوافقدتها كل ما اكتسبته على مر الاجيـال من مميزات اجتماعية وسياسية واقتصادية ...ولا غرابة اذا ما اخذت المخاوف القديمة علـى المستقبل الآمن تعاود الاسرة المصرية التركية منجديد بعد ان عاشت آمنة مستقرة فتـــرة طويلة ...

ولكن ما أن اطمأنت ثورة ٢٣ يوليه الـىامكانية السير فى الخط الاشتراكى دون معوقات خطيرة حتى اهتمت بتعزيز الخط الديمقراطيالذى ضحت به بعض الوقت من اجل تدعيـم الاصول الاشتراكية فى العقـــول والنفوس ..وما ان اطلقت الحريات فى حـــدود القانـــون ، واعيدت الحقـــوق التى تحفظ عليها التحـــولالاشتراكى ، واستعانت بأهل الخبرة بعد ان شربوا من مناهل الاشتراكية ، حتى عم اقتناععام بأهميتها فى حل مشـــاكل الجماهير وازال كثيرا من القلق الذى راود البعض خوفا علىالمستقبل الآمن للابناء ، وبرد الشكـوك التى حثت البعض على الهروب ، واخـــذ الفارونيرجعون تباعا الى ارض الوطن وهـــم اكثـــر اطمئنانا ، لا يبخلون باسهامهم فى حل مشاكـلالجماهير . . وهكذاقبلتاخيرا العناصرالتركية نمطا من الذوبان فى المجتمع المصرى لم يسبق لهاان قبلته فى اى عهد من العهود ... !!

— ٢ —

هذه صورة سريعــة لتطـــورات الاسرةالمصرية التركيةمن النواحى النفسيةوالاجتماعية والاقتصادية منذ الثورة العرابية حتى الثورةالناصرية ... وفى معمعة هذه التطورات ولد يحيى حقي ونشأ وتربى وتعلم وتوظف ومارسالادب والفكر والفن وهو يعيش شتى محاولات

المواءمة بين الطبع التركي وتطلعاته في تحقيـــق المستقبل الآمن وبين اهتماماته بالاستقـرار في مصر كأبنائها الأصليين ... وشاهد يحيى حقي كيف بدات دعائم الوحدة الوطنية تتوطد بفضل جهاد مصطفى كامل وثورية سعد زغلول ... وتثقف على أيدي أجيال اهتمت بتدعيم التقارب بين مختلف جماعات الشعب المصري ، رغـم اختلافاتها العنصرية والطبقية والاجتماعيـــة والاقتصادية والدينية .. وتقلب بين جنبـات الطبقة الوسطى الحديثة التكوين مــن جمـاع المثقفين والاعيان من شتى الفئات ، وسايرها وهي تناضل من أجل تحقيق نوع من التناسق بين اتجاهات الحياة المصرية الحديثة وتأسيس وحدة وطنية مصرية تصرف جهودها نحو بنــاء مصر العصرية ..

فمنذ البدايــة شب يحيى حقي في حي شعبي ، واحب ابن البلد ولغته العامية المميزة .. ولكن على قدر ما احب الحي الشعبي وابــن البلد كره المدرسة المصرية والمدرسين المصريين .. اذ ما ان بلغ السن الذي يسمح له بتلقي العلم حتى بدأ تعليمه في كتاب السـيدة زينب .. ثم التحق بمدرسة ابتدائية مجانية لا يدخلها عادة الا أولاد الفقراء عانى فيها من قسوة ضرب عصا المدرسين ما جعل الدنيا تظلم في عينيــه يجبر نفسه اجبارا ويعذبها عذابا شديدا حتى تقوى على حشر دماغه بمعلومات لا يكاد يفهم منها شيئا ولا يدري لماذا يتعلمها ، وذلك لكي لا يتكــرر رسوبه كما حدث في السنة الاولى الابتدائية ، ويطلق سراحه من جحيم المدرسة الابتدائيـــة ويرضي امه التي تغضب وتتحسر على خيبـــة املها في اولادها اذا ما رسب احدهم (١٤) .. وظن انه قد يجد تعليما أفضل في المدرســـة الثانوية ، الا انه عانى فيها حرمانا في تربيـــة الخلق ، وتخاذلا في انماء الشخصية ، وتقصيرا في الكشف عن المواهب والاستعدادات والقدرات تكتفي بحشو الراس بالقشور وبالعلم النظري دون ان تعتني بالدراسات الحقلية والتجارب العملية .. تخلو الكتب الدراسية ومناهج التعليم من كل ما يتصل بالموسيقى من قريب أو بعيد رغم انها غذاء الروح . وتخلو ايضا من الفنون وهي مهذبة للحس والذوق ومن التربية الدينية السليمة ، ويقتصر التعليم الديني على استظهار بعض الآيات القرآنية ... الا أن يحيى حقي عوض كثيرا مما حرم منه في المدرسة المصرية بما تلقاه من مدرسة الأم التركية .. اذ كانت على قدر من الثقافة الادبية والدينية ، تعطي اهتماما بالاحتفالات الدينية والاعياد الاسلامية خاصـــة موالد النبي الشريف ... ولذلك فان اول هزة روحية خبرها يحيى حقي في حياته كانت أيام الطفولة اثناء حفلة المولد النبوي الشريــف ، التي كانت تهتم الام باقامتها بالبيت في ميعادها من كل عام ، كما عودته منذ الصغر على زيارة المساجد ، خاصة تلك المساجد التي تقام بهــا الموالد . ولذلك عشق حضورا احتفالات مولد سيدنا الحسين ليتمتع برؤية ما يستعرض فيها من مشاهد السيرك من العاب الحيوانات ومن تمثيليات بسيطة ومن الاغاني الدينية .. (١٥)

---

(١٤) يحيى حقي : خليها على الله .

(١٥) يحيى حقي : دمعة فابتسامة .

وما كاد يحصل يحيى حقى على شهادةالكفاءة حتى وقع في حيرة . اذ كان عليه ان يختار بين القسم العلمى والقسم الادبى .. لقدكان يتمنى في صباه ان يكون طبيبا لان الطبمهنة حرة تهتم بدراسة جسم الانسان ، وتكشف عناسباب علله وامراضه ، فكان عليه أن يختار القسم العلمى ولكنه فضل القسم الادبى خشيةان يرسب سنة او اكثر من ناحية ، وان يحمل الاسرة مزيدا من الاعباء والمصروفات من ناحيةاخرى .. فما كاد يحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢١ حتى التحق بمدرسة الحقوق العلياالتي كانت تمثل قمة التعليم العالى فى ذلك الوقت ، ولا يدخلها الا المحظوظون من الاوائل ، ولذلك اعتبر التحاقه بمدرسة الحقوق شرفا عظيما لا يناله من يدخل مدرسةالتجارة العليا او مدرسة المعلمين العليا .. الا أنه لم يجد في اساليب الدراسة فى مدرسةالحقوق ما يجعلها تفضل عن المدرسة الابتدائية او المدرسة الثانوية ... لقد افتقد فيها علاقاتالتراحم والانصاف والمساواة بين الاساتذة والطلبة ، ورأى حدة الصراع بين الاساتذةالقدامى والاستاتذة الجدد . ومع ان منصب الاستاذ لا يعلوه منصب آخر فان اغلب الاساتذةاقرب الى التجار الجشعين وأبعد ما يكونون عن حملة العلم .. ووجد الطلبة فى زحمةالامتحانات فى سباق مروع من اجل الظفر بالاولوية دون مرشد يدلهم على أحسن المراجعوادقها . في حين يجامل بعض الاساتذة أبناء الوزراء وكبار موظفي الحقانية التى تتبعهامدرسة الحقوق .. ويسرقون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة حتى اصبح التعليم « كسلقالبيض »ومجرد حشو الدماغ ،حتى يكاد ينفجر بالتفاصيل والقشور دون ان يتاح لطالب واحدفرصة ليقف ويتكلم امام جمع من الناس وهو حاضر الذهن مالكا لشخصيته واعصابه ، حتىلا يمارس المحاماة الا وهو مدرب على صنعة الكلام وحسن الخطابة بعد معرفة القانونواجراءاته .. (١٦)

وهكذا كان مجتمع مدرسةالحقوق صورةمصغرة من المجتمع المصرىككل شاهدفيه يحيى حقى صراعات غير مفهومة بين الاساتذة المصريينعلى الربح والمنصب ، ومنازعات بين الاساتذة الانجليز والفرنسيين من اجل توجيه الدراسة فى المجالات التى تراعى مصالح بلادهم ، وتنافسا بين الطلبة على الاولوية عن طريق التفوق فيالامتحانات او الوساطة والمحاباة والمجاملة .. ولقد اكتوى يحيى حقى بنار هذه الصراعاتوالمنازعات والتنافس التى كانت تثير في داخله تيارات مريرة من القلق والشك وعدمالاطمئنان ...

وانتهت مرحلة الدراسة بمدرسة الحقوقالعليا بنجاحه فى امتحان الليسانس عام ١٩٢٥ وجاء ترتيبه الرابع عشر ... فبعد ان كان قبلظهور النتيجة يتمنى فقط مجرد النجاح ولو جاء اسمه فى ذيل قائمة الناجحين حتى لا يغضبامه او يجرعها مغبة خيبة الامل . وحتى لا تنعى ضياع جهادها من اجل أولادها او تندب سوءحظها معهم . فاذا به يتطلع ان يكون من بين الاربعة الاوائل الذين سترسلهم مدرسة الحقوقفي بعثات الى جامعات اوروبا لاعدادهم لشغل

---

(١٦) يحيى حقي : خليها على الله .

مناصب الاساتذة تدعيما لحركة تمصير مدرسةالحقوق ، واحلال الاساتذة المصريين مكـــان الاساتذة الاجانب من انجليز وفرنسيين ...واخذت تراود يحيى حقى آمال تؤكدها لـــه تجربته فى المدارس المصرية ، واشعرتــه بأنلا مجال للتثقيف الحقيقي الا فى الخارجولافرصة له في اتقان لغة اجنبية الا بالسفر الى بلادهــاحيث تتوفر مناسبات لمشاهدة ضروب من الفن الرفيع على مسارح الباليه والأوبرا والكونسير...وكم آلمه ان يرسب فى الكشف الطبىويخرج من دائرة المرشحين الاصليين وينزل الى مرتبةالمرشح الاحتياطي .. وتحسر على ضياع فرصة كان يأمل ان تعوضه عن كل ما افتقده فىالمدارسالمصرية ، وينعم بالجو العلمى الصحيح ،ويعيش في اجواء ثقافية تنمى عقله وترهف حسهوتندبذوقه وتسمح له بالتمتع بمختلف ضروب الفن الرفيـــع ...

ولم يكن هناك بد من ان يقف يحيى حقىفى طابور الطالبين للوظيفة . مثله فى ذلك مثل جميع أفراد اسرته الذين لا يوجد احد منهم منتجرأ واشتغل بالمهن الحرة ... واصبح املــه ان يعينه ترتيبه المتقدم للحصول على وظيفة فيقلم قضايا الحكومة .. وحيث انه كان يعلم ان وظائف النيابة المختلطة كانت وقفا على أولادالذوات وعلى من يجيد الحديث باللغة الفرنسية اضطر ان يقدم طلبا للنيابةالاهلية ، فوضعتحتالتمرين فى مكتب نيابة الخليفة لقربه من سكنه .. وبدأ عملا أصدق وصف له هو « صبىوكيلنيابة » كل مهمته ان يجلس بجوار وكيل النيابة ويراقبه .. قد يسمح له بقراءة محضر التحقيقوابداء الراى فيه شفويا .. ولكن لا يحمـــل مسئولية تولى التحقيق ذاته او ابداء الراى فيهكتابة . ولم يجد من يحاسبه على الحضور والانصراف فلم يرتح لمثل هذا العمل ، وشغلنفسه فى الفترة ببعض الدراسات القانونية عن الاحداث والقاء بعض المحاضرات عنها .. كانيطمع من طريقها ان يتولى وظيفة تسمح لــه بالاشراف على ملاجىء الاحداث ومواصلة ابحاثهفى كل ما يتعلق بمشاكل الحدث . ولكنه وجد السبل مسدودة لمثل هذه الوظيفة . فحاول أنيجرب حظه في المحاماة وهى عمل حر غريب عن أسرته يتطلب اتصالات متشعبة بمختلف فئاتالمجتمع .. بينما أسرته قليلة العدد منطوية على نفسها فى شبه عزلة اجتماعية .. كل رجالهاموظفون ، ليس لهم معاملات مع الناس تدعو الى الدخول فى خلافات مدنية أو منازعاتجنائيةاو حتى مشاحنات عائلية تستدعى خصومات شرعية . فلم يجد يحيى حقى من يسنده فىالقاهرة ، وهى بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشىء الى اتصالات ومعارف واصدقاء لكىيستطيع ان يجد لنفسه مكانا بين كبار المحامين الذين يسيطرون على مختلف القضايا .. (١٧)فاذا به يركب الصعب ويقبل الذهاب الـــى الاسكندرية وينزل ضيفا عند خال له يعمــلبالجمارك ليمارس المحاماة في بلد تكاد تخلو من كبار المحامين الاهليين ، ويكثر بها المحامــونالاجانب الذين يسيطرون على سوق محكمـــة الاستئناف المختلطة . فاشتغل أول الأمر فىمكتب محامى يهودى وجد فيه كثيرا من مظاهر التقدم الثقافى ومن علامات الرقى الحضارى ..ولكن سرعان ما تركه عندما لـم يف المحامى

(١٧) نفس المرجع السابق .

اليهودى بوعده ويدفع له المكافأة فى اول الشهر .. واشتغل فى مكتب محام مصرى وعده بمكافأة شهرية اكبر .. ويبدو انه لم يجد الامان كذلك عند المحامى المصرى واذا به ينتقل الى دمنهور وينزل عند احد انسبائه البعيدين ويعمل فى مكتب محاماة أنابه صاحب المكتب فى تولى أمر الدفاع فى بعض القضايا الصغيرة .. دعته الى التنقل بين مراكز دمنهور لحضور جلسات محاكمها .. وفي دمنهور تعرف على طباع اهالى البحيرة من خلال خلافاتهم التى تعرضها أمامه ملفات القضايا التى وكلت اليه دون ان يخالط الاهالى مخالطة تعرفه بهم عن معاناة وتجربة . الا انه فزع من قضايا النصب وما تنطوى عليه من غفلة وبراءة متناهية ، ومن لؤم وخسة ودناءة وطمع وجشع من ناحية اخرى .. وتعجب من كثرة ضحايا الخلافات بين الرجل والمراة ، وما تدعو اليه من خيانات تمس العفة والشرف حتى احس بأن الامانة في هذه الدنيا امر مستحيل .. وليته وجد اي نوع من الراحة وهو يبذل اقصى ما يستطيع من جهد لاظهار الحق ودفع الظلم عن موكليه ، ولكنه تعرض لخداع سماسرة القضايا الذين يعملون كوسطاء بين المحامين والمتقاضين .. كما لم يرتح الى كفالة العدالة بسبب العجلة التي تدار بها جلسات المحكمة وسرعة اصدار الاحكام .. فساعد كل ذلك على ظهور عقدة التركى فى مصر التي افقدته الاحساس بالامن والاستقرار ، واغرقته فى مشاعر الغربة والخوف من المستقبل. فلم يستطع مقاومة ضغط التخويف العائلي من مغبة الاستمرار فى عمل حر غير مضمون الجانب، خاصة بعد وفاة والده فى ١٩٢٦/١٠/٢٦ . وقلق اهله بعد مرور ثمانية شهور على اشتغاله بالمحاماة .. دون فائدة تذكر فوجد نفسه فى النهاية يستسلم لاساليب الاتراك في الوساطة والشفاعة لنيل وظيفة ، وان كانت اقل كرامة مما كان يتمنى .. واذا به يقول : « تعرضت لضغط شديد .. خوفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول .. من أجل ان ارضى بوظيفة فى الحكومة ... لم يجدوا لي بعد الوساطات والشفاعات الا وظيفة معاون ادارة ... ان هذه الوظيفة اقل كرامة من وظيفة النيابة .. فلم اقبل المنصب الا صاغرا مستسلما . » (١٨) .

ولكن ما ان علم انه عين معاون ادارة بمنفلوط حتى احس بان سفره الى مقر عمله هذه المرة لا يماثل سفرياته الى الاسكندرية ودمنهور حيث نزل عند الاقارب .. واذا به يتهيب السفر الى الصعيد ، ويتوهم أنه مهاجر يقيم منفردا فى بلد غريب بعيدا عن الاهل ، ويتوجس خيفة من انقطاع صلته بعائلته ، ويضطر ان يعيش وحيدا فى بلاد تنتشر فيها جرائم القتل والاخذ بالثأر ؛ محرومة من وسائل التقدم الحضاري من ماء نقي ونور كهربائي ومجاري .. تزحف فيها العقارب في كل مكان .. كلها حياة خشنة صارمة لا تعرف الزينة ولا تجيز دلع القاهري فى طعامه وملبسه ونكاته ونزهاته .. ليلها سجان له يد سوداء تغلق الابواب عند غروب الشمس على الانسان والحيوان ... فأخذ يحيى حقي يردد اقوالا لا تخلو من رعشة « لا استطيع ان اتبين شعوري حين علمت انني مهاجر لاقيم منفردا بالصعيد ..هل هو تهيب من المجهول .. او هو خوف من

(١٨) نفس المرجع السابق .

الانقطاع والوحدة .. ؟ لم يسبق لي قط ان سافرت للصعيد او خالطت اهله .. صورته المنطبعة فى ذهني رسمتها لي اقاويل تقاربتهاويل الاشاعات عن جرائم القتل والاخذ بالثأر .. » (١٩) ومع ذلك سافر يحيى حقيالى منفلوط وتسلم عمله كمعاون ادارة فى اول يناير سنة ١٩٢٧ . تحدوه مشاعر « بسعادةالانطلاق .. الى عالم غامض احس بسحره وعطره .. كنت اشتاق اليه من قديم .. وادركتأن مصريتي ومحبتي لبلدي لا تتمان الا اذا اغتسلت فى حوضه » . (٢٠)

لا جدال فى ان الشيء الجديد على حياةيحيى حقي في منفلوط هو معشيته وحيدا بعيدا عن الاسرة ، دون تدخل من والدته التي يبدوانها كانت ذات شخصية مسيطرة يعمل لها الجميع الف حساب ... ولقد سكن بمفردهلاول مرة ، اذ لم يكن هناك اقارب ينزل عندهم كما كان الحال فى الاسكندرية ودمنهور...يدخلالبيت ويخرج منه بلا رقيب ، لا يحاسبه احد وقت الخروج ولا يجد من يسأله متى عاد .. اذكانت والدته تحرص على ان تتم على أولادها جميعا قبل ان تنام ، ولا يأتي لها نوم الا بعدان يدخل كل منهم فراشه .. وكل هذه الحرية اتاحت له الفرصة الكاملة لكي يتخلص من تأثيركثير من تقاليد اسرته التركيه ، ويقترب اكثر فاكثر من صميم الحياة المصرية بعيدا عن كلالتدخلات الخارجية .. يعيش فى معمعة المجتمع المصري صباح مساء ، تحيط به مختلف مظاهرالحياة المصرية من كل جانب .. يستعين بأهل منفلوط ويعتمد عليهم كل الاعتماد فى مواجهةشتى الحاجات اليومية الضرورية ... وان ظروف عمله كمعاون ادارة حصرت اتصالاتهبالفلاحين الى حد كبير ودفعته لمعرفة طباعهم وعاداتهم فى مواقعها الاصلية .. بينما التنقل بينالمراكز والقرى لتلبية الواجب الوظيفي جعله يشاهد عن قرب الطبيعة المصريه ويتصل بهاتصالا مباشرا حين يخترق الحقول ويتأمل النباتات ويراقب الحيوان .

وبذلك تكون اقامة يحيى حقي منفردا فىمنفلوط مدة عامين لمباشرة مهام عمله قد ادت الى احتكاكه الفعال بالانسان المصري والمجتمعالمصري والطبيعة المصرية ، مما ساعد على تنمية شخصيته المصرية في ظروف لا تسمح بتسربنفوذ التقاليد التركية ونزعاتها ، وتدعو الى تغليب التقاليد المصرية وتعميق نزعاتها فى مختلفتصرفاته .. واذا بالحياة الجديدة تستغرق كل وعيه واهتماماته ، ولا تكاد تفلت منه لمحة منلمحات الريف فى الصعيد .. فانتبه الى انماط من الانسان الساذج المتخلف .. روعه الدجالالدعى الذي يتظاهر بالتقوى ويلبس العمامة الخضراء ليستغل بساطة الفلاحين .. ويبعثالرهبة فى قلوبهم ويسلبهم اموالهم ويستدرج نساءهم ... وشغله المحتال الذي يلجأ الىكشف الطالع وادعاء القدرة على شفاء الامراض المستعصية .. فهاله ان ينهزم العقل امام الدجلوالاحتيال الذي يوهم بامكانية الكشف عن كنوز مختفية واظهار الغائب البعيد ... ويهزه نفوذرجال الدين على الفلاحين .. ليس فقط فى

---

(١٩) نفس المرجع السابق .

(٢٠) المرجع السابق .

حلقات الذكر وصلوات الجماعة بل على الخصوص فى فض الحزازات وابطال الاخذ بالثار ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها وتقديم النصائح الاخوية التي تمنع الجرائم وتحض على مصالحة المتخاصمين ورد المطلقين ، والسماح بتأجيل سداد الديون .. ولقد ادهشه كيف يعم السلام في القرية طوال اقامة الشيخ بين ربوعها يتنقل من ضيافة الى ضيافة اسابيع وشهورا ، وكيف يتوجس الاهالي خيفة اذا ما عزم على ترك قريتهم ليتوجه الى قرية اخرى .. !! الا انه يلحظ ان قوة هؤلاء الشيوخ لا تتناسب مع ثقافاتهم وشخصياتهم بانه لا يوجد عندهم علم يبهر ولا قوة روحية خارقة ، وان ولايتهم ليست الا مجرد مهنة متوارثة لكسب العيش بطريق شريف يفيد الاهالي ، ويقوم بدور فعال فى تطهير المجتمع من كثير من الشوائب الخلقية والاجتماعية .. !! ولذلك كانت العلاقة بين هؤلاء الشيوخ والفلاحين علاقة مثالية تتسم بالنبل ، ليس فيها استغلال أو خداع بل فيها تبادل المحبة والاحترام والثقة والرغبة فى تعميم الخير ونشر السعادة والامان والاطمئنان بين الجميع . وذلك بخلاف العلاقة السائدة بين الفلاحين وموظفي الحكومة الذين استقروا فى بلادهم ليقدموا لهم مختلف الخدمات ...

لقد كانت علاقة الموظفين بالفلاحين تفتقر على الدوام الى الثقة المتبادلة ، مما دعا يحيى حقى لان يشعر بالاسى والاسف لوجود « هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة » ولذلك فان « معظم اشغال الحكومة ، رغم حسن نيتها ، يساء فهمها .. وتعرقل وتهدم .. » (٢١) وحاول يحيى حقى بكل قواه ان يستلين الفلاح حتى يثق به كموظف حكومى فلم يفلح .. !! اذ اصبح فى ذهن الفلاح اعتقاد راسخ بأن الحكومة لاتفهمه .. هو فى واد وموظفو الحكومة في واد .. ينظر الى هؤلاء الموظفين على انهم أغراب اجراء ، لايهمهم الا قبض مرتباتهم ، وقلوبهم ليست معه .. حتى دب فى قلب الفلاح ريبة متأصلة من الغرباء ، وريبة أشد اذا كان الغريب من طبقة الافندية الموظفين ، الذين يعتقدون انه راقد على كنز ، وان خيرات ارضه موفورة ينبغى أن يكون لهم نصيب فيها .. فلا نعجب اذا ما اخذ الفلاح حذره حتى لا يظهر عليه دلائل النعمة فلا يطمع فيه « الشباحون » من الموظفين الذين يتوهمون أن تقدير مهابة وظيفتهم تقاس بما يلقونه من اكرام ، ويقدم اليهم من ماكولات حين ينزلون على الفلاحين لظروف العمل ويضطر العمدة لاستضافتهم ... الا ان « فراغة عين الموظف » ليست السبب الوحيد لعدم ثقة الفلاح فيه .. انما لاهتزاز صورته كذلك أمام عينيه ، ما ينشب بين الموظفين من خلافات وخصومات تصل الى حد العداء السافر وكتابة العرائض الكيدية ، فكيف تؤمن جانبه .. ؟ فقد يلقى الفلاح الموظف الجديد بالترحاب عند قدومه لاول مرة ، ويقبل ان يدخل معه فى علاقات طالما انها تعود عليه بالفائدة .. لانه يعلم ان هذا الموظف لم يأت اليهم « حبا فى سواد عيونهم » بل تادية لواجب مفروض عليه ربما يراه كريها فاذا ما فرغ منه يسرع فيولي ظهره وينفض يديه منهم ... ومن خلال هذه المشاعر كانت تصرفات الفلاح تذبذبا بين عواطف الوفاء ونكران الجميل

---

(٢١) يحيى حقي : خليها على الله .

... وبين التودد والنفاق .. مما جعل الموظف بالتالي ، يشعر بان الفلاح رجل لا يوثق به ، عنيد لا يتحول عن طبعه، وان معاملته باللين والانسانية عبث ضائع .. ولكن عدم الثقة المتبادلة وريبة كل منهما في الاخر تفسد كثيرا من مشروعات الحكومة ، خصوصا تلك المشروعات التي لا تراعى احوال الفلاح المصري الاجتماعية والثقافية ولم يسبقها اعداد الموظف المناسب لحياة الريف المصرى . . . !!

وفقد الثقة بين الفلاح والموظف ليست المظهر القبيح الوحيد فى ريف الصعيد .. فان هناك مشاهد اخرى اشد قبحا تستلفت النظر وتدعو الى التامل .. فان الفلاح المصرى الذى لا يثق فى الموظف يتعرض يوميا لضروب مختلفة من الضغط فى شتى مجالات حياته العادية : يستغله الموظفون من اكبرهم لاصغرهم ... فان المامور يفرض نفسه على العمدة لكى يعد له وجبة فاخرة اذا ما نزل عليه لسبب من الاسباب يستدعى البقاء في بلدته مدة طويلة ... فيضطر العمدة أن يستولى على دجاجة فلاحة فقيرة لكى يقدم للمأمور الوجبة الشهية التى ينتظرها، ويرضيه على حساب « فلاحة غلبانة » في اشد الحاجة الى العون والمساعدة . . بينما يعامل الطبيب الفلاحين بأساليب تخلو من الانسانية ، وتتسم بالاستعلاء والفلظة والاستقلال . . . فطبيب القرية لا يتورع عن تشريح جثة قتيل فى عقر داره امام أهله ، ولا يبالى بحرمة الميت ولا يحترم مشاعر الجماهير ويقطع فى جثة الفريق على الجسر أمام المارة ... ولا يستنكف من ان يسخر من شباب القرية وهو يكشف عليهم عرايا بوقاحة يوم فرز القرعة ... فلو كان يفحص كلبا جربا لكانت يده أحن عليه من على هؤلاء الفلاحين ... يعيش في قصر جميل ، معتزلا القرية ، كانه اقامه وسط غابة وأحاطه بالمتاريس، ولا يتسع الا له ولأسرته ويخرج منه يوميا للادغال لصيد الوحوش ثم يعود ليتمتع دون بقية أهل القرية بكل مزايا المدنية المادية والمعنوية. ... يحيا فى قصر يسوده السلام والدعة والرقة والنظافة والابهة والرفاهية ولا يمكن ان يتصور أن هذا الطبيب المهذب النبيل داخل بيته هو نفسه الذى يعامل الفلاحين بغلظة وقحة لا اخلاقية ... فيشترط دفع الاجر قبل تقديم العلاج المطلوب او قبل اجراء عملية ، لا هم له الا الاثراء العاجل بأى ثمن بالطرق المشروعة او غير المشروعة على حد سواء دون تمييز بين الخير والشر او الحق والباطل »(٢٢). هذا فضلا عن أن الفلاح كثيرا ما يتعرض لغلظة العمدة بل وظلمه واستغلاله أحيانا لتحقيق مآرب شخصية ، أو ليظهر مدى سطوته على الفلاحين حتى يرضى عنه الحكام ... فيعيش الفلاح بين مطرقة العمدة وسندان شيخ البلد ، يحاول أن يكسب ود الطرفين المتنافسين دون جدوى .. فلا نعجب اذا ما سرت الغلظة والقسوة فى مختلف نواحى الحياة في ريف الصعيد فلاتكاد تموت زوجة الفلاح حتى يتزوج باخرى مهما كان عدد أولاده ومهما بلغ من الكبر . وسرعان ما يتآمر الاولاد على الاب ويقتلونه . واذا ما فرطت بنت فى عرضها فلا يتردد اى فرد من أفراد العائلة عن قتلها حفاظا على الشرف

---

(٢٢) المرجع السابق .

.. ولا سبيل لحل الخلافات على حدود الارض وري الغيطان سوى تبادل اطلاق النار وسقوط الضحايا من هنا وهناك ، صونا للكرامة ودفاعا عن حرمة الارض ... بل ان الفلاح منذ ولادته محروم من حياة الطفولة يقاسي منذ الصغر ويلات العمل فى الحقول ، وسرعان ما يصاب بامراض البهارسيا والملاريا التى ترهق بدنه وتغتال حيويته وتسرع به الى شيخوخة عاجزة ، في حين لا تعرف الفلاحة الرأفة ، فماتكاد تتزوج حتى تنجب، ولا تمنعها كثرة الخلفة ومتاعب الواجبات المنزلية أمام الفرن وتقريص الجلة من مشاركة زوجها فى الغيط . . وهكذا تستمر فى عمل يومى شاق دون توقف منذ الصبا الى الشيخوخة حتى يصعب التمييز بين الشابة والعجوز من نساء القرية « فليس فى قبضة الفقر والشقاء الا عمر واحد » . (٢٣) يجد الفلاح نفسه مضطرا لان يهتم بحيواناته الى درجة تفوق اهتماماته باولاده وزوجه .. فاذا ماتت الجاموسة ذرف عليها الدموع، ولطمت النساء الخدود ، واقيمت مناحة كبيرة يتقبل فيها العزاء من الاهل والجيران .. ولذلك فليس هناك اشد قسوة في الانتقام من دس السم للبقر والجاموس .. وان الترف الوحيد الذى يعرفه فلاح الصعيد الحافى القدمين المرتدى الجلباب الازرق البالى هو القتل عند الاخذ بالثأر. (٢٤) بينما تكاد تخلو حياة الفلاح الخاصة من اللهو والمرح ، ولا يسرى عنه الا نزول السيرك الى مولد السيد عبد الرحيم القنائى .. فيتسابق الفلاحون الوافدون من جميع أنحاء المركز على مشاهدة الالعاب البهلوانية وعروض التمثيل ومشاهد الغناء والرقص فى نشوة ما بعدها نشوة لا تتكرر الا نادرا .. الا ان الفلاح لا يعرف شيئا عن بهجة الانثى حتى ان الفوانى – وهن قلائل – يرقصن فى لباس يغطى اجسادهن الى الكعبين في بيوت من القش والطين .. ومع ذلك فان الحياة الجنسية تلعب دورا هاما فى تحريك الحياة فى الصعيد وتثير متناقضاتها الاهتمام .. ! ! اذ كيف تصبح الست ظريفة – التى كانت فى شبابها غانية من الفوانى – ولية من وليات الله ويشيد لها مقام يزار ويتبرك به .. بسبب ما اظهرته من كرم وتوبة وتبتل في أواخر حياتها .. ومع أن التقاليد لا تعطى للمراة التى تفرط فى عرضها فرصة للتوبة وتقتص بها فورا بالاعدام .. كما انها سمحت بوجود نقطة للدعارة الرسمية .. فلم يعترض أحد من الاهالى على احتراف الفحشاء أو يتحمس لاجبار المومسات على مغادرة البلاد .. بل لم يتأفف فرد منهم من سوق الشرطة لهن لاستقبال قطار الرحلة الملكية واطلاق الزغاريد التى يمتنع احرار نساء الصعيد عن اطلاقها علنا .. ! وكذلك يعرف العمدة وشيخ البلد كل امراة تمارس الجنس سرا ولا يحاول احدهما أن يمنع واحدة من بائعات الهوى عن التردد على بيوت الافندية فى الاماكن النائية فى الخفاء تحت ستار الليل .. بل لا يتورع العمدة او شيخ البلد عن أن يدفع بامراة بحراوية بعد ان يأخذ مأربه منها ليلهى بها الموظفين الذين يتقززون من قذارة المومسات الرسميات اللاتى يكشف عليهن كشفا طبيا شكليا وان كان دوريا..

---

(٢٣) يحيى حقي : ام العواجز : قصة ازالة ريحة . الكتاب الذهبى العدد ٢٩ اغسطس ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٤) نفس المرجع السابق .

بهدف ابعاد خطر استهواء الشبان من الموظفين لبنات القرية ونسائها .. حتى لا يتعرضن لمصرع اليم .. مع ان الرعب من القتل يكاد يحد مـن انحراف النساء الصعيديات .. فاذا ما طـاش سلوك واحدة منهن غالبا ماتكون من نوعية معينة: كأن تكون ابنة تاجر ثرى مشغول بتجارته .. في حياته يسر ، يتمتع بقسط من التحرر يخـفف من شدة الرقابة . (٢٥) أو تكون بنت مدارس دخلت فى علاقات اجتماعية لم تنشأ عليهـا . .او تكون من أسرة مسيحية يلتحق بناتها بمدارس التبشير التى تسمح بنوع من الاختلاط مع الجنس الاخر (٢٦) وفى جميع هذه الاحوال تنتهى حيـاة البنت التى لا تحرص على شرفها لسبب او لآخر وان كل ما ينسب الى الصعيد من انحـرافات جنسية ينصب فى الغالب على نساء بحراويات أتين من خارج الصعيد (٢٧) او الى الفوانى اللاتى ينشأن على حياة حرة طليقة لا تحافظ على حرمة الجنس وصيانة العرض ، ومستعدة لأن تبـذل كل شىء فى سبيل المصلحة والنفع والمادة (٢٨) . . وهكذا اهتم يحيى حقى بأن يعرض متناقضـات القيم الجنسـية في الصعيد ويبين كيف أنه يحـق للرجل الصعيدى ان يمارس الجنس في حـرية مطلقة دون قيد اخلاقى أو شرط دينى ، ولا يلام اذا ما اشبع نزواته الجنسية بأساليب داعـرة رغم تعدد زوجاته . ولا يشعر بالعار اذا ما رأى الدعارة تطوف من حوله ، ولا يجد داعيا لأن يحرك ساكنا طالما انها لا تمس اهله ، بخـلاف اذا ما سمحت امرأة من الصعيد لنفسها بممارسة الجنس فى غير النطاق الذى وضعه الشرع وتسير عليه التقاليد فانها تلقى مصيرها من غير تردد او تفاض . . ! !

• • •

الا أن ريف الصعيد ليس كله قبحا فان الطبيعة وهبته من الجمال الشىء الكثير ، ما اجبر يحيى حقى على ان يصف روعة تدفق ميـاه الفيضان مع احتفال الفلاحين بوفاء النيل ، ويعرض مناظر حقول القطن والبرسيم فى لوحات خلابة ، ويتامل حيوانات الغيط عن قرب ، خاصة الحمار الذى زامله مدة اقامته بمنفلوط ، ويحـاول ان يستشف كنه كل حيوان من خلال عينيه « للبقرة عين غارقة فى أحلام لذيذة .. للجمل عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنمـا يخشى أن تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء . . وللحصان عين تنم عن الخيلاء والنبل والذكاء تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة . . وللتيس عين فيها العناد كله ، وحتما الخبث والمؤامرات .. وللجاموسة عين متطفئة لا تنبعث منها حياة او ارادة الا وهي ترضع طفلها فينعقد سباتها على الحنان .. اما الحمار فان عينيـــه ذابلة حزينة تكاد تترقرق فيها الدموع ، بل يخيل

---

(٢٥) نفس المرجع السابق .

(٢٦) يحيى حقي : دماء وطين : قصة البوسطجي .. مجموعة اقرا . دار المعارف . العدد ١٥٣ . عام ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٧) يحيى حقي : دماء وطين : قصة « ابو فودة » .

(٢٨) يحيى حقي : دماء وطين : قصة : قصة فى سجن .

الى فى بعض الاحيان انها معمصة كعيون الاطفال بعد بكاء .. اهذا هو سر نهيقه .. ليس فى صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقة والتفجع والمرارة ،انها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد النـاس فى نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تذوب كأنها لم تكن .. (٢٩)

لا شك فى أن الفترة التى قضـاها يحيى حقى فى ريف الصعيد ـ رغم قصرها اذ لم تتجاوز العامين ـ قد عمقت مصريته الى أبعاد ما كان يستطيع أن يصل اليها لو بقى فى القاهرة بصفة مستمرة ولم يتركها الى الصعيد .. فلقد يسرت عليه فهم كثير من اتجاهات الحياة المصرية ونجح فى تصويرها تصويرا واقعيا صـادقا فى كتـابه ((**خليها على الله**)) .. والهمته بأروع قصصـه الاولى في ((**دماء وطين**)) و ((**أم العواجز**)) كانت صدى لتجارب حية ظلت تتفاعل فى داخله وتوحى اليه بعواطف ومشـاعر وأفكار وحكمة وموعظـة وصور وخيالات ، شغلت وجدانه وحركت عقله لمدة طويلة حتى وهو بعيد عن ارض مصر متنقـلا بين بلدان أوروبا .. وعلقت قلبه بالفلاح المصرى رغم قذارة ملابسـه وبيته وضآلة طموحه وسرعة وقوعه فى الجريمة والانحراف .. فسخر فنـه القصصى ليكشـف عن أسرار طبيعة شخصيته ،ويدعو الى النهوض به نهضة انسانية وثقـافية حتى يرتفع مستواه الحضارى ... الا ان يحيى حقى نظر للفلاح نظرة أهل الحضر وسكان المدن التى لا تستسيغ الاوضـاع المتهالكة التى عليها أهل القرى وسكان الريف ، فكان هدفه من وصــف المجتمع الصعيدى الوصول الى نوع من النقـد والتوعية بقصد ، اولا وقبل كل شيء ، اصـلاح حال الفلاح المصرى فى ضوء المفاهيم الحضارية الحديثة .. ولكن أوصـاف يحيى حـقى للفلاح والحيوان والحقول تقف عند حد القطـاعات التى سمحت ظروف حياته بأن يتصل بها اتصــالات مباشرة أو يدخل معها فى علاقات عمل أو لهــو وأثقلت فكره ووجدانه .. ولا غرابة فى ذلك فلقد نشأ يحيى حقى وتربى في القاهرة ، وترجع معرفته بالريف ، قبل ان يذهب الى منفلوط ، الى مجرد رؤية بعض القرويين الذين يدخلون بيته لتقديم حساب المحاصيل واجرة الارض ، أو لقضــاء عمل من الاعمال المنزلية .. وأغلب تصـوراته عن الريف استقاها عن بعض التهاويل والاشاعات التى استمع اليها من هنا وهناك .. ولما ذهب الى أعماق الريف الصعيدى لم يخالط اهـله او يعاشرهم ، انما كانت اغلب اتصالاته مع انداده من الموظفين وبذلك لم يختبر حياة الفـلاحين فى أحضان الريف ، لانه لم يقم فى بيوت من الطوب اللبن ويرقد على الارض بجوار الحيوان .. ولم يأكل أكلهم صباح مساء أو يشرب من مجـارى الانهار ويرتدى زيهم الفضفاض .. ولم يشاركهم فى جد هم وعبثهم ، يستهويه ما يستهويهم وينفر مما ينفرون ، يخطط معهم للاخذ بالثأر أو يجد نفسه بلا ارادة مندفعا فى معركة من معاركهم دفاعا عن الكرامة او الارض .. ولذلك اذا اطلع يحيى حقى على بعض اسرار الريف فى الصعيد ورآها عن كثب فلم تتح له الفرص الكاملة لأن يندمج في عائلة من العائلات الصعيدية اندماجـا شاملا يسمح له بالامتزاج التام فى خضم حيـاة

---

(٢٩) يحيى حقي : خليها على الله ..

الفلاحين ليتعرف على ابسط دخائلهم اليومية التى لا يمكن ان يلمحها القريب مهما بلغ من الوعى والثقافة ودقة الملاحظة .. أو يستجيب لكل مايشغل وجدانهم ويثير اهتماماتهم ، ويتجاوب مع كل ما يفتعل فى قلوبهم من هموم ومخاوف وآمال وتمنيات .. ولذلك لا يكفى أن يحس الفنان بالمشكلة لكي ينفعل بها ويعايش ابعادها معايشة حيوية ليستطيع ان يعبر عنها تعبيرا صادقا ، وانما يجب ان يعيش هذه المشكلة بكل جوانبها ويندمج فيها اندماجا شاملا فى تجربة كاملة لا تقف عند مجرد الانفعال والمعايشة ؛ معتمدة على نفاذ البصيرة وشفافية الرؤيه .. اذ لا جدال فى أن من يعيش التجربة أكثر صدقا وابلغ دقة وأكثر قدرة على التعبير عنها عن الذى ينفعل بها أو يعايشها لفترة من الزمن مهما طالت .. اذ سرعان ما يستولى عليه الملل ويفقد الانفعال حيويته ، وتصبح المعايشة عبئا ثقيلا قد تنقلب الى ضيق وتذمر يتمنى الخلاص من حياة لم يعتدها ... **واذا حاول يحيى حقى أن يوهم نفسه قبل ان يوهمنا بانه بلغ اغوار شخصية الفلاح المصرى ، وانه كان فى موقع يسمح له بان يفسر احوال هذه الشخصية تفسيرا سليما فان نظرته الى هذه الشخصية لم تكن نظرة موضوعية خالصة ، انما كانت نظرة اثر فيها منطق اهل المدن ، حتى يمكن ان يقال ان نظرة يحيى حقى الى أهل الصعيد أقرب ما تكون الى نظرة هؤلاء المستشرقين اصحاب القلوب الكبيرة العامرة بحب الانسانية التى تقبل طواعية أن تعيش فى المجتمعات البدائية اطول مدة ممكنة ، بهدف انقاذ الانسان المتخلف ورفع مستوى حياته وحمايته من الجهل والاستغلال** .. الا ان يحيى حقى يمتاز على هؤلاء المستشرقين بأن بواعثه فى الحدب على هؤلاء الفلاحين لا تقف عند حد الاشفاق والعطف خلال لفتة انسانية ، انما تستند كذلك الى نوع من الغيرة الوطنية يحزنها ان ترى المواطنين على ماهم عليه من تخلف وشقاء ..

وهكذا اكتفى يحيى حقى بأن ينفذ فى أعماق الريف المصرى محاولا أن يتسرب الى وجدان الفلاح المصرى من خلال تصرفاته الخارجية التى يراها امامه ولا يقبلها منطق أهل المدن ليفسرها من خلال علاقاته المتضاربة بين الفلاحين انفسهم من ناحية ، وبين الموظفين من ناحية اخرى ناشدا فهم خبايا الريف وأسرار شخصية الفلاح المصرى .. ولكن هذا الفهم كان مقيدا كما ذكرنا بحدود امكانيات نشأته القاهرية فى نطاق أسرة ذات اصلاب تركية ..

ولا نعجب اذا ما اخذ يحيى حقى يشكو من مرارات الحياة في ريف الصعيد ، ويئن من قسوة عمله صارخا « طالما أرهقتنى واذاقتنى عذاب الجسد والروح اشكالا والوانا » ثم يستدرك زاعما أنه لولا معاناة مثل هذا النوع من الحياة ، وممارسة مثل ذلك النمط من العمل ما عرف بلوى أهله ومشاكله وشدة حاجته لمن يأخذ بيده من ابنائه ؛ يترنم بلهجه وطنية ناشدا ان هذا الشعور قد انقذه من (الضياع) حتى وجد فى اقامته بمنفلوط (السلامة وراحة القلب بقدر ما في الدنيا من سلامة وراحة قلب) (٣٠).. الا انه كثيرا ما كانت تستولى عليه مشاعر

---

(٣٠) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

النفور والزهق ؛ تصور له تلك البلدة على انها راقدة بين الفيطان والنخيل .. حيوان مشوه.. جسم رابض على الارض لا فكر له .. عيناهواسعتان ولكنه اعمى .. يتنفس ويحيا ويجـد سبيله فى الحياة بفضل غريزة قوية .. نومـهوجوم .. استيقاظه تحفز .. سكوته بين هـذا وذاك .. مخاوفه . (٣١) وكم روعه ذاك الفلاحالمعدم الذى يهوى القتل تحت بواعث الاخـذ بالثأر ، وكثيرا ما كان يتحسر لعجزه فى التمييزبين الشابة والعجوز من النساء فى مجتمع ينـدر ان تظهر فيه المراة ... واذا بالملل يستبد به فىالنهاية ويشعر بأن يعيش حياة رتيبة كئيبة لا تسرى عنه سوى الجلسة المتشابهة كل يوم فىالقهوة مع الاصدقاء ذاتهم يتحدث معهم فى نفس الاحاديث التى لا تتغير ، وعادة تدور حول خباياعائلات الزملاء من الموظفين وخاصة حول تصرفات بعض الزوجات المنحرفات (٣٢) فأخذ يتشوقلعمل ينقذه من تلك الحياة القاسية الكئيبة ، واذا بالآمال تراوده فى البحث عن مستقبل آخريبعده عن هذاالمكان يحرره منأسر الريف ،ويطلقه فى عالم اكثر رحابة الى أن صادفه ذات مســاءاعلان فى صحيفة يومية .. فبينما (كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهك روحىوان له جسدى .. اقلب **ولا أقرأ صحيفة يومية واذا بنظرى يقع على اعلان لوزارة الخارجية بانها**ستعقد مسابقة **تعين** الفائزين فيهاً بوظائف امناء المحفـوظات اى سـكرتيرين فى القنصليــاتوالمفوضيات » (٣٣) فتيقظت فيه كل الرغبـات السابقة التى كثيرا ما شوقته للحياة فى الخارجحيث تتوافر مختلف المتع الفـكرية والثقـافية والفنية وكذلك الحياة المتحضرة الراقيـة التىللمراة فيه دور بارز وسرعان مـا (تقـدمت للمسابقة ... ونجحت .. وان جاء اسمى فىذيل قائمة الفائزين .. صدر امر تعيينى امينـا لمحفوظات القنصلية المصرية فى جدة باعتبارهاسوأالمناصب الشاغرة وقتذاك) (٣٤) ..

وهكذا حدث الانقلاب الخطير الثانى فىحياةيحيى حقى بعد حدث هجرته من القاهرةللصعيد بعامين من الزمان .. فانتقل من حياة يفيض فيهاالعمل المرهق عن الزمن المحدود الى حياة يفيض فيها الزمن عن عمل موهوم .. (٣٥) فلم يتـاخريحيى حقى فى تسلم المنصب الجديد رغم انه لم يحقق كل طموحه ويرضى تطلعاته ، الا انه عبـرعن رضاه بالعمل فى جدة بقوله : سازور الحجاز .. وادرس المذهب الوهابى .. واعرف مشاكلالحج والكورنتينات ... وأرى جميع الشعوب الاسلامية .. وبعض كبار المستشرقين .. (٣٦)

---

(٣١) يحيى حقي : ام العواجز : قصة : ازازة ريحة .

(٣٢) يحيى حقي : خليها على الله .

(٣٣) المرجع السابق .

(٣٤) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٥) يحيى حقي : خليها على الله ..

(٣٦) المرجع السابق ..

- ٣ -

ويبدو ان حياته فى جدة وهى تمتد من عام١٩٢٩ الى عام ١٩٣٠ لم تكن أسعد حالا من حياته في منفلوط . فلقد كتب لي اخيرا رسالةخاصة ذكر فيها شيئا عن حياته فى ذلك الوقت يقول « فقد عشت فى جدة وعمرى ٢٤ سنةقرابه سنتين ... فى جو حار رطب خانق ... بعوض وعرق .. كنت اتعاطى حبوب الكينـايوميا .. أنام على مرتبة ساخنة داخلناموسية .. استحم فى طشت بماء من صفيحة .. اشتغلبالليل على كلوب اتلف عينى .. ومع ذلك قرات مكتبة القنصلية كلها .. وتعرفت لأول مرة الىالجبرتى ، وكتبت عدة مقالات وقصص لا اذكرها « .. اذ (فى تلك الآونة كان النشاط الدبلوماسى قليلا فرحت أقضى وقت فراغى فيمكتبة القنصلية حتى قرأتها عن آخرها ــ وفيها اكتشفت تاريخالجبرتى لأول مرة وفتنت به أشد الافتتان .. فلم أعرف كاتبا او مؤرخا استطاع ان يصور روحالشعب المصرى مثله » (٣٧) فلم يتوقف يحيى حقى وهو فى جدة عن السعى من اجل تعميـقمصريته . فاذا به يعيش مع الجبرتى يحـوم حول الروح المصرية ويكتب مجموعة من المقـالاتفى **جريدة البلاغ** تحت عنوان **((الفكاهة فى المجتمع المصرى))** وقعها باسم **((عبد الرحمن بن حسن))**وهو اسم الجبرتى نفسه . لخص فيها كل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من فكاهة . بعد ان حصرهـاوبوبها وارجعها الى أصولها النفسية ، محـاولا الكشف عن بعض نواحى الشخصية المصرية .

ولعل اهتماماته بالشخصية المصرية وتعزيزمعرفته بها فى تلك الفترة هى التى شغلته عمـا يدور في بلاد الحجاز من حياة .. فلم ير هنـاكسوى « المسلمين يأتون للحج من جميع ارجـاء العالم ، فيكونون لوحة شاسعة كان لها اقوى الأثر فى نفسى » (٣٨) ومع ذلك لا نكاد نعثـر له عن أى نوع من الكتابات الوصفية التأثرية الفنيةـ التى عرف بها ــ تعطى لنا لوحة قلمية حـول الكعبة الشريفة أو الحرم النبوى الكريم رغمشغفهالزائد بوصف كثير من الآثار الاسلامية فىالقاهرة واستنبول « وان كل ما ظهر له من انعكاسـاتحياته فى جدة لم يتعد كتابة بعض المقالات عـن المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورنتينات فيمجلة الرابطة الشرقية ، وهو فى هذه المقـالات يكاد يسير على هداية هؤلاء المستشرقين الذينالتقى بهم خلال العمل الدبلوماسى واعجببعقليتهم الغربية المنظمة » ..

وهكذا نجد يحيى حقى في جدة منـزويافى مكتبة القنصليه بعيدا عن المجتمع الحجازى.. يقرأ ويقرأ محاولا ان يجتر مدى ما توصل اليه من مصرية .. وان ذهب لمشاهدة المسلمين فى ساحات الحج الا ان بواعثه كانت بواعث فضولـ وما أقبل على دراسة المذهب الوهابى الا بدافع ثقافى يريد أن يتلمس مدى قدرة هذا المذهبعلىتطوير الفكر الاسلامى فى الدين .

---

(٣٧) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٨) المرجع السابق .

وما أن تم نقل يحيى حقى من جدة الىاستانبول فى عام ١٩٣٠ حتى اتاه الفرج .. فاذا كان قد حبس نفسه في جدة بمكتبة القنصليةفانه فى استانبول خرج الى المجتمع التركىيتصل بالعائلات ، خاصة تلك العائلات التى تمت لهبصلة قرابة ، ويزور الاحياء الشعبية ويتردد على مقاهيها وملاهيها ، ويصف آثارها الاسلاميةويعايش الحركة الكمالية .. لا شك فى ان خروج يحيى حقى من جدة الى استانبول اعاد اليهبعض حيويته .. فان قلب يحيى حقى لم يفض بفكر جديد وهو فى جدة ، وان عقله لم ينفعلبحياة أهل جدة ، وعاش على هامش المجتمع الحجازى يتصل اكثر ما يتصل بالمستشرقينالاجانب ، واقتصرت تحركاته على نطاق الاعمال الدبلوماسية .. ولعل ذلك يرجع الى ضرب منالحذر الذى شب عليه يحيى حقى فى معاملاته مع كل من لا يجرى فى عروقه دماء تركية ، خاصةمن هم من أصل عربى صرف ، الذين دخلوا معهم خلال التاريخ في صراع مرير على السلطة استمراجيالا ، فتخوف من ان تظهر العقد القديمة اذا ما دخل فى علاقات وطيدة مع الحجازيين ، اواذا ما حاول أن يتعمق فى فهم المجتمع الحجازى ويتبين ايجابياته وسلبياته ، وفضل أن يكتمانفاس فكره ويضيق الخناق على نبضات عقله حتى لا يتعرض لاتهامات التحيز .. ولكن بمجردأن استقر يحيى حقى فى استانبول حتى شعر انه يعيش في موطن اجداده الاول ، وانه عاد منالمهجر الى بلد له فيه عدد عديد من الذين لهم به صلة رحم .. فلم يعد يحس بأن هناك مايدعوالى الحذر ، وانطلقت تصرفاته فى شتى المجالات يدخل بيوت الاقارب وغير الاقارب من الاصدقاءوالمعارف ، ويزور المساجد ويتردد على الآثار الاسلامية .. ويحاول أن يصادق بعض المصريينالقيمين في استانبول ويدخل معهم فى علاقات .. يندمج فى المجتمع الدبلوماسي ويشاركه فى كثيرمن تحركاته الاجتماعية .. ينفعل بثورة كمال اتاتورك ولا يتردد فى تقويمها .. يقبل على تعلماللغة التركية لأن معرفته باللغة التركية لم تكن تسعفه فى التفاهم مع أهله اذ « لم تكن اللغةالتركية تستخدم فى بيتنا الا للسباب في لحظات الغضب » . (٣٩) وقد استطاع ان يتقن تلكاللغةلدرجة انه تمكن من تذوق الشعر التركى وان يتصل بشعراء تركيا ويتعرف عليهم .. ويتابعبوجه خاص تطورات الحركة الكمالية فى عنفوانها يرقب محاولات كمال اتاتورك فى تحويل تركيامن دولة شرقية اسلامية الى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة . ويشهد مظاهرتحول حكومة شعب مسلم متدين الىدولةتتجاهل دينه وتعاديه وتعتقد أن التمسك بالدين هو سرتأخر الشعوب ، وتحاول أن تزيل كل ما يمت للدين بصلة ... ويقرأ كل ما كتب عن كمالاتاتورك فاستطاع ان يصاحبه يوما بيوم يشاهده وهو يخطب ويجالسه عندما زار السفارةالمصريةفى انقرة ليسترضى المصريين بعد حادثة اهانة الطربوش .. واذا كانت شخصية مصطفى كمالقد بهرته الا انه اخذ عليه دكتاتوريته ومصادرته للحريات الدينية ومعاداته لرجال الدين وتعطيلهاداء فرائض الاسلام ومحاولته اعادة مسجد اياصوفيا الى الكنيسة التى كان عليها أول الامر.ولكنه رضي بحل وسط بأن يكون البناء مجرد

---

(٣٩) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

متحف لا هو مسجد ولا هو كنيسة تبطل فيه الصلوات الخمس ولا تعود اليه ترانيم الصلوات المسيحية .. (٤٠) ولعل محاولات مصطفى كمال لقطع صلة تركيا بالدين الاسلامي ـ رمز الحضارة العربية الاولى . تهدف الى ازالة كل ما اخذه الاتراك من العرب .. ولذلك اتخذ خطوات ايجابية من اجل تطهير اللغة التركية من الالفاظ العربية وهي تكاد تصل الى ثلث مفرداتها .. والزام عامة الشعب التركى بكتابة اللغة التركية بالاحرف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، بل امر بكتابة القرآن الكريم ذاته والآذان بالحروف اللاتينية كذلك .. وفضل ان يرتمى فى احضان الحضارة الغربية املا في التطور والاصلاح والتقدم على أن يظل راكدا جامدا فى تكايا حضارة العرب وثقافاتهم المتكاسلة ، رغم انه حارب بشراسة الاحتلال الغربى فى بلاده حتى طهرها من التدخل الاجنبى .

ولقد تصور يحيى حقى ان مصطفى كمال كره العرب وحضارتهم وثقافاتهم كرها لم يعرف له مثيلا بلغ الحماقة ، اذ ليس هناك « احمق من رجل يهاجم فى العصر الحديث دين رجل آخر ، فما بالك بحماقة من يفعل ذلك بأمته على بكرة ابيها » (٤١) واذا لم يثر الشعب التركى ضد مصطفى كمال بسبب نزعته المعادية لدين الاسلام فليس ذلك « خوفا من بطشه انما اكراما له لانه انقذه من التمزق والعبودية واستلاب الاجنبى لارضه . » (٤٢) واذا استجاب الشعب التركى لاوامر مصطفى كمال بهذا الصدد ، فان قلبه ظل يخفق بدين الاسلام وايمانه به لم يتزعزع وان كانت تصرفاته تجامل تعليمات الحاكم ... واذا تحسر يحيى حقى على عداء مصطفى كمال للدين الاسلامى وحرمان الشعب التركى من الحرية الدينية فانه تضايق الى حد الغضب لانه نوعا من العداء للعرب يبدو فى اهماله لحضارتهم واعطاء ظهره لثقافاتهم ، رغم ان تركيا ما استطاعت ان تحكم العالم العربى ويقبل العرب الخضوع لسلطانهم زمنا طويلا الا بفضل تمسكها بالدين الاسلامى ، حين اهتم سلاطين الدولة العثمانية بأن يتولوا الخلافة الاسلامية ، لأن سلطات الخلافة الاسلامية تعطى لهم من النفوذ والتأثير الروحى ما يضمن ولاء الاقطار العربية للدولة العثمانية .. ولقد كان الدين الاسلامى دواما من أهم العوامل التى قربت العناصر التركية فى مصر من عامة المصريين ، ودعت المصريين الى حسن استقبال الاتراك كلما نزلوا بديارهم حتى لو بغرض الاستعمار والاستغلال .. ولقد ضحى مصطفى كمال بكل هذه الجذور التاريخية في سبيل اعتقاده بأن حضارة الغرب هى حضارة المستقبل ، وان حضارة العرب آخذة فى الذبول ولا حاجة لتركيا فيها وضررها يفوق نفعها ..

ولكن ما هو الباعث الحقيقى لهذه الغيرة الدينية عند يحيى حقى ... ! ؟ هل هو باعث روحى صرف ، أو هو باعث يحركه نوع من القلق يخشى انفكاك الارتباط الروحى بين تركيا

---

(٤٠) يحيى حقي : دمعة .. فابتسامة .

(٤١) المرجع السابق .

(٤٢) نفس المرجع السابق .

ومصر ؟ أن هذا الحرص على الدين لم يترنم به يحيى حقى وهو فى الحجاز مسقط راس الديانة الاسلامية حيث ولد رسول المسلمين عليه الصلاة والسلام .. وانطلقت منه دعوته الى العالم الخارجى .. وحيث الكعبة الشريفة اقدس المقدسات الاسلامية .. وحيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومقابر آل محمد والصحابة وشهداء الاسلام الاول .. فان كل هذه المواقع المقدسة لم تدغدغ حواس يحيى حقى الروحية كما دغدغ وجدانه مسجد اياصوفيا ومسجد الانصارى الصحابى باستانبول .. واذا كان ازدحام ساحات الكعبة الشريفة بالحجاج قد بهره واثاره الا ان ذلك لم يدفعه الى كتابات اشبه بكتاباته عن ازدحام مسجد اياصوفيا بالمصلين فى ليلة القدر .. **فالغيرة الدينية هنا تكاد تكون غيرة ارتباط .. !! الا شك فى أن يحيى حقى يعشق مصر عشقا مابعده عشق ، ولكنه يود كذلك لو تظل هناك علاقات وطيدة بين مصر وتركيا وخاصة العلاقات الروحية .. وان الدين الاسلامى كان على الدوام من اهم** العوامل التى توثق الروابط بين الشعوب وتجدد حيويتها كلما اعتراها فتور بين المصريين والاتراك .. فاذا ما تخلت تركيا عن الدين الاسلامى وارتمت فى أحضان الحضارة الغربية فان الذى يقلق يحيى حقى في المقام الاول أن هذا التخلى يقضى على ما تبقى من روابط الوصال بين مصر وتركيا والعرب والاتراك .. ويعز على المصريين الذين تجرى فى عروقهم دماء تركية ان يشهدوا المصرع الاخير لعلاقات تاريخية قاومت القرون ، وأن يستشهدوا على فتور الروابط بين المصريين والاتراك الى حد العدم .. وكل ذلك يضعف من اتصالات المصريين بأقربائهم فى تركيا ويمهد لقطع العروة الوثقى بوطن اجدادهم ... ولهذا السبب بالذات كان يحيى حقى ضد سياسة مصطفى كمال فى معاداة الاسلام وكراهية العرب .. ! !

• • •

الا أن اقامة يحيى حقى الطويلة بين الشعب التركى خلال فترة عنفوان الحركة الكمالية ، وما أثارته من تقلبات فكرية ونفسية ، وما خاضته من تجارب اجتماعية وثقافية اتاحت له من الفرص ما مكنه من أن يدرس جوانب كثيرة من اتجاهات الشخصية التركية السلوكية والاجتماعية ، بينما يشاهد تصرفات الاتراك وانفعالاتهم وميولهم فتكشف له من المفارقات ما لفت انتباهه . . ولعل اهتمامه الزائد بتحليل الشخصيه التركية يرجع الى حد بعيد لرغبته فى فهم بعض اتجاهاته الداخلية .. ولعل نجاحه فى فهم هذه الشخصية بعينه أولا وقبل كل شيء على فهم ذاته فهمها يعريه بنفسه ... فوجد أن الشعب التركى « شعب غريب يجمع بين المتناقضات » تتسم شخصيته بسمات متعارضة تجمع بين « القوة والرقة » ورأى في الافراد « عيون بعد أن تبرق بلهب نظرة النمر الجائع تترقرق فيها السماحة وحب الدعابة ... فرض الاعتداد بالنفس يغلو فى مواسم التأدب الاغواتى .. شعب يتوه فى الخيال وترفعه الموسيقى الى السماء ثم لا يحيد فى نظرته عن الواقع العملى والمنفعة المادية ... شعب تنضج فى اغانيه الشعبية بدموع البكاء على الشهداء الدين سقطوا فى ميدان الجهاد ضد روسيا وضد اليونان .. وأشدها حزنا البكائيات على الشهداء

في حرب البلقان .. ثم هو في الوقت ذاته يزدري الموتى والقبور ازدراء شديدا .. لم اشهد طوال اقامتي اربع سنوات في استانبول جنازة واحدة .. تتم المراسم كلها في المسجد .. يتقبل العزاء ثم انصراف كل حي لسبيله (٤٣) ورغم أنه شعب فشا فيه التصوف وكثرت التكايا وتعددت الطرق الصوفيه.. ومع ذلك فليس في استانبول قبر لولي من هذا الشعب يزار وتنسب له كرامة » ولذلك فلا نعجب اذا ما تقبل الشعب التركي الغاء التكايا . ووجد يحيى حقى « بين الكتب الرائجة في استانبول تتندر بـرياء الدرويش الذى يزعم انه يلتزم المسجد واذا سئل عنه وجدوه في الخمارة « وكان ذلك من بين الدواعي التى حثت الحكومة على حل الطرق الصوفيه ومطاردة » المنتمين اليها مطاردتها للمجرمين المستحقين للشنق » وكذلك شجعت عامة الشعب على الاستهزاء بالدراويش والوعاظ « وما اكثر هزء نكاتهم الشعبية بالوعاظ ودعاة الفضيلة والكرم وبالوعود المحمولة على الغد لا اليوم » بل ان « مساجد استانبول كلها كانت لا تنطق بشيء عما تنطق به احجارها .. كلها روائع معمارية فحسب .. مقامة على مقابر العظماء من سلاطين آل عثمان .. لا توحي بأية شحنة روحية .. ورغم ذلك لم أر مثيلا للشعب التركي في تبجيلة وتحيته واعزازه لشخص الرسول بشرا لانبيا فحسب « (٤٤) .. **واذا انتقل يحيى حقى من واقع الحياة الدينية الى عالم الرجل والمراة وجد أن « استعلاء الرجل على المراة ٭ في تركيا لا يتمثل الا في اختطافه لفتاة من قرينته والهرب بها الى الجبال ونوالها عنوة .. فهذا الاختطاف هو عنده البرهان الوحيد على الرجولة ..** « (٤٥) وشد انتباهه كعادته أحوال بائعات الهوى فيقول « لم أر مثل البغى التركية في ايمانها بأنها ضحية مجتمع الرجال الذى لا يرحم .. « وتحسر حين شاهد « فى تلك المقاهى الشعبية الصغيرة فى استانبول بين ربى التلال المخضرة المشرفة على البسفور أو مرمرة اعزازا وتصفيقا لفتاة لم تبلغ سن الرشد .. ولكن خدها مداس للجميع « ثم رثى لظروفها القاسية عارضا لاحوالها المتضاربة « لم أر انسانا ضعيفا مثلها يجمع بين الابتسام والرعب وبين الصلف والمسكنة .. بين الافصاح والاختناق .. بين الطرب والانين « وكم أغاظه مجتمع الرجال لانهم « تفننوا في تفصيل ثوب لها .. ثوب فنطزية اسمه الذل .. « (٤٦)

هذه هى الملامح الاساسية للشخصية التركية كما تكشفت ليحيى حقى في ضوء تجاربة فى استانبول .. ولا شك فى أن اقامته الطويلة فى تركيا التى بلغت ست سنوات على فترتين متباعدتين في استانبول وفى انقره قد مكنته من أن يتعرف على مدى التفاوت بين الشخصية

---

(٤٣) يحيى حقي : دمعة .. فابتسامة .

(٤٤) المرجع السابق .

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) نفس المرجع .

المصرية والشخصية التركية .. كيف ان تعميق معرفته بالشخصية التركية يعينه على حسن التصرف خلال شخصيته المصرية ، ويكشف له بعض ما خفى عليه من جوانب ذاته الموروثة عن الاصول التركية ، فيتمكن من أن يتحرر من ازدواجية الاتجاهات وتضارب الانفعالات وتصادم القيم المصرية والتركية ، ويحقق شخصية واحدة متجانسة ترتاح لكل ما هو مصرى ولو رفضها طبعه التركى لسبب من الاسباب .. وان طول اقامته بين اهل اجداده لم يحدث فيه اية رجة نفسية ارتدت به عن مصر .. بل لم تفارقه احساسات الغربة وهو بعيد عن مصر .. فان اتضحت له جذور مقوماته التركية فان ذلك لم يمنعه من ان يتعمق فى فهم روحه المصرية فى نفس الوقت الذى يتأسى فيه على هؤلاء المصريين الذين ينحرفون عن طريق التفكير المصرى الاصيل السليم .. !!

― ٤ ―

ولقد قرا يحيى حقى قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم فاذا بالحنين الى مصر وشعب مصر يعاوده ، واذا به يبعث بمقال عنوانه « توفيق الحكيم .. بين الخشية والرجاء » لمجلة « الحديث » بحلب فى آخر سنة له في استانبول عام ١٩٣٤ . وكانت من اولى مقالاته التى حاول فيها ان يحدد المسار الذى ينبغى ان يسير فيه الادب المصرى حتى يصبح المعبر الحقيقى عن كل ما يختلج داخله من انفعالات وآمال .. فاستهل مقاله بانه « لعل الافتراب هو وحده الذى حفزنى الى كتابة هذا المقال » (٤٧) وعاب فيه اتجاهات الادب المصرى التى تغلب عليها الميول الفردية من دون الميول العامة التى تعبر عن روح كلية هى روح الشعب المصرى بأجمعه .. ولذلك كانت اغلب الكتابات الادبية فى ذلك الوقت مجرد صرخات شخصية تدور فى واد لا تجد لها من صدى بين عامة النفوس ... ولقد ذهب توفيق الحكيم باتجاهاته الصوفية في مسرحية اهل الكهف يشيد بأن كل موجود هو من الله .. والله دائم .. فكل ما هو موجود دائم .. وينوه الى أن الزمن هو احدى خصائص عقل الانسان الذى لا يدرك الا بثلاثة مقاييس .. وبذلك حاول ان يمزج بين المواقف الصوفية والنظرات العلمية .. الا ان هذه المسرحية بمذهبها الصوفى العلمى لا تكاد تعبر من قريب أو بعيد عن مشاعر الجماهير ولذلك لم يكن لها اى صدى لدى عامة الناس ، ولم يتجاوب معها الشعب المصرى ككل ، ذلك الشعب الذى كان يمر بمرحلة نضال سياسى واجتماعى واقتصادى يحتاج اكثر ما يحتاج الى عوامل تقوى فيه نزعات الجهاد حتى يستطيع ان يتغلب على مختلف انواع المصاعب التى يضعها الاستعمار لعرقلة نهضته .. وليس فى حاجة على الاطلاق لتقوية النزعات الصوفية التى تدعو الى نوع من الاسترخاء ، يستمرىء الكسل والخمول ، ويتهرب من المسئولية الوطنية بدوافع من الانانية التى تحث على قطع صلة الفرد بكل ما حوله طلبا للطهر والخلاص ، فى ظل وهم نظرية صوفية سطحية .. **ولذلك اعتبر يحيى**

(٤٧) يحيى حقي : خطوات فى النقد . مكتبة دار العروبة القاهرة ـ بدون تاريخ .

حقى مسرحية « اهل الكهف » مـن المسرحيات الخطرة على شباب مصر ، اذ قد تستهويه بالميول الصوفية، على حين انه لا خلاص لمصر من الاستعمار ولا نهضة للشعب المصرى من الفقر والتخلف الا على يد جهود شباب مصر الذى يجب ان يبذل كل فرد منه في تعاون ويشترك اقصى ما يستطيع من جهد ، دون نظر لأى نوعية من المنافع الفردية سواء أكانت مادية او روحيــة .. ولذلـك فاذا كانت مسرحية اهل الكهف بمثابة نجاح كبير لتوفيق الحكيم كفنان في عالـم الادب فانه لا يكاد يكون لها أى دور ايجابى فى المجالات التى تدعم مقومات الشعب المصرى .. ولا نعجب اذا ما شك يحيى حقى في قيمة مسرحية اهل الكهف بالنسبة لشعب مصر .

واحسب أن يحيى حقى هنا يكاد يكون متأثرا بالحركة الكمالية من جهــة ، وبالنزعات التركية العملية من جهة اخرى .. فان مصطفى كمال قد قاوم التصوف بكـل صـوره ليصرف جهود عامة الجماهير ويركزها فى خدمة تركيا ..ويبدو أن يحيى حقى كان يتمنى فى ذلك الوقت أن يظهــر فى مصر شخصيــة قياديــة مثــل مصطفى كمال تعطى لشعب مصر من الكرامــة والحوافز المادية والمعنوية ما يلهب القوى الكامنة لتعمل على رفع قيمة الانسان المصرى .. دون أن تستغرقها قيم غيبية لا تساعد على رؤيـة افصاح الحقائق التى يعيش في قلقها المصريون..

الا ان يحيى حقى تنبه الى أن نزعة التصوف التي تشوب قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم تتسم بالمحلية خلاف نزعة التصوف العالمية التى تتسم بها مسرحية «أهل الكهف » وهى قصــة تقوم على ديانة الفراعنة تستوحــى اسطـورة اوزوديس وايزيس ، وتتخذ مـن ثورة ١٩١٩ الشرارة التى اوقدت الحياة فى اشــلاء مصــر المتقطعة الاوصال المتفرقة الممزقة الجوانــب ، وأعادت اليها الروح التى وحدت جميع الصفوف وشملتها تحت راية مصرية واحدة .. وعرضت هذه الافكار تصرفات عائلة مصرية صميمة ..رغم انها كثيرة الافراد . فلقد كان يعمهم اتحاد ووصال وود .. ولكنهم وقعوا جميعا فى حب فتاة متلاعبة تسكن بجوارهم حاول كل منهــم أن يتقرب اليها على غفلة من اخوانه .. فتوشك المصلحة المتضاربة ان تباعد بينهم .. واذا بالثورة المصرية تعصفهم جميعا وتكتسح حبهم التافة ،وتجمعهم على الوفاق من جديد داخل حب كبير هو حب مصر .. فعادت الروح الى مصر التى ظن الجميع انها ماتت ، حتي ان عودة الحياة الى هذه الروح لفتت انتباه اجنبى فرنسى ..**ويرى يحيى حقي فى هذه القصة صورة صادقة للمجتمع المصرى سواء في القاهرة او فى الريف ،ولذلك لها قيمة واقعية يمكن ان تعود بشيء من النفع . لانها استمدت أصلا من التــراث المصرى القديم من ناحية ، واتخذت من الحياة العائلية الحديثة سبيلا للتعبير عن عظمة الماضي وحيوية الحاضر ..** الا ان يحيى حقى لم يجد فى قصة « عودة الروح » ما يشفي غليله الوطني ويشبع اتجاهاته المصرية الصاعدة اشباعا قويا . فان القصة تريد بصدق وايمان الجمع بين الروح والجسد .. بين المعنى والرمز .. بين السر والتغير .. بل وتريد كذلك ان تبين لنا كيف تسري الحياة من جديد في جسد مصر .. ولكن القصة لم توضح كيف اسهم كل فرد من افراد الاسرة فى الجهاد الثورى .. كما جاءت الخاتمة

باردة تافهة ليس فيها حرارة الباطن ولا عظمته. فكانت صورة الثورة باهتة مقتضبة كما لو كانت دخيلة على القصة وثانوية بالنسبة لموضوعها .. لم تجد مصريا واحدا يليق بأن تعلق على لسانه بأن مصر التى خال الجميع انها ماتت قد عادت اليها الروح واختارت اجنبيا فرنسيا لكى يشهد على هذا التحول .. بينما جعلت جميع افراد الاسرة بصرعهم المرض ، وتنتهى القصة وهم اشبه بالموتى ، كل منهم لائذ بفراشه .. ورغم ان القصة توحى بأن مصر لا يمكن ان تحيا الا بطلسم الفراعنة . فلا شك في أن استلهام مجد الفراعنة يثير كثيرا من الاحلام الجميلة .. الا ان اسطورة اوزوريس ما زالت بعيدة عن الوعى المصري العام ، وبذلك لا تستطيع ان تستفز روح مصر الحديثة استفزازا قويا فعالا ، مما أصاب القصة بنوع من عدم التوازن بين الباطن الفرعونى المقتبس والظاهر العصرى المستمد من الواقع . فاذا كان الباطن عظيما فان الظاهر لا يوجه اليه العناية الكافية ، وتغلب عليه الوقائع الصبيانية التى لا تخلو من تصنع واستطراد .. فان الادب المناسب لشباب مصر فى هذه الايام ينبغى ان يكون ادب كتاب اقوياء يجلو فيهم حرارة اليقين الذى لا يسلم من وسواس الخشية .. وتكون روحهم مزيجا من الكبرياء والتواضع وخليطا من الحلم بالآمال والشعور بالواقع الملموس .. ينظرون الى السماء ولا ينسون أن أرجلهم على الارض .. (٤٨)

• • •

وهكذا أصبحت المصرية تشغل يحيى حقى اكثر من أى شىء آخر ، ويكاد يغلب المصرية على التركية بينما هو يعيش فى تركيا الوطن الاول لاجداده ، اذ لم تستطع الحياة التركية بسيرها الحثيث نحو الاستقلال والتقدم ان تستهويه استهواء يجعله يتأفف من مصريته ، بل أعطته دوافع قوية لكى لا يألو جهدا فى سبيل ان يصل بالمصرية الى درجة من الشفافية والوضوح . حتى تهدأ روحه العاشقة لمصر .. ولقد ظهرت قوة حاسته **المصرية درجة قوية من البصيرة الصادقة حين حاول ان يكشف الخلل فى مصرية الكثيرين** من المصريين خاصة اذا كانوا من بين المصريين المهاجرين ويشتغلون بمسائل عامة تهم كافة المصريين .. فانه من المعروف عن نجيب الريحانى ان فنه « مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها وترجم عنها وأرخ لها .. وان الريحاني هو مصر ، ومصر هي الريحاني .. (٤٩) الا ان ازدواج شخصيته وجمعها وبين الاصل العراقى اوالشامى والمصير المصرى يراه يحيى حقى « مفتاح الغاز حياته وتفسير شخصيته .. عاش الريحانى طيلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين .. وهذا سر وحدته الملحوظة فى حياته العامة والخاصة .. (٥٠) . ولئن كان

---

(٤٨) المرجع السابق .
(٤٩) نفس المرجع السابق .
(٥٠) نفس المرجع السابق .

الريحاني من أوفى طبقات المهاجرين الى الشعب المصري وأكثرهم فهما لعاداته وعجائب طبعه فانه لم يسلك الطريق السوى الذى يخدم الفن المسرحي خدمة مصرية خالصة .. وتأثر حد كبير بظروف مصر السياسية والاجتماعية دون أن يؤثر فيها ، وجاراها دون أن يطورها .. عالج عيوبها معالجة سطحية لم تنفذ الى الاعماق وتقتلعها من جذورها .. فلما فكر الريحاني في تكوين فرقة مسرحية هزلية كانت فرقتـه تستمد موضوعاتها من هامش الحياة المصرية . ومسرحياتها الاستعراضية لا تكاد تخرج عن أنها مجرد مسرحيات « فرانكو آراب » تعتمد على روادمن الليفانتين الاجانب ومن انصاف المتعلمين من المصريين الذين سحرتهم الثقافة الغربية .. ويترددون بين الشرق والغرب وهم لا مصريون او اجانب .. ولما حاول الريحاني ان يطـور مسرحه ويعطيه صبغة اكثر مصرية لجأ الى شخصية « كشكش بك » عمدة كفر البلاص الحديث الثراء بسبب ارتفاع اسـعار القطن المفاجيء فأصاب انفاقه ضروبا من الاضطراب ، فاخذ يصرف أمواله بسخاء على اللهو والمتعة ، مما جعله موضـع سخريـة سماسرة القطن واشباههم واستغلال الراقصات والفـانيات . . فاتخذ منه الريحاني موضوع تسلية على المسرح يهزأ من تصرفاته وهو يعبث بين بائعات الهوى ينفق عليهن كل ماله بلا مبالاة ، دون ان يحصل منهن على شيء .. لكي يسري على رواد المسرح ، واغلبهم من الطبقة الوسطى ، سـواء مـن المصريين او الاجانب المقيمين في مصر .. ولكن سرعان ما مل الجمهور شخصية « كشكش بك » لرتابة الموضوعات والحركات والكلمات ، فاضطر ان يغير من الشخصية الاولى لمسرحياته ويجاري التطورات الاجتماعية ، فاتخذ من شخصـية « الافندى » ــ الذى أعده دنلوب في المدارس المصرية واسلم اليـه الانجليز شـئون مصر الداخلية ، واخذ يكون طبقة وسطى نامية ينتمى اليها في الغالب موظفو الحكومـة واشباههـم ليكسب جمهورا عريضا متزايدا من المصريين ، وحيث ان هذا الافندي لـم يألـف بعـد لبس البدلة او رباط العنق .. ممزق بين الشرق والغرب .. دخله متواضع لايكاد يكفى مطالب الحياة الحديثة .. يعيش بين دسائس الديوان وتحكم الرؤساء وانتشار الوساطة .. فأخذ الريحاني يعبر عن مشاكل هذه الطبقة حتى يبدو اكثر مصرية واكثر تطورا في معالجة حياة مصر الحديثة . تصور مسرحياته ، المقتبسة من المسرح الفرنسي الرخيص ، هذا الافندى على انه انسان طيب القلب حسن النية وان كان لا يخلو من مكر ودهاء .. لا يريد من الحياة الا السلامة ، ولكنه قادر على الدس والطعن دفاعا عن النفس .. عواطفه حائرة بين حب الفتاة العفيفة المتخلفة والفتاة الحديثة المشكوك في اخلاصها .. ولا يجد ما يتسلى به الا النكت التي تسخر من خداع الناس ونفاقهم وتكشف خبثهم الاجتماعي .. ومع ذلك لا يتخلى عن خلقه الشرقي الصميم الذى يسلم بالقدر والرضاء بما قسم الله .. الا انه عز على يحيى حقى ان يستمد الريحاني مواصفات هذه الشخصية من مسرحيات غير مصرية اعتمدت اكثر ما اعتمدت على المسرح الفرنسي الهابط واقتبست منهـا أكسد بضاعة بعد أن زوقت بلفائف من التدليس والخداع لاتكاد تخرجهـا عـن أعمال الغش التجاري ، واستوردت لشعب مصر لكي تحبسه في نطاق هذا الفن المسروق وتفرض عليـه ان

يعيش فقط فى متاعب طبقة واحدة هى طبقةالافندية .. « ولولا غلبة هـذه الطبقة على المصرى ما توفرت أسباب هذا النجاح السطحىللريحانى . » (٥١)

ولذلكم آلم يحيى حقى ان يقتصر مسرحالريحانى على شخصيات منحرفة غير سوية .. لا تصور الا ما فى المجتمع من تفكك وضعفوتخاذل وتراض .. تنحصر فى شخصيـــات . ابن الذوات التالف .. والفتى العبيط ....والخادمة الشرشوحة .. والبنت الدلوعة .. والمعلـم لابس اللاســة .. والافندى العجوزالخبيث .. وامراة تركيـة عجـــوز لاضحاك الجمهور على رطانتها العربية تشبها باضحاكالاتراك على شخصية باشا مصرى يقسم بالله بين كلمة واخرى .. ورغم ان هذه الشخصياتهى شخصـــيات مجتمع السنوات الاولى من عشرات القرن العشرين الا انه حز فى نفس يحيىحقى ان لا ترى مسرحيات الريحانى فى المصريين الا اشخاصا طبيعتهم بلاهة ، وغزلهم تلعيبحواجب ، غضبهم سريع واعصابهم مفلوته .. يثورون للتافة من الامور . يستسلمون للحكموالمواعظ الفارغة .. يميلون للردح والتشليق . اذ ان عرض الشعب المصرى يمثل هذه الصورةالبشعة التى تبعث على اليأس من قدرة المصرى على النهوض والتطور والتقدم لا يمكن ان تكونالا خلال نظرة خاطفة متعلجة لاجنبى تخدعه بعض المظاهر فينساق فى الترويج لهـا والالحاحعليها على انها هى كل شيء في الشعب المصرى شأنه فى ذلك شان الزائر الطارىء أو المقيم الذىلم يندمج فلم تتح له فرص فهم بواطن الامور فى الشخصية المصرية .. فاعاقت مسرحياتـهالشعب المصرى عن فهم امكانياته فهما صحيحا: وبلبلت كثيرا من المعاني والقيم ، مما عرقل تطورهبما تبثه من ضعف وعجز ويأس ، ومن تشويه للواقع وتشهير بالحقائق .. وبذلك لم يقدممسرح الريحانى خدمة تذكر للحياة المصرية ، ولا شك فى ان ضرره تعدى كل ما سببه مـنضحك وقهقهة .. واذا كان الريحانى فنانـا عظيما لم يؤد خدمة عظيمة لمصر . وهـذا هوعيبه الكبير الذى لا يمكن ان تغفره له الحمية المصرية ، ولا يرضى ان يسكت عنـه كـل مـنيعشق مصر ، ولا يفكر الا في دفع المصرية فى المسار السوى الصميم .

— ٥ —

واذا لم يرض يحيى حقى عن اتجاهاتالافكار الاجتماعية فى مسرحية أهل الكهف ، وتضايق من ضآلة العواطف الوطنية فى قصة« عودة الروح » .. كما عز عليـه أن يشـوه الريحانى ملامح الشعب المصرى ليسلى الاجانبتارة وانصاف المتعلمين من الطبقة الوسطى تارة اخرى .. فانه ايضا لم يغفل عن هؤلاء الاتراكالذين جرى فى قلوبهم حب مصر ، ثم لم تستقم لهم الحياة بين المصريين لسبب او لآخـر ،فتاوه اشـد التأوه مـن المصـائب التي نزلت

---

(٥١) المرجع السابق .

بالاسرات التركية المصريــة التى ارتاحت الىالعزلة والانعزالية ، واتخذت مواقف سلبيــة انانية من الحياة العامة في مصر ..

ولقد صور لنا يحيى حقى ابرع تصوير كثيرا من الشخصيات القلقة التي تعاني مــن عقــدة الصراع بين المصرية والتركية فى كتابه ((**دمعة .. فابتسامة**)) وفى كتابه ((**ناس فى الظــل**)) ولعــل تحليله لشخصية ((علي بك فوزي)) تعد من اروع التحليلات واشملها لذلك المصرى الذى يشــعر بحنين ضائع لوطن يشعر فى اعماقه أنه اصبح غريبا عنه ... لقد سيطر الصراع بين المصرية والتركية على نفسية ((علي بك فوزي)) فلم يعرف الاستقرار او الراحة ، وظل يقاسي من القلق حتى غاب عنه الهدف الرئيسي الذى ينشده من الحياة . واستولى عليه نوع مــن الضيــاع الروحي لم يسمح لمصريته أن تستغرقه استغراقا تاما ولم يمكنه فى الوقت ذاته مــن أن يســتعيد تركيبته الاولى في صورتها النقية .. وعرض يحيى حقي كل ذلك فى كتابه ((ناس فى الظل)) فى لوحة انتقادية رائعة حاول أن يحلل فيها احوال ذلك المصرى الذى تجرى في عروقه دماء تركية، ويعانى من اضطرابات ترجع لضرب من ازدواجيــة فى الميول والرغبات والنزعات والعواطف والافكار والمثل ... وبين كيف ان على بك فوزى خاب فى أن يوفق بين النزعات التركية ودوافع الحيــاة المصرية ، وبالتالي عجز عن الوصــول الى تلك المواءمة التى تحقق له السلامة النفسية والاتزان العاطفي والانسجام الفكرى ، الذى لا يشمئز من قبول الواقع المصرى على ما هو عليه والاندماج فيه قلبا وقالبا ، مشاركا الناس مشاركة فعالة ايجابية في كل ما يخطر على وجدانهم من آمــال وأمانى ، وكل ما ينزل بهم من آلام ومصائب ،ولا يدع الاسى على فقدان الجاه والسلطان يشل ارادته ويدفعه لعزلة لا تقدم ولا تؤخر ، تعرقل نشاطه وتجعله يجتر اوهاما بائدة لا تنتهي ، ولن تعود عليه الا بأن تمنعه من أن يتطور مع تطور الاحداث الجارية ، فاذا به يقف عند حد التأفف من كل سلوك هابط .. والضيق من قبح الغباء وغلظة الحس وتبلد الشعور ، والتبرم مــن الكلمة النابية والنكتة الباردة ، وكراهية الجلف والمغرور الذي يدوس على اقدام جلســائه دون أن يدرى أو يبالى .. وهكذا لم يتقبل علي بك فوزى كثيرا من الاوضاع الاجتماعية السائدة بين عامة الناس ، ولم يرتح اليها علــى اعتقاد انهــا تتنافى مع المستوى الحضارى الرفيع المتمــدن والخلق الكريم الفاضل .. فوسع هذا الاعتقاد هوة التناقض بين الاتجاهات التركية والواقــع المصرى ، وادى الى نوع من الانفصام يفصل الفرد عن المجتمع ...

لقد تخرج علي بك فوزى فى مدرسة المعلمين العليا التي كانت تعتبر فى ذلك الوقت أقل المعاهد العليا شأنا ، خاصة بين الطبقات الشركسية التي ينتمي اليها ، على اعتبار انه من سلالة المماليك ولما جاء ترتيبه الاول بين المتخرجين ارسل الــى بعثة لانجلترا على نفقة حكومة مصر ، ليدخل مدرسة اكســتر التى لا تصل الى مستوى جامعات كمبردج واكسفورد التي لا يدخلها الا ابناء القادرين من الاعيان المصريين على نفقتهم الخاصة .. وكل هذا امتهان وظلم لابن من ابناء الانساب العريقة

التي كان لها الحكم والسيادة في يوم من الايام . . . وما أن عاد من البعثة الى مصر واشتغل بالتدريس حتى اصطدم بتحكم « مستر دنلوب » الانجليزى مستشار وزارة المعارف والمهيمن عليها هيمنة تامة . . . وتحركت فى داخله كوامن السخط على الاحتلال البريطاني الذى أزال كثيرا من نفوذ العناصر التركية ونافسها منافسة خطيرة تهدد مستقبلها ، فاحس بانه يقع تحت وطأة الظلم الاستعمارى الذى اضاع هيبة العناصر التركية واضعف مكانتها بين المصريين .. فى حين ان على بك فوزي رجل رفيق مهذب شديد الحساسية متمدن يتبع اساليب الحضارة .. ذكي الفؤاد مغترف من الثقافات الغربية والعربية .. صاحب ذوق فني وأدبى يعشق الطبيعة ويتحسس جمال الالفاظ .. وقف علمه وثقافته ومواهبه فى أول الامر على تعليم تلاميذه لا المنهج فحسب ، بل كذلك معنى النخوة والرجولة والشهامة والاعتزاز بالوطن وامجاده .. ومعنى التبرى من التعصب والغرور والصلف والكبر الفارغ .. ومعنى الاستمساك بالعدل وكراهية الظلم حتى قدره تلاميذه تقديرا عظيما واخلصوا له الود والحب . . الا أنه لم يشعر بالسعادة لمثل هذا التقدير وذلك الحب ، لانه كان يحس على الدوام أنه مغلوب على أمره يعمل تحت ظل الاستعمار الذى تشخص أمامه فى شخصية مستر دنلوب الكريهة ، وان رضاه بالسكوت عن استبداده دون مواجهة يناقض الدروس الاخلاقية التي يلقنها للطلبة ، فهرب من مهنة التعليم ودخل فى مهمة الوظائف الادارية حتى بلغ منصب السكرتير العام لوزارة الزراعة وحصل على رتبة البكوية . . . ولكن رق الوظيفة الادارية تحت الاحتلال قضى على كل ما تبقى من قوة الاحتمال ونفد صبره ، فمال للعزلة والتبحر فى دراسة التصوف . . . لانه لم يكن عنده القدرة على ان يعلن الثورة ضد الاحتلال ويقاوم الاوضاع الفاسدة ويعترض على سياسة الحكام ويقوم تصرفات المحكومين .. بل لم يكن أمامه الا أن يتخذ موقف الرفض ، وهو موقف سلبي يلجأ الى عزلة قد تشبع ميوله في التصوف وتعفيه من اللوم ، وتنفي عنه المسئولية الناجمة عن الاشتراك فى اى عمل من الاعمال ، وتنقذه مما يتفشى بين الناس من احقاد وخسة ووضاعة ، الا أنها حطمت كل جسر يربطه باهتمامات الناس ، وجعلته يعيش فى امتعاض كامل لكل ما يدور حوله ، سواء من تسلط الانجليز أو من استعلاء الاجانب على المواطنين ، او من تخبط سياسة الوزراء او من نهب الخديو للبلاد . . أو من تفشى الغلظة واللجاجة والوقاحة والغش والمكر والخبث بين العامة .. فاذا بالشعور بعدم الرضا الذى ادى به الى العزلة يتحول الى سخط ، والسخط يصبح امتعاضا يشعره بانه ليس له مكان فى هذا البلد فترك مصر هربا من كل هذه الاوضاع التى لا يرتاح اليها .. ولكن ما أن خرج من مصر حتى وجد نفسه فى مهب آلام ضارية تعصف به من كل جانب .. فما استقر فى بلد الا وأحس بالغربة وعاش فى عذاب أشد من عذاب الحياة فى مصر ، فلم يصبر على الاقامة فى المانيا وسرعان ما هاجر الى استانبول لعله يجد فى بلاد ينتسب الى أهلها بنسب من الاصل بعض الراحة بين آل اجداده ، ويحس بنوع من الامان والاطمئنان يخلصه من الشعور بالظلم والاضطهاد والمهانة .. ولكن ظل حبيس عزلته وصراعاته ، تبدو عليه مظاهر

الاعياء من ارهاق نفسي رهيب .. تشقيه الوحدة في الشيخوخة وتضنيه الهزيمة بعد ان ضاع الامل في كل شيء ، ولم يعد يبالي بالتقدم او التخلف بالحياة او بالموت فلا الحياة في مصر اعطته ما يريد ولا العودة الى الوطن الاول ردت اليه ماظن انه فقده في مصر .. وما أن اشتد به المرض حتى اضطر للعودة الى الوطن الذي نشأ فيه وتربى ليموت ويدفن في مقابر أسرته .. ولقد شيع جنازته خلق غفير من تلاميذه واصدقائه وكل من سمع عن مكانته وجهوده ليشهدوا العالم على ان مصر لم تبخل على هذا الرجل بالتكريم والتقدير ، ولا تنكر فضل من قدم لها خدمات جليلة ، حتى ولو تنكر لها واعطاها ظهره ليخفي معالم الغضب والضيق والرفض والامتعاض.(٥٢)

الا ان يحيى حقي لم يكتف بان يعرض مشكلة تعثر العناصر المصرية التركية في تعميق مصريتها عرضا واقعيا من خلال مشاهداته وملاحظاته هنا وهناك في مصر وتركيا ، وفي مختلف الاوساط التي اختلط بها واجتمع فيها مع عناصر تتضارب في داخلها التيارات المصرية التركية من الاقارب والاصدقاء والمعارف .. بل اهتم ايضا بمعالجتها كفنان القصص المتميز تاركا مطلق الحرية في العرض والوصف والتحليل لشخصيات موجودة فعلا في المجتمع المصري ، دون ان ينبه الى أصولها التركية الا بالاشارة او الرمز ، محاولا يبرز مجهوداتها المتواصلة من اجل الاندماج في المجتمع المصري اندماجا كليا خلال شتى مراحل تطور تفكيره . ونخص بالذكر هنا ثلاثة نماذج مختلفة تناولها في ((قنديل ام هاشم)) وهي شخصية ((داودافندي)) في قصة ((السلحفاة تطير)) .. وفي مرحلة ((صح النوم)) وهي شخصية ((القزم معزوجته)) .. ثم في مرحلة ((الفراش الشاغر)) وهي شخصية ((فتى العائلة)) .

أ ــ اما عن شخصية ((داود افندي)) في قصة ((السلحفاة تطير)) فهي تصور لنا كيف ينزل المجتمع العقاب بكل من يعتزل الناس ويعيش بعيدا عنهم ولا يشاركهم في معارفهم وانفعالاتهم ، فيتعذر عليه الاندماج اندماجا ايجابيا فعالا في الحياة العامة ، فيجانب تصرفاته الصواب ، اذ كثيرا ما تختلط عليه الامور ويقع فريسة الحقد والمكر ، فيتصرف بحماقة قد توقعه في مشاكل تضيع عليه كل شيء وتفرض عليه ضربا من التأقلم تفقده مقومات شخصيته الاصلية المتوارثة ، دون أن يمنحها اصالة جديدة ويغرقها في تقاليد بالية متخلفة ... ويصر يحيى حقي على أن « داود افندي » شخصية خيالية ، الا انه يؤكد من حين لاخر انه ليس شخصية خرافية بل لا ينفي احتمال وجوده بيننا حيا يرزق .. وداود افندي كما يصوره لنا يحيى حقي احد اولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين .. فكان من المعقول ان يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل « فاصبحوا كالحيوان البرمائي لا هو هنا ولا هو هناك .. فهم لذلك اسرع انقراضا »(٥٣) يتشبث

---

(٥٢) يحيى حقي : ((ناس في الظل)) كتاب الجمهورية العدد٢٨ يوليه ١٩٧١ القاهرة .

(٥٣) يحيى حقي : قنديل ام هاشم .. قصة السلحفاة تطير :دار المعارف ــ القاهرة مجموعة اقرا رقم ١٨ .

بأن يسكن فى ملكه بدار قديمة فى حارة مسدودة ،مع ان له استحقاقافىوقف ورثة عن ام امه او جد جده ، يمكنه من أن يعيش في حى افضل .. هوبالنسبة لجيرانــه غنى ولكنه في الواقــع فقير .. يعتز بأصله الذي يغنيه فيستريح ولا يسلكه فىالفقراء فيريح .. ان هو ككل اولاد الذوات الذين تربوا فى آثار عز سالف .. نجد فيه مــع الكبرياءوالانفة كثيرا من الاخلاق الصبيان وقلة الدراية بالحياة فى معتركاتها .. بما فى العالــم الخارجىتمسكا بالماضى .. طيب كريم مع معاونة .. ينفر مــن الغريــب .. اهــل الحارة تجلــه لغناه ..وتستعبطه لنزوله الى مستواهم،ويتعجبون كيف يجد لذة فى ان تصافح يــده الناعمة النظيفة يداصلبة خشنة كيد العمال ...

ولما حدث ان استدعى لقسم الشرطة بسببمخالفة القاء ماء قذرفىالطريق وهو يجهل اسلوب التعامل فى المجتمع الذى يعيش فيه ـ فاذا بعاملتعود الجلوس معــه ويتظاهر بصداقتــه يستفزه ويسهلعليه اثارته ضد سوء معاملة رجال الشرطةلعامة الناس ، ويبدي رغبته فى الذهاب معه الى قسم الشرطة ليكــون فى عونه .. الا أنه لــم يفبهذه الرغبة .. وكان الجاويش فعلا من الغظاظة وقلة الادب بحيث لم يستطع داود افندى ، بمــا فيه من الكبرياء وقلــة الصبر ، أن يقبل ان يهزه الجاويش هزة توقــع طربوشه علــى الارض أمامعدد كبير من الناس .. وصمم على أن يرفع دعوى تعويض بقرش صاغ واحد كرد شرف .. وما كانمن هذا العامــل الا أن سايــره وشجعه علــى ان يستمر فى مقاضاة الجاويش .. ولم يتأخر هــذهالمرة في الذهاب معه الــى المحكمة . لما رآه وجلا مضطربا رغم انه اعتقد ان العدالة تقتضى انيدفعداود افندى ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى يعيشها المكدودون المتعبون من عامة الشعبالمتصببون عرقا في زحمة الحياة القاسية ، اذ أن قلبه رق له عندما اشتد به القلق .. ولكن سرعانما اعتاد داود افندى المحاكم بعد أن تكرر تأجيل جلسة الدعوى مرة بعد اخرى.. واذا به يصاحبوكلاء المحامين الذين وجدوا فيه صيدا ثمينــا يلتفــون حولــه ، يحتسون القهــوة والشــاى ،ويدخنون النارجلية على حسابه .. ويجد متعة تصل حد الهواية فى عمــل المحاكم دعتــه الى انيشارك وكلاء المحامين فى أحاديث القضايا ويدخل معهم جلساتها لمجــرد الاستمتاع .. مما اغــرىصديقه العامل بأن يعرض عليه بأن يتكلف برفــع دعوى لقريب له معدم يستولي رجل ذو بطشوسلطان على ملك واسع له نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما .. فوقــع فى المصيــدة واذابشهامتــه وطيبته وجهلــه تبسط له الامــور ، وتدفعه لان يظهــر كامل استعداده ليصــرف علىهذه الدعوى حتى ولو رهــن مصاغ زوجته .. ويورط نفسه فى مشاكل الآخرين غرّقه فيها هذاالعامل عن حسن قصد او سوء نية ، اذ انه يدعى انه ما اراد الا خير الجميع بان يخــدم الاثنين معافيشغل داود افندي اوقات الفراغ فى عمل يعود عليه بالنفع ويرجــع الملك المغتصب لقريبه ...ولكن وكلاء المحامين تزاحموا حــول داود أفندى يستغلونه ويستنزفون امواله ، كانهم يريدون انيستردوا دينا بطريقة غير مباشرة او يستعيدوا اموالا كانت لهم سلبت منهم بطريقة او بأخرى..

فكان داود افندي ضحيــة انتقام جيــلمما سبق فعله اجداده بعامة الفلاحين واستغلالهم لكافة المصريين وخداعهم لهم وسلب اموالهم .. وهو لا يدرى كيف يتصرف بحكمة ووقورة .. بل تستولى عليه كبرياء وانفة تجعله يعيش فى الماضى اكثر من الحاضر .. وتدفعه لان يعتز بأصله الذى لا يغنيه ، ولكنــه يتشبث بــه لمجرد أنــه يريحه ويرتاح الى المشاعر التى توهمه بأنه ما زال ابن عز من قمة راسه الى اخمص قدمه ... « عجبت من همه التافه .. ولكن كثيرا مــن الناس الطيبين لا يسلمون فى بعــض الاحيان من الوهــم والشك فى براءة ماضيهم ... فتختلط فى اذهانهــم الرغبة بالحقيقة ... ام هم يستيقظون فجاة الى انــه ليــس هناك دليــل واحــد على أن الحياة غــير مزدوجــة .. ؟ لا يستطيع ان يكــون واثقا كــل الوثوق من أن ليس له فى الوقت نفسه حياة اخرى كالاحلام .. لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار في حياة تتصل طي ضباب كثيــف بحياة اشد غموضا لكائنات اخرى .. (٥٤) .

ولكن سرعان ما طحنته الايام وضاع بــين الاحداث وتاه فى خضم المشاكل ، بسبب جهله بالمصريين وبعده عن الحياة المصرية وتقوقعه داخل عادات واتجاهات تأبى عليه الخــروج مــن داره القديمة بالحارة المسدودة .. ومــع ذلك اجبر فى النهاية الى ان يندمج **فى الحياة المصرية رغما منه ولكن من الباب الخلفى دون أن يتحرر من مشاعر الغربة .. وان بدا انه اخــذ** يجارى بعض المظاهر السطحية للحياة المصرية .. بخلاف جاره ذلك العامل الذي نشأ نشأة متواضعة ولا ينفك يعرض عليه خدمات لا ينجزها ، بل يورطه فى مشاكل مدعيا انه يقصد مساعدته ... يركز اهتماماته نحو التخلص من وسط عمال اليوميــة ليلحــق بطبقة الافندية اصحاب المرتبــات الشهريــة .. واخيرا نجح فى تحقيق رغبته بعد الحاح واراقة ماء الوجه وتخلص من ماضيه الكريه كله . حتى الحارة المسدودة تركها وسكن المنيرة .. بينما انحدر المال بداود افندى .. واذا به يشاهــد يجلس فى مطعم أمام طبق فول ملمس بجلابية وجاكيته ، تجمع اصابعه بلقمة حبــات الفــول ويعجنها فى الزيت ثم تحملها كتلة واحدة كالكرة الى فمه .. ويتجشأ برائحة البصل الاخضر والفجل .. وهو الذي تعود تذوق ضروب مــن الموسيقى الرفيعة يتأنق فى ملبســه ولا يأكل الا اخف انواع الطعام ، امعانا فى اظهار احساساته بأنه يختلف حقا عــن عامة النــاس .. وما ان شاهده العامل وهو يأكل فى مطعم الفول حتى اظهر انشراحه وسروره لهذا التحول فى حيــاة داود افندى . اذ تأكد أن صحة داود افندى آخذة في التحسن ، وانه تخلص مــن امــراض معدته التي يشكو منها .. ولكن ما ان تقدم اليه لتحيته حتى نظر اليه داود افندى نظرة تجمع اقصى ما تستطيع ان تستوعبه مــن الكراهيــة والتأفف والبغض ويصرخ شائحا بوجهه : « روح الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتى » (٥٥) .. وهكذا القى داود افندى مغبة كل ما وصل اليه

---

(٥٤) نفس المرجع السابق .

(٥٥) نفس المرجع .

من حال على هذا العامل البسيط الذى اصبح افنديا .. ولا يدرى لماذا يكن له داود افندى مثل هذه الكراهية وذلك العداء ، مع أنه حاول ان يقدم له كل ما يستطيع ان يقدمه لـه مـن خدمات .. ولم يعرف ماذا فعله حتى يلقى منه مثل هذه المعاملة القاسية .. ! ! !

ب ـ ان تفسخ شخصية داود افندى لم تغادر ذهن يحيى حقى .. فما ان قامت ثورة ٢٣ يوليه حتى دعته ما أحدثته هذه الثورة مـن تغييرات جذرية فى المجتمع المصري الى وضـع قصة « صح النوم » ليحلل نماذج من الشعب المصرى قبيل الثورة وبعيدها .. واذا به يهتم بأن يكون من بين الشخصيات المصرية الصميمة شخصية التركى المصرى ، على اعتبار انه ظاهرة اجتماعية تعيش فى المجتمـع المصـرى تحتـاج للوصف والتحليل والدراسة .. ويقع اختياره على قزم قوقازي يتناول تصرفاته قبل الثورة هو وزوجته فى لوحة من القسم الاول لصح النوم سماه « كتاب الامس » كما تتبع تطورات هاتين الشخصيتين بعد الثورة فى القسم الثاني مـن هذه القصة الذي سماه « كتاب اليوم » ، محاولا ان يكشف عن المزيد من ملامح الشخصية التركية المصرية فى ضوء المتغيرات الجديدة ، لتتضح لـه خبايا دخائلها عن طريق ملاحظة كيفية تكيفها مع كل ما يقع من تغييرات اجتماعية ... ولعله فى ذلك يريد ان يصل الى معرفة نفسه أولا وقبل كـل شـيء حتـى يجنبها التخبط والتورط والارتباك ، ويحفظها من الضياع الذي ليس بعده ضياع .. ! !

وكان يحيى حقى فى تعرضه للقزم وزوجته اكثر صراحة فى تحديد اصولهما التركية .. لـم يقف عند الرمز والاشارة ... واذا به يصـور لنا رجلا بلغ من قصر القامة حتى كاد يكون قزما .. يعد نفسه من ابناء القرية بينما هو حفيد اسرة من برارى آسيا ، تركوا الوطن وهاجروا الى مصر وتقربوا الى حاشية السلطان الذى اقطعهم ارضا فسيحة فى تلك القرية التي يدعى أنه من أبنائها ... بنت الاسرة فى هـذه القريـة دارا فخمـة كان اثاثهـا وتحفهـا حديث الاهالـي ودهشتهم .. ومع ذلك لا تقيم فيها الا حـين تجيء مع جمع المحصول ، ثم تعود الى العاصمة بعد قبض ثمنه « وشاء ربك مالك الملك ان يخلف الآباء ابناء اضاعوا ما ورثوا ، واخذت الارض تتناقص اطرافها ، ويد الخراب تمتد الى المنزل .. ولم يبق لسلالة هذه الاسرة فى وقتنا هذا الا ثلاثة افدنة وحجرتان فوق مدخل الدار لـم تتهـدم جدرانها .. » (٥٦) ومن اجل هذه التركة بذل حفيد هذه الاسرة جهدا كبيرا ليفوز بمنصـب امين مخزن السماد الهين ومرتبه الضئيل ، حتى يستطيع ان يعيش هو وزوجته فيما تبقى مـن المنزل ويراقب ارضه وينتفع بخيراتها .. وحتى لا تردد زوجته ما تدعيه من انها تزوجت عاطلا .. كما يعيش في وسط اناس يعرفون قدره وأصله .. فتتم له كرامة وعمل وجاه .. لم يكن قد تبقى في اسرته من الرجال الا هو .. يلتف حوله عدد قليل من النساء بعضهن ارامل واغلبهن عوانس وكلهن مصابات بأمراض شتى .. يعشن جميعا

(٥٦) يحيى حقى : « صح النوم » .

فى فاقة متسترة فى منــازل مختبئة فى ازقـــةالعاصمة .. ولما ترملت واحدة من تلك القريبات وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة قبـلالعزم ان يتزوجها بعـد أن وضعت يـدها على التركة رغم انها ضخمة الجثة ذميمة الخلقة بشمةالصورة .. وادعى انه ما تزوجها الا قياما بواجبه كزعيم للاسرة اذ ليس لها احد غيره .. وقبلت انتذهب معه للقرية .. الا انها اقامت فى دار حسنة جميلة فى اطراف القرية يدفع لها ايجارا يوازيمرتب الزوج .. ثم جاء باثاث لا بأس به يدل على سعة العيش واستعان بخادم اسود ، وهو ترفلا تعرفه القرية ...

وما استقر القزم فى القرية حتى اخذ يرتادعلى الحان ويتردد على فتاة من بائعات الهوى فى عاصمة الاقليم ، يبعثر نقوده التي يبتزها مـنزوجته بعد عراك وصياح ويواجه عقبها من اسرافه بغضب اشد ارهابا ، مدعيا بأن الديون قد كثرتعليه وينبغي ان يسددها فلا تقوى على احتمال رؤيته مغموما فتجود عليه بما يسأل ... ولكنجاء يوم ونفذ فيه صبر الزوجة ويئستمنعلاجة .. فاذا بها هي الاخرى تحاول ان تبعثر نقودهاوتوزعها على جيرانها المأزومين والمساكين ، قبـل ان يستولى عليها ويصرفها على الخمر والنساء.. واخذت تتوسع فى الاحسان فرتبت لاسـر فقيرة اعانة شهرية لا تنقطع .. وتكفلت برعايــةبعض ايتام القرية ، وتقدم لهم ما يحتاجون اليه من مأكل وملبس وتعليم .. وتهـرول لمساعدةالمرضى بالهدايا والمال .. فذاع صيت كرمها بعد انعمخيرها اهل القرية واحبها الناسحبا جما..واخذوا يضربون بها المثل فى النبل والعطف علـى الفقراء والمساكينوصارت دارها مقصد المحتاجينوملجأ المعوزين ... ولكن كثرة انفاق الزوجـة خفف النقود فى يد القزم واذا به لا يقدر على زيارةعاصمة الاقليم الا مرة واحدة كـل اول شهر ، وان لم ينقطع عن الحان فانه اخذ يباعد بين الكأسوالكأس ويكثر من التحدث عن نكبته فى تلـك الزوجة المتلافة التي تبعثر نقودها علـى الغرباءوتبخل على زوجها ، رغم انها تعلم ان كثيرا مـن قصادها من النصابين والادعياء .. ومع ذلـكاحيانا ينجح في الصول على مال منها بطريقة او باخرى ، وسرعان ما يندفع الى الحان ويشـرب حتى الثمالة ، ويجبر جميـع رواد الحان على الشرب على حسابه ، وويل للذي يرفض .. انهيجمع بين المهابة والعربدة يصر على ان يحترمـه اهل القرية حين يتبسط معهم .. ويثور اذا لـم يتبسطوا معه حين يزور عنهم متعجرفا ...

وكان هذا بالامس .. ولكن مـا أن جـاءالاستاذ ـ ابن القرية المثقف ـ وتولى حكم القرية وبدأ اصلاحاته باغلاق الحان والـزوم الجميـعبالاستقامة حتى تبدلحال القزم وزوجه .. فاذا به يحرص على الخروج من داره فى الصباح بعدان تاب عن شرب الخمر حرصا على النقود ، بل لم يعد ايضا يهتـم بحسن هندامـه ، فذهبتاناقته وتبهدل مظهره بعد ان انصرف كل تفكيره الى استرداد الارض التي اضاعها الآباء بعد إنورثوها من الاجداد « كانت ارضنا مربعة الشكل .. خير اراضي القرية .. فانا الآن لا افكر الا فىاسترداد هذه الارض .. وأن ارى ارضنا عادت

مربعة الشكل كما كانت .. كان الجزء الناقص مقطوع من قلبي .. اذا عادت لى ساكون اسعد خلق الله ... ومن اجل ذلك قررت انا وزوجتي ان نوفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الارض. وبذلك انتهى كل نزاع وخلاف بين الزوجين لما توحدت اهدافهما وخططهما .. واخذت الزوجة تدخر ايرادها كله حتى تمكن زوجها من استرداد ارض ـ اجداده .. وقبلت ان تتحمل في سبيل ذلك كل مشاق العمل المنزلي بعد ان استغنت عن الخادم ، ولم تعد تبالي بمساعدة احد .. لا يهمها سوى ترقب اليوم الذي تحلم به هي وزوجها .. وهو يوم تربيع الارض ..

فما الذى بدل الاندفاع والعجزة والتبذير والحماقة عند القوم الى حرص وتقتير واهمال المظاهر .. ؟ ولماذا انساقت الزوجة وراء الزوج في مثل هذه التصرفات ، ورضيت ان تتخلى عن الإحسان والعطف على الفقراء والمحتاجين ، وقبلت العمل المنزلي الشاق دون عون خادم وهي التي نشات على الترف والرخاء .. ؟ ولماذا هذا الاصرار على تربيع الارض .. ؟ لاشك ان هنالك انفعالات عميقة هزت شخصية المصرى التركي تنبه يحيى حقي الى تطورها الغريب بعد قيام ثورة ٢٣ يوليه التي نزلت نزول الصاعقة على كثير من العائلات المصرية ذات الاصلاب التركية بسبب ما احدثته هذه الثورة من تغييرات اجتماعية واقتصادية فاذا بكثير من هذه العائلات تجد نفسها فى العراء بلا ارض او مال بل بلا سند من السلطان بعد الغاء الملكية واصدار قوانين التأميم وتحديد ملكية الاراضي الزراعية .. اذ احدث كل ذلك ضربا من الفزع الفكرى ما جعل مثل هذه الشخصيات تنكمش انكماشا اجتماعيا مريضا يتخلى عن القيم التي تتمسك بها وتعودت عليها، فتنكرت للاحسان ومساعدة الاخرين وحسن معاشرة الذين يحيطون بهم ، وحبست انفاسها فى احلام الماضي تحاول ان تحقق آمالا بالعزلة والحرمان من تلك المتع التي كانت ملك ايديهم فى ذات يوم بدون مقابل من الجهد والعرق ...

الا ان يحيى حقي لا يترك قارىء « صح النوم » دون ان يشعره بانه ما زالت في جعبته تحليلات تخص الاسر التركية المصرية لم يفض بها بعد ... واذا به يفاجئنا بقصة « الفراش الشاغر » فنجد فيها من الكآبة والبشاعة ما تشمئز منها النفس على غير ما تعودنا عليه ... فاذا كانت صراحته وسخريته لاذعة فان عرضه للخراب الروحى الذى اصاب اسرة شارع الريحان يثير الفزع المخيف .. ويتعدى مرحلة الضياع التي كانت تعيشها اسرة القوم .. وتنذر بخراب يبعث على نفور انساني مروع من واقع حياة كريمة نتنة ، يئن فى اعماقه من تأوهات تشكو من ظلم الانسان للانسان على مدى اجيال واجيال خلال احداث ومحن لاذنب فيها للجيل الحالي المتخاذل المتواني ، الذى استسلم لوهم بان الاقدار هي التي شاءت وهو لم يشأ شيئا على الاطلاق .. !!

---

(٥٧) نفس المرجع السابق .

ولكن يحيى حقى لم يرد أن يكون واضحاكل الوضوح فى قصة ((**الفـراش الشـاغـر**)) ولذلك لجأ الى الرمـوز الرهيبة التى تهـول فيإثارة القرف من مصير أسرة شارع لريحان التى هوت الى حضيض خلقى يحط من كرامةالانسان.. واستباح لنفسـه بأن يستعين بشتى الصيغ البلاغية من تشبيه واستعارة وتوريـة وكناية ..يخفف بما يتعمده ايهام واعمال فكر من وطأة البيان المباشر عن الفحش والفسـق والخسة فىالانسان .. !!

اذ تصور لنا قصة ((الفراش الشـاغر))مدى مـا وصلت اليه أسرة مصريـة ـ هى فى الاغلب من اصـل تركى كانت تسكن بشـارعالريحان ، وهـو اشبه بحـارة في حي شـعبى تتزاحم على جانبيه كثير من الدكاكين المتلاصقةالفقيرة .. من بينها دكـان حانوتى يقـع قبال بيت هذه الاسرة التى تتكون من اب وام وولد ،وحين تعيش فى يسر وترف وسط اسر مطحونة وعمال فقراء ... ومع ذلك تركها الجيران واهلالشارع فى حالها لما بدا لهم ان افرادها على قسط كبير من الحياء الذى يجعلها تفضل ان تعيش فيعزلة وراء ستر .. الا انها لم تستطع ان تخفـى ما ترتع فيه من سعادةورفاهية وترف، اذ تفيضمظاهرها في المواسم والاعياد بنور الفرح الـذى يتدفق من النوافذ وما يصل الى اسماعهم مـنخلجة الضحك .. كما انه كثيرا ما تقف سيارة فاخرة من حين لآخر امام باب البيت وينزل منهارجال يتأسون لحاله لما يصدر عنه من تصرفات غريبة ..

الا ان هذه الاسرة فى الحقيقة تميل الـى((نفض اليدين من دنيا الناس .. هى عنـدهم زنابير لا امن الا فى تجاهلها ..)) ـ وتعتقد انالعيش،ليس خطا عموديا يرتكز جديده علىقديمه ويتسع الافق كلما علا .. ولا قوس دوران فلكشروق ثم سمت فانحدار فمغيب بل تقف نظراتهم الى الحياة عند حد انها مجرد خط افقي ابيضمستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها من شدة تلاحمها ولذلكآثرتهذهالاسرةالانسحابمن دنيا الناس ، فأفرغت حياتها من كل مضمون ايجابي ... ومضت تحيا فى السلبية ... انهم يخشون الجهد ... فيؤثرون حياة الشح والجبن لانها دائما مضمونة...اما ان تكون كريما وشجاعاعلى الدوام فهذا ليس مضمونا (((٨٥) بلـغ ترفهم درجة ان ((طعامهـم تمضغه لهم قبلهـمالمفارم ويد الهاون .. يأكلون اللحم والخضروات كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدن لذة مذاقهافى ضياع طعم اجزائها .. فالشيوع عندهم نجاة من مقابلة وجها لوجه لنعمة مخلوعة العـذار .(٥٩))) واذا كان الحق يقتضى ان يشكروا الله على هذه النعم .. الا انهم يتنكرون لها وينكرونهامما يوقعهم فى وضع متعب ، يفتح على مصراعيه كل أبواب الفكر ، رغم انهم اكثر من غـيرهممعـرفة بقـدر هذه النعم وينبغي ان يكـونوا اشد امتنانا لها ... واذا زعموا انهم ((كفوا عنالاعطاء خشـية نوال عوضـس يفرقهم يجدبـه او

---

(٥٨) يحيى حقي : الفراش الشاغر .. مجلة الكاتب ..ابريل ـ ١٩٦١ ـ القاهرة .

(٥٩) نفس المرجع السابق .

يمتصهم بفيضانه وادعوا انهم بذلك امنوا التفجع وضرب الكف لدمامة العقوق من الآخرين الا انه بهذه المزاعم وتلك الادعاءات لا يخفون الا خسة ارواحهم هم انفسهم وهي تنهيب عن الاخطاء حتى تبقى على ما هى عليه من حنق الشح وخوره . . وتبعد عنها ما استطاعت سماحة الكرم وشجاعته . . ولذلك « اذا ما خلوا الى انفسهم يشعرون بأن ايامهم قد سقت اسماؤها » وتشابهت ولا ينتبهون الى ما بينها من فروق . . ولايحسون بحيوية حدث من الاحداث الا اذا ارتبط « بدوران ظل أو بترديد صيحات الطيور المهاجرة (٦٠) .

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من غربة تكاد تفصلها تماما ـ سواء أكان فكريا او عمليا ـ عن كل ما يحيطها ومن حياة اجتماعية مما يجعلها عاجزة على التجاوب مع كل ما يطرأ عليها من تقلبات وتطورات . . فان هناك ايضا رباطا هشا لا يكاد يوطد العلاقات بين افراد هذه الاسرة . . ولذلك لا نعجب اذا ما اختلطت الاعمار باختلاط الايام ونادى الزوج امراته بيا امي . . وهى تناديه بيا ابنى . . وينادیان ابنها الوحيد بيا اخانا . . ونادى الابن امه بيا عروستى . . فى حين ان مناداته لابيه قد نسيها لانه اقلع عنها منذ سن الخامسة ، واصبح لا يتحدث اليه او عنه فى حضرته ، ولا يشير اليه بضمير الغائب « هو » فى حالة غيابه . . .

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من يسر ورفاهية فانها رضيت بأن تقيم فى شارع الريحان الشعبي الفقير المتواضع الذى كل اهله من الكادحين المكدودين . . . وقد يرجع ذلك الى نوع من الحب للشارع واهله ينبعث من ارتياح افراد هذه الاسرة الى نظرات التقدير والانبهار التى يشاهدونها فى عيون الاهالى من حين لآخر ، وتعوضهم عما فقدوه من سلطان وقوة ونفوذ . . ولذلك فضلت السكنى في وسط هؤلاء القوم البسطاء السذج في نفس الوقت الذى تحيا فيه حياتها الخاصة حسب تقاليدها وماشبت عليه ، فهى وان كانت ترتاح للاقامة فى احد بيوت شارع الريحان كمكان استيطان فانها لا تميل لمشاركة الناس والجيران وسكان الشارع سواء فى حياتهم الخاصة او العامة . . بسبب فقدان الثقة المتبادلة اولا وقبل كل شيء . . وتوقع الغدر من الآخرين فى اية لحظة بمناسبة وبدون مناسبة . . ولذلك خشى افراد هذه الاسرة تقديم المعروف حتى لا يقابلوا بالخسة ونكران الجميل . . . بينما يشعر اهل الشارع بان هذه الاسرة ترتع فى عز ليس من حقها لان افرادها لا يكادون يعملون شيئا ولايؤدون خدمة ما تعود على احد بنفع . . فى فى نظرهم لا تستحق حتى مجرد الحياة . . وانما تتوهمه فيهم هذه الاسرة من خداع وغش وتكران للجميل ما هى الا ضروب من الاسلحة يتدرعون بها ضد مواقف مثل هذه الاسر من عزلة وسلبية . . وتأتى التقرب بالزلفى والخضوع والطاعة لمن يمتنع عن الاعطاء ويريد فى مقابل بقايا ما يتساقط من الموائد المزيد من الشكر والعرفان . . ولذلك لا نعجب اذا ما انعدم التفاهم وتفككت الروابط ، وان كان الجميع يلتفون حول حب الشارع ولا يريدون به بديلا ويتعلقون به كل التعلق . . .

---

(٦٠) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

وهذا التضارب فى المشاعر يدعو الى ضرب من التخبط الانفعالي لا يعرف كيف ينسق بين تيارات هذه المشاعر المتعارضة ... فالعزلة لا تمنح الامان . والاختلاط لا يبعث على الاطمئنان .. !! .. ان الكبرياء المجروح .. والتعالي العاجز والعنجهية المتداعية تشعر على الدوام بان المشاركة والامتزاج والذوبان لا تخلو من انهزامية ، وتنم عن خيبة وفشل» واضمحلال فيزاد التمسك بالعزلة كستار يخفى العجز ويمنع الاخرين من كشف النقص والضعف والتخاذل ، ويكتفى ، بأن يعيش حياة سهلة ميسرة تخفف عنه وطأة ضياع النفوذ والسلطان ولا تشعر بالحاجة الى العمل الجاد النافع ، او تدافع لتحقق مستقبل افضل ... لان المشاركة بمختلف الجهود لن توصل الى ما كان عليه الاجداد أو ترجع مجد الماضى الذى ولى .. فهناك نوع من اليأس ادى الى حالة من الرفض لا تقبل الاستسلام والرضوخ للامر الواقع ، فانساق اصحاب المجد الضائع الى العزلة السلبية والامتناع عن عطاء يعلنون بها عن سخطهم وغضبهم ... ولم يجدوا ما يمنعهم عن التمتع بالثراء الموروث في لا مبالاة تقف عند حد الاستهلاك لهذا الثراء ، دون التفكير فى استثماره استثمارا يعود على الجميع بالخير يدعون انهم يعيشون على موارد يحاول الاهالى نهبها وحرمانهم منها ، وليس امامهم الا زيادة الحرص الذى اضاف عليهم مظهر الشح الذى يتهرب من السخاء ، خشية مغبة تكاثر عدد المطالبين بالهبات والهدايا ... وهكذا تحول الخوف من نهب المال الموروث والمصدر الوحيد للحياة الرغدة الى امتناع عن الاعطاء .. !! ولا بد ان نتوقع انقطاع كل صلة نبيلة بينهم وبين عامة الناس . وضياع الثقة المتبادلة بين الجميع ... ولا تدرى كيف يمكن تحمل مثل هذه الحياة التى تفتقد كل هذه المعاني لولا حب الكل للشارع ..!!
ان العزلة مهما كانت صارمة لا تستطيع ان تقطع كل الصلات بحياة اجتماعية يعيش الانسان فى وسطها ، وتحيطه من كل جانب ، وتقابله رغما منه في اية خطوة ولذلك فان الانطواء الذى يلتزم بالعزلة الكاملة لايمكن ان يصل الى حد الهروب الكامل الشامل من هذا المجتمع . . بل ان العزلة فى حد ذاتها لاتستطيع ان تحول دون اثر المجتمع المضاد ، الذى قد ينزل اشد ضروب العقوبة على كل من يقف منه موقفا سلبيا ولا يسهم اسهاما ايجابيا فى تقدمه ويمتنع عن المشاركة والبذل والاعطاء .

لقد توفر لاسرة شارع الريحان حياة سهلة مترفة دون صراع او تزاحم ، جعلها لا تبالى ببذل جهد او امعان فكر ، لانها لا تحس بالقلق على الرزق او تخشى من تقلب الغد . . كما تعودت ان تتصرف بحرية دون قيد او ضغط . . تتمتع بقدرة على التحرك دون ان تسمح بتدخل من احد .. يوجد بين افرادها علاقات رقيقة لاعنف فيها ولا صخب ، تهتم بتبادل الاحترام والحرص على مظاهر المحبة .. وتلتزم بتماسك لا يعترف بتسرب دخيل . الا انها فى النهاية لا تكون مجتمعا قوى البنيان يحتمل مواجهة كل ما يحدث من تطورات فى المجتمع الكبير .. ولذلك غالبا ما تتخبط التصرفات وتضطرب التحركات اذا ما احتك احدهم بالمجتمع الخارجي .. او اعترى هذا المجتمع اى تغير مفاجىء او تعديل غير متوقع .. رغم ما يتمتع به من حرية تسمح بالانطلاق والتصدى لكل ما يستجد من مفاجآت .. وتقوى على ازالة كل غشاوة تعوق وضوح

الرؤية وتطمس معالم الطريق السوى .. وذلك لان افراد هذه الاسرة رغم ما يرتعون فيه من مستوى حضارى متقدم فانهم يقضون ايامهم بلا آمال عريضة تقصد تحقيق هدف محدد ، ويسرعون بتلبية رغباتهم الطارئة دون اهتمام ببلوغ غاية مرجوة ... !!

ولذلك لما ابدى الابن الوحيد رغبة فى الالحاق بكلية التجارة دون ان يبدى الاسباب لم يعترض احد ، وتركت له مطلق الحرية فى الاختيار .. بل لم يندهش الوالدان حين عدل عن الدراسة فى الكلية بعد أن امضى بها سنة كاملة .. اذ لم يخطر على بالهما أن يجبراه على دراسة أورثته كرها للعلوم التى تتعلق بشئون المال والتجارة والادارة والارقام .. لانهما لم ينتبها الى أن فقدان الهدف والبرنامج وضياع الامل فى المستقبل هو الذى جعل الفتى لا يجد المتعة العقلية فى هذه العلوم .. فلم يواصل دراسته فى كلية التجارة... ورغم أنه رأى باختياره ان يلتحق بعد ذلك بكلية الآداب ، الا أنه لم يرتح الى ما عرفه من نظريات ومذاهب ودراسات حثته على الجدل والثرثرة والسفسطة ، ولم تربِ فيه تذوقا للادب والفن ، ولم تقدر على تنمية احساسه بالجمال ... ولم يجد من يراجعه حين عدل عن دراساته فى كلية الآداب بعد ان كرس لها سنة أخرى .. بل طاوعه والداه حين فضل ان يقطع صلته بالدراسة ويبقى فى الدار عاطلا بلا عمل سنة ثالثة ... ولكن الفراغ قلب حياته راسا على عقب ،اذ اخذت تراوده أفكار الزواج .. الا انه لم يشغل نفسه طويلا فى البحث عن زوجة تهون عليه مثل هذا الفراغ ... لقد كانت تزورهم فتاة ريفية فى صحبة امها ومع ابيها مستأجر اطيان نجم العائلة كلما حل موعد تسديد القسط الشتوى او القسط الصيفي ... وسرعان ما استولت عليه نزوة حكمت بأن هذه الفتاة تصلح له « فهي فتاة خام ساذجة لها عيون سبالة لا تقوى على توجيه النظر .. وجبهة لا تبرق بفكرة .. وجسد فى حالة شيوع تاهت فيه مفاتن الاعضاء .. وشعر ملبد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل ضفائر مبتلة على جبينها وخديها .. » فلم يتردد ووقع عليها اختياره لتصبح زوجة له ، رغم انه عرف انها ارملة لزوج من اقربائها فى الصعيد قتل فى حادث اخذ بالثأر بعد أيام معدودة من زفافها اليه ... اذ أحس وهو فى طريقه اليها انه قد ارتد الى الطبيعة الام وتخلص من تقاليد الاجداد ، التي جرت على خوض المعارك من اجل الظفر بزوجة ابتداء من المطاردة واقتناص الوحش للوحش الى خطف ثم شراء واثبات بطولة بعد نوال الحالى فيما ينساق اليه من متاهات الغزل والسهر ..ولا يوجد ما يجبره على ان يجارى الشباب والتنهدات .. وراقه ان يحصل على زوجة سهلة قد تولى غيره فك بكارتها ودكها كالطاجن .. وما عليه الا ان يشتريه مستويا ناعما جاهزا.

ولقد هيأت له نزوته في الزواج من فلاحة صعيدية حالة نفسية جعلته يستغنى عن فرش المدينة ، ويهتم بأن يؤثث حجرة العرس على النمط الريفى من حصيرة ترص عند حافتها الشباشب والقباقيب .. وسرير من الحديد لعملة شاءت العروس ان تكون من سلك هزاز ... وناموسية من حرير وردى ... وصندوق للملابس مزين بالاحمر والاخضر .. وطشت

ودست للفسيل .. حتى يعيش فى جو مصرىريفى خالص ... ولعله يكون قد توهم بأن اقباله على الزواج من صعيدية ، وتأثيث غرفة ريفيةعلى خلاف عادة اسرته فى الزواج داخل العائلة ذات الاعراق المتشابهة والتقاليد المتقاربة قدساعد على تحقيق رغبة كامنة تنشد الامتزاجبعامة الناس ولا تعرفالسبيل الى ذلك ، ولكن النزوةوالتوهم والرغبة لا تكفى لتحقيق حياة مستقرة ... لقد اختار الفتى زوجة فقيرة جاهلةساذجةيسر لها كل ما تنشده في عش الزوجية ، وكفل لها كل سبل المعيشة الطرية .. وتوقع ان تكونطوع بنانه .. فلقد اعطاها ما فيه الكفاية وهو لم يتعود الاعطاء .. وليس لها فى ان تلزمه بأى نوعآخر من الاعطاء .. وغاب عنه ان هناك اعطاء تفرضه الطبيعة بعد فى نظرها ونظر شبيهاتهامن أولى واجبات العشرة الزوجية ، لا تتحقق الا به ولا تتم أو تستمر الا في احضانه .. ففوجىءفى الليلة الاولى ذاتها بأن يرى هذه الفتاة الخام الساذجة الطيعة فى حياء قد انقلبت الى وحشضار مفترس .. العيون المسبلة ابرقت وانبعث منها فى جوف الليل نظرة مستعرة تلحس جسده.. والجبين الذى لا يلمع بفكرة أصبح سطورا عليه امر مستعجل نافذ الاداء على الفور ...الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت عن رعشت تلهث ... الفم يتلمظ ولا يستقر ... وانكشفتاسنان تلألأ جوعها فتطاير من حولها الظلام مذعورا ... والاعضاء التى كانت تزعم انها فقدتفتنتها فى شيوع الجسد استرد كل منها حقه ، بل واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله .. « ولميكن يتصور ان واجبات العشرة الزوجية تتطلب كل هذه الحدة والاندفاع وذلك النهم والالحاح.. والامر لا يحتاج لمثل هذه العجلة التي تفقد الشهية وتضيع المتعة .. انه اراد من الزوجةان تكون مجرد دمية طيعة يتسلى بها ، او لعبة جامدة يلهو معها .. ليس لها حق المبادرة وهو غيرملتزم بأية مسئولية نحوها .. ولذلك لم يكن يتوقع ان تصدر مثل هذه الانفعالات المغرية عنتلك الفتاة السمراء .. ! !

ولكن كيف يتصرف معها ويعطيها ما تتمسكبطلبه .. ؟ كيف يرى ظمأها الغريزى الملتهب ويشبع جوعها الجنسى العارم .. وهى لا تقبلالتسويف والمماطلة والمراوغة .. ؟ بينما هو سليل اسرة كفت عن الاعطاء من زمن طويل ، ولا تقبلعلى امر الا اذا كان سهلا ميسرا . ولا تقدم على عمل الا طواعية وبارادة كاملة دون دفع .. ولاتلتزم بمسئولية او تكره على اداء واجب . ؟ !!

وما كادت تختبره فى أول واجبات العشرةالزوجية في نظرها حتى تعثر .. واذا بفحولته لما شعرت بانها وضعت موضع الاختباروالالزام تفقد حماستها ولا تسعفه .. فسقط امام العروس ورفضت ان تعيش فى ظل حياةزوجية صورية لا جنس هائج فيها ولا غرائز ملتهبة .. فتبين استحالة الجمع بين سليل الاسرالراقية وبين الفتاة الصعيدية الفقيرة سليلة الاسر الكادحة المكدودة التي لا متعة لها فى الحياة الاالمتعة التي وهبتها له الطبيعة ، وتضيع فى جنباتها شتى المفارقاتالاجتماعية والاختلافاتالحضارية،ويتساوى الجميع فى اسلوب اشباع هذه الغريزة الاولية وينعدم مراعاة اى تمايز أو تمييز اذا ماكان شبق يلح فى طلب الارضاء ... ولما تاكدت الفتاة ليلة بعد ليلة من عجز عريسها في مشاركتهاجنسيا بعد ان عرت جسدها وكشفت له عن

نوع جنسى كانت تخفيه فى سذاجه و عبـاء ،واسباحت له نفسـ ا تحت اعتقاد بان ذلك امـر فرضته الطبيعة ولا تعترض عليهالتقاليد والعادات واقرته الاديان ما دام يسلك الطريق الشرعى المتعارف عليه ... فأحست بالخدعة والمهانةبعد ان عرضت نفسها عرض العبيد ولم تجد غير الصد والابتعاد ... ففضبت لافتضاح شراستهاالجنسية .. وثارت لغريزتها الجريحة .. ولـم تتورع عن ان ترفس زوجها رافضة ان تستمرفى عشرة رجل على ما هو عليه من احجام فى فراش الزوجية .. وتصارحه بعزة ونخوة بأن « نساءالصعيد خلقن لرجال الصعيد » ثم تمعن فى امتهانه وتواجهه بفلظة فى اباء وشمم .. « اننى ابول علىتتودك واناقتك وكلامك الحلو » وتسخر منـه مستهزاة .. « ابحث لك عن مومياء ملطخةبالابيض والاسود والاحمر » تليق بابن الاكابر وتستطيع ان تستثير فيـه نوازعه الجنسيـةالمهيضة ...

لم يكن الفتى يتوقع أن يسقط هذا السقوطفى اولى محاولاته الايجابية للمشاركة الواقعيـه التي تقر به بالفعل لبنت من عامة الصعيد وتمكنهمن البدء فى السير على درب الاندماج الكامل ... واذا بهذه المحاولة تتحول على مذبح الجنس الىدفع فى تيار عارم لايقبل التردد والتسويف .. مع ان تصوراته فى انه اختار زوجا مطواعا لينةالعريكة تستسلم فى هوادة لاوامره ؛ تطيعه فى كل شيء وتلبى رغباته عند الطلب دون مبادرة منها... ولما فوجىء بضراوة جنسية مصممة علـى نوال حقوقها المشروعة دون الاهتمام باى اعتبارآخر .. فلم يخطر على بالها ان ترعى ما بينها من فروق في الحسب والنسب والتحضر والتمدنوالنشأة والتربية والثقافة ... ولم تستمهله وتاخذه على راحته حتى يتغلب على كل هذهالفروق ؛ تقلبا يمكنه من ان يجتاز ما رسبته من حواجز نفسية تحول دون مساعدته على تكويننوع من الالفة والانسجام والمودة ، تضيف على العشرة الحلاوة لا افتعال فيهـا ولا انتهازية ،فيسهل عليه أن يستجمع ركائز رجولته ويشحذ فحولته لتكون على أهبة الاستعداد ... ولكنتمسك العروس باداء حقها على الفور وفى اللحظة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضاريـةجعل العشرة الزوجية تقوم على مجرد نزوة طارئة طائشة عند الفتى فى مواجهه زوجة جادة فـىالتمسك بحقوقها المشروعة ، بينما لم يسبق هذه العشرة الرسمية محاولات لتحطيم الحواجز التيخلقت ظروفا نفسية جلعت الفتى يحجم عـن اداء أولى الواجبات النوعية ، كأن قوى داخليةاكبر منه دفعته رغما عنه أن يعلن نوعا من الرفض لمثل هذه الزيجة غير المتكافئة ، الخالية ممـاينبغي أن تكون عليه من تقارب ومشاركة واندماج لا يمكن ان تتحقق الا ببذل جهود مسبقة متواصلةلم ينتبه احد من الطرفين ان يقدم على بذلها أولا وقبل كل شيء .. !!

ولكن الصعيدية كانت اكثر حسما للمشكلة.. وسرعان ما طلبت الانفصال .. اذ احسـت بانه ليس هناك ظل من أمل فى حياة زوجية علىابسط اساس من العلاقات بين الرجل والمراة .. فى حين آلم الفتى أن يسقط فى نظر هذهالصعيديةالتي يسيطر عليها شبق جنسى متوقد ورغبـه

ملتهبة تلح في الاشباع كأنها لا تجد ما تستطيعان تعوض به كل ما تعانيه من ضروب الحرمان الا ماتريد ان تستمتع به من لذة في فراش الزوجية .. !! ولـم يكن أمـام الفتى الا أن يرضـخ لرغبتها في الطـلاق ، ولم يعارض الانفصـال ،ووجد فيه خروجا من هذا المأزق اللعين .. وتركها تعود الى بلدتها بعد زواج صوري دام اقل مـن اسبوع ... !! وهكذا انتهت هذه الزيجة في مدة وجيزة لانها قامت على مجرد نزوة طفل حـاول ان يلعب دور الرجولة ... وانسحبت الصعيدية من بيت الزوجيه الثاني بارادتها غير آسفة .. الا ان هذا الانفصال جدد مواجع حسرتها على نقدها لزوجها الاول الذي ضيعته عليها تقـاليد الصعيد الصارمة في الاخذ بالثأر ، وتركتها حيرى حتى اصبحت مطمعا لمن يريد ان يلهو ويلعب على حساب كرامتها وعزتها .. وفضلت ان تهجر حياة لا كيان لها فيها وعادت الى الصعيد لعلها تجد في قريتها من يعوضها عن عريسها الاول من بـين رجال الصعيد الذين خلقت لهم نساء الصعيد ويطيب لهن الحياة معهم .. بعد ان فشلت في ان تلعب مع زوجها الثاني دور الدمية التي لا يريدعنها بديلا ... !!

ولكن اذا صعب على فتانا ان يحصل علـى دمية لبعض الوقت فانه يمكنه ان يصل الى ما اشبه بالدمية بعض الوقت متى دفع الثمن ... لقد أتاح له جو الحرية المطلق الذي تعيش فيه اسرته أن يلجأ الى العاهرات يشترى منهن ، لينفي عنه سبة العجز في فحولته دون اذعان لالـزام او اكراه .. **ويبعد عن رجولته شبهة العنة دون المساس بمشاعره التي يخزيها ان توضع قدراته الجنسية موضع الاختبار ... اذ « ليس لواحدة منهن حق عليه ... فلا مسئولية عليه قبلها .. انه يريد ان يشترى بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء .. » (٦١)**

وكان في أول الامر لايفـرق بـين غانيـة واخرى .. ثم بدأ يتأنق في الاختيار .. لاتروقه إلا البائعة التي يتكاثر عليها المشترون حتى يضيع في الزحام ومع ذلك قلما يجد جنته المنشودة لانه « لايزال يتوهم حتى في اكثرهن رواجا وانشغالا : اشاحة وجه .. او لوية خشم .. أو دفعة يـد تفسد عليه طمأنينته .. واصبح غاية ما يتمنى ان يجد من جمد وجهها فلا يتحرك ولو صبغ بلون الشمع .. و نعقد خشمها في قالب ثابت .. ولو تصلبت الشفتان كالخشب .. ومن شلت يدها ولو اصبحت باردة كالثلج . (٦٢)

وهكذا ــ حتى في احضان بنات الهوى لم يجد فتانا المتعة المرغوبة التي تكفل له الاطمئنان والثقة وتمنحه التقدير الذي يرد له اعتباره ويؤكد وجود ذاته ويعز فحولته ويكرم رجولته ... فلما لم يعثر على العلاج الشافي عند الغانيات انتكس نكسة اصابته بمرض غريب سلط عليه ميكروبا ضعيفا تستطيع ان تلتهمه الكرات الحمراء وتقضي عليه في الحال بكل يسر .. ولكن جسده المتخاذل عجز كذلك عن مقاومة هذا الميكروب الواني لا لعلة فيه وانما لفقدان ارادته الرغبة في المقاومة ،

---

(٦١) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

(٦٢) نفس المرجع .

حتى اعيا الاطباء فى علاجه مما دعا احدهم الىالنصح بعرضه على طبيب نفسانى .. قد يكشف عن عورات داخلية ويعرى ذاته من كثير مما تستروراءه .. ويفصح خباياه الباطنية ويظهر للجميع خوره وتردده وضياعة سواء بين الرجال او معالنساء ... ويكفيه ما أصابه مما كشفت عنه بنت الصعيد .. وما كاد فتانا يصل الى هذا الحالحتى بدا وجهه نديا ينطق « بانصياع رضى وطيبة حلوة » واذا بحركات اعضائه تتناسق ويشملهاهدوء عجيب رماه بالبلادة والتراخى « ولكنه وجده عز الاناقة ، فزاد اعتناؤه باظافره وربطةعنقه وانسجام هندامه » واخذ « يتحرك بخشوع فيه دلال مخنث .. ويتكلم بنبرات خفيضة فيهاغنة .. وبدت فى عينيه عذوبة كانما كحلها بعسل » اضفتعليه رقة مهذبة ارتاح اليها ، وانكانت مغرية تدعو الآخرين للتودد اليه مما يشعره بانه مرغوب فيه ولا ينفر منه .

وما كاد يشعر بشيء من الاستقرار النفسيحتى راودته الرغبة فى مواصلة الدراسة من جديد .. واختار هذه المرة كلية الحقوق . .وسرعان ما انتبه زملاؤه لاناقته ورقته ، واخذوا يلتفون حوله لايدرون مايجذبهم اليه)«أهياظافره.. أم اصابعه الرخصة .. أم هذا العسل الذى يسيل من عينيه .. وهذه الرقة فى حديثه » وناسعده هذا الالتفاف الا ان « احدا منهم لم تتقدم به صلته الى درجة الصداقة التي يفصل رباطهاقلبين عن وسط الزحام « ولكنه » لم يشعر بالوحدة .. بل شعر بالراحة « مما اضاف علىتعسيلة نظرته ابتسامة حلوة » حتى ازداد تعلق الزملاء به واخذوا « يضربون به المثل فى الطيبةونبل الاخلاق » على اعتبار انه ابن الناس الاكابر ... وهكذا استطاع فتانابحسن علاقاته مع الزملاء ان يكسب ارضية جديدة تمنحه ما يحتاج اليه من اعتياد وتقديريعود عليه بالثقة التي تساند الارادة .. وبالامان الذى يدد الآمال والاماني .. رغم انه لم يسلم منأقوال السوء التي ترى ان مقالاته فى الاناقة والرقة مقومة ورخاوه هي اقرب الى الانوثة منها الىالرجولة ، مما دعا البعض الى توهم انه يعاني من شذوذ جنسي هو منه براء .. !!

أقبل فتانا على دراسة القانون هو مرتاحالبال فتوالى نجاحه حتى لم يبق على تخرجه فى كلية الحقوق الا سنة واحدة « فقد اعجبه انالقانون نجا برقبته من شريعة الكون وربكتها وتناقضها ... وتسميتها للظلم على انه فى بعضالاحيان عدل » ورأى ان « القانون يصطنع لنفسه منطقا مستقبلا جميلاعلى الورق.. بارع التقسيموالتسلسل عاجل النفاذ » الا انه بدا له كانه « هدم بناء الحياة واتخذ من انقاضها قوالبمرقومة اقام عليها صرحه : القاضي لا يحكم بعمله .. بل من الورق ... فالورق ابين منالحقيقة ... الصدق عنده كالكذب مرفوض ، الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ... الرذيلة عندهمحددة ... والفضيلةمبهمةليسلها حساب»(٦٣) فالقانون قد يقضى لعقابالزوج الخائن ولكن لايكافيء الزوج المخلص ... كما ان نظرتهمتساوية للجميع دون تمييز بين العاملوالجاهلوالتطوعوالمعذور . ولا يعطى اى اعتبار للقدر وما ينزله

---

(٦٣) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

بالناس من محن ومصائب وما يستلزم بعض الرفق والرحمة والعطف . . . ولذلك فان احكام القاضي مهما كانت نزيهة لا تصل الى مستوى العدالة الحقة . . . ومع ذلك فان القانون المنطقى مهما كثرت مظالمه افضل بكثير من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم . . . وهكذا اختلطت الامور على فتانا واخذ ينقد تدريجيا الاحساس بالفروق بين الفضيلة والرذيلة ، بسبب ما نوهمه من وجود تناقض كبير بين منطق شريعة الكون الالهية وبين منطق القانون الوضعى . عجز عقله عن ادراك ما بينهما من تقارب ووقف عند ادراك ما بينهما من تفاوت . . . !! فان ارتاح الى دراسة القانون فى الامر لوضوح منطقة وتسلسل احكامه الا انه لم يجدفيه ، ما ينصفه من قسوة القدر ويرحمه من شريعة الكون ويمكنه من الانتصار على ذاته وينقذه من مصيره المحتوم . . . !!

ولكن اذا لم تحقق دراسته للقانون ما كان ينشده من وضوح الرؤية وراحة الفكر . . الا انها اتاحت لذهنه من فرص التأمل الحر المنطلق ما ادى به الى بلوغ « لحظة صفاء » غمرته بنقاء وسكينة خلصته من كل ما يكبله من قيود واغلال . وانقذته من شتى الاوهام والمخاوف وطهرته من الدنس والنجاسة وفاضت عليه بمشاعر لا حدلها من الحرية الرحبة . . . كان يستطيع ان ينتهز هذه الفرصة التى لا تعوض فى تدعيم احوال الصفاء والنقاء والسكينة والطهارة والنجاة والحرية وتعميقها فى الذات وتثبيتها بين جنبات الوجدان . . الا ان ذلك يتطلب سلوك هدى طريق شاق لا يقوى على تحمل جهاده الا من عرف الندم والتوبة ، والتزم بطريقهما وجاهد جهادا متواصلا لا ينحرف عن مزاولة شتى ضروبه من المجاهدات الجسدية والرياضات النفسية . . ليقتلع كل ما فى داخله من جذور الشر . . ولذلك غفل كيانه الهزيل الهش المتخاذل عن ادراك جلال ما انتابه من لحظة صفاء ، ولم ينتبه الى ان ما توصل اليه من نقاء يمهد له الاقتراب من حال التوبة . . فغاب عليه ان يسير فى طريق الندم والتوبة . . واذا به ينعى على ما غمره به الصفاء والنقاء من حرية بلغت من العنفوان ما زلزل قوامة زلزلة اعجزته عن أن ينهض ويصرع الرجس فى داخله ويصحح الخلل الذى أصابه ، وينقذه مما هو مساق اليه من امراض مستعصية . . ورضى ان يبقى على حاله فى مرحلة يتصارع فيها الخير والشر ويتنافس فى السيطرة على تصرفاته الملاك والشيطان . . . فوقع صريع دوامة الحق والباطل . . الا أنه فضل أن يعاني الصراع بين الفضيلة والرذيلة تستولى عليه بلبلة تسوقه الى متاهات غريبة شاذة على أن يترك هذه الحرية التي اتته بدون جهد يذكر تطغى على كيانه وتتحكم فى تصرفاته الهوجاء . . . فاذا باحساس ملل فظيع يستولى على كل وجدانه ، ويعكس كيانه بمرارة مرة ما بعدها من مرارة ساقته فى تيه من التخبط والقلق . . بينما لم يبق امامه الا أشهر قليلة ويتقدم لامتحان ليسانس الحقوق مما زاد من توتره . . وتجمعت عليه شتى المواجع ، ودفعته دفعا لتصرفات بلهاء حمقاء ابعد ما تكون عن الحكمة والرقة والنخوة الانسانية ، وساقته سوقا الى حتفه فى هاوية سحيقة لا قرار لها بعد أن سمح للشيطان ان يلعب برأسه ، ويترك للمعصية ان تفترسه فيغيب عنه الوعى الطاهر القويم ، وينساق وراء اوهام حكمت عليه بالعار والاحتقار واثارت ضده مشاعر التقزز والاشمئزاز فاستحق اللعنة فى الدنيا وفى الآخرة . . . !!

فنجد الطالب الجامعى الذى عجز عن توطيد صداقة كريمة بزميل له فى كلية الحقوق يتمتع فى كنفها بما يرحمه من زحمة الحيـاة .. يقـع صريع صداقة مهينة غير متوازنة لا تكافؤ فيهـا بين الطرفين ، ويرضى ان يصاحب صبيا حانوتيا فى شارع الريحان ... واذا باقاويل السوء التى كانت تهمز بالشذوذ تصبح فجاة حقيقة واقعة... !! لقد تعود الصبى الحانوتى ان يراه على ما هو عليه من اناقة ونعومة ورقـة ورخاوة فى نزوله وصعوده من البيت الذى يقابل دكانه ... ربما سولت له نفسه امرا خبيثا فأخذ يتربص به حتى ينتهز فرصة ليوثق علاقته به وينال منه مراده ... وحدث بينما هو يضج ضـيقا مما يعبث فيه من ملل ان وقع نظره عفوا ذات مرة وهو خارج متاخرا من بيته بغير عادة على صبى الحانوتى وهو واقف على سلم يعلق لافتة على دكانه ... فما أن تقابلت العيـون وراى فتانا شابا « مدكوك الجسم ككيس قطن .. قصـير القامة والدراع .. ضخم اليد .. ضيق الجبهة والعينين .. نظرته ثاقبة لها لمعان ، فيها مكر وحنق وعكارة دم فاسد وجوع الوحش » (٦٤) فظن صبى الحانوتى ان الفرصة المرتقبة قد واتته « وقبل أن يشيح بوجهه راى الصبى يبتسم له ويرفع يده الى راسه بتحية وسلام .. فمضى وهو يعلم انه لا بد عائد اليه » .

ولا ندرى كيف توثقت عرى الصداقة بين شابين رغـم ما هى عليـه من تباين اجتماعى واقتصادى وثقافى وحضارى وكيف : « اصبح من عادة الفتى ان يمضى امسياته فى صحبة صبى المعلم امام الدكان » لعله حاول بذلك الهروب من الملل والتحرر من الشـقاء الذى يعانى منـه الامرين ... !! كان اول الامر ينزل اليه مرتديا بذلته وحذاءه .. ثم « ثم لم يجد باسا من أن ينزل اليه فى جلبابه وشبشبه » لما توطدت الالفة وزالت ما بينهما من فروق .. فلم يجد فتانا ما يحول دون مجاراة صبى الحانوتى ليس فى ملبسه فقط بل شـاركه كذلك فى موضـوعات الحديث بشغف زائد ، خاصة تلك الموضوع التى تتصل بعمل الحانوتى حتى اصبح « حديث الصبى عن الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطقوسه وفنونه وحيله » (٦٥) ولما احس صبى المعلم بازدياد شـغف فتانا بالاسـتماع اليـه والاستفسار المتواصل عن كل ما يتعلق بتفاصيل عمله فى عالم الموتى والقبور .. رغبة فى أن يحضر معه ليشاهد بنفسه عن قرب كل ما يستفسر عنه .. ومن الغريب حقا فى الا يتردد فتانا فى قبول مثل هذا العرض فى التو واللحظة مجذوبا بسحر عالم الموتى الذى لم يكن يدرس عنه شيئا .. كانه مساق وهو فى غيبوبة بعد ان فقد انطلاق الحرية وصفاء الطهارة واستكان لاغراء دعوات خبيثـة تحت تاثير وهم مضلل بان ما يتحكم فى مصـيره المحتوم قدر لا يخضع لمنطق او قانون ولا يعرف الرحمة أو الشفقة .. فاندفع فى تيارات هوايته الجديدة التى اصبحت لعبته المفضلة ، مع انه لم يسبق ان راى جثة ميت من قبل .. !!

---

(٦٤) الفراش الشاغر .

(٦٥) نفس المرجع .

وما أن راى أول جثة حتى وقف امامهــامشدوها فى حيرة ما بعدها حيرة لا يدرى هل ما يراه امامه هو « استسلاما بلغ حد التعذيب به . . أم عذابه بلغ مداه فذاب فى استسلام » . . ؟ وما أن ادرك أن الذى امامه « لا شيء . . له صورةبنى آدم » حتى زالت عنه الرهبة من الموتى واقبل يغسل الجثة برفق آمن مادام الميت « ما يشيحبوجهــه . . ولا يلوى خشــــمه . . ولا يدفــع بيده » (٦٦) فطاب له هذا العمل الذى اطلق لهحرية التصرف . . واصر على أن يصحب صبى الحانوتى فى كل طلب . . بينما ظن صبى الحانوتىأن تمسكه بمصاحبته يرجع اولا وقبل كل شيء الى شدة تعلقه به شخصيا ، بحيث لا يستطيع لهفراق ، خاصة وأن ابتسامته له أخذت تزدادرقة وعذوبة . . وان نظرته فاضت تعســيلا وحلاوة. . بينما استولى على جسده ارتخاء ورخاوة . . فطمع فيه ووسوس له شيطانه أن يتجرأ عليــهويصارحه بما يريده منه ويطلب منــه الا يتدلل عليه اكثر من ذلك ويستسلم له ما دامت هذه هىرغبته . . وحثه على أن يتسربا داخل ظلام الدكان حيث يوجد نعش كبير يسعهما معا ويتيح لهماأن يقضيا مأرباهما فى شوق زائد اليه ، ورغم أن الفتى رد صبى المعلم عن غيه . . الا أنه لم يظهرله أى نوع من الغضب او الضيق لمجرد توارد مثل هذه الرغبة على شهوة صديقه . . ولم يبد عليهأى نوع من التأفف من مثل هذه المهانة التى يريد أن يسوقه اليها هذا الرفيق المفضل . . لأن ذهنهالتائه فى غيبوبة يستولى عليه ملكوت القبور ولا يكاد يلتفت لأى شيء آخر ولو كان يتصل بكرامةرجولته . . ولذلك لم يعر اى انتباه لكلام صبى المعلم الذى لما لم يجد استجابة فورية لم يلح عليهوتركه فى ملكوته فابتعد عنه بعد أن كان ملتصقا به وهو يناوله هذا الحديث حتى يوحى للفتى بأنما طلبه كان مجرد نزوة طارئة ، وانه تاب الــى رشده ورجع عن رغبته . . وغير موضوع الحديثودخل فى كلام ليزيل ما يكون قد انتاب الفتى من انفعالات الرفض فيفقده الى الابد قبل أن ينــالمرامه منه ، واذا بحديثه يذهب الى « الاستعباد وذم الزمام والتحسر على الماضى « ليشغل الفتىبكلامعام يتردد هناوهناك بلا مغزىولا هدف . . .

ولكن صــبى الحانــوتى لم يتخل هدفــهوتحقيق ماربه بطريقة او اخرى . . وأن رفض الفتى غير الحاسم لم يدعه ييأس . . ودفعه لأنيفكر فى اعادة المحاولة بطريقة اخرى أكثر فاعلية تفقده القدرة على المقاومة وتجبره على الاستسلاموهو غائب الوعى مشغوف عنه بمأرب آخر . . وهكذا نحاول كل منهما نأ يلعب على الآخر لعبةالشيطان . . . !! واذا بصبى المعلم يفاجئه بنبأ يثيره كل الاثارة بعد أن أخبره بوفاة عروسصغيرةالسن قبل ليلة زفافها بيوم واحــد . . هي عــز الطلب . . . واخذ يزينها له حتى يرغبــه فيهــاويحصل منه على ما يريد فى مقابل تحقيق رغبته . . فلم يتورع عن استثارة تلك الرغبة بكل شدةوالحاح ، ويبين له كيفشيعتجنازتها بالموسيقى ونثرت الحناء على القبر ، وغطى جسدها بثوبالزفاف ، واهل عليها بباقات الياسمين فاشعل هذا الحديث كل كوامن رغباته وايقظ شهواتهالمكبوتة ، فاذا بها تطلب الاشباع وتراوده على أمر

---

(٦٦) المرجع السابق .

لا يقره عرف أو قانون ولا يرضى عنه خلق أو دين وتأباه كل الاباء الكـرامة الانســانية .. الا ان احساسا حادا استولى عليه يصور له ان امامه فرصة فريدة طالما تمناها وها قد واتته ولن تتكرر وليس أمامـــه ان يقتنصـــها مهما غـلا الثمن الفادح .. !!

وهكذا انهارت كل القيم التى شب عليهـا الانسان منذ الازل .. وضاع الفتى سليل الاكابر ابن الاصول فى متاهات وضيعة تنم عن شرأسة بشـــعة كامنــة تريد ان ترد اعتبارها وتنتقم لكرامتهـا بأساليب لا انسانية ولا اخـلاقية ، لم تبال بما قد يصاب به الفرد من خراب روحى او دمار فكرى فلا تستقيم له حياة سوية ... ولم يكن هذا الفتى أول من ضاع فى هذه الأسرة .. ولن يكون آخر شخص يتعرض لمثل هذه الامراض المستعصية .. لقد سبقه نجم العائلة .. اذ بلغه عقب ارتكابه الفحشاء مع العروس الراقدة جثة هامدة فى قبرها لا حول لها ولا قوة انه هوى فى المستشفى وهو يعالج من ادمان تعاطى مخدرات يلجأ اليها ليبعد عن مخيلته تصـورات قاسـية وتهيؤات ، خادعــة توهمه بأنه محاط باعــداد مجهولين يتربصون ويريدون تحطم روحه ووعيه ومنطقــه ... فتركت نهايته فراشـا شاغرا فى المستشفى تنذر بأن هناك نزيلا جديدا يتوقع ان يحل مكانه الشاغر قريبا .. لعله فتانا مما يهدد مصير هذه الاسرة المنكوبة ويؤدى بها الى الانقراض والفناء ... !!

• • •

لا شك ان قصة ((الفراش الشاغر)) تشهد ليحيى حقى انه قد تحرر فعلا من الميول التركية ونزعاتها الموروثة ، ولم تقف حائـلا دون الرؤية الصـادقة لواقع الأعراق التركيـة المصرية وما وصلت اليه من حال .. وان تناول هذا الواقع تنقصه الصراحة الواضـحة ، ولجا فيــه الـى دبلوماسية لا تخلو من حياء تستعين بصيغ بلاغية هى اقــرب الى الرمزية منهـا الى الواقعية ..
فانه ربما اراد تخفيف وطـأة النقد الاليم الذى يفضح خبايا بنى اعراقه ويتقزز من مباذلهم ... ومع ذلك فان قصة الفراش الشاغر يمكن وضعها فى قمة نتاج يحيى حقى القصصى باعتبارها آخر فصل فى ملحمة صراع الاصلاب التركية المهاجرة، تشهد مأساة المهاجر التركى الذى قاوم الذوبان فى المجتمع الجديد ، فتكالبت عليه نواجذ المجتمع المصرى واعطاها فرصة لأن تعضه بشراسة خلال سلبياتــه ، وتظهــره بمظهر معين يثـير الازدراء والرثاء على حال من فقد الجاه والسلطان والمجد وتخلى عن الشرف والكرامة والفضيلة ، وانساق فى هاوية سحيقة من الدمار الروحى والخراب العقلى ..

ان قصة ((الفراش الشاغر)) هى آخر لون فنى لجأ اليه يحيى حقى ليحدد معالم الشخصية التركية المصرية، فلقد ابتدأ بتحليل نماذج بشرية، ثم اهتم بتصوير لوحات أدبة .. الا انه لم يبرع البراعة الكاملة فى عرض ما آلت اليه الشخصية المصرية التركية الا عند تاليف ((الفراش الشاغرة))

الدرامية التى تمثل صراعا رهيبا بين الانســانوقدره وكيف أدى به الى مصير غاشم لا رحمة فيه ولا عدل ... الا أن قصة «الفراش الشاغر»أشبه باعلان رفض واستنكار .. يحذر وينذر .. بل يتوعد بسوء العاقبة التى تبدو فى أبشع صورالانسانية المنحطة لكل من يعترض على ســـنة الحياة ، ويتعمد اعتزال الناس والابتعــاد عنهم لا يشاركهم فى حياتهم الخاصة أو العامة، ويفضل ان يظل كامنا داخل دائــرة ضـــيقة يأسر كيانهتقاليد وعادات تمنعه من تكوين صداقات سوية ، وتحرمه من علاقات الوصال والود وتحول دونالتضحية والاعطاء والبذل .. ولذلك تكاد قصة « الفراش الشاغر » تعوى بعــواء كئيب نحيفيريد ان يروى كيــف يؤدى الانغلاق الى العفــن ويسوق بصرح الانســان الى الانحطاط ...

ان قصة ((الفراش الشاغر)) ليســت الاصرخة توجع غاضبة فيهــا حسرة واسى على ما وصلت اليه بعض الاسر المصرية التركية فاخذتتستعرض فاجعة نجوم اسرة شـــارع الريحان وشبابهم وتبين ما أصابهم من خراب روحىودمارعقلى وانهيار خلقى ، وتظهر ضيق افق الأسر التى لا تراعى فى تربية ابنائها ظروف المجتمع الذىتعيش بين جنباته ، ولا تعد شباب العائلة لخوض تياراته بكل قدرة وتمكن حتى لا ينشأ على العزلةولا يشب على الشح وعدم الاعطاء .. ولا يبــدو امام المجتمع انه يرفض ان يطاوع عامــة الناسويتعالى على الذوبان فيهم بعناد يســـوقه الى الدمار والخزى والعار وينزل بكرامته لعنة ملعونةلا امل لها فى رحمة الله ...

ولا يخلو تصوير هذا الانتحار الروحى علىمذبح التقاليد العاتية الراسخة الجذور من قسوة وعنف وايلام .. فان يحيى حقى لا ينبه أو يحذرفقط انما يهدد ويرهب كذلك بأسلوب مرعببشع لا يضع مجالا للاختيار الا بيناتجاهين لا ثالثلهما . اما الامتثال طواعية دون عناد أو تكبــر للظروف الاجتماعية الجديــدة التي آلت اليــهحياتهم ، وقبول تعديل السلوك المتوارث عن رضا واقتناع ، تمهيدا لمشاركة الناس والاندماج فيهمأو الاختلاط بهم الى حد الذوبان عن طريق الود والتعاون والاتصال والوصال والتضحية والاعطاءوالبذل والسخاء .. وذلك لمن اراد النجاة .. واما التجمد على ما هو عليــه من عزلة وابتعادوالتحجر على ما شب عليه من شح وامتناع عن الاعطاء ، متهربا من الناس والمجتمع خشيــةالتصادم بالجحود والنكران ، ومتجنبا مواجهة الخسة فى اي مكان .. فتتفشى فى داخله اوبئــةتبدد قيمه الانسانية ، وتصيبه بخراب يقضى على الآدمية ويعرضسلالته لنهاية اليمة حقيرة..

– ٦ –

لا جدال فى ان محاولات يحيى حقى المتواليةلتحليل الشخصية المصرية التركية ، ونجــاح جهوده فى تحديد معالمها الاساسية لكنه من التحررمن ضغط النشأة والتربية الاولى مما عاونه على التخلص من قيود التقاليد وأغلال الوراثة ، وهيأله من الفرص الكاملة لاداء واجبه نحو بنى جنسه

بان حذرهم التحذير الشديد من مغبة ما قد ينزل بهم من دمار وخراب وهلاك .. الا انه لم يعف المجتمع المصرى من مسئولية بعض ما اصاب آل سلالته من جمود وتدهور وانحلال .. وكيف ان فساد بعض جوانب المجتمع اصابه بالتعفن والتخلف الحضارى ، واضاع عليه كثيرا من القيم الانسانية واشاع فيه فوضى لا أخلاقية .. امتدأثرها بصورة او اخرى على الاسر المصرية التركية ويعكس على تصرفاتها سلوكا معينا .. !!

فان بنت الصعيد لما اكتشفت فى عريسها ابن الاكابر .. من وهن جنسى يتوانى عن تادية ما عليه من التزمات ، ويتقاعس عن أن يهبها كل ما يملك من حيوية فى الحال وبلا تردد ودون مقابل عاطفى ، ما دامت قد وهبته نفسها وعرضت عليه كل بضاعتها واباحت له ان ينال منها ما ينال ، حتى قبل أن تعرف من هو وتتوطد بينهما المحبة.. لم تستطع بنت الصعيد ان تقف موقفا سلبيا من هذا العريس ولم تجد داعيا لأن تستمر علاقتهامعه وهو على ما هو عليه من شح جنسى يمتنع عن الاعطاء الحيوى فسارعت بمطالبة الفراق فى اشمئزاز وعشرة .. ولم يكن أمام عريسنا الا الرضوخ لهذا الطلب وهو صاغر لانه وضع فى ظروف لا يستطيع ان يعاند فيها أو يكابر ، وانه لا يملك أن يعطى الا بقدر وحساب وحين يشاء او يريد دون املاء او اجبار .. فما كان منها الا ان نبذته فى اباء وشمم ، وتخلصت من عشرتـه غير نادمة على ما يمكن ان يتيحه لها من حياة رغدة ..ولا آبهة بما قد يؤول اليه من مصير .. فتركته حطاما هشيما لا يقوى على مصارعة الواقـع المتربص به .. فاذا به يتسرب فى حرية الظلام متسللا من الابواب الخلفية الى حياة رخيصـة وضيعة هى أقرب الى الموت .. ورأت ان سعادتها الحقة فى العودة الى مسقط رأسها لتعيش بين من يقدرها من أهل الصعيد ويستطيع ان يمنحها ما تريد دون تخاذل أو مراوغة ..

الا أن ابن البلد لم يستمهله ولم يتورع عن ان ينتقم منه شر انتقام ، وينهش عرضه ويذل رجولته وهو يجرى وراء رغبة حمقاء تريد ان تنال متعة خالصة لا يشوبها عائق ولا يعترها صد أو منازلة ، وخاصة اذا ما كانت على مذبح بنت الصعيد فلم يبخل عليه ابن البلد بأن يتيح له مثل هذه المتعة ولكن ليس قبل ان يسلبه كل عشرة وكرامة ، ويدفع به الى هاوية سحيقة لا نجاة منها .. لقد نشأ على الشح لا يعطى دون مقابل واذا به فى النهاية يعطى كل حياته ويفقد انسانيته وآدميته دون مقابل ، بعد أن رضى أن يضاجع الموتى وهو فى غيبوبة من الحس والشعور والادراك والوعى .. فكان الخراب الروحى والدمار العقلى والانحطاط الخلقى ..

بمثل هذه التحليلات الواعية استطاع يحيى حقي ان يتطهر من قيود العقد التركية المتزمتة .. ولكنه يعيش وسط مجتمع يعكس عليه كثيرا من الانطباعات التى لا يرتاح اليها وجدانه وتحد من انطلاقاته الفكرية .. فاذا به يقف حائرا امـام الاتجاهات المصرية غير المتوازنة لخضوعها لتيارات متضاربة يغلب عليها روح الانتقام ولا تتورع عن ان تلجا للغدر والخداع وتخلط بين سفك الدماء

والجريمة وبين العزة والكرامة .. قد تحسم المواقف بالعنف ولكن دون فاعلية ايجابية وتترك جذور المشاكل تستشرى .. فاحس يحيى حقي بانه مكبل بقيود تدخله فى صراع جديد من اجل حريته ـ فاذا به يجاهد فى سبيل معرفة الشخصية المصرية الاصيلة ويتكفل بتحليلها وعرضها خلال تطور خبراته الفكرية فى صور ادبية متنوعة تشمل فحص النماذج البشرية واستعراض اللوحات الفنية وخلق القصص الدرامية .. ويبدو موقفه من الشخصية المصرية واضحا فى قصص « **البوسطجى** » و « **قنديل ام هاشم** » ولوحات « **صح النوم** » ويمتاز هذا الموقف بانه لم يصل بعد الى حد اليأس ودرجة التشاؤم التى تلوح بصراحة عن الضياع والخراب والهلاك .. وانه ما زال هناك امل يدعو الى الجهاد فى سبيل تحرير المجتمع المصرى من كل مخازيه ، ويسوق الشخصية المصرية الى السلامة الفكرية والسوية الحضارية .. بتعديل مسار انحرافاتها وترشيد اندفاعاتها بالتنسيق بين تياراتها المتداخلة ..

واحسب ان عرض موقف يحيى حقي من المجتمع المصرى والشخصية المصرية ومدى توفيقه فى التحرر من انعكاساتها على نشأته وتربيته وتعليمه بما لها من ردود فعل تنبعث من مكمن النزعات التركية التقليدية المتوارثة .. يحتاج الى دراسة مفصلة تبحث مرحلة اخرى من مراحل صراعات يحيى حقي المستمرة من اجل الحرية .. تبين حدود معاركه مع ذاته ـ اولا وقبل كل شيء ـ سواء وهو يعايش المجتمع المصرى ويختلط بالشخصية المصرية .. او حين يتحرك من ميوله الصوفية الفتية الى خضم البوهيمية الصاخب المنطلق .. ويصارع بعقليته الشرقية تدفق أمواج الحضارة الغربية المتلاحقة .. !!

* * *

نــور شــريف

النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

كثيرا ما عبر الروائي الانجليزى عن مخاوفهمن الناقد المحترف الذى راى فيه قوة معرقلة لتطور الرواية ولحرية الكاتب . فأشار سومرستموم (١٨٧٤ — ١٩٦٥) Somerset Maugham الى خطأ الاعتمــادكلية على نقاد من غير الادباء المبدعين لان الناقد ، كما يقول موم « الذى لا يعمل بنفسه فى حقلالادب الخلاق يحتمل ان تكون خبرته فى صنعة الرواية بسيطة . ولذلك فهو اما يعتمد في نقدهعلى انطباعاته الشخصية التى قد لا تكون ذات قيمة تذكر ... او يصدر احكاما مبنية علــىاسس جامدة على الروائي ان يتقيد بها اذا ما اراد أن يحوز قبول الناقد » (١) . ونبه هـ.ج.ويلز (١٨٦٦ — ١٩٤٦) H. G. Wells ، قبل ذلك باربعين عاما ، الى عدم جدوى اصرار النقادعلى قواعد ثابتة ، والى خطورة اللجوء الى النقاد المحترفين عند تقييم الرواية ، فقال :

اذا اردنا ان نعرف ان الرواية اكثر من وسيلة للترفيهفلا بد لى امتقادى من ان تتحرر من القيود التي يلح عليهــا اولئك الذين يرغبون في تحديد اطار عام لها . ان كل فن فيهذه الايام يجد نفســه مضطرا الى ان يسلك طريقا وعرا بين

---

(١) "The Art of Fiction", **Ten Novels & Their Authors** (1954), 19-20.

صخور من المستويات التافهة المهنية وبين دوامة من النقدالعشوائي اللامعقول . فعندما يصبح نقد اى فن من الفنون متخصصا ومحترفا ، وتظهر الى الوجود طبقة من الحكامعلى الادب ، يبدأ وضع قواعد ومقاييس علمية محددة ونماذج تطبق على الفن ... لقد تناول النقاد الرواية كما لو كانتذات شكل فني لا يقل تحديدا عن شكل السونيتية (٢) .

واتخذت فرجينيا وولف(١٨٨٢ ـ ١٩٤١) Virginia Woolf الروائيــة التــي اشتهــرت بتجاربها فى الرواية الانجليزية الحديثة ، موقفامضادا لموقفى ويلز وموم عندما اسفت لانعــدام النقد الروائى النظرى تقريبا . ورات ان مشاكلالادب الروائي فى ايامها ترجع الى عدم اهتمـام النقاد بشكل الرواية ونظرياتها الفنية والجمالية، نقالت :

اذا كانت هناك صعوبات تواجه الرواية فلعل السبب فيذلك هو عدم وجود من يعالجها بثقة ويحدد معالمها بدقة . لم يقتن احد للرواية ، ولم يولها الا القلة اهتماما جادا . وعلىالرغم من ان القوانين قد تكون مخطئة ويجب تحطيمها ، فان لها مزاياها ، فهي تضفى الوقار والنظام على الروايــة ،وتعترف لها بمكانتها في المجتمع المتحضر ، وتثبت حقها فى التقدير والدراسة (٣) .

وايا كان موقف الروائي من الناقد فمــنالملاحظ ان ناقد الرواية المحترف ـ باستثناء امثال برسى لابوك (١٨٧٩ ـ ١٩٦٥) Percy Lubbock وف.ر. ليفيز (١٨٩٥ ـ F.R. Leavis وتلامذتهم فى القرن العشرين ـ لم يصل الـىمستوى نقاد الشعر والادب المسرحى . فليســ هناك ناقد روائي خلال القرون الاولــى لظهورالرواية وتطورها يضاهي ارسطــو وصموئيــل جونسون (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤) Samuel Johnson وكولردج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) Coleridge في النقد المسرحى والشعرى . ومما يسترعى النظران ماثيو آرنولد(١٨٨٢ ـ ١٨٨٨ Matthew Arnold عميد النقاد الفكتوريين لم يلتفت اطلاقا الىالادبالروائي الانجليزى الذى بلغ ذروته فى ايامه .

بدت الرواية الانجليزية فى اول نشأتها كماردجبار . ووصلت الى مستوى ادبى رفيع خلال السنوات التي تلت ظهور روبنصــون كــروزو(١٧١٩) رواية دانيال ديفو (١٦٦٠ـ١٧٣١) Daniel Defoe الشهيرة . وعندما نشرت اعمالالروائيين الكبيرين فيلدنج (١٧٠٧ ـ ١٧٥٤) Fielding وريتشاردسون (١٦٨٩ ـ ١٧٦١) Richardson اصبحت الرواية الانجليزية واقعا لا جدال فيه ، واحتلت المكانة الاولى عند هواةالقراءة . ومع ذلك لم يصاحب نشأة هذا الشكل الادبى الجديد نقد يستحق الذكر . لقد اثارترويات ريتشاردسون فى عدد قليل من الكتيبات بعض التساؤلات عن اهدافها ، ومدى اضرارهابمستوى القراء الخلقى . كما بدا نفس الاتجاه الاخلاقى في مقال لمجهول بعنوان « دراسة لتاريختوم جونز » (٤) (١٧٥٠)
"An Examen of the History of Tom Jones" هاجم فيه الكاتب هجوما عنيفا مقدما ما اعتبره انحطاط الاخلاقيات التى بنيــت عليــها روايةفيلدنج ، دون اية اشارة الى قيمتها الادبيــة ،

---

(٢) "The Contemporary Novel", An English Man Looks at the World (1914), 150-51.

(٣) The Moment & Other Essays (1947), 90

(٤) المقال المكتوب تحت اسم مستعار هو (اوربيليوس) Orbilius

وكانها منعدمة تماما . ثم ظهر اتجاه مماثل فيالخلاف الذى قام حول روايات **لورانس ستيرن** (١٧١٣ - ١٧٦٨) [Laurence Sterne] فى نفسالعصر عندما ركز المتناظرون جدالهم حول مدى اللياقة فى ان يكتب ستيرن ، وهــو قسيس ،روايات على الاطلاق . ولم يعلق واحد من هؤلاء النقاد على التجديدات الفنية التى اشتهرت بهاروايات ستيرن فيما بعد ، والتى جعلته من اعمق الروائيين تأثيرا على تطور الرواية الانجليزية فيعصرنا . وكان على ستــيرن ان ينتظــر حتـى عشرينات القرن الحالى ليحتل المكانة التى تليقبرائد الروايةالانجليزيةالحديثة ؛ عندمااكتشفت فرجينيا وولف اهمية تجاربه الفنية . وان مايدعو الى الدهشة فى كل هذا هو فشل النقد فى ان يلحق بركب الرواية فى نشأتها وتطورهــاسنين طويلة .

استمر تجاهل النقاد للرواية طوال النصفالثانى من القرن الثامن عشر ، اى خلال السنوات التى لاقت فيها الرواية شعبية لا مثيل لها اذاما قورنت بانواع الادب الاخرى . واولى النقاد الشعر اهتمامهم كما في **تراجم الشعراء الانجليز**(١٧٨١) **Lives of the English Poets** لصموئيل جونسون ،او الــى نظريات النقــدالجمالية فى كتابات بيرك (١٧٢٩ - ١٧٩٧Burke) ورينولدز (١٧٣٢ - ١٧٩٢) Reynolds . امافيما يختص بالرواية نقد ظهرت فى دوريات من مثيلات **The Monthlyy Review** (١٧٤٩ -١٨٤٥) و **Critical Review** (١٧٥٦ - ١٨١٧) تعليقات على الروايات التي اخذت تتكاثر بسرعةفائقة . ولكن هذه التعليقات تمثلت فى ملخصات للروايات وسرد لاحداثها ليس الا .

على ان الاوضاع قد تحسنت قليلا بالنسبةللدوريات الجديدة في اوائل القرن التاسع عشر، الا ان تجاهل الملقين عامة لروايات **جين اوستن**(١٧٧٥ - ١٨١٧) **Jane Austen** التى ارتقت الى مصاف اعظم الروائيين الانجليز ، يشير الىحقيقة الامور فيما يتعلق بالنقد الروائى المحترف وكان الاستثناء الوحيد لافتقار النقد فى ذاكالعصر هو المقال (٥) الذى رحب فيه الروائــي **سير والتر سكوت** (١٧٧١ - ١٨٣٢) Sir Walter Scott فى بحرارة برواية اما (١٨١٦) **Emma** لجين اوستناما المحاضرة السادسة لوليم هازلت (١٧٧٨ - ١٨٣٠) William Hazlitt فى محاضـــراتـهالمنشورة بعنوان **الكتــاب الانجليــز الهزليــون**(١٨١٩) **Lectures on the English Comic writers** وتقليد وولتر سكوت في كتابه **تراجم الروائيين** (١٨٢١ - ١٨٢٤) **Lives of the Novelists** لما سبق ان انجزه صموئيل جونسن فى مؤلفــة **تراجم الشعراء الانجليز** ، فليست الا محاولاتعقيمة فى النقد الروائي .

ومتى وصلنا الى العصر الفكتورى وجدنااتجاه النقاد الملحوظ الـى تجنـب الـرواية فى دراساتهم . فالروائي الوحيد ، تولستوى ،الذىتناوله مائيو آرنولد في مقال طويل (٦) لم يكن انجليزيا بل روسيا . وكان آرنولد فى اول المقالصائبا عندما قال : « لقد ولى عهد الروائيــين

---

(٥) **Quarterly Review** (1816)

(٦) **Essays in Criticism)** (1888) Second Series

الانجليز العظام ، ولم يتركوا من بعدهم خلفا فيمثل شهرتهم » . وفي هذا القول دليل على قدرة آرنولد على التمييز بين الجيد والرديء من ادبالرواية ، ومع ذلك فقد اولى ظهره لامثال **ديكنز** (١٨١٢ – ١٨٧٠) Dickens وثاكيرى (١٨١١– ١٨٦٣) Thackeray **وجـــورج اليـــوت** (١٨١٩ – ١٨٨٠) George Eliot وهم مـنأعظم الروائيين الانجليز في فترة انتاجهم الخصب وعصر الرواية الانجليزية الذهبى .

يبدو مما سبق اننا اذا ما اردنا ان نكتشفحصيلة من النقد الروائي الذى يعترف بالرواية كأدب رفيع يستحق الدراسة الجادة ، فعلينـاان نوجه انظارنا بعيدا عن الناقـد المحتـرف متجهين نحو الاديب الروائي نفسه وما جاء فيكتاباته عن ادبه . وهنا نتذكر ما قالته **اليزابيث بوين** (١٨٩٩ – ١٩٧٤) Elizabeth Bowen الروائية الانجليزية فى الروائي الناقد ، وهو : « ان الكاتب الابداعي الذى يفتقر الى ملكة النقدلا وجود له . بل ان مهنته كروائي لا تتحمل مثل هذا الافتقار » (٧) . ومما يؤكد الدور الـذىيلعبه الروائي الناقد بروز **اسماء فيلدنج وجورج اليوت هنرى جيمس** (١٨٣٤ – ١٩١٦) Henry James ود . هـ . لورانس (١٨٨٥ – ١٩٣٠) D. H. Lawrence واسـم . فو ستر (١٨٧٩– ١٩٧٠) E.M. Foster وفرجينيا وولف ، على سبيل المثال لا الحصر ، فى تاريخالنقد الروائي الانجليزى .

وباستثناء فيلدنج ليست هناك اية محاولةفي القرن الثامن عشر لدراسـة الروايـة على اساس نقدى جاد . ويبدو اسهامه فى هـذاالمجال فيما كتبه فى نقد الرواية ونظريتها بينما كان يحاول أن يفسر لنفسه ولقرائه تجاربه فيالكتابة الابداعية . ولا جدال ان فيلدنج هو رائد النقد الروائي فى انجلترا بغير منازع . بللعله ليس مجرد رائد لان الرائد يتبعه آخرون ، وهذا ما لم يحدث فى حالة فيلدنج الذى سبقالنقد الروائي بقرن من الزمان علىالاقل . وتكون تسميتنا أكثر دقة لو لقبناه بمستكشف وحيدخاص فى نقده عالم الرواية البكر وتحسس معالمها المجهولة .

ونقد فيلـدنج الذى احتـواه فى ثـلاثمقـدمات لروايتـه **جوزيف اندروز** (١٧٤٢) Joseph Andrews وفى ثماني عشرة مقدمة ،واحدة لكل كتاب من كتب روايته **تـوم جونز** (١٧٤٩) Tom Jones ، محاولة فريدة فياسهابها ترمى الى الرفع من شأن الرواية بتحرير بعض المقاييس النيو كلاسيكية وتطبيقها علـىالرواية . وايا كانت نتيجة هذه المحاولة (وقد باءت بالفشل كما كان فيلدنج نفسه يعلم) ، فانالمحاولة فى حد ذاتهـا كانت مثلا مبكرا للنقد النظرى للتعريف بالرواية والتقنين لها .

كان الهدف الاساسي الذى سعى اليـهفيلدنج اول الامر هو تعريف ماهية الرواية متخذا روايته **جوزيف آندروز** نموذجا لهـذا الشـكلالجديد . فوصف الرواية بانها « ملحمة هزلية

---

(٧) "Forward", Collected Impressisions. (1950)

منشورة » (٨) . وكان فيلدنج يعلم تماما مدىالابتكار الذى تتضمنه تلك الموازنة بين الروايـة والملحمة ، كما كان يعلم ايضا ما يحتمل من اساءةفهم القراء له في مقارنته بين هذين الشكلين من الادب . فيقول فى مقدمـة **جوزيف آندروز** انالرواية « تمثل . . . نوعا من الادب لا اتذكر انني رأيت حتى الآن اية محاولة مشابهة له فى لغتنا ».ويستمر فيلدنج فى شرح اوجه الشبه والخلاف بين الرواية والملحمة ، كما عرفها هوميروس ،مشيرا الى ان الملحمة مثل المسرحية ، منها ما هو هزلي ومنها ما هو مأساوى . وهوميروس ، كماجاء في ارسطو ، ترك لنا ملحمتين ، احداهـا هزلية بعنوان **مارجيتيس** Margites وقدفقدت ، والثانية ماساوية وهى **الالياذة** .والملحمة قد تكتب اما بالشعر واما بالنثر ، وان كان الشعرهو الاسلوب الغالب . ونبه فيلدنج الى عـدم الخلطبين «الملحمةالهزلنة المنثورة» وبينالمسرحية الهزلية والرواية الرومانية المنثورة الجـاده . فالرواية عند فيلدنج او« الملحمة الهزلية المنثورة»كما عرفها تختلف عن المسرحية الهزليـة مـن حيث ان « حركتها اكثر امتدادا وشمولا، ودوائراحداثها اكثر اتساعا ، وشخوصها اكثر تعددا واختلافا » . وعندما انتقل فيلدنج الى توضيحالاختلاف بين« الملحمة الهزلية المنثورة » والرواية الرومانسية صادف صعوبات لا حد لها . واعتبران من اسس الاختلاف الاسلوب الهزلي والميل الى المحاكاة التهكمية burlesque للادبالجاد ، والمغالاة فيها ، وهى التى وجد فيهـا فيلدنج متعة بالغة .

ونتج عن تعريف فيلدنج للرواية وتفسيرهلهذا التعريف كثير من الخلط . والسؤال الذى نطرحه هنا هو : هل الرواية كما عرفها فيلدنجاساسا مجرد « محاكاة تهكمية » للشكل الملحمى الماساوى ، ام هى رواية هزلية اخلاقية متكاملةفى حد ذاتها ترمي الى تصوير المجتمع المعاصر ؟ ويعكس هذا السؤال الانشطار الواضح فى **جوزيفاندروز** بالذات ، التى بنيت اول الامـر علـى « المحاكاة التهكمية » لرواية **باميلا** (١٧٤٠) Pamela لريتشارد سون ، ثم تطورت واخذت شكل رواية « المغامرات » Picaresque التي تصـور مساوىء المجتمع باسلوب الهجاء الساخر ، مستندة الى المبادىء الاخلاقيـة .وليسفى هذا الخلط الواضح بيناتجاهين مختلفين ما يثير الدهشة لانه موجود اصـلا في نظريـةفيلدنج النقدية .

لا شك ان فيلدنج قد تنبه الى عدم التناسقفى تعريفه للرواية مما ادى به بعد ذلك الى تجنب اية محاولات لبناء نظرية فى الرواية متكاملة .وقضت السـنوات السـبع التى فصلت بين **جوزيف آندروز وتوم جونز** على الدور الرائدالذى لعبه فيلدنج فى النقد الروائى . ولا يعنى هذا انه احجم كلية عن النقد . **فتوم جونـز**تحوى من حيثالكمنقد اكثر مما تحويه **جوزيف آندروز** ، ولكنه نقد متناثر يفتقر الى الوحدة .وحتى هذا النقد المتناثر في المقدمات يقل تدريجيا

---

(٨) مقدمة جوزيف اندروز

طولا ومضمونا خلال الرواية . وان كان فيلدنج يشير من آن لآخر في **توم جونز** الى نظرية« الملحمة الهزلية المنثورة » ، الا انه من الواضح انه بدا يفقد اهتمامه بالمسائل النظرية المجردة .

ان ميل فيلدنج الى الاحجام عن التحليل النقدى فى **توم جونز** يشير الى اكتشافه ان النقد فى انجلترا فى عصره لم يسلك الطريق السليم ، وان الدور الذى لعبه النقد في سن القوانين وتطبيقها ما هو الا عبث ، لان القواعد التى اصر عليهـا النقاد النيوكلاسيكيون مستقاة من تراث ادبي غريب عنهـم ولا تتناسب مـع العصر . « والوحدات » التي الح النقاد الكلاسيكيون على ضرورة اتباعها فى المسرحية لم تكن فى نظر فيلدنج الا اصطلاحا ضارا يردده النقاد دون تفكير . وقد عبر فيلدنج عن هذا الرأى ستة عشر عاما قبل ان يكشف صموئيل جونسون ، وهو من اعظم نقاد القرن الثامن عشر ، عن عقم هـذا القانون فى مقدماته لاعمال شكسبير . كما انتقد فيلدنج رغبة نقاد عصره فى تطبيق حرفية القوانين المستخرجة من روائع الادب الكلاسيكي دون الاهتمام بروح الادب نفسه . كل هـذه احكام جريئة تدل على انها صادرة عـن وعى نقدى صائب ، حتى ولو ان صاحبها قد فشـل فى التوصل الى اسلوب فى النقد يحل محل النقد العشوائي السائد فى عصره .

وعلى الرغم من فشل فيلدنج في بناء نظرية نقدية فى الرواية فانه كان واعيا على الاقل ، باعتباره روائيا اصيلا ، باهمية هذا الشـكل الجديد من الادب وما يستحقه من اهتمام ومـا يتطلبه من تثبيت اقدامه والاعتراف بمكانته ، ولعل محاولات فيلدنج النقدية التى كانت ترمى الى الارتقاء بالرواية الى المكانة الادبية اللائقة بها ، هى فى حد ذاتها انجاز له قيمته فى هذه المرحلة المبكرة من نشأة الرواية ، ونحن نطلب من اول روائي ناقد في انجلترا اكثر مما يستطيع اذا ما حملناه مسئولية وضع نظرية متكاملة فى تعريف ماهية الرواية .

وكان من الطبيعى اثناء نشأة الرواية ان تتلاحق اسئلة الروائي عن كيفية كتابة الرواية من الناحية العملية المحضة ، وهى اسئلة فى الواقع لا بد وان يطرحها كل روائي فى كل مرة يبدأ فى خلق رواية جديدة . فكما يقول تولستوى « ان كل فنان عظيم لا بد وان يخلق الشـكل المناسب لعمله » . وكلما ازداد الابتكار والاصالة تكاثرت الاسئلة التى هى من صميم عمل الناقد .

وكان ستيرن من اهم التجريبيين فى ادب الرواية ومن اعظمهم ابتكارا فى رواية **تريسترام شاندى** (١٧٦٠ ــ ١٧٦٧) **Tristram Shandy** التى قلب فيهـا الزمن رأسـا على عقب . وبدلا من ان يقدم بطله كما كان متنبعا فى اولى صفحات الرواية فانه لم يسمح له بالظهور الا بعد انقضاء اكثر من نصف الرواية . ومن هنا تظهر احدى المشاكل الفنية الاساسية في كتابة الرواية ، وهى : من اين يبدأ الروائي وكيف يعالج موضوع الزمن وتتابع الاحداث ، ماذا يختار وماذا ينحى جانبا ؟ وقد عرض ستيرن لبعض مشاكل الروائي الفنية فى **تريسترام شاندى** ، متخذا من التاليف احد موضوعاته . ومن اهم الاسئلة التي شغلت باله السؤال : الى اى حد يعتبر الروائي قد حاد عن جوهر موضوعه عندما يستطرد فى تصوير ابعاد الشخوص المحيطة ببطلة ليجسمهم للقارىء ؟

وهذا سؤال لا بد وان يجيب عليه الروائى قبلان يبدا في الكتابة ، كما لا بد وان يطرحه الناقد أيضا عندما يتناول الرواية ، وهو نابع من الوعىبالشكل الفنى للرواية .

وستيرن مثل فيلدنج لم يصل الى اجوبةواضحة فى النقد الروائى . والأجوبة في هـذه المرحلة من نشأة الرواية ليست في نفس مستوىاهمية الاسئلة ذاتها . فالذى يهم هو صحـة الاسئلة وتنوعها واتساع الرقعة التى تغطيها فيمجال الادب الروائي . ويتضح من الاسلوب الذى اتبعه هذان الروائيان فى ادماج تعليقاتهماالنقديةفى كتاباتهما الابداعية ، انهما لم يشعرا بالحرج في الجمع بين دور الكاتب الخلاق والناقد فى آنواحد . فلا تناقض بين الابداع والنقد ، بل هما بالنسبة الى الروائي متكاملان .

وتتبع جين اوستن نفس الاسلوب فى الجمعبين الابداع والنقد في بعض رواياتها ، الا انها تصهر آراءها كناقدة فى موضوع الرواية وتصويرشخوصها وتطوير حركتها ، بدلا من ان تعرضها ، كما فعل فيلدنج ، فى المقدمات . ويبدو هذا فىرواية نورث آنجر آبي (١٨١٨) Northanger Abbey التي تكشف عن قدرة جيناوستين على تقييم الرواية المعاصرة لهـا مـن خلال « المحاكاة التهكمية » . وقد كتبت نورثآنجر آبي فى قالب ساخر يحاكى اسلوب«الراوية العاطفية » « ورواية الرعب » بهدف نقد هذينالنوعين من الروايات التي انحدرت بالمستـوى الادبى والفنى للرواية بشكل ملحوظ . وجاءتهذه الروايات مجرد تكرار لا ابتكار فيه لما سبق ان كتب فى مواضيعها . فكانت شخوص الروايةمن بطل وشرير صورة طبق الاصل لبطلات وابطال واشرار مثيلاتها من الروايات ، وهذا صحيـحايضا بالنسبة للمواقف والاحـداث والحركـة والحوار الى غير ذلك من عناصر الرواية .

ويبدو دور جين اوستن كناقدة روائيـةعند افتتاح الرواية وتصوير البطلة كاترين مور كنقيض للبطلـــة المتفق عليهـا فى الروايـاتالشعبية . فهى كما تقول الروائية ليست بطلة مثالية ، وليست من اسرة عريقة ، ولا تتصففي طفولتها بالجمال والنباهة والحس المرهف والنبوغ فى الموسيقى والتصوير ، الى آخر تلكالصفات المبالغ فيها . وانما هى طفلة عادية ، وتصبح عندما تنمو فتاة عادية ايضا . وتتضحسخرية جين اوستن اللاذعة فى موقف كاتريـن الفتاة البسيطة الميالة الى تصديق كل ما تقراءمن « روايات عاطفية » و « روايات الرعب » التى تعطي البطلة صورة كاذبة عن الحياة . وتضعجين اوستن بطلتها في عدة مواقف تطابق المواقف المعروفة فى « روايات الرعب » ، فتتصور كاترينان الحياة انعكاس لمجموعة التجارب المثيرة التي تمر بها بطلات « رواياتالرعب » التي استحوذتعلى تفكيرها وخيالها . الا ان مواقـف كاتريـن تنتهى دائما بخيبة املها ، واكتشافها الاخطاءالتي وقعت فيها نتيجة لانها رات الحياة من خلال قراءاتها لتلك الروايات الرديئة المثيرة . والدرسالذى تتعلمه البطلة فى نهاية نورث آنجر آبى هو ان الحياة لا هى « رواية عاطفيـة » ولا هـى« رواية رعب » وان كانت لا تخلو في الواقع من العاطفية والرعب .

من الواضح ان نقد جين اوستن للروايةالشعبية المعاصرة لها يدور حول الهوة الشاسعة التي تفصل بين الواقع وتصوير الرواية لـه . وبسخريتها من الاثر الذى يتركه هذا الفصل بين الواقع والخيال المثير المبالغ فيه تنقد الكاتبـةالرواية التي لا تنتمى الى الواقع فى شىء ، والتي تصور الحياة بجمود وتصنع . وتشير جين اوستنالى الاحتقار السائد للرواية وخجل قرائها مـن الاعتراف بادمانهم لها ، مما يؤكد مستوى الروايةالهابط وشعبيتها فى نفس الوقت . وفي الفقرة التالية تنكر الفتاة القارئة هوايتها ، بينما تعلقجين اوستن على الموقف .

« انا لست من قراء الرواية ، فقلما اتصفحها . لا تظنانى اقراها كثيرا » . هذه هى التعليقات التى يكثر ترديدها . « وماذا تقرابن ايتها الآنسة ؟ » فيكون جواب الآنسة « انهاليست الا رواية» بينما تطرحكتابها امامها بلا مبالاة مصطنعة، او فى خجل مؤقت (٩) .

والامر الذى يهم جين اوستن هو الا يتعدىهذا الاحتقار الى الرواية عامة التى تستحـق التقدير . وفى دفاعها المباشر عن الرواية كمـاعرفتها وكتبتها تبدو امكانيات الرواية في احسن صورها . ويلاحظ ان هذا الدفاع مكتوب علىلسان الكاتبة نفسها موجهة قولها الى القارىء، وهذا أسلوب قلما تستخدمه جين اوستن فىرواياتها ، مما يوضح الاهمية التي تعلقها على تلخيصها لمهمة الرواية الادبيـة كما فهمتهـا .وتستمر الكاتبة فى تعليقها الساخر على لا مبالاه القارئة التي هى في الواقع تقرأ ، كما تقول الكاتبة:جود ما انتجه ذهن انسان :

انها (اى الرواية التي تقرؤها الآنسة) ليست الاسيسيليا او كاميللا او بليندا ، او بالاحرى ، انها ليست الا عملا من الاعمال التي تكشف عن اعظم قدرات العقل الانساني،التي تنقل الى العالم فى احسن اسلوب مختار معرفة وثيقة بالطبيعة البشرية ، ومعالمها المختلفة ، وفكرها النقد ،وحضورها الذهني ، وروح الفكاهة التي تتصف بها (١٠) .

ويبدو من هذه الفقرة ان جين اوستـنانما تصف كتاباتها هي، كما تصف الادبالروائي فى ارقى مستواه . وهى تحاول في هذا التعريفان تضع اسسا ومقاييسا عامة للرواية .

وترى جين اوستن نتيجة للاحتقار السائدللرواية ضرورة وقوف الروائيين من امثالها صفا واحدا ضد النقاد المحترفين ، الذين يحطون فينقدهم الروائي المنشور فى الدوريات من شـان الرواية ، فتقول :

فلندع الملقين النقاد يقذفون الرواية ذات الخيالالمنطلق باقذع الاوصاف كما يحلو لهم ، ويتحدثون عن كل رواية جديدة باسلوبهم الواهن ، مشيرين الى العبء الذىتئن من تحته دور النشر . علينا الا يتخلى بعضنا عن بعض . اننا نحن معشر الروائيين هيئة مغبونة . فعلى الرغم من اناتاجنا قد وفر للقراء ترفيها لا حد له ، ولا يمكن لاى هيئة ادبية اخرى فى العالم ان تضاهيها ، فليس هناك شكل ادبىآخر قوبل بمثل الهجوم الذى قوبلت به الرواية (١١) .

---

(٩) نورث انجر ابى ، الفصل الخامس

(١٠) المرجع والفصل السابقان .

(١١) المرجع والفصل السابقان .

فى كل ما سبق أن جاء في نقد الرواية على لسان فيلدنج وستيرون وجين اوستن على ضآلته وتحسسه فى الظلام ، نجد محاولة الروائي توضيح ماهية الرواية ومهمتها ، مما يعينه عمليا في كتاباته الخلاقة ، كما يكتشف هذا النقد عن رغبة الروائي فى الارتفاع بالرواية الادبية والرفع من شأنها .

وقد مهدت هذه الخطوات الاولى فى نقد الرواية الطريق لاديب روائي آخر هو سير والتر سكوت ، الذى اشتهر فى القرن التاسع عشر برواياته التاريخية ، فظهر مقاله « اما رواية » "Emma, a Novel" كمثل جيد للنقد الموضوعى . ويستحق هذا المقال عناية خاصة لانه مثل مبكر لتقييم حاد للرواية سواء اكانت لمجرد التسلية او انها تتضمن هدفا اخلاقيا واجتماعيا . والى جانب هذا فالمقال من اجود ما جاء فى نقد ادب جين أوستن وفى التعرف على الاهمية الادبية لرواياتها في ايامها الاولى . وملكة النقد الموضوعى عند والترسكوت تتضح على وجه التحديد فى قدرته على تقييم عمل كاتبة مثل جين اوستن يختلف اختلافا تاما عن انتاجه التاريخي .

ويشير سكوت فى مقاله الى نوع الروايات الهزيلة التى اكتسحت السوق في ايامه ، والى موقف القارىء منها ، الذى سبق ان اشارت اليه جين اوستن فى نورث آنجر آبي — اى رفض القارىء الاعتراف صراحة بقراءاته على الرغم من استمتاعه بها . وسكوت لا يحكم بقسوة تامة على هذا النوع من ادب الهروب الذى يساعد ، كما يعترف ، على التخفيف من كثير من آلام البشر مثل « الملل والقلق والالم وحتى الفقر » ، كما يخفف من وطأة حياة « المسنين والعزاب المهجورين والوحيدين » . ونظرة سكوت المتسامحة الى رواية الهروب جعلته يشعر بالتزام اكثر نحو توضيح قيمة رواية فى مثل مستوى اما الادبى ، فيقول :

> ان واجب الناقد يصبح مضاعفا حيال اعمال ... تكشف عن معرفة عميقة بقلب الانسان ، وتعبر عنها بقوة وعزيمة تهدف الى وضع هذه المعرفة فى خدمة الفضيلة والشرف (١٢) .

واهم ما فى نقد سكوت في مقاله هو التفرقة التي سبق ان اشارت اليها جين اوستن فى نورث آنجر ابى بين روايات معاصريها ورواياتها هى التي تتطلب « اهتماما يفوق بكثير ذلك الاهتمام الذى يتطلبه انتاج معاصريها الزائل الذى يغذى مكتبات الاعارة ومشتركيها من النساء » . فاعمال جين اوستن ، كما يقول سكوت :

> تنتمي الى مستوى من ادب الرواية لم يكد يظهر الا فى عصرنا الحالي ، وتصور الشخوص والاحداث المستقاة على نحو اكثر مباشرة من حياتنا العادية اليومية . وهو امر لم تسمح به القواعد السابقة للرواية (١٣) .

(١٢) Emma ; a Novel, Quarterly Review, October 1815

(١٣) المقال السابق .

ان جكم سكوت الصائب كروائي ناقد جمع بين الرومانسية والواقعية فى رواياته التاريخية مكنه من تقدير مشكلة الروائى في عصره الذى تحرر من قيود المواضيع الرومانسية البعيدة عن الواقع دون أن يتحرر من التقاليد الرومانسية في اسلوب الكتابة . ويقول سكوت بهذا الصدد :

ان الرواية الحديثة في ظاهرها هي الطفل الشرعي للرواية الرومانسية ، وعلى الرغم من ان شكلها العام قد تغير ليناسب العصر الحديث ، الا ان المؤلف استمر مقيدا بكثير من المعالم الخاصة بالرواية الرومانسية التي ظهرت عند نشاتها (١٤) .

من الواضح ان سكوت يشير هنا الى المعالجة الفنية التي لاتتمشى مع موضوع الرواية العصرية ، ويبدو هذا ايضا عندما يقول : « ويمكن متابعة (هذا الاسلوب) فى تناول احداث الرواية وتطورها ، وفى المناخ العاطفى المحيط بالشخوص الروائية (١٥) .

وان كان اسهام جين اوستن فى تطور الرواية الحديثة يتلخص في التحرر من المواقف والشخوص والاحداث التقليدية كما جاءت فى الرواية الرومانسية ، فان اسهام سكوت فى نقدة يرجع الى تعرفه على ما انجزته **جين اوستين** فى كل من الموضوع والشكل الفنى اللذين لا يفصل بينهما . ويقول في هذا :

اننا لا نضفى ثناء ضئيلا على مؤلفة ما عندما نقول انها تلتزم القرب من الاحداث العادية والاشخاص العاديين . ومع ذلك فقد انتجت صورا مبتكرة ذات حيوية الى درجة اننا لا نشعر انها تفتقر الى الاثارة التي تعتمد على سرد احداث غير عادية ... ان احداث رواياتها مبنية على وقائع عادية لاتختلف عما تقع تحت اعين غالبية الناس . وتتصرف شخوصها نتيجة لدوافع وعلى اساس مبادىء يسهل على القارىء أن يتعرف عليها ، لانها نفس الدوافع والمبادىء التى تحكمهم وتحكم غالبية اصدقائهم (١٦) .

وعلى الرغم من جميع هذه المحاولات النقدية التي ترمي الى النهوض بالرواية الادبية فانها لم تكن ذات اثر فعال . لقد بنيت على مناقشات جادة لبعض نواحي الادب الروائي مما يدل على وعى الروائيين الرواد بمشاكلهم الفنية والشكلية ، ولكن نقدهم لم يفصح عنها باستفاضة ، ولا على نحو منظم يمكن ان نستخلص منه مجموعة من الاسس النقدية المتكاملة . والى جانب هذا فان دفاع الروائي عن ادبه وما يستحقه من احترام لم يأت بالنتيجة المرجوة .

استمر الهجوم على الرواية حتى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر على اساس ان هدفها الاوحد هو التسلية ، وان قراءة الروايات ليس الا نوعا من الادمان والانغماس فى اللذة . وليس فى هذا ما يثير الدهشة ، لان الفكتوريين عرفوا بالتطهرية والتزمت اللذين دفعا بكثير من الآباء الى حرمان اولادهم من تلك « التسلية الخطرة » ، كما سموا قراءة الروايات . ومنهم غير ذلك من الشروط العشوائية . وقد شبهت عادة قراءة الروايات نهارا بشرب الخمر في الصباح ،

---

(١٤) المقال السابق

(١٥) المقال السابق

(١٦) المقال السابق

من كان اقل صرامة فوضعوا قواعد لقراءة الروايةتبدو لنا اليوم مضحكةفي شروطها . فحرم بعضهم قراءة الروايات صباحا او ايام الاحد ، وسمح بعضهم قراءة والتر سكوت وحرم دوماس الى كما شبهت العادة عامة بالاقبال المفرط على الحلوى الذى كانت لها شروطها ايضا فى البيت الفكتورى . وقد استخدم كثير من الروائيين انفسهم هذين التشبيهين ، فقال ترولوب (١٨١٥ — ١٨٨٢) Trollope : «ان الناس تقرأ الروايات كما يأكل الرجال الفطائر بعد العشاء والشعور يداخلهم بأن المذاق فى كلتا الحالتين زائل ان لم يكن ضارا » . واشار ثاكيري الى نفس المعنى عندما قال : « آه — تلك الروايات البديعة . كم اتذكرها جيدا . انها حلوة ولذيذة مثل فطائر الفاكهة التي عرفتها فى صباى » . ومن عشاق الرواية فى عهد فكتوريا هنرى كراب روبنصون Henry Crabbe Robinson الذى لم ينقطع عنها طوال سبعين عاما . وقد عبر عن ادمانه فى مذكراته بقوله :

« ان الرواية بالنسبة لي مثل الخمر بالنسبة للآخرين » . ويقال انه كان يقرأ الروايات دون تمييز بين الجيد منها والردىء . وهذه هى علامة المدمن الحقيقي . وقد واصل القراءة حتى سن التسعين ، عندما اشار فى مذكراته الى قراءته لرواية Vanity Fair (ولم تكن للمرة الاولى) وهو مستلق فى الفراش ممسكا بشمعة لتنير له الصفحات .

كان من الصعب اذا القضاء على النظرة الترفيهية المجردة للرواية التي اشترك فيها الروائيون انفسهم فى بعض الاحيان ، وهي احدى الاسباب التي يرجع اليها تأخر تطور النقد الروائي . ومع ذلك فالاستمتاع بقراءة الروايات الذى وصل الى حد الادمان فى كثير من الحالات ، وان كان عائقا فى سبيل ظهور النقد الروائي ، يمثل في الواقع نقطة الارتكاز في هذا النقد . فالروائي ، كما قال ترولوب ، « غير مسموح له بان يبعث الملل . ان كاتب القصص لا بد أن يدخل السرور على قرائه . والا فهو لا شيء »(١٧) وسانده فى هذا الراى هنرى جيمز الروائي والناقد الشهير ، وهو من اكثر كتاب الرواية وعيا بشكلها الفنى ، عندما قال : « ان الشرط الوحيد المسبق الذى ينبغي على الرواية ان تتقيد به هو اثارة اهتمام القارىء » (١٨) . وعندما يوضع ذلك الاهتمام تحت الدراسة الموضوعية فى محاولة لتفسير ما الذى ادى فى الرواية الى اثارة ذلك الاهتمام ، يولد النقد . ما الذى يدفع بالقارىء الى قراءة الرواية الواحدة عدة مرات بعد ان كشف عن تطور احداث الرواية والعلاقات بين شخوصها ومصيرهم من زواج ووفاة الى غير ذلك ؟ ان مهمة النقد هي الاجابة على هذا السؤال .

ولكن قبل ان يتجه النقد الروائي الى هذه الدراسة الموضوعية التي ترتكز على تحليل وتقييم لشكل الرواية واسلوبها ، اتبع طريقا آخر تناول من خلاله الرواية من حيث اخلاقياتها ودورها

---

(١٧) Autobiography, ch. XII.

(١٨) The Art of Fiction (1884)

الفعال فى المجتمع . وهذا اتجاه لا غرابة فيه‌متى تذكرنا تطهريـــة الفكتوريين وقلقهم العميق من اى اثر ضار قد يلحق بمجتمعهم . وقد بلغ‌هذا القلق ذروته خلال الستينات واستمر حتى الثمانينات . ففي عام ١٨٦٦ ظهرت فى دورية London Quarterly Review ، التي اشتهرت بميولها المتطهرة ، حملة ضد ما اعتبرتهاروايات‌مثيرة‌كتبها تشارلز ريد (١٨١٤ ــ ١٨٨٤) Charles Reade وولكي كولينـــز (١٨٢٤ ــ١٨٨٩) Wilkie Collins ، ومسز هنرى وود Mrs. Henry Wood ووصفتها بانها نوع مـــن« السم الخفى » الذى‌سيؤدى‌الى انهيار المجتمع . ويتضح من الاسلوب الذى اتبع فى هذه الحملةالتي لم يكن لها اى اساس من الصحة ، هبوط مستوى النقد الروائي واللا منطقية التي بنى‌عليها . فكان النقاد يقفزون من اعتراضهم على لا اخلاقية رواية بالذات الى الحكم الشامل علـى‌طبيعة الرواية عامة وتأثيرها الفاســـد علـى المجتمع .

وقد طبق كثير من النقاد المحترفين مقياس‌الفائدة الاخلاقية للرواية على نحو اكثر تفاؤلا . فاشاد بعضهم برقى مستوى الروائيين الاخلاقي‌وطهارة تعاليمهم الاخلاقيـــة . وبـــذلك اصبحت الرواية فى نظرهم اداة للتعليم ووسيلة لتصحيح‌الاوضـاع الاجتماعية الفاسدة المعيبة ، ولنشر الفضيلة . وتنعكس هذه النظرة النفعيـــة الـى‌الرواية فى السبعينات فى الجدال الـــذى نشـــأ حول الرواية . وسرد المدافعون عنها امثلة تثبت‌ان الرواية تعمق من تجربة القارىء ، وتعمل على احياء المثل الفاضلة ،« وتوقظ قليلا من البطولة»وتعلم الفتيات « الايثار والطيبة والرقة » (١٩) . ولا تمتنع ، نفس الدوريـــة ، عـــن مهاجمـــة‌والترسكوت لفشله ، كما تقول ، فى تطوير الفائدة الاخلاقية التي رفعت الرواية الى مصاف الادب‌المحترم منذ ان كتب رواياته . وتعود مرة ثانية الى وصف رواياته بانها روايات تسلية لا اكثرولا اقل ، متسائلة كيف يتأتى لمثل هذا الكاتب بما له من نبوغ وقوة وامكانيات ان يسقط من‌حسابه اهدافا عظيمة تتفتى مع ما حباه الله به ، وتنتهي بالسؤال : « اليست هناك قضية واحدة‌حية تستحق الدفاع ؟ » (٢٠)

وبذلك كانت معاناة الرواية ، في نهايـــة‌المطاف ، من اصدقائها الاخلاقيين المنفعيين لا تقل عن معاناتها من اعدائها الاخلاقيين المتطهرين . ففي كلتا الحالتين لم يثمر موقفهما عن الاعتراف بالرواية كشكل ادبي له كيانه واستقلاله الذاتي .

ومع ذلك فقد تقدم النقد الروائي علـى‌ايديهما نتيجة لا تفاقهما على تقييم الرواية على اساس تأثيرها المنفرد علـــى خيال القـــارىء‌ومشـــاعره . وفي مقال نشر عـــام ١٨٦٦ فى Saturday Review اشار الكاتب الـى هـــذاالتأثير غير المباشر الذى اعتبره اعظم ما تتصف به الرواية فيما يتعلق بفائدتها العملية ، ويرجع‌الى الصلة الوثيقة بين « خيال الانسان المسرحي »

---

(١٩) "The Uses of Fiction", Tinsley's Magazine (1870), vi.

(٢٠) نفس المرجع ، 'The Scott Centenary' العدد التاسع (١٨٧١ ــ ١٨٧٢)

ومجمل طبيعته الاخلاقية . ويعطي هذا النوع غير المباشر من الفائدة العملية لكل من الروائي والناقد النظرى مجالا اوسع للعمل مما يعطيه النوع الآخر من الفائدة العملية المباشرة . وهـذا النوع السابق هو الذى اعتمـدت عليه جـورج اليوت فى تبرير اهمية عمل الروائي وجديته . وجاء فيما قالته :

ان اعظم فائدة ندين بها للفنان ، سواء أكان رساما ام شاعرا ام روائيا هو تأثيره على اتساع دائرة مشاعرنا وتعاطفنا ... ان الفن هو اقرب شيء للحياة ، وهو وسيلة لتوسيع حلقة تجاربنا ، ولمد صلاتنا ببنى البشر خارج حدود حياتنا الشخصية (٢١) .

ويتبين من هذه الفقرة ان جورج اليوت ، مثل جميع الفكتوريين العظام ، كانت تنظر الـى دورها كمعلم او مؤثر على فكر الناس ومشاعرهم نظرة جادة ، كما تؤمن بمسئولية الكاتب الكبيرة وقداسة عمله .

وقد ادى الاعتراف باهمية الدور الـذى يلعبه الروائي في حياة الانسان والمجتمع الى تأكيد جديد فى النقد الروائي لاعلى اثر الـروايـة في السمو بالاخلاق ، ولكن على النواحي الفكرية والابداعيـة فى الروايـة . وفى مقـال ظهـر فى British Quarterly عام ١٨٦٧ ارتفع الكاتب بالمقاييس الفنية التي تتطلبها الرواية ، واضفى ثناء على الرواية لشمولها واحتوائها على الادوار المتعددة التى تؤديها كـل من الملحمـة والمسرحية والشعر الغنائى . ويتسـاءل الكاتب « ما الذى لا يستطيع الروائى عمله ؟ » . ان اسمى الحقائق فى نظره ــ وهنا يميز وبين مجـرد الدرس الاخلاقى والموعظة ــ يمكن التوصل اليها عن طريق الرواية، وخاصة اذا كانت جورج اليوت هى كاتبة الرواية التى يقارن الكاتب بينها وبين جوته Goethe من حيث نظرتها الجدية وسمو مبادئها .

وتختلف جورج اليوت عن كثير من معاصريها فى مفهومها للنظرية الاخلاقية للرواية ، فهى تعتمد في تأثيرها على القارىء لا علـى الموعظة المباشـرة (وان كانت رواياتها تحوى كثيرا من هذه المواعظ) ولكن على التأثير الخفى لا سلوبها فى الكتابة الذى تخاطب بمشاعر القارىء وعقله وحواسه كانسان متكامل لا يمكـن الفصـل بين عناصـر انسانيته المتعددة . وتقول جورج اليوت في هـذا الصدد مؤكدة العامل الجمالي في رواياتها لا العامل المذهبي المباشر :

ان مهمتي هي مهمة المعلم الجمالي لا المعلم المذهبي . وهي تهدف الى احياء النبل المشاعر التى تدفع بالانسان الى الرغبة في العدل الاجتماعي ، ولا تهدف الى وصف الخطوات العملية اللازمة المحددة التى قلما يستطيع عقل الفنان الحكم عليها مهما حركه تعاطفه الاجتماعي (٢٢) .

اصبحت القضية هنا قضية فنية جمالية ، وليست قضيـة تلقينية هادفـة مباشـرة ، كما اصبح الشكل الجمالي او الفنى اساسا فى تصوير الرؤية الاخلاقية الشاملة . اى ان الشكل الفنى فى سبيله الى الارتقاء الـى نفس مستوى اهمية الموضوع ، او على الوجه الاصح اهمية الرؤية .

---

(٢١) "The Natural History of German life", Westminister Review, (1856), X

(٢٢) Letter, edit G. S. Haight, 1954-5, vii p. 44

وهنا اعتراف صريح بالدور الفني والشكلي للرواية الذي لم يتنبه اليه النقاد في غمرة دفاعهم عن اخلاقيات الرواية المتعلقة بالموضوع .

ولعل جورج اليوت في الرواية هو من اجود واقدر ما كتب في هذا المجال في العصر الفكتوري . ونظريتها ــ ان صح تسمية تعليقاتها المتفرقة بنظرية ــ مبنية على الاسلوب الواقعي الذي نادت به ، ودافعت عنه ، وطبقته عمليا منذ اول رواية نشرت لها . وقد اتخذت الالتصاق بالواقع القيد الوحيد للرواية ، وهاجمت في نقدها ، مستندة الى هذا المبدأ البسيط الروايات التي حادت عنه . فالمبالغة والتقاليد الادبية البالية ، وكل ما يمكن وصفه بالتصنع الادبي لاقى منها نقدا لاذعا . وقد نشرت تعليقاتها ومقالاتها في دوريتي **ليدر** Leader ووستمنستر Westminster في خمسينات القرن الماضي . واهم ما كتبته في هذا الصدد مقالان بعنوان : « التاريخ **الطبيعي للحياة الالمانية** » "The Natural History of German Life" « روايات تافهة لنساء روائيات » "Silly Novels by Lady Novelists" وفي الفصل السابع عشر لرواية **آدم بيد** (١٨٥٩) Adam Bede شرحت نظريتها الواقعية موضحة البساطة والقوة اللتين بنت عليهما رأيها في تصوير الحياة ، وقالت :

> وبذلك فانا راضية ان احكي قصتي البسيطة دون ان احاول تصوير الاشياء على نحو افضل مما هي عليه في الواقع . انا لا اخشى شيئا بالتاكيد الا عدم توخي الصدق ، فهذا رغم القصي ما نبذله من جهد شيء يخشى منه . ان البعد عن الحقيقة سهل والصدق صعب . وفي صفة الصدق الرفيعة النادرة هذه ، التي تتصف بها صوري الواقعية ، والتي يحتقرها اصحاب النواوس المتعالية ، في هذه الصفة اجد متعة كبيرة .

ان الاحترام ، بل والتقدير ، اللذين تتميز بهما جورج اليوت في نظرتها الى انتاجها الروائي ساعدا في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر على قيام حركة في مجالي الرواية والنقد الروائي اساسها الجدية والفكر والعقلانية . واصبح روائيون من امثال **جورج ميريدث** (١٨٢٨ ــ ١٩٠٩) George Meredith **وجورج مور** ١٨٥٢ ــ ١٩٣٣ George Moore **وجورج جيسنج** (١٨٥٧ ــ ١٩٠٣) George Gissing **وتوماس هاردي** (١٨٤٠ ــ ١٩٢٨) Thomas Hardy نقطة التقاء عاصف وجدال مستمر حول الرواية الادبية ، وما يجب ان تكون عليه . فكان رأي ميريديث انها يجب أن تتضمن « فلسفة » و « فكرا » و « فكرة » بدلا من ان تكون تالبا لاخلاقيات الطبقة المتوسطة ووسيلة لقتل الوقت . واتخذ جورج مور نفس الموقف مهاجما معاصريه عندما قال غاضبا : « ان اهتمامي لا يتجه نحو اولئك الذين ينظرون الى الادب وكانه نوع آخر من رياضة ركوب الدراجات » (٢٣) . واصبح « الضمير الفني » المصطلح الذي تعارف عليه الروائيون النقاد في حربهم لرفع المستوى الفني للرواية ووضعه في المرتبة الاولى قبل اي اعتبار آخر . وكان يخشى عليه ، كما حدث في العصور السابقة ، من انتشار الرواية الرخيصة الشعبية واكتساحها السوق في اعقاب قوانين التعليم الجديدة التي استوعبت عددا كبيرا من المواطنين ، تعلموا القراءة والكتابة دون ان يحصلوا على اية ثقافة .

---

(٢٣) "A Tragic Novel", **Cosmopolis**, vii, (1897), 58

وكان جورج جيسنج من الروائيين النقادالذين بهروا بانجازات الروائيين الفرنسيين والروسيين ، الذين اتصفت اعمالهم بذلك« الضمير الغنى » الحى الذى وضع الادب فوق اى اعتبار مادى ، مالا كان ام شهرة . وقارنجيسنج بين الرواية الفرنسية والروسية من ناحية وبين الرواية الانجليزية من ناحية اخرى ، فقال :

ان الروايات الانجليزية مادة بائسة بسبب بائس جدا ،وهو ان الروائيين الانجليز يخشون من انجاز احسن ما فى مقدورهم لخوفهم من يضر ذلك بشعبيتهم ، ومن ثم بدخلهم... فليكن الروائيون صادقين مع ضمائرهم الفنية وسيتبعهم الذوق الجماهيرى فيما بعد (٢٤) .

ساعد موقف الروائيين النقاد من الرواية فىالربع الاخر القرن التاسع عشر على الانتباه الى الشكل الروائى ومناقشة جمالياته . وكانت هذهآخر مرحلة من مراحل تطور النقد الروائى فى القرن الماضى واصعبها ، كما يبدو من تخبطالنقاد ترددهم ، وعدم توصلهم الى ابسط المبادىء التى يمكن الاستناد اليها .

فانكرت فيرنون لى Vernon Lee الروائيةالتى عكفت على دراسة البناء الروائى ، جماليات الرواية . ان الرواية فى نظرها ، متى قورنت بفنالتصوير او الموسيقى ، ليست الا نصف فن . فهى تفتقر الى الوسيلة التى يمكن بواسطتها انتحول موضوعها ذا الاهتماماتالانسانية الاخلاقية الى تلك الانطباعات الحسية التى منها يتالف كلما هو جميل . ان جاذبية الرواية فى نظرها غير جمالية ، بل تستند الى ميلنا المنطقى نحو النقاشوالجدل واكتساب معرفة بالحياة ، والاثارة العاطفية ، والشعور بالرضا الذى تدخله عليناماذج مركبة من الكلمات . وهذا العنصر الاخير هو الوحيد الذى يمكن اطلاق مصطلح « الشكل »عليه وهو عنصر ، كما تدعى فيرنون لى ، تستطيع الرواية الاستغناء عنه(٢٥) .

وظهرت نفس السلبية فيما قاله **جورجبارنيت سميث** George Barnett Smith عام ١٨٧٤ عن بناء الرواية . فبعد ان اثنى ثناءعظيما على فيلدنج واعماله الروائية ، قال :

لن تحظى الرواية ابدا بمكانة توازى فى اهميتها مكانةالمسرحية بسبب العيوب فى بنائها (٢٦) .

ووقع سميث ، كما وقعكثير من معاصريه،فى نفس الخطأ الناجم عن الاعتقاد بانه يمكن الحكم على بناء الرواية المتفكك بالاستناد الى مقاييستنتمى الى شكل ادبى آخر مثل المسرحية ، لا الى مقاييس تناسب اهداف الرواية .

---

(٢٤) "The New consorship of literature", letter tothe Pall Mall Gazette, XI, (December 1884)

(٢٥) "The Aaesthectics ofthe Novel", Literature, (1899), V 98-100.

(٢٦) "Our First Great Novelist" Macmillan's Magazine, xxx (1874), 1.

وعلى العكس من ذلك اعتبر آخرون مرونةالرواية واحدة من مزاياها الجمالية . فقال احد المعلقين على الرواية :

ان الرواية من بين جميع الاشكال الادبية هي الشكلالوحيد الذى يستطيع آن يعبر بسهولة مطلقة عن كل عاطلة يمكن تصورها (٢٧) .

غير انه عـاد ثانية واعترف بمخاطر هـذهالمرونة فى البناء الروائي .

والمهم فى كل هذا ، سواء اجاءت التعليقاتالنقدية على الشكل الروائي ايجابية ام سلبية ، هو بدء ظهور الوعى بالناحية الجمالية للروايةومناقشتها . وقد صاحب هذا الاتجاه الجديد فى اواخر القرن التاسع عشر ازدياد الوعى الفنى عندالروائيين انفسهم الذين وقعوا تحت تأثير فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) Flaubert الروائـــيالفرنسى الـذى ساعد اهتمامه بالشكـل الفنى للرواية على تطوير الرواية الحديثة ، كما ساعدعلى النهوض بالرواية عامة لما ابداه مـن جدية فى معالجته اياها .

ونتيجة لهذا ، اخذ النقاد الروائيون بالذاتفى اواخر القرن ، يعبرون عـن حماسهم المتزايد للرواية وعـن ثقتهم فيها ، متخذين مـن الروايةالفرنسية مثلا يحتذى لرفعة الفـن . فى احدى المقالات الهامة التى ظهـرت عـام ١٨٨٤ بعنوان « فن الرواية » "The Art of Fiction" اكد والتر بيزانت (١٨٣٦ ـ ١٩٠١) Walter Besant الروائى الانجليزى ، ان الرواية قرين تام لاشكال الفنون الاخرى ،محكومة مثلها بقوانيندقيقة يمكن ان تلقن كما تلقـن قوانينالهارمونى في الموسيقى . وعندما نصل الى عام ١٨٩٠ نجد انالنقاش والجدال قد ازداد حول اهداف الرواية واساليبها ومبادئها ، حتى اصبحت ظاهرة مـنظواهر الدوائر الادبية . وانصب هذا الجدل حول جانبـي الشكـل والموضـوع ، وكان لكـل منهماانصاره . فاصبحت الرواية محور اهتمام عدد مـن النقاد اعتبروها الان شكـلا ادبيا يستحـقالدراسة .

• • •

كان الوقت قد حان لظهور ناقد يستطيع انيجمع الخيوط المفككة فى شكل مترابط . وآلت هـذه المهمـة الى الروائي هنرى جيمز الامريكيالاصل الذى عاش معظم حياته الادبية فى انجلترا وتجنس بالجنسية البريطانية . وقد ارتفع جيمزالى مصاف الروائيين العظام كما اصبح رائد النقد الروائي فى العصر الحديث .

كانت الثورة فى النقد الروائي التي قامت علىاكتاف جيمز مفاجئة وساحقة وكاملة . ففي عام ١٨٨٤ جاء على لســان جيمز ، وهـو ما زال فىمنتصف العمر ، ان الرواية الانجليزية ليست

(٢٧) "Novels & Novelists", Saturday Review, xxxiii (1872), 722-3.

موضوعا « لدراسة » (٢٨) ، وعبر عن اسفه العميق لافتقارها الى النقد لاهميته في تطور الادب . وبعد عشرين عاما ، كان جيمز قد درس الرواية وحلها بدقة لم يسبق لها مثيل في مقدماته الثماني عشرة التي كتبها لطبعة نيويورك « لرواياته وقصصه » (١٩٠٧ — ١٩٠٩) . ولعلنا لا نخطيء اذا ما قلنا انه ليس هناك في تاريخ النقد ثورة في مثل شمول الثورة التي ادت الى مقدمات جيمز . وينفرد النقد الروائي في هذه الظاهرة المفاجئة ، يعكس النقد الشعري الذي نما وتطور في انجلترا ببطء وصعوبة طوال ثلاثة قرون منذ ايام الشاعر درايدن . واذا ما استثنينا المحاولات الراهنة المتفرقة التي سبق ان ذكرناها، فاننا لن نكون مخطئين كل الخطأ اذا قلنا ان النقد الروائي في اواخر القرن التاسع عشر في انجلترا ولد من لا شيء . وايا كانت الاهمية التي نضفيها على نقد جورج اليوت وزميلها جورج هنري لويس George Henry Lewes فمن الواضح لنا اليوم كما كان واضحا لجيمز انها كتبت دون استناد الى مبادىء فنية موثوق بها ، بدون التأكد من ان الجمهور القارىء يتمتع بنفس الثقة في الرواية . اما في حالة جيمز ، ففي استطاعتنا أن نقول انه لاول مرة منذ ايام فيلدنج ، الرائد الاول في النقد الروائي ، يتحدث روائي عن فنه بمعرفة وثيقة ، كما يكتب عن اعمال غيره من الروائيين بنفس الاسلوب الواثق .

ان نشر **مذكرات** Note books جيمز عن رواياته عام ١٩٤٧ اثبت بما لا يدع مجالا للشك ان جيمز كان فنانا ذا وعي عميق استطاع ان يعبر عنه منذ البداية . فمن سن الخامسة والثلاثين حتى وفاته لم يتوقف عن شرح الاسباب والظروف التي دعته الى اختيار موضوعات بالذات، موضحا في مذكراته نواة رواياته ، والخطوات التي مرت بها ، وكيفية تطورها . ان كل رواية من روايات جيمز وكل قصة من قصصه ظهرت الى الوجود بارادة واعية افصح عنها الكاتب باسهاب لا يكاد يكون له نظير في تاريخ الرواية . في هذه **المذكرات** اذا ، التي بدأ جيمز يكتبها عام ١٨٧٨ ولد النقد الروائي كما نعرفه اليوم . اما **مقدمات** رواياته الثماني عشرة التي كتبها في نهاية حياته الادبية فهي تتويج لجميع انجازاته . ويجب أن نشير هنا الى ان الاعتقاد السائد بان النقد كثيرا ما ينشأ نتيجة لفشل الكاتب في اعماله الخلاقة لا ينطبق اطلاقا على جيمز، حيث نجد التوءم التام بين النقد والخلق . ويلاحظ ايضا ان جيمز لم يكتب معتذرا او مدافعا عن بعض او كل ما جاء في عماله . ان مجموع نقده يتصف بطابع الثقة المتواضعة ، كما يتصف باحترام الكاتب العميق لذلك الغموض الذي لا بد ان يكتنف كل عمل ادبي خلاق .

واذا ما تركنا **مذكرات** جيمز جانبا لاختلافها العام عن بقية نقده من حيث هي توضيح وتفسير لعملية الابداع عنده ، فان نقده يقع في ثلاث مراحل يتناول الناقد عبرها كتابا معاصرين له وغالبيتهم من الروائيين الانجليز والفرنسيين والامريكيين . وتغطي المرحلة الاولى مقالاته المنشورة ابتداء من سن الواحدة والعشرين في مجلة Nation وغيرها . وهي تعليقات على كتب من مختلف الانواع ، من

---

(٢٨) "The Art of Fiction"

بينها مقال (١٨٠٥) هاجم فيه رواية **صديقنا المشترك** (١٨٦٥) **Our Mutual Friend** لتشارلز ديكنز . اما المرحلة الثانية فهي تلك الفترة الوسيطة المثمرة التي بدأت بنشر مقال (فن الرواية » (١٨٨٤) " The Art of Fiction " ، وهو تعليق على محاضرة والتر بيزانت المنشورة تحت نفس العنوان ، وبيان في نظرية الرواية . ثم تلته مقالاته الهامة عن الروائيين **ترولوب** (١٨٨٣) **وستيفنسون** (١٨٨٨) **وموباسان** (١٨٨٨) Maupassant **وزولا** (١٩٠٣) Zola **وبلزاك** (١٩٠٥) Balzac ويمكن ان نضيف الى هذه المقالات مقالة عن **هوثورن** (١٨٧٩) Hawthorne اعطى فيه الروائي الامريكي حقه في الثناء كاملا ، ثم مقالة عن **كونراد** Conard **وآرنولد بينيت** Arnold Bennett **وهيو والپول** Hugh Walpole بعنوان « جيل الشباب » "The younger Generation"

. واخيرا تجيء المرحلة الثالثة التي ظهرت خلالها **مقدماته** (١٩٠٧ ـ ١٩٠٩) التي تتضمن مجموع ما جاء في نقده الروائي ، وتمثل عمق وغنى اهتماماته النظرية في النقد . واعتبر جيمز هذه **المقدمات** في مجموعها مرشدا لمن يصبو الى مهنة الرواية الشاقة ، كما سماها . ولا يمكن ان ننكر ان هذه الاشادات لا تتبع نظاما معينا ، فكل رواية وكل قصة كانت تطرح اسئلة نقدية خاصة بها لا تنطبق على غيرها ، ولا تستند الى خطة واضحة الهدف . ومع ذلك فمجموع ما جاء فيها ذو طابع متنوع تشمل جوانبه العديدة اهم اوجه النقد الروائي عند جيمز .

وكان جيمز في هدفه طموحا ، فرمى الى خلق تقليد انجليزي في النقد الروائي من لا شيء . وكان مصيبا في شكواه من افتقار الرواية الى النقد عندما قال :

كان الاعتقاد السائد الى وقت قريب على ما يبدو ، هو ان الرواية الانجليزية ليست على حد قول الفرنسيين مجالا للدراسة . ولم يبد عليها انها تستند الى نظرية او اقتناع او وعي بنفسها ، او انها تعبير عن عقيدة فنية نتيجة اختبار ومقارنة ... لقد كان هناك شعور عام مريح منبسط بان الرواية هي رواية كما ان « البودنج » هو بودنج (٢٩) ، وان مهمتنا الوحيدة هي ان نبتلعها . (٣٠)

وقد سبق ان لاحظ جيمز في مقاله عن ترولوب ان « من الخطورة بمكان » في انجلترا « ان يكون المرء فنانا صريحا او واعيا ، او ان يتبع نظاما او مذهبا » . وقد اخذ جيمز على عاتقه مهمة اصلاح الوضع بان جعل الرواية الانجليزية موضع « الدراسة » الجادة لاول مرة تقريبا في تاريخها الطويل .

واساسا النقد عند جيمز هو التعاطف والتوحيد بين الناقد والعمل الادبي . ويعرف النقد بانه «مبدأ تفهم الاشياء» ومهمته «الالحاح في المطالبة بحاجة جميع الاشياء الى التفهم » (٣١) . ولا فائدة من ان يضجر الناقد من موضوع المؤلف ، كما سبق ان حدث مع المتطهرين والنفعيين ، لان

---

(٢٩) « البودنج » نوع من الحلوى المالحة الشكل ويقصد باستعمال الكلمة هنا افتقار الرواية الى الشكل المحدود .

(٣٠) "The Art of Fiction"

(٣١) Views & Reviews, (1908), 94

الموضوع هبةً تعطي عن طريق مؤثرات وعملياتهي في نهايتها غامضة . واهتمامات الناقد يجب أن تنصب على المعالجة الادبية التي لا يستطيع انيلم بها الا « بالانغماس فى عبقرية الكاتب ، وتتبع خطاه ، والتعرف على كنهه » (٣٢) . ومع انجيمز فى **مقدماته** كان فى وضع يحسده عليه النقاد من حيثانه كان يلعب دور الناقد لاعماله الخلاقة،وبذلك كان ناقدا مكتمل المعلومات عما يكتب ، فانه كان يلعب دور القارىء ايضا الذى تفوته اشياءكثيرة ، وخاصة فيما يتعلق بالاعمال التي انتجها منذ زمن بعيد . ولذلك فعندما تناول رواياتهاقترب منها فى تواضع الناقد الذى لا يستطيع مهما حاول ان يتعرف على كل ما يكنه العملالخلاق . فكان مثلا للناقد المثالي كما تصوره جيمز، الذى عليه ان يقبل حدود معلوماته ونقائصقدراته عندما يقف وجها لوجه امام السر الغامض الذى يكتنف كل عمل ابداعي . ان الناقد المحترفيستطيع ان يتعلم الكثير من موقف جيمز من العمل الفني ، واعترافه باستحالة التوصل الى كلالحقائق التي تؤول فى نهاية الامر الى ما نسميه فنا . وقد عبر جيمز عن هذا بقوله :

> **ان التاريخ الخاص لاى عمل مخلص مهما كان متواضعا ،يهيمن فى مجموعه على جو الرواية الفني المحاط بالغموض ، مما يضفى وقارا على العمل (٣٣) .**

ويقول ايضـــــا :

> **ان السطح المغمور هنا وهناك يرفض الاستجابة ، بلاشك . فالاسرار والنوايا الخفية مدفونة الى درجة لا تسمح لها بالظهور ثانية (٣٤) .**

وفى موقف جيمز هذا بعض الشبه بنظرياتالنقاد المحدثين الذين يؤكدون عدم جدوى تتبع نوايا الكاتب . ولكن الشبه لا يعدو كونه سطحيا ،اذ ان جميز يملك من البصيرة ما يمنعه من القول بان الاستحالة تعني عـدم المحاولة . ان جيمزيعلم تماما انه ليس هناك نقد مهما تعمق ، يستطيع ان « يستحوذ ذهنيا » على العمل الفني . وانماالنقد انواع ، فمنه ما يقترب قليلا مـن العمل ، ومنه ما يبعد عنه كلية .

وقد كتب جيمز قصة قصيرة فى موضـوعالكاتب والناقد بعنوان **الصورة فى السجاد** (١٨٩٦) **The Figure in the Carpet** . ويشير العنوانالى السر المدفون فى العمل الفني الذى ينبغي على الناقدوالقارىء انيكتشفاه . ويلاحظ انالسخريةفى القصة لا تصدر ، كما ظن البعض ،عنالاعتقاد بأن سر « فيريكير » ، الكاتبالابداعي ، لا يستحقالاكتشاف ، ولكنها تصدر عن خطأ لاعتقاد بأن هذا السر يمكن التوصل اليه دون اللجوء الى قراءةمتعمقة ومتفهمة للعمل الادبي نفسه . وكل محاولة لاكتشاف سر « فيريكر » الكاتب العبقرى الذىيموت حاملا معه هذا السر الى القبر ، كما تظن شخوص القصـــة ، كل محـاولة جـديدة تلقيبالباحث بعيدا عن الجواب ، لانه يعتمد فى بحثه

---

(٣٢) "Notes on Novelists with Some other Notes" (1914), 259.

(٣٣) "The Art of the Novel", edited by R. P. Blackmur (1934), 4.

(٣٤) المرجع السابق . ص ١١ .

على الاخرين وليس على « تحليل دقيق مبنى على التقدير » للاعمال الابداعية ذاتها . والقصة تعبر عن احتجاج جيمز على افتقار انجلترا الى النقدالروائي الجاد ، وعلى « جمود الحسن العام » فيما يتعلق بالرواية . وقد لخص هذا فى قوله :

« ان ما نسميه نقدا بعيد عن الاحساس بحقيقة الاشياء » (٣٥) .

ويرمى جيمز فى هذه القصة الى الارتقاء بالرواية الى مكانة الفن الرفيع المركب الذى يصعب على الناقد ان يحلل جميع تركيباته ، وان يستخلص منه بالتجريد رؤية الكاتب او « الصورة فى السجاد » ، كما سماها جيمز فى قصته . فجوهر العمل الخلاق سر غامض لا يمكن الاستمتاع به وتقييمه ، الا عن طريق القراءة المتعاطفة . ويعنى هذا ان مهمة الناقد شاقة . فيجب ان يتصف بالقدرة على النظرة المركبة والاحساس المرهف ، وعلى بذل كل مشاعره وانتباهه . ان النقد عند جيمز هو « آخر الفنون واكثرها تركيبا ، آخر ما يؤهل له الانسان ، وآخر ما يصل اليه . وهو اكثر الفنون حاجة الى النضوج والتفهم والمقارنة » (٣٦) .

وجيمز فى نظرية للرواية التي تناولها فى مقاله « فن الرواية » يصوغ بعض العبارات المحددة فى مفهوم الرواية والرؤية الروائية التي ينفرد بها هذا الشكل الادبي ، كما يوضح نقائصها ومزاياها التى لا جدال فيها . ونقطة الابتداء عنده ، كما كانت عند فيلدنج وجين اوستن وجورج اليوت ، هى تصوير الرواية للحياة . فيقول :

ان السبب الوحيد لوجود الرواية هو انها تحاول تصوير الحياة . ومتى القت هذه المحاولة جانبا ... تكون قد وصلت الى وضع غريب عنها (٣٧) .

ويقول فى مكان آخر : « ان الرواية تتصف بالشمول والعمق فى مطابقتها الرائعة للحياة » . (٣٨) وهناك فقرات عديدة فى نقد جيمز تشير عامة الى تقبله للاسلوب الواقعى واعجابه بكتاب هذا الاسلوب من الروائيين العظام من امثال بلزاك وفلوبير وموباسان ودوديه وجورج اليوت وتورجينيف . وبينما يعبر عن استيائه من اسلوب **جورج صاند** (٣٩) (١٨٠٤ ١٨٧٦) George Sand لافتقاره الى « الدقة » ـ اى اسلوب الحقيقة ، فانه يثنى على « الدقة فى تصوير التفاصيل » الى حد « التشبع » فى روايات بلزاك وفلوبير .

وعلى الرغم من تأكيد جيمز لعلاقة الرواية بالواقع فانه لا يخلط بينهما . فالرواية ليست مرآة ولا هى محاكاة للحياة بالمعنى الضيق لان الفن ، فى نظر جيمز ، لا يمكن ان يكون مجرد

---

(٣٥) الرجع السابق ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩ .

(٣٦) "The Art of Fiction".

(٣٧) "The Art of Fiction"

(٣٨) **Partial Portraits** (1888), 378.

(٣٩) **French poets & Novelists** (1878)

« شريحة من الحياة » كما ادعى زولا . بل الرواية مختارات من الحياة ، يحورها الروائي ويشكلها ويخلقها من جديد . والاختيار ضروري لان الحياة كلها شمول وفوضى ، والفن كله تمييز واختيار » (٤٠) .

وقد شبه جيمز الفن بالمفاعل الكيمائي الذي يصهر مواد الحياة حتى تظهر في قالب جديد لتؤدي عملها . واستخدم نفس الصورة في وصفه للفنان عندما قال : « انه الكيمائي Alchemist الحديث الذي يبعث الحلم القديم في البحث عن سر الحياة (٤١) .

الرواية اذا تعطي القارىء صورة واهمة بالحياة ، ويكون نجاحها بالقدر الذي يستطيع الروائي بأسلوبه اقناع القارىء بهذه الصورة وهنا تظهر مشكلة الصدق الفني التي شغلت بال جيمز كما كانت موضع اهتمام جورج اليوت التي اكتشف في رواياتها « ذلك الدليل القوي الكامن بالصدق »(٤٢) . فجيمز احتار في تحديد ما كان يعنيه بالصدق والحقيقة فيما يتعلق بالاسلوب الواقعي . ولم يستطع « تثبيت » درجة الواقع الذي يتطلبه العمل الفني، ووجد صعوبة في قبول شخصيات خيالية مثل دون كيشوت ومستر ميكوبر لان « حقيقتهما » كما قال « مسالة في غاية الدقة ، مصبوغة برؤية الروائيين الى درجة نتردد معها في تقديمها كنموذج يحتذى . مهما وضحت معالم الشخصيتين وحيث» (٤٣). واتخذ جيمز موقفا مماثلا حيال رواية ديكنز صديقنا المشترك ، فقال عنها انها تحفل بشخوص ممسوخة تثير الضحك ، مشوهة في مظهرها ومسلكها دون سبب مقنع ، الى درجة قضت على انسانيتهم .

فالواقع اذا ذو اهمية اساسية في الرواية ، ولكن ليس من السهل اعطاء فكرة واضحة ووصف كامل لما يعنيه الواقع ، كما يتضح من قول جميز :

لا جدال في انك لن تستطيع ان تكتب رواية جيدة الا اذا كان لديك الاحساس بالواقع ، ولكن من الصعب ان اعطيك وصفا مفصلا للعناصر التي تعمل على خلق هذا الاحساس . ان الانسانية شاسعة والواقع ذو اشكال لا حدود لها (٤٤) .

وهنا يتساءل جيمز لماذا يحاول الروائي ان يخلق صورة « واهمة بالحياة » ؟ وماهي وظيفة الفن ؟ والسؤالان متداخلان والاجابة عليهما تكاد تكون واحدة . ووظيفة الرواية في نظر جيمز هي اعطاء القارىء «عالما آخر» ، تجربة تشبه في مفعولها الاثير الذي يستخدمه طبيب الاسنان ، فكلاهما يسكن من « آلام الواقع » . ويضيف جيمز : « ان ما نراه طبعا هو واقع آخر ، واقع اشخاص آخرين ، ويتوقف ما نراه على القدر الذي تحتويه الصورة من الحياة » (٤٥). غير ان جيمز لا يدعي انه يعرف كنة هذا الشعور بالسكون والتخفيف من الآلام الناجم عن قراءة

---

(٤٠) "The Art of Fiction"

(٤١) Notes on Novelists, 275

(٤٢) Views & Reviews, 4.

(٤٣) "The Art of Fiction"

(٤٤) المرجع السابق

(٤٥) Notes on Novelists, 436

تجارب الاخرين فى الرواية . وكل ما توصل الىملاحظته هو اننا بعد القراءة نعود الى واقعنا ، وقد ازددنا قوة وصلابة . وتبين ان الروائى الذى يسمح لنا بأن « نحيا حيـاة الاخرين » لا يعمق من تجاربنا فحسب ، بل كذلك رؤيةجديدة للحياة ومعرفة صادقة بانفسنا . اننـا نشارك فى رؤية الروائى ونتشكل به . وفي هـذاالرأى امتداد وتطور لنظريةجورج اليوت في الواقع والصدق الروائى وتأثيرهما الخفى على القارىء .

ان الرواية تستطيع ان تكشف للقارىء عنحقائق نفسه وعالمه بنسبة اكثر من اشكال اخرى فنية فى نظر جميز . فالروائى ، كما يقول جيمز ،يمكن القارىء من ان يختار ويقارن ويتفهم ، حتى يصل فى نهاية المطاف الى نوع من التكامل الذىلا ينتمى الىالوضاعة والنفاقمهما كانتسطحيته وتفراته » (٤٦) . وهـذا التكامل الـذى يعتبره جميز اثرا رائعا مـن آثار الرواية يفترض مسبقا الشمول فى هـذا الادب والابتعاد عـن النظـرةالجزئية للواقع . فعلى الروائى ان يعبر من خلال ادبه عن كل نواحيه الانسانية . وهنا يجد جيمزمكانا للاخلاقيات والضمـير فى نظريته ومقاييسه الادبية . ويرى على هذا الاساس ان الرواية يجبالا تكـون عمـلا وصفيا محليا ، مجـرد صـورة للسطحيات . بل يجب ان يكـون لروح الانسانوجوهره مكان فى الرواية خليق به حتى لا يظهـر مجزأ ممزقا بل متكاملا روحيا وعقليا وجسميا .

وينتقل جيمز بطبيعة الحال من هذه الفكرةالى تناول موضوع العلاقة بين الرجـل والمراة فى الرواية فعبر عن اعتراضه على الرقابة المستترةفى انجلترا تلك التى حرمت علـى الروائى معالجة نواحى هامة من الحياة ، كما عبر عن اسفه للقيودالتى وضعتها الميول المتظهرة والاحتشام المتكلف في ذلك الوقت على العمل الروائى . ونادى جيمزبضرورة التحرر من هذه المعوقات للرواية فىسعيها نحو الرؤية المتكاملة .

ولكن لم يطل دفاع جيمز عن فكرة التحررهـذه التى استلهمها من الروائيـين الفرنسيين وتراجع عنها نتيجة تطهره هو ونفوره من الناحيةالفريزيـة فى الانسان ، واقباله علـى الناحيتين الروحيـة والاخلاقية ، اى مـا اعتبرهما اكثـرانسانية وشمولا . وقد وجد ، رايه ، ان غالبية الروائيـين الفرنسيـين يفتقـرون الى الرؤيـةالاخلاقية . فهـم على حد قولـ اساتذة فى الفن والشكـل ، وفي تصويرهـم لسطحيات الحياة :الاحساسات والغرائز والرغبات ، ولكن ينقصهم تصويـر « الشخصيـة فى حركتهـا ، وامكانياتسلوكها ، والدور الذى تلعبه الفكرة فى الحياة .. وعندما يضعون ايديهم على حياة الانسان الروحيةتتبدد مهارتهـم » (٤٧) . ويقارن جيمـز مقارنة فاصلة على هذا الاساس بـين الروائيين الانجليزوالفرنسيين .

فالانجليز ، فى نظره ، كتاب تملا كتاباتهم العيوب ، وينقصها الشكل ، ويميلون الى معالجة الامور معالجة نفسية اخلاقية باحتشام متكلف. اما الفرنسيون فهم اساتذة ضحل لا اخلاقيون فى تصوير سطح الحياة . وكان جيمز يرمى الىتحقيق التواؤم بين الميول الانجليزيةوالفرنسية

---

(٤٦) Selected letters, ed. Leon Edel, (1956), 157

(٤٧) sEssays in London & Elsewhere (1893), 183

فى الرواية بكتابة الرواية النفسية الاخلاقية ذات الشكل الفنى المتناسق ، اى الجمع بين المعنى الاخلاقي والناحية الجمالية .

ورأى جيمز ان مثل هذا التكامل امر شخصي محض وثيق الصلة بالعقل الذى يصدر عنه . وقال فى هذا الصدد :

ان اعمق ما يسفر عنه العمل الفني هو عمق العقل الذى انتجه ... فالرواية الجيدة لن تصدر ابدا من عقل سطحى . هذه حقيقة تغطى ، بالنسبة للفنان ، المعنى الاخلاقي الذى يحتاجه (٤٨) .

فعقل الفنان بالمفهوم العريض هو الذى يشكل رؤيته وكلاهما محور اهتمام الناقد الروائي وقد شبه جيمز ادب الرواية بالبيت و « بيت الرواية» (٤٩)، له واجهة عريضة تتخللها نوافذ عدة ، كثيرا ما تكون مجرد ثقوب ووراء كل واحدة من هذه الفتحات اسس ذات عينين أو نظارة مكبرة – اى اداة ملاحظة فريدة تضمن لصاحبها «انطباعا يتميز على كل انطباع اخر» . فقد يرى المشاهدون نفس المشهد ولكنه يكون دائما مختلفا لان الرؤية تتوقف على المشاهد وزاوية الرؤية . والمنظر هنا هو مشهد الحياة ، والفتحة او الثقب هو الشكل الادبى والمشاهد الذى نفث الحياة فى كلها هو وعى الفنان المتكامل . هذه هى الصورة اللافتة التي استخدمها جيمز في احدى مقدماته الاخيرة لوصف فن الرواية ، الذى لا وجود له الا بوجود « المشاهد عند النافذة » .

وقد ركز جيمز اهتمامه على ناحية الخلق عند الروائى التى تعكس الخيال اثناء عملية الابداع ، وتكشف عن عملية نسج مشاعر الكاتب وانطباعاته ، اى ذلك الوجه الذى يعكس ذاتية الفنان الدقيقة . وكل روائى يستحق المعالجة النقدية فى نظر جيمز « حالة خاصة » . وجمع هذه «الحالات» فريدة فى نوعها . ويكون الحكم على مستوى الناقد وقدراته بقدر ما يستطيع ان يصل الى اعماق « الحالة » التى يدرسها . ويلخص جيمز بعض تلك « الحالات » التى درسها فى نقده على النحو التالى : ففلوبير هو « المثل والصورة للحالة الفكرية » ، وزولا هو الشخصية التى « تسود وتهيمن فى النهاية » ، اما موباسان « فحالته » مميزة لانه يكتب عن طريق الاتصال الجرىء المباشر بحواسه . وجيمز في نقده هذا يكتب كالطبيب الذى يحاول تشخيص « حالاته » لا وصفها . والشىء الذى يبحث عنه فى « تشخيصاته » المستندة الى اسلوب العمل الادبى ونسجه ، هو مزاج الروائى الفريد ، ومدى رؤيته ، وحركة مشاعره وحواسه . انها تلك الاشياء التى سماها جيمز ب « لون الهواء الذى يشبع به الفنان » ، ايا كان ، صورته للحياة دون وعى » . فالنقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل الخلاق ، والناقد مثله كمثل الروائى يجب أن يتشبع بالعمل الذى يتناله ويتفاعل معه كما يتشبع الاديب بالحياة المحيطة به ويتفاعل معها . والهدف فى نهاية الامر هو الوصول الى الجوهر .

وقراءة الرواية على هذا النحو معناها دراسة الروائى نفسه والعيش من جديد فى جو حياته الدفينة . ومع ذلك فان جيمز في نقده لا يخلط بين الروائى وعمله . ويقول فى هذا الشأن :

---

(٤٨) Partial Portraits, 406 - 7

(٤٩) The House of Fiction'

« ان الحياة والاعمال شيئان مختلفان ، والمعرفةالوثيقة باحداهما ليستضرورية اطلاقا للاستمتاع العام بالاخرى » . ولكن على الناقد ان يتعلم « ان يقرأ ما بين السطور » .

وجيمز لا يقع ابدا في الخطأ الذى وقع فيه كثير من النقاد من بعده ، وهو محاولة استنباط حياة الكاتب من خلال عمله . انه لا يرمي الى مجرد الترجمة عندما « يقرأ السطور » وانما يرى الى مسائل اكثر اهمية بمراحل تكشف عنها حياة الكاتب ، مثل الاسلوب الذى من خلاله اختبر الحياة والناس ، والاشياء التي سلط عليها اهتماماته ، وتلك التي اشاح عنها بوجهه ، والمواقف التي تنبأ بها في رواياته وكيفية حلها . وعلى رأس هذه القائمة تقع قيمه الاخلاقية المستقاة من تجاربه . فالمطلوب من الناقد عملية تقترب من المنهج النفسي . ويؤكد هذا مقالات جيمز في نقد الروائيين التي تستند الى الملاحظة النفسية ، والاستنباط والاهتمام بالمعاني الخفية ، والعلاقات الانسانية ، والظروف المحيطة بها ، والدوافع المسلكية .

وجيمز في تأكيده لاهمية المشاعر والاحساسات عند الناقد يمكن اعتباره الى حد ما ناقدا رومانسيا تنصب اهتماماته على عملية الخلق عند الاديب ، مثله في ذلك مثل كوليردج الشاعر والناقد الانجليزى . وهناك شبه ملحوظ بين نظرة جيمز الى العمل الخلاق ونظرة كوليردج، فكلاهما يتعرف على عضوية العمل الحيوية التي تضفي عليه استقلالا مثل استقلال اى من الكائنات الحية . وفيما قاله جيمز عن شخوص روايته **صورة سيدة** (١٨٨١) **The Portrait of a Lady** دليل على استقلالها الذاتي ، ووجودها المنفصل عن وجود المؤلف . فيقول جيمز انه بينما كان يكتب روايته اخذت شخوصها تتعرف على انفراد وكأنها هي بدورها تبحث عن مؤلف آخر يطلق لها العنان . وكان انطباع جيمز اثناء عمله انها تقول له « لو انك اعطيتنا ثقتك فسنرشدك الى الطريق الذى يجب على البطلة ازابيل آرتشر ان تسلكه » . وفي مقدمته لرواية **السفراء** (١٩٠٣) The Ambassadors نصح جيمز قراءه الا ينتقصوا من قيمة « القوة الدافعة التي تولدها الرواية لنفسها » والتشبيه الذى يستخدمه جيمز ليوحي بالحياة التي تتخلل العمل الخلاق يبعث الى الاذهان ما قاله كوليردج ايضا عن الوحدة العضوية للقصيدة الشعرية . واليكم نص ما كتبه جيمز ، وهو الاقتباسات المشهورة في النقد الروائي :

(الرواية) كائن حي ووحدة مستمرة ، مثلها في ذلك مثل اى عضو حي ، وبقدر ما فيها من حياة سنجد ، كما اعتقد ، ان كل جزء من اجزائها يحتوى على بعض مما في اجزائها الاخرى (٥٠) .

وتؤدى هذه الفكرة الى وجه من اهم اوجه النقد عند جيمز ، وهو اهتمامه الملح بالشكل الفني وعلاقته بالموضوع . وفي تأكيد جيمز لاهمية الشكل ، الراجع الى تأثير الرواية الفرنسية والحركة الجمالية في نهاية القرن الماضي ، اسهامه الاساسي في النقد الروائي . وتتركز **مقدماته** حول قضية الشكل التي كان يعلم جيمز مدى تعقيدها وتركيبها . لقد كان يعي انها مبنية على تناقض لا يمكن حله . فهدف الرواية والشكل النهائي الذى يأخذه لا يتقابلان

---

(٥٠) "The Art of Fiction", 228

ولا يتواءمان كما يحدث للماء فى الوعاء ، والعلاقةبين الشكل والمضمون علاقــة مختلفة تماما عــن علاقة الوعاء والماء . ولم يحاول جيمز تبسيطالقضية ، بل حاول ان يعيها فى ابعادها المتعددة .

ولقــد لخص جيمز اهميــة « الشكــل »بالنسبة للرواية فى قوله « بدون الشكل تكون الرواية مجرد « بودنج مائع » . وهــذا ما وصفبه روائع روايات تولستوى ودوستويفسكـي . وبنى اعتراضه على روايات تولستوى لما اعتبرهافتقــارا الى الشكــل ، وان كان لم يسعــه ، وهو الناقد ذو البصيرة النفاذة ، ان يضفي عليهاثناء عظيما . فروايات تولستوى كما قال جيمز :

كتلة رائعه من الحياة . واقعة عظيمة ــ حدث عشوائيهائل . وحش فيد لموضوعه الكبير هو الحياة باجمعها (٥١) .

ان اعجاب جيمز بهذه الاعمال الرائعــة لاتنكر . لقــد وصفها بانها « بودنج » حقــا الا انه اعترف ان عبقرية الروائي الروسي جعلتهاطيبة المذاق . ومعذلك فجيمز يؤكد عيوبها وهي : « الافتقار الى التكوين ، وتحديهــا للاقتصــادوالشكل البنائي » (٥٢) . اما اساس اعجابــه بالرواية الفرنسيــة ، على الرغم من نفوره مــناخلاقياتها ، فهو اهتمامها بالشكل والوعي الفني الذين اتصف بهما الروائيون الفرنسيون .

وقد يبدو من تعليقــات جيمز على اعمالتولستوى ان نظرته الى الشكل فى الروايــة نظرة ضيقة تفصل بينه وبين المضمون . ولكننا اذا ماامعنا النظر فى نظرية جيمز فى الرواية وجــدنا وعيا كاملا بالوحــدة بينهمــا . فهو يشكو مــنالاعتقاد السائد بان الموضوع والشكل فى العمل الحي مختلفان ومتفرقان . ويحاول اقناعنــابان ذلك التمييز الخطير بين المضمون والشكــل في العمل الفني الرفيع يجب القضاء عليه . ويبنايضا انه من المستحيل وضع حد فاصل بينهما وتحليل التكامل الذى هو جوهر العمــل . وقداثنى جيمز على مدام بوفارى Mme Bovary لفلوبير لهذا التواؤم الكامل بين الشكل والمضون ،فقال :

والشكل فى حد ذاته لا يقل باى حال من الاحوال منجوهر الموضوع او الفكرة في اثارة الاهتمام وفي الفاعلية . ومع ذلك فهو مطابق للمضمون لا يمكن فصله عنه الى درجةاننا لا نستطيع ان نستخلص الشكل في اية لحظه على انفراد (٥٣) .

وهذه الوحدة بين الشكل والمضمون هىاحد متطلبات جيمز الاساسيةفىالرواية،فالشكل وحده ، كما يقول « يأخذ المضمون ويمسك بــهويحفظه » (٥٤) .

وبالاضافة الى تحليل جيمز الدقيق لاوجهالرواية الفنية المختلفة ولانجذابه نحو المشاكل الشكليــة المتعلقــة « بوجهة النظر » والاداةالمصطلح عليها « الوعي المركزى » المبنيــة علــى

---

(٥١) "The future of The Novel" Essays on the Art of Fiction, ed. Leon Edel (1956) 228

(٥٢) Selected Letters, 171.

(٥٣) Notes on Novelists, 80.

(٥٤) Selected letters. 171.

تصوير الفعل من خلال وعي شخص ذي حس مرهف وذهن متقد قريب من المؤلف نفسه ، بالاضافة الى كل هذا فان اسهام جيمز في تطور النقد الروائي يظهر ايضا في مفهومه العضوي لكل عمل خلاق ، ذلك المفهوم الذى على اساسه رفض الاشتراك في جدال النقاد حول ما سمى « برواية الحدث » « ورواية الشخوص » . فجميع عناصر الرواية كما رآها جيمز متداخلة ومندمجة ، ومهمة الناقد تقييم الشكل الذى هو جماع هذه العناصر . ويقول جيمز في هذا الشأن :

يكثر الناس الحديث عن هذه الاشياء (الوصف ــ الحوار ــ الحدث ــ الشخوص) كما لو كان كل منها يتميز عن الاخر بشكل قاطع ، بدلا من ان يذوب بعضها في بعض في كل لقطة من الانفاس ، وتشكل مجتمعة في علاقاتها المتداخلة وحدة شاملة معبرة . انا لا استطيع ان اتصور شكلا مكونا من سلسلة من الكتل ، او ان تكون هنالك في اية رواية تستحق الدراسة على الاطلاق فقرة وصفية لا يكون السرد من مهمنها ايضا ، او فقرة من الحوار لا ترمى في نفس الوقت الى الوصف ، او لمسة من الحقيقة ايا كانت لا تلعب دورا في الحدث ، او حدثا يستقي الاهتمام من اى مصدر غير المصدر العام لنجاح الرواية ، وهو قدرتها التصويرية . فما هي الشخصية اذا لم تكن تحديدا للحدث ؟ وما هو الحدث اذا لم يكن تحديدا للشخصية ؟ واين هي الصورة او الرواية التي لا تتناول الشخصية (٥٥) .

بهذا يؤكد جيمز طبيعة الرواية العضوية ووحدتها . ولكن بما ان الوحدة تتصف بالعضوية فانها وحدة مبنية على التعدد والاختلاف . وجيمز يعلم جيدا ان هناك تناقضا في محاولة احتواء الحياة التي لا شكل لها في اطار الرواية المصطنع الذى لا بد وان يكون له شكل ومجرد « فكرة تثبيت » (تلك الكلمة التي يرددها جيمز مرارا في **مقدماته**) الحياة هي في حد ذاتها تناقض للحياة . وعندما يأخذ جيمز في ادلاء النصيحة الى الكاتب الروائي قائلا انه يجب ان يبدأ من نقطة تجارية ، يجد نفسه يتحدث بشكل عام دون تحديد ، ويعترف بان نصائحه لن تفيد الروائي كثيرا . ويقول :

فاى نوع من التجارب نعني ؟ واين تبدا واين تنتهى ؟ ان التجربة لا حدود لها ولا هي مكتملة ابدا . انها نوع من الحساسية الهائلة تشبه بيت عنكبوت ضخم بني من ادق الخيوط الحريرية المعلقة في غرفة الوعي ، وتمسك في نسجيها بكل ذرة تطير على اجنحة الهواء . انها مناخ العقل : وعندما يكون خياليا ، بل عندما يكون عقل عبقرى ، فانه يحتفظ باوهن ما يوحي بالحياة ، ويحول نبضات الهواء نفسها الى رؤى (٥٦) .

ويعرف جيمز مشكلة الروائي بانها مشكلة الاختيار من تجارب الحياة الفنية وتركيزها وتشكيلها **لايهام القارىء بالحياة** . فعليه ان يختار ، كما يقول ، من فوضى الحياة « العديمة الشكل والنظام » ، **من الواقع « العديم الهدف »** بحيث يشكل اختياره هذا معنى ويكشف عن قيم . وبذلك فالرواية في نهاية الامر تتضمن ــ حتما ــ نوعا من الخداع . ولكن جيمز اصر على ان يكون الخداع مكيفا ومشكلا ومصنعا بمهارة المحترف التي تتطلب المعالجة الدقيقة الواعية . فالحياة ، كما قال جيمز ، مستحيلة التحديد لا تعرف اين تنتهي ، اما الرواية فيجب ان تعلم حدودها . وعلى الرغم من ان جيمز يؤكد **اهمية الاختيار والتركيز والاقتصاد ، فانه** يصر ايضا على ان الهدف هو جعل الرواية « ممثلة للحياة شاملة عليها » ، ولكن دون ان تخلف

---

(٥٥) "The Art of Fiction"

(٥٦) نفس المرجع

انطباعا بالتصنع والتكلف . وقد شرح جيمز هذه النقطة المنطوية على التناقض بين الفن والحياة في قـوله :

فبقدر ما نرى الحياة بدون تنظيم جديد من خلال مـا تقدمه لنا الرواية يكون شعورهـا باننا نلمس الحقيقة . وبقدر ما نرى الحياة وقد اتخذت لنفسها نظاما جديدا ، يكون احساسنا باننا امام بديل للحياة ، حل وسط ، وتقليد لها . (٥٧)

وبما ان مشكلة الاختيار هي أولى المشاكل التي يواجهها الروائي ، ولا احد يستطيع حلهـا الا هو ، فان جيمز يعترف باستحالة ان يشترط عليه تناول موضوعـات دون اخرى . واذا كنا نحترم الروائي فعلينا ان نمنحه حريته في الاختيار خاصة بعد ان عانى الكثير من النظرة المتزمتة الى كل من الحياة والادب . وفي رد جيمز على اشارة والتر بيزانت الى الروايـة لانجليزيـة وهدفهـا الاخلاقي الواعي ، هجـوم على افتقارها الـى الشجاعة الادبية عند ما قال :

لا بد وان الروائي الانجليزي العادي قد استرعى نظر الناس بافتقاره الى الشجاعة الادبية ، وتغوره من مواجهة الصعوبات التي تتارجح حول معالجة الواقع – انه يميل الى الجبن الى اقصى الحدود ... ويتميز عمله ، في اغلب الاحيان ، بالصمت الحريص فيما يتعلق بمواضيع بالذات... ان جوهر الطاقة الاخلاقية هو مسح الحياة باجمعها. (٥٨)

ويلخص جيمز موقفه كناقد بقوله انـــالا نحاسب الروائي على موضوعه ، وانما نحاسبه على معالجته للموضوع . فيقول :

يجب ان نعطي الروائي حقـه في موضوعه ، في فكرته وإما نقدنا فينطبق فقط على ما يصنعه من مادته . (٥٩)

واي فشل ينسب الى العمل الادبي هـو فشل في التنفيذ فقط حيث يظهر من خلاله ضعف العمل الادبي أو قوته .

ويبدو مما سبق ان الرواية في نظر جيمز اقل الاشكال الادبية جمودا . لقد اشار الـــى « روعة هذا الشكل » الذي يمثل « قليلا جدا من القيود وعديدا من الامكانيات » . وفي استمرار تاكيده لحرية الشكل الروائي تحدث عن شرط واحد فقط ، كما هو واضح من الاقتباس التالي :

وبالمقارنة فان الفنون الاخرى تبدو مقيدة معاقة ، والظروف التي تعمل من تحتها جامدة ومحددة . والشرط الوحيد الذي اتصور انه يمكن وضعه بالنسبة لكتابة الرواية هو ان تكون صادقة . ان هذه الحرية ميزة عظيمة رائعة ... الحياة كلها (مخاطبا الروائي) لك ... لا تصغ الى اولئك الذين يودون سجنك داخل بعض زوايا الحياة ، قائلين ان الفن لا يعيش الا فيها ... ليس هناك طابع للحياة ، ولا اساوب للنظر اليها او للشعور بها ، الا ويمكن ان يجد له مكانا في خطة الاديب الروائي . (٦٠)

وبهذا فالناقد الذي رمى – فيما يبدو – الى بناء نظرية نقدية في الرواية ، لم يطوقها بأية شروط الا شرط الصدق . انه لم يرفع من شأن الرواية فحسب بتناوله لها في اسهاب وجدية لم يسبق لهما مثل ، بل صورها وفتح لها المجال لتعانق الحياة باسرها . وتصورها في انسب شكل

---

(٥٧) نفس المرجع

(٥٨) نفس المرجع

(٥٩) نفس المرجع

(٦٠) نفس المرجع

يطابق رؤيا الفنان . وهو في هذا يقارب روائياناقدا اخر هو د.هـ. لورانس ، يختلف تماما عن جيمز ، وانما يتفق معــه في تاكيـــده ضرورةاستمتاع الروائي بالحرية الكاملة ليحقق رؤياه بشرط واحد ، وهو ان يكون صادقا ومخلصا فيهذه الرؤيا بما يرضي ضميره الفني . وقد قيم **لورانس** الرواية في مقالة « الاخلاقيات والرواية »(١٩٢٥) (Morality & The Novel) واعتبرها ارقى وسيلة لتصوير الحقيقة ، وكانيعني بذلك الحقيقة التي تنتمي الى سلوكالحياة . كما الح على انه ليست هناك قواعد لبناء الرواية، وان القواعديمكنتطبيقها فقطعلىالرواياتالتي هي مجرد نسخمن روايات اخرى لا اصالة فيها . وفيما عدا ذلك ، فالرواية الحية التي تصـــور « الانسان الحي » لا تحكمها الا الحياة . لقـدتقدم لورانس كثيرا عن جيمز فيما يتعلق بتحرر الروائي في كتابه ، وان كان هناك صدى للورانسعن كيفية كتابة الرواية حين يقول جيمز : يجب ان تكتبها كما تستطيع » .

ومهما نقل عن الثورة التي حققها جيمز فيالنقدالروائي فلننكون مبالغين . فغالبية المبادىء التي نستند اليها في النقد الروائي الحديث والتياغنته بالمصطلحات المعروفة اليوم هي من آثــار جيمز . انه هو الذى نبهنا الى المعنى الشامــلالموحد في الرواية ، وهو الذى كشف لنا عــن الوحدة العضوية بين اجزاء الرواية وعناصرها ،وهو الذى عرف الدور الذى تلعبه الاخلاقيات بالمعنى العريض في الرواية ، وليس بالمعنى الضيقالمبنى على السلوك الاجتماعي المتفق عليه ، وهو الذى اشار الى عامل الخداع في الرواية ، وفينفس الوقت أكد جوهر الصدق فيها . وفوق كل هذا ، فجيمز هو اول ناقد انجليــزى بحث فياسهاب المسائلالجمالية والفنية في الرواية . ومع ذلك فقد انجز كل هــذا دون اللجوء الىشروطمسبقة . وفيما قاله ليون اديل Leon Edel الناقد المشهور بابحاثه عــن جيمز وترجمتــهلحياته ، اشارة الى عدم مذهبية الاديب والناقد الكبير :

ليس هناك كاتب حجة اقل مذهبية من جيمز . انهيتحدث الينا بفصاحة حتى اليوم ... معرفا بنفسه ، وبذلك الفن الذى احترفه بالاخلاص . (٦١)

ومنذ وقت بعيد مضى قال برسي لابوكالناقد الروائي المعروف الذى تتبع خطى جيمز في نقد الرواية ، قال انه الناقد الحقيقي الوحيد فيفن الرواية .

وكان جيمز مثلا للاديب الذى وهب حياتهلفنه وعاش ليصور في رواياته قيما انسانيــة ، ليمتد بالحياة ويتعمق فيها حتى تصبح دقيقة فيوعيها وغنية في مسئوليتها . اما النقد الروائي بالنسـبة اليه فهو اداة ترمى الى تفهم ذلك النوعمن الادب الذى انتجه . ومن الطبيعي ان تكون الاداة في نفس مستوى رقى الادب ، ما دامكلاهماوليد نفس العقل والروح . ان النقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل الخلاق ، بل يصح انقول انهما وجها عملة واحدة ، ومظهران متكاملان لعبقرية جيمز الابداعية التي تركت تراثا فيالنقدالروائي لا يقل في كثير عما تركتهفي الادبالروائي . وبانجازات جيمز في النقد بدا الطريق امام الناقدالروائي المحترف من بعده اكثر وضوحا ، وانتقل النقد الروائي الى مرحلة جديدة تتميز بالثقــةوالتقييم المتزن .

---

(٦١) Introduction', The House of Fiction.

تكنولوجيا العصر والمجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين

صدق الله العظيم

للدكتور : مصطفى كمال محمد

فما من شك أن عقل الانسان العربي يحمل فى تقدمه سمات ماضية ، فالحضارة العربية سلسلة متعاقبة لتطور هذا العقل العربي وكشفه عن أسرار هذا الكوكب الذى يعيش فوقه والكواكب المحيطة به ، وفي الكشف عن مختلف القوانين الفيزيائية والكيميائية والرياضية والطبيعية وتذليلها لغايته ، وأصبح هذا العقل المستنير يحمل شعلة الحضارة من عصر الى عصر يليه. فعبقرية الحضارة العربية لا تقف عند حدود العصور الوسطى ، بل تتعداه الى العصور القديمة حيث قامت وازدهرت حضارات مصر وبابل وآشور . وفضل هذه الحضارة على العالم والذى لازال يدين لها بالشكر والعرفان . فالعرب أمة علوم واختراعات ، وأمة أدب وشعر، وهم الذين اسسوا الاسس الاولى فى شتى الوان العلم والمعرفة. ان جابر بن حيان مثلا هو الرائد الاول في ميدان البحث العلمي التجريبى ، والكندى اول من اثبت كروية السطوح المائية ، والادريسى الذى اكتشف

منابع النيل والاسطرلاب ــ ثم ابـن سـينا وبحوثه العظيمة فى المجرات وتكوين الجبال والمعادن ... ثم ابن يونس الـذى اختـرع البندول ... وكذلك الرازى وكشـوفاتـه الطبية العديدة ... ولا نستطيع ان نتجاهل اسهام كل من ابن الهيثم والبيرونى وابـن النفيس والبوزجانى وابن رشد والجاحظ وابن البيطار وغيرهم فى مجال العلوم والمعرفة كالجبر والهندسة والفلك والطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والمعادن وغيرها .. كما ان القيم الاسلامية لا تتعارض مع العلم ، بل هي روح العلم نفسه ، والتقدم التكنولوجي طالما يستهدف فى النهايـة خـير الانسانية وسعادة البشر .

لا جدال فى ان اقامة مجتمع الرفاهية هو الهدف الأسمى الذى تسعى اليه كافة الدول المعاصرة، وهو المعيار الذى يقاس به مستوى تقدم الشعوب . فمجتمع الرفاهية هو المجتمع الذى يتحقق فيه اكبر قـدر مـن الرفاهية الكلية .. اى اكبر قدر من الاشباع من المنافع والسعادة لمجموع افراده .

فالدول النامية تخوض الآن على الصعيدين الوطني والدولى حربا ضد الجهـل والفقـر والمرض وسيطرة الدول الاقوى عليها . فالعالم العربي فى اشد الاحتياج الـى استراتيجيـة علمية مدروسة لتنميـة مـوارده الطبيعيـة والبشرية . لأن الدولة الحديثة التـى نريـد بناءهـا تعتمد بالدرجة الاولى على الانسان العربى صاحب الحضارة العريقة ، وحامل القيم الشريفة ؛ وهذا يتطلب تحقيق تغيرات جذرية فى انماط السلوك الاجتماعي ومحاولة احداث تغيير فى تركيب وخصـائص البيئـة المحيطة بالانسان العربى ...

فان العلم والمجتمع يكاد يكمل كل منهما الآخر . فبقدر حاجة المجتمع الى النتاج العلمى لتنميته وازدهاره ، فان العلم فى حاجة الـى التقبل الاجتماعي لتدعيمه وتثبيته .

من هنا جاء اهتمامي بتناول العلاقة بين التقدم الحضارى فى مجالات العلم والتكنولوجيا وبين التغير الاجتماعى الذى يمس نظم المجتمع وقيمـه الاجتماعية . وان درجـة النمـو الاقتصادى تتوقف على درجة نقل واستيعاب التكنولوجيا الراقيـة الموجـودة في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

البلاد المتقدمـة تعيش فى نهضة علميـة وثورات تكنولوجية مستمرة وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر . كذلك فان القدر الاكبر من النمو الاقتصادى في هذه البلاد يدين الى التقدم العلمى والتكنولوجى الذى تحقق فى هذه البلاد .

فلكى نعيش هذا العصر ونصل الى سنة ٢٠٠٠ بسلام ، فاننا يجب أن نـدرك تمامـا اهمية التكنولوجيا المعاصرة وتطبيقاتها فى شتى المجالات كقوة ثقافية ديناميكية عصرية ، بمعنى ان رصيد اى دولة من رجال العلم والتكنولوجيا بمعاملهم او اجهزتهم ومعداتهم ، هو الذى ينقل المعاصرة اليها . والتكنولوجيا فى هـذا البحث لا يقصد بها المعرفة بمعناهـا العـام وباختلاف فروعها بل اعنى هنا المعارف العلمية التي قد تتنوع فى مجالاتها التخصصية . ولكن، لا ننكر ايضا انها تشترك وترتكز على المنهج العلمي السليم والذى يعتمد بصفة رئيسية على التحقيق الموضوعي والتجريب التطبيقى ومدى الانتفاع منها ومدى الحدود التي تتيح استخدامه . بهـذا البحـث اود أن أوضـح مسـاهمة تكنولوجيا العصر فى المجـال الطبـي وكيفية الاستفادة منها فى بناء العالم العربى سنة ٢٠٠٠ ، وكيفية التركيز على خلق وتنمية أثمن ما نعتز به ، وهو الطاقة البشرية القادرة على الاسهام بالعلم فى صنع المستقبل . هنـا ايضا لا اطمع الى جعل الانسان العربي خالدا؛ ولكن كل ما اريده هو اعطاء اشباههم ولادة بدون حادث، ونموا عاديا ، وحياة بدون عيوب وامراض وآلام . وان طريق العلم يؤدى دائما فى نهايته الى تحقيق الغايات المرجوة وتوفير

السعادة المنشودة لبنى الانسان العربي فى كل زمان ومكان .

وواجب الانسان العربـي ان يتعلـم وان يسعى الى مجالس العلمـاء ليتفقـه ويتعظ بالعلم النافع الموصل الى رضوان الله تعالى ، لان الله عز وجل يسائل الناس عن تقصيرهم في طلب العلم ومجالسة العلماء الصالحين .

وان خطة عملنا لا بد ان تستهدف الوصول الى تكنولوجيا عربية عصريـة ، وان نلتـزم بشعار (العلم للمجتمع) مع الحرص الشديد على توفير كل اسباب الدعم والنجاح للبحث العلمى . فمن جانب يرى أيضا ان يتركز عمل العلماء فى المجال الطبي على تحسين الاداء من خلال علاج المرضى والوقايـة منـه بمتابعـة واستخدام احدث الاساليب التي تكتشف في الدول المتقدمة . كما يرى ان يخصص البحث العلمى والتكنولوجي جهـدا خاصـا موجهـا لمساندة صناعة الدواء المحلية الوطنية ، بحيث يكون ذلك من خلال :

– نقل التكنولوجيا الخاصـة بانتـاج الكيماويـات الدوائيـة التى تصنـع منهـا المستحضرات والعقاقير الطبية اقتباسا وتقليدا .

– استكشاف مصـادر جـديدة للدواء فى النباتات الاقليمية .

– التركيز على الرعـاية الطبيـة وابحاث القضاء على الامـراض الوبائية والمسـتوطنة واعتبار مشروع القضاء على البلهارسيا مشروعا قوميا عربيا يشترك فيه علماء الداخل والخارج

– استخدام الاجهـزة الحـديثة والعقول الالكترونية فى المجالات الطبية بشتى فروعها .

وبالتالى سوف اتعرض هنا في هذا المقال لبعـض التطبيقـات الهـامة والابتـكارات والخدمات الفعلية التى تقوم بها تكنولوجيـا العصر فى المجال الطبى ، ومدى الاستفادة منها للعالم العربى سنة ٢٠٠٠ .

✻ تكنولوجيا انتاج العناصر الالكتـرونية والمغناطيسية وعلم الانفورماتيك فى المجـال الطبى : اشار العالم لوكلانش رئيس اكاديمية الطب بفرنسا الى الاهمية المتزايدة التى يحتلها الالكترونيك والانفورماتيك فى مجال العيـادة الطبية . فمنذ فترة قريبة جدا كان العـلماء يعتقدون ان مخ الانسان يتكون من ١٢ – ١٤ مليار نيرون ، متحدة مع بعضها بأعجب الطرق ومتصلة بخيوط عصبية مع اعضاء وانسـجة الجسم . كما يوجد نيرون الجسم الحى عادة فى حالتين اما هادئة واما مثارة . ويقـول الخبراء ان وظيفتى النـيرون هـاتين يمكن مقارنتهما ، فى التصوير المبسـط بعنصر راديو الكترونى ذى وضعين يعمل بنظام « الوصـل والقطع » ويمكن أن يكون ذلك صماما أو مرحلا او ترانزستورا . ومن النيرونات « تبنى » الاعصاب التى تعتبر بالنسبة للجسم بمثـابة الاسلاك ، او خطوط المواصلات بين الجسـم ككل وبين بعض الاجهزة او القطاعات عـلى حدة . وبعبارة اخرى فان الاسلاك – الاعصاب تربط الجسم بالمحيط الخارجى : فنجد مثلا المخيخ وحده وهو غرفة التحكم في الجهاز العصبى المركزى – يضم حوالى ١٠٠ مليـار خلية . والخلية هنا ليست مجرد « نواة الحياة » بل مؤسسة متعددة الفروع ذات قطاعات عمل واقسام مختلفة ، ونظام للتغذية بالطاقة ووسائل نقل . ففى الجسم الحى يجرى باستمرار تنسيق العمل بين مختـلف الاجهزة ، وتتجمع المعلومات عن حالة النظام وعن ظروف الوسط الخارجى ، ويحافظ على درجة حرارة ثابتة وضغط ثابت . من هـذا المنطـلق وعلى اسس علميـة قـوية توغلت تكنولوجيا العصر وعلم السيبرنيتيكا وفروعها بثقة فى المجال الطبى لخدمة الانسان البشرى واصبحت انتصاراتها فى هذا المجال أكثر اهمية وبذلك نجد أن المجال الطبى استفاد ، وسوف

يستفيد كثيرا ، من وجود نظام للمعلومات ـ نظام يمكن ان يجمع المعلومات ، ويحلل المواد رياضيا ، ويجد بسرعة الحالات المرضية المماثلة وستكون هذه بمثابة « ذاكرة » طبية ضخمة . من هذه الحالة يكون بامكان اى طبيب من أى مكان ومن أى دولة من بلدان العالم ان يتلقى الاستشارة من هذه « الذاكرة » الطبية الموجودة .

وبذلك دخلت السيبرنيتيكا الآن غرفة العمليات الجراحية وهى تشارك بشكل مباشر فى العمليات وتتحكم فى الوظائف الحيوية للاجسام ، فتتابع عمل القلب ، وتضبط ضغط الدم فى الشرايين وتراقب عمق التخدير .

من هنا يأتى تعريف علم السيبرنيتيكا : هو علم يدرس طرق ادارة المجتمع البشرى ، وهى كلمة اغريقية قديمة « سيبرنيتيس » وتعنى « ماسك الدفة » أو « الربان » بمعنى القائد . حيث كان علم قيادة السفن فى اليونان القديمة يسمى « سيبرنيتيكا » اى علم التحكم والاتصال فى الاجسام الحية والآلات . وبالتالى نرى أن العناصر الهامة فى علم السيبرنيتيكا تتناول العناصر الآتية :

* نظرية المعلومات :

حيث ان كلمة معلومات Information لاتينية الاصل وكان معناها فى البداية تصور ثم تطورات الى أخبار اى نقل الاخبار او نقل معلومة ما . وقد وجد العلماء فى السنوات الاخيرة أن المفهوم العام لكلمة « معلومات » مطاط للغاية فحددوا معناها على ان يصبح « معيار التحدد فى الخبر او المعلومة . وبذلك تعتبر مفهوما علميا جديدا يعطى للباحثين منهجا جديدا ، نظريا ـ اعلاميا ، يمكن بواسطته التغلغل فى كثير من العلوم التى تدرس الطبيعة الحية وغير الحية ، والمجتمع والادراك .

* الأوتوماتون

جهاز يمثل نظام آليات وتركيبات (الكترونية كهربائية ، ضغط الهواء ، هيدروليكية) تجرى عمليات استقبال وتحويل ونقل واستخدام الطاقة والمادة بطريقة ميكانيكية اوتوماتيكية اى بدون مشاركة الانسان .

* المنطق الرياضى

تأسس هذا العلم بفضل المفكر الاغريقى ارسطو ، الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ويرجع الفضل أيضا الى فلاسفة العصور الوسطى مثل عالم اللاهوت والكيميائى رايموند لوليا ، والعالم الرياضى والفيلسوف الالمانى تفريد ولهلم ليبنتس وهو مؤسس أيضا المنطق الرياضى . وهو الذى حاول فى القرن السابع عشر ان يؤسس اول حسابات منطقية حسابية وجبرية حرفية ، والعالم الرياضى جورج بول وابو الكتابة المعروف فوينتش صاحب رواية « الذبابة » . وقد قام أرسطو بتحليل التفكير الانسانى واشكاله مثل المفاهيم والحكم والاستنتاج العقلى . وبالتالى علم المنطق هو علم الاستنتاجات السليمة الذى يتناول أشكال وقوانين التفكير . وبدأ هذا العلم يتوغل بسرعة الى عصرنا هذا فى شتى المجالات ويعمل فى كل مكان وكل شىء تعمل فيه الحاسبات الالكترونية . فكل مسألة تحلها الآلات انما تحلها على أساس قوانين المنطق الرياضى الصارمة .

وينبغى هنا ان نوضح كيفية تحويل الاحكام المنطقية الى صيغ رياضية . فنجد فى العبارات البسيطة التى يستخدمها الانسان انها ترتبط بعضها بواسطة احرف مثل : لا ـ أو ـ و . وهذه الاحرف الثلاثة تستطيع ان تفعل فى المنطق كل شىء . ولقد اتفق العلماء (علماء المنطق) على علامات معينة للدلالة على هذه الاحرف ـ مثلما نفعل فى علم الرياضيات فنستخدم الاشارات الرياضية الآتية (+) ،

(ـ) ، (×) ، (÷) وذلك على أن تحل محل الكلمات المستخدمة مثل « زائد » ، « ناقص » ، « فى » ، « على » على الترتيب. فقد اتفق بالفعل على استخدام الرموز الآتية ولاستخدامها فى علم المنطق الرياضي فمثلا الرمز « الاشارة » الموجبة (+) للدلالة على كلمة أو والرمز أى علامة الضرب فى (×) للدلالة على كلمة (و) ومع استخدام بعض الاسس البسيطة فى علم الجبر نستطيع ان نصل الى حل بعض المسائل المنطقية المعقدة . وتستطيع الآلة الاوتوماتيكية ان تقوم بالشيء نفسه .

* الالغوريثمات

علم حيوى ضرورى لحل مختلف أنواع المسائل ويتضح لنا ان الرياضة في الطب ، وأخص علم الوراثة ، لا نستطيع الاستغناء عن تكنولوجيتها . ان العملية التكنولوجية لحل أعقد المسائل تتكون من عدد كبير من العمليات البسيطة ، من الخطوات البسيطة الاولية . ولقد اكتسبت كلمة الفوريثم أى القاعدة معنى واسعا للغاية فى الوقت الحالى. فهو دليل لحل المسائل . ومن الممكن أن تصوغه فى شكل أوامر قصيرة ينبغى تنفيذها بدقة ودون أى اعتراض ، وعندئذ يكون الالغوريثم مرشدا لنا لجميع حل المسائل المعقدة .

ويقول الاخصائيون انه فى الوقت الحالى الذى تتطور فيه الرياضة الآلية بسرعة وتصبح الحاسبات الالكترونية واقعا ملموسا . فان الحاجة تصبح أكثر الحاحا لايجاد الالغوريثم الذى يساعد على حل المسائل المعقدة .

الهدف الاساسى من علم السيبرنيتيكا والذى يسعى علماء الرياضة والفيزياء والهندسة والطب من مختلف بلدان العالم اليه هو الوصول الى اقصى قدر من اتمته عمليات التحكم فى مختلف مجالات النشاط الانسانى وزيادة انتاجية العمل . ومن أجل ذلك لابد من الدراسة العميقة والشاملة لمجالات التحكم والتوصل الى القوانين التى تخضع لها عمليات التحكم . وفى كل مكان نجد ان تنفيذ عملية التحكم مرتبطة بنقل وتجميع وحفظ معالجة المعلومات التى تحدد الشيء المتحكم فيه ومسار العملية والظروف الخارجية وبرنامج العمل . وبالطبع فمن الممكن ان تكون ناقلات المعلومات فى النظم المختلفة ، مختلفة أيضا من حيث طبيعتها : فقد تكون اشارات صوتية او ضوئية او ميكانيكية او كهربائية او كيميائية أو وثائق او افلاما تلفزيونية ، ولذلك ، ومن المهم فى المجال الطبى الحديث انشاء أجهزة الكترونية لجمع المعلومات عن العمليات الجارية فى الجسم . لهذا الغرض اخترعت وابتكرت اجهزة مدهشة ؛ حساسة للغاية ودقيقة جدا ويكفى ان نذكر منها راسمات القلب الكهربائية التى تدرس نشاط القلب ، وراسمات الدماغ الكهربائية ، والتى تغوص فى اسرار نشاط الدماغ ، ورسمات العضلات الكهربائية والتى تسجل عمل العضلات ، والاقراص الدقيقة التى هى عبارة عن مجسات لاسلكية لدراسة المعدة ,والامعاء ، والمجهر الالكترونى بأنواعه والمجهر التلفزيونى والتلفزيون الملون في الطب وما الى ذلك من أنواع مختلفة متطورة للغاية . لذلك يعتبر علم الالكترونيات والانفورماتيك من الفروع الهامة والاساسية من فروع العلم والتكنولوجيا . وتبين هذه الفروع مدى أهمية علم الكهرباء وتطبيقها فى المجال الطبى ـ ابتداء من السمكة التى ترسل تيارا كهربائيا حتى آلة تقوية القلب. يشمل علم الالكترونيات اسس وتصميم وتركيب الاجهزة الكهربائية المفرغة ، والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات مثل الجرمانيوم والسيليكون .

فالاجهزة الكهربائية المفرغة من الهواء واشباه الموصلات تستخدم بنجاح في الاجهزة الاوتوماتيكية واللاسلكية والتلفزيونية والتى تشترك فى رحلات الفضاء ولخدمة الطب الفضائى ،وأجهزة الراديو الالكترونية الحديثة

ــ وفى الآلات الالكترونيــة الحاسبية واجهزة الطب بفروعه والبيولوجيــا والفيــزياء وفى فروع هندســة القياس المختلفة وغــيرها . فالمضخمات والمولدات والمقــومات ومرســمات التذبذبات واجهزة القياس وغيرها من الاجهزة الالكترونية اصبحت سلاحا فعالا للبحــوث الطبية ولتنظيم العمليات الجراحية واجهزتها. وهكذا فان علم الالكترونيات زودنا بامكانيات غير محــددة مثــل الترانزيســتورات بشتى انواعها . حيث أن الترانزيستورات تشغل مكانا هاما بين أجهزة أشباه الموصلات الكهربائية التى تستخدم لتقويم وتضخيم وتوليد وتغيير تردد التيارات الكهربائية المختلفة ، وكــذلك لرســم تذبــذبات الظــواهر الكهربائية وغير الكهربائية . وتكون دوائر الترانزســتورات عادة دائرتان : دائرة الدخول او التحكم ودائرة الخروج او الدائرة المتحكم فيها . وفى دائرة للخروج يوجد الحمل . وتصنف الترانزيستورات حسب طريقة التصنيع والمــواد المســتعملة وخصائصها للعمل ، ولها ثلاثة مخــارج أو اكثر ، وتبعا لعدد المخارج تسمى بصمامات اشباه الموصلات الثلاثية أو الرباعية وهكذا .

وفى اجهزة اشــباه الموصلات الحديثة تستخدم بكثرة اشــباه الموصــلات الآتيــة : جرمانيوم ، سيليكون ، سيلينيوم وجاليــوم زرنيخي وغيرها من مواد اشــباه الموصلات . واشــباه الموصلات هى المــواد التى تحتــل موصلتها الكهربائية النوعية أى « المقدار الذى يميــز التوصيلة الكهربائية للمــادة » مكانــا متوســطا بين الموصلات والعوازل . ويجب هنا ان نميــز بين التعبــيرين « التوصــيلية الكهربائية » ، و « الموصلية الكهربائية النوعية » فالتوصــيلية الكهربائية تعرف بخاصية تمرير المــادة للتيــار ، فنجد الفــرق واضــحا بين التعبيرين .

وتســتخدم الترانزســتورات الآن بنجاح فى المضخات ، اجهزة الاستقبال ، اجهــزة الارسال ، المولدات ، المستقبلات التلفزيونية، اجهزة القياس ، الدوائر النبضية ــ الآلات الالكترونية الحاســبة كما توضــح أيضا في اجهزة خاصة داخل كبسولة يبتلعها المريض فترســل اشارات عن حالة المعدة والامعاء . كما تفضــل اجهــزة اشباه الموصلات عــن الصمامات الالكترونية بالميزات العامة التالية:

ــ الوزن الخفيف والمقاييس الصغيرة .

ــ انعدام اســتهلاك الطاقة على تسخين الفتيلة المســتخدمة فى الصمام .

ــ طول مدة الخدمة (يبلغ عشرة آلاف ساعة)

ــ لاجهــزة اشباه الموصــلات المختلفــة في المضخمات ، أجهزة الاســتقبال ، أجهــزة كفاءة عالية . اذ أن فقد الطاقة فى نفس الاجهزة قليل .

ــ متانة ميكانيكية عاليــة (تتحمــل الاهتزاز والصدمات والمؤثــرات الميكانيكيــة الاخرى)

ــ تحويل الصورة الضوئية الى تيار كهربائي ذى شكل خاص .

ــ توجد دائما تغذية مرتــدة داخليــة . والسبب هو وجود اتصال كهربائى مباشر بين دائرتى الخروج والدخول .

ــ تعمل بجهد تغذية منخفض .

* مصنع لادوات تقوية القلب

توجد أدوات تقوية القلب منذ خمســة عشر عاما ، وقد عرفت تحسينات متوالية مع تطور فنون تكنولوجية صنع ادوات تقويــة القلب . حيث ان هذه الادوات تعمل بشكل نبضات كهربائية فوق عضلة القلب مما يجبرها على متابعة عملها بانتظام .

فى القرن التاسع عشر ، درس ايرلنديان وهما روبرت ادامس (١٧٩١ ـ ١٨٧٥) ووليام ستوكس (١٨٠٤ ـ ١٨٧٨) المرض الذى حمل بعد ذلك اسم ستوك ـ أدامس ، وهو مرض يجمع بين بطء النبض والاغماء . وفي عام ١٩٥٢ ، خطرت للعالم الدكتور بول زول فكرة اعادة تحريك قلب متوقف بواسطة شريطين كهربائيين فوق صدر المرض .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، تخيل العالم فورمان تدريب القلب بواسطة سابر . وابتداء من هذه الابحاث التجريبية السابقة واعتمادا على نتائجها ، تناولت ادوات تقوية القلب انتاج تيار كهربائى بواسطة البطاريات . ولقد ساعد تطور الالكترونيك وتطور علم السيبرنيتيك فى ظهور هذه الآلات الالكترونية والترانزيستورات فى صنع ادوات تقوية القلب وسهولة انتشارها .

من المعروف ان كل عضلة لها المقدرة على ان تنقبض ، بالتالى تنقبض عضلة القلب، كما تسبق الانقباضات مظاهر كهربائية تولد وتنشىء تغييرا فى القوة . اما الرسومات والتذبذبات الذى يحصل عليها عند التسجيل فيمثل التسجيل رسم انقباض عضلة القلب وذلك نتيجة مرور التيار الكهربائى . وفي افضل الحالات يقدم موجات متتابعة ومتشابكة تظهر باستمرار . وفى كل من الاجزاء ، تجيب موجة موازية لانقباض اذين القلب وموجة اخرى صادرة من بطين القلب تصادف عودة الاستقطاب قمة اخرى وبعد ذلك تبدأ الدورة من جديد .

تتالف أدوات تقوية القلب خاصة من علبة دائرية ذات سمك ضئيل للغاية ، كما يكفى حجمها لاحتواء البطاريات ، كما تحتوى على سابر بشكل شريط . اصبح السابر الآن وحيدا ، وهو يمثل الشريط الكهربائى الذى يجرى ادخاله فى الوريد الايمن او الايسر للراس ، ويصل بدقة حتى البطين الايمن .

يجرى التحقق من موقع الشريط كى لا يحدث انقباضات فى حاجز القلب ، وهو يعتبر جيدا عندما يكون مستوى التقوية منخفضا.عندئذ يجرى ربط السابر بالوريد ، كما توضع العلبة داخل تجويف يجرى اعداده لهذه الغاية فوق الجرح . اما العملية الجراحية التى تجرىبواسطة التخدير الموضعيفتتابعبالاشعة وتعتبر عملية بسيطة .

تمثل الادوات المقوية والحارسة للقلب حوالى ٨٠ الى ٩٠ في المائة من الادوات التى جرى تركيبها خلال السنوات الاخيرة ، وهى مزودة بمجرى اضافى بحيث يراقب السابر حركةالقلبويسير عملالآلةفور ظهور الحاجة. فى بعض الاحيان يجرى صنع العلبة من مادة التيتانيوم النقى ، وهو معدن قوى وذو جودة خصائصية عالية . وبشأن البطاريات ، يبدو ان الليثيوم سيحل محل بطاريات الزئبق مع زيادة العائدات وفترة العمل .

فى الوقت الحاضر يقدر ان هذه الآلات ستملك استقلالا في العمل خلال فترة تمتد من ٥ الى ٨ سنوات . ومع ذلك ، فان مقويات القلب بنسق محدد ، او المحركات الكهربائية لاتزال تحافظ على مقدرتها . كما ان هناك مؤرجح يرسل نبضات بمعدل سرعة محددة سابقا ، وهى توازى ٧٠ نبضة فى الدقيقة مع عدم مراعاة البطين (القلب) حامل هذه المحركات . واخيرا فهناك آلات تقوية القلب النظائرية مع اشرطتها الكهربائية اى البطاريات العاملة بالبلوتونيوم . تدوم هذه الآلات اكثر من الماضى ، ولكن ذلك لا يقضى على الرقابة الفعلية للمريض .

تجرى ابحاث عديدة لتحسين ادوات تقوية القلب ، وللحصول على مواد جديدة لتصنع منها هذه الادوات . وبالرغم من ذلك فان هناك عيوبا بسيطة فى اجهزة ادوات تقوية القلب الموجودة فى وقتنا الحاضر . حيث نخشى دائما من عطل يصيب المعدات . وهو

يقع في مختلف الطبقات سواء كانت الآلة ضعيفة او البطاريات فارغةاو الاشرطة مقطوعة او السابر متنقلا من مكانة . وبالتالى ومن المستحسن ان يساهم المريض فى مراقبة ساعة الاسعاف المرافقة . ومن ناحية اخرى، لا يهمل الطبيب المعالج مريضة ، وهو يراه فى مواعيد محددة ، كما انشئت مراكز لمراقبة هذه الآلات . كما ان دراسات تردد النبضات يعتبر حاسما ، ويحصل على ذلك بوسائل عديدة : فحص النبض كل اسبوع ــ الفحص الهاتفى واشارات « بيب بيب » التى تكشف وتحول الى اشارات صوتية ، وكل ذلك لا يبعد عن مصلحة المريض بشكل مناسب ، كما لا تثير هذه التدابير خوف المرضى ، بل على العكس ، تثير فى نفوسهم الاطمئنان ، كما تسمح لهم بالحياة في ظروف معقولة . وبشكل خاص يتعلق الامر بالذين يشكون من عدم انتظام عمل الاذين والبطين ، ومهما كان اصل هذه الشكوى . بامكان أمراض أخرى ان تستفاد وتعالج بواسطة هذه الآلات . وطالما لا يوجد حل كامل لقضايا الانسجة والمناعة التى تحد من عمليات تطعيم القلب . فان هذه الآلات تبقى وسيلة الاسعاف الحقيقية لمرضى القلب . ومن هذا المنطلق اقيمت فى الدول المتقدمة مصانع لادوات تقوية القلب لمدى حاجةالمرضى لمثل هذهالادوات لتساعد القلوب المريضة .

* الحاسبة الالكترونية « اورال »

هى حاسبة الكترونية ذات تشغيل برنامجي . وتعتبر الاجهزة الالكترونية هى العناصر الاساسية فيها ، وهى قادرة على اجراء ملايين العمليات واكثر من ذلك فىالثانية الواحدة. وهذه الحاسبة الالكترونية« أورال » تستخدم لتشخيص الامراض . فهى تضع فى السنة حوالى ٢٠٠٠ تشخيص لعيوب القلب الوراثية ، وليس هذا فحسب بل انها احيانا تكون أكثر دقة في التشخيص عن الطبيب المعالج ، فقد حدث اكثر من مرة ان اختلف راى الحاسبة الالكترونية « أورال » مع راى الاطباء . وعند اجراء العمليات ثبتت صحة تشخيص الآلة . كما وضعت نظريات ونظم التشخيص الطبي التى يستطيع الاطباء بواسطتها فى العيادات ان يحددوا لا تشخيص عيوب القلب فحسب ، وانما كذلك أمراض الكبد والمعدة وبعض الامراض المعوية والاورام المختلفة ، بما فيها اورام الدماغ .

* اذن الكترونية للصم والبكم

خلال المؤتمر الحادى عشر للحديث عن أمراض الاذن والانف والحلق ، وقد عقد فى بونس ايرس « الارجنتين » ذكر الدكتور كلود شوارد انه حقق مع مساهمة ومساعدة علم الالكترونيات « أذنا الكترونية » يمكن ان تقدم مساعدة هامة للصم البكم . اوضح كيفية وصوله لدمج عقلالكترونى (اورديناتير) صغير فى الاذن الداخلية ، ومع تحقيقالاتصال مع أطراف عصب السمع ، وضعت هذه الآلة اللاقطة نهائيا تحت الجلد ، ويبلغ قطرها الفعلى سنتيمترين مع سمك يبلغ سنتيمتر واحد ، كما تتلقى النبضات الكهربائية المغنطة لمذياع متنقل ، بحجم آلة تسجيل صغيرة . يعتبر الدكتور شوارد اخصائيا في امراض الاذن والانف والحلق ، وقد سبق له أن وضع بنجاح خلال عام١٩٧٣ اشرطة كهربائية فى الآذان الداخلية لثلاثين شخصا من المصابين بالصم . تتصل هذه الاشرطة الكهربائية بآلة غير متنقلة ، وقد سمحت للمرضى بالاتصال مع العالم الخارجى. تمثل هذهالطريقة صعوبات سائدة، اذ تفرض على المرضى الخضوع كل اسبوع لمعالجة لتجنب اخطار الالتهابات . اما الآلة التى أعدت اليوم فقد تحققت فى اقل من عامين بين سبتمبر ١٩٧٤ ونهاية عام ١٩٧٦ وحتى الآن ، واقيمت « الاذن الالكترونية » لدى ثلاثة اشخاص أو أكثر منالصم والبكم ، وقد سمحت لهم بالاستماع والحديث بعد عدة اشهر من التدريب .

*** تكنولوجيــة النفحــة غــير المنتظمــة للتحركات الموجبة الصوتية لعــلاج أمــراض الاذن والانف والحلق .**

يحدث عادة انامراض الاذنوالانف والحلق تسبب انسداد قناة تسمى بقناة اوستــاش وتقع بين الفم وطبلــة الاذن . تعتبر هــذه القناة يصعب الوصول اليها لمعالجتها حيث يتراوح قطرها بين ملليمتر واحد ومليمترين. وبصورة عامة تصيب هذه الامراض غالبــا الاطفال وخاصــة التهــاب الاذن الداخليــة (حيث يصاب٢٪ من الاطفال فى سنالدراسة بالالتهابات فى قنــاة اوستــاش) وفى حالــة تكرارهــا اى تكرار اصابــة الطفــل بهــذه الالتهابات ، تعتبر هذه الاصابــات سيئــة بالنسبة لقناة اوستاش الواصلــة بين الاذن المتوسطة والجزء الداخلى لطبلة الاذن .

ونتيجــة الالتهابـــات الحادثــة في الاذن المتوسطة يتسبب خلل فى توازن الضغط بين جانبى طبلة الاذن ، ومن المحتمل ان يحــدث الصمم . عندئذ يتلقى الانف والحلق افرازات تسيل من القناة المسدودة . وعند تجمع هذه الافرازات ، تحدث التهابات وتتلف المخاط . كما يعود ٤ الى ٥٪ من هــذه السدود الــى الحساسية . ولذلك اعدت طريقة تكنولوجية تعتمدعلى اسس علمالصوت في الفيزياء وهذا التكنيك تم انجازهبواسطة المختبرات البحرية لتحديد الضغط اللازم الذى يسمح بمساعدة « نفخة الصوت » بفتح القناة عند الابتلاع . كما استنكر ايضا اطباء امراض الاذن والانف والحلق اســتخدام الادوات القاضيــة عــلى الجراثيم مثل المضادات الحيوية وذلك بشكل دائم لأن ذلك يحدث زيادة فى عــدد اصابات الالتهابات الجلدية بالمقابل .

كما اشاروا الى محاسن العــلاج بالميــاه المعدنية لامراض الاذن والانف والحلق حيث انه نتيجة للدراســات والاحصــاءات حــول تطبيق العلاج بواسطة المياه المعدنية . اذاع كل من الدكتور روبرت كوفيلير والعالم كلود لاروش والأطباء الباحثينجود لويسكى وجون دى لاتور ما برهنته الاختبارات والابحــاث التجريبية التى تمت على الفئران فى مختبــر المياه بمستشفى فيشى بفرنسا عن فعاليــة العلاج بواسطة المياه المعدنية ، وقد تبينت فائدتها خاصة فى علاج التهــاب الشرايين فى الاعضاء السفلى وأمراض الاوردة وامــراض اجهزة التنفس العليا . وسجلت النتائج ان ٦٠٪ من النتائج كانت مرضية ، ٢٠٪ مــن النتائج غير مرضيــة ، ٢٠٪ مــن النتائــج فاشلة .

وبصورة عامة ، تبين أن المرضى الذين يحصلون على افضل نتائج العلاج بواســطة المياه المعدنية هم دون الخامسة والستين .

اما لدى المرضى الذين هم دون الخامســة والاربعين ، كانت ٨٪ من النتائج المدهشة ، ٦٠٪ جيد جدا ، يعتبر النجاح سريعا وعميقا بقدر معالجة المريض منذ ظهور اعراض المرض فى البدء .

*** الاجهزة الاتوماتيكية فى خدمة العجزة :**

ان عالم الاجهزة الاوتوماتيكية في ايامنا هذه شديد التنوع . وهو دائم التوسع والتعقيد، وتعتمد الاجهــزة الاوتوماتيكية على تحديــد مايسمى باستقرار النظام وبذلك يمكن مقاومة مختلف انواع الانحرافات فى العمل ، وعلــى حساسية الاجهزة الاتوماتيكية . فساهم هذا الفرع من التكنولوجيا بتقديــم خدمات هامة للعجزة لاعطائهم فرصة المشاركة مع الآخرين بالحياة العادية .

فقدمت لهم آلة تدعى « هاندكار » أى عربة اليد الكهربائية ، وهى تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشــكل مســتقل بدون مغادرة مقعدة .

والصفــات التكنيكية للهاندكــار تتنــاول الآتــي : ــ

ــ دراجة كهربائية ذات اربع عجلات . عجلتان اماميتان للتحريك والتوجيه،وعجلتان مستقلتان في الخلف .

ــ هيكل الدراجةمنمادة البوليستر القوى وتتسع لشخصين . اما قاعدة حمل الدراجة فهى من أنابيب الفولاذ الملتحمة .

ــ فرامل هيدروليكية وتوجه بواســطة رافعة امام القائد .

ــ محرك كهربائى بقوة ٩٦ فولت و ٤كيلو وات وهو يحرك العجلات الامامية .

ــ الاستهلاك ، ١٠ كيلو وات ساعة للتعبئة الكاملة مع استقلال للتنقل بين ٥٠ ، ٧٠ كيلو مترا .

ــ اقصى سرعة : ٥٠ كيلو مترا فيالساعة.

ــ مجموعة الكترونية او كهربائية ميكانيكية توجه بواســطة مقود دائرى لــه تأثــير على تموين المحرك الكهربائى .

وبالتالى نجد أن هذه العربة الكهربائيــة تسمح للعاجز بالجلوس أمام المقــود والتنقــل بشكل مســتقل بدون مغادرة مقعدة اذ يكفى الضغط على زر كىيهبط حتى مستوى الارض ويسمح ذلك للعاجز بالدخول الى المركبــة من الخلف بواســطة الدفع ، كما يفعل ذلك عادة بواســطة عجلات عربته . يضغط مجــددا على زر يرفع مستواه كمــا يغلق الابواب فى نفس الوقت . وهناك نظام أوتوماتيكى لتجميد المقعد الســيار .

* جهاز للمواليد قبل الموعد

حققــت المؤســسة الاوروبيــة للابحــاث والتطبيقات الطبية معدات بسيطة تسمح بنقل المواليد «الخدج» الذينوضعوا قبلالموعد الى مركز العناية اللازمة فى ظروف جيدة تشــمل عدم الحركة والعزلة الحرارية اى الابتعــاد عن تغير فى درجــة حرارة الوســط والمراقبة وهذا تحت عنوان أيزوكوك . درست هــذه المعدات الجديدة ونظمت بالاتصال مع قسم المساعدة الطبية للحالات المستعجلة فىباريس، ويديره العــالم الدكتور كارا .وقد استخدمت حتى الآن للنقل ١٥٠٠ مولــود جاءوا قبــل الموعد .. ويتراوح وزن المولود بين ٦٠٠ جرام الى٥٢٠٠ جرام،لقد أعد شكلمنالبوليستيرين المتمدد (مواد بلاســتيكية تبدو بشكل خلوى وتدعى كذلك « رغوة » بلاســتيكية) وهــى تتألف من هيكل وغطاء يسمح باطلاق حــرية راس الطفل ، ويسمح الهيكل الفــارغ باقامة المولود وعدم حركته بواســطة رداء وغطــاء عازل ومعقم ... بعد وضع المولود بهــذا الشكل يؤمن الغطاء بعزلة حرارية مع السماح باعطاء الاوكسجين للطفــل لتسهيل عمليــة التنفس . اما المميزات الرئيسية للايزوكوك فتتناول الآتى :

ــ الوزن حوالى ٩٠٠ جرام ، اى خمسين مرة أقل من المعدات الكلاسيكية .

ــ لا يحتاج الى اى مصدر خارجي للطاقة.

ــ حجمه ضئيل (٧١٠ × ٤١٠ × ٢٢٠ ملليمترا) .

يسمح كذلك بتحقيق جميع فنونالتنشيط ــ اعطاء الاوكسجين ومد الانابيب ــ التنفس ــ اعطاء الدم ... الخ وذلك فى ظروف تأمين مطلق بسبب عدم وجود آلة كهربائية .

* الاســعاف الطبى السريع .

فى باريس يؤمن قسم « المساعدة الطبيــة والاسعاف السريع » أعمال تنسيق الاسعافات السريعة ، وقد اقيم فى مستشفى نيكر ويديره العالم كارا .حيث يؤمنعدد منعمال المخابرات

ستندرديست وطبيب على الاقل سرعة الاتصال الاذاعي والهاتفي الدائم ، وقد وضع ذلك تحت تصرف القسم المتنقل مع خمس سيارات للاسعاف ، كما يمكنه الاستعانة عند الحاجة بطائرات الهليوكبتر التابعة لرجال الامن والحماية المدنية .

اما دوره الرئيسي فيتناول خاصة نقل المرضى بين مختلف المستشفيات . كما تتصل سيارة الاسعاف المجهزة بطبيب التخدير عن طريق الاذاعة بسيارات الاسعاف التابعة للشرطة ، كما تتصل بقسم المساعدة الطبية والاسعاف السريع .

يحقق المساعدة الطبية السريعة ونظام الاسعاف السريع مايلي :

ــ اعداد بيان يومي بشأن لائحة الاسرة الشاغرة في قاعات الاسعاف .

ــ تامين النصائح الهاتفية .

ــ ادارة القسم المتنقل للاسعاف السريع ، حيث يهتم هذا القسم بشكل خاص باسعاف المرضى وعند الحاجة بنقلهم بواسطة سيارات الاسعاف والهليوكبتر أو الطائرة .

* طريقة جديدة لتسجيل حرارة المريض

قدم العالم الصيدلي مارسيل جيو طريقة جديدة لتقدير الحرارة خلال الاجتماع الذي عقد في أول يونيو سنة ١٩٧٦ امام اكاديمية الطب الوطنية الاوروبية ــ ويعتمد الميزان الحراري (الترمومتر الطبي) الذي عرضه العالم جيو على قوانين انصهار المركبات الكيميائية وهي في الحالة السائلة . كما انها مقررة لتسجيل حرارة الفم (تحت اللسان) يتألف ميزان الحرارة الجديد أساسيا من خمسين قطعة بلاستيكية صغيرة يحتوي كل منها على كمية من المواد المتبلورة عند درجات منخفضة ، وتملك ايضا دقة في القياس الحراري (درجة الحرارة للمريض) بمعدل عشر الدرجة بين ٣٥ر٥ ، ٤٠ر٥ درجة سنتجراد . اما المجموع فيوجد داخل وعاء بلاستيكي مرقم يبلغ طوله ثلاثه سنتيمترات بعرض سنتيمتر وبالاضافة الى مقبض . ترتفع جميع مقاييس المواد بنسبة حرارة الجسم وتتحول من الحالة المتبلورة الى الحالة السائلة كما يتبدل لونها بفضل اضافة مادة تلوين .

تعود فائدة هذا الترمومتر الطبي الحديث الى سهولة اكثر في قراءة درجة الحرارة بالنسبة للمريض ، كما تعود الى دقة اكثر وسرعة عطب اقل وسلامة صحية أكثر عند استخدامه (يستخدم مرة واحدة ويبلغ ثمنه حوالي فرنك فرنسي) بالنسبة لموازين الحرارة الكلاسيكية .

* تكنولوجيا الفيزياء النووية واهميتها في المجال الطبي :

سمحت تكنولوجية الفيزياء النووية باقامة أول سيكلوترون طبي للخدمات الطبية في القارة الاوربية وذلك في مستشفى فريدريك ــ جوليو باورسيه بفرنسا ، ويسمح ذلك باستخدام الاشعة النظائرية وسيخصص من ناحية لعلاج امراض السرطان بواسطة النيوترونات . وضع السيكلترون داخل جدران سميكة من الاسمنت وذلك بجوار معامل الكيمياء وغرف فحص المرضى . وذلك لتسهيل نقل العناصر المشعة المستخدمة ، حيث انه تكفي ثوان معدودة لنقل هذه العناصر المستخدمة والتي تتجاوز فترة نصف حياتها اقل من نصف ساعة أي أن مدى الحياة لها قصير ــ وذلك بواسطة الضغط الهوائي داخل انابيب خاصة للنقل . يجرى انتاج العناصر داخل غرفة يتحقق فيها العمل بشكل اوتوماتيكي الى اقصى حد وهنا نجد أهمية الأتمتة حيث

انها مرحلة من مراحل الانتاج الصناعى تتميز بتحرير الانسان من الاداء المباشر لوظائف ادارة العملية الانتاجية ونقل هذه الوظائف الى الاجهزة الاوتوماتيكية . أعدت هذه الآلة النموذجية والصغيرة الحجم من قبل شركة س.ج.ر.م.د.ف والمرتبطة مع شركة تومسون س.اس.اف ــ وذلك لحساب مفوضية الطاقة الذرية . وبامكانها العمل مع فريق من الفنيين المتخصصين في هذه المجالات . أما استغلالها بشكل واسع فيفرض وجود عمل فريق بحثى هام من علماء الكيمياء الذين يعملون على توسيع واستخدام الوسائل الجديدة والسريعة لتخليق الجزئيات المرقمه. وقد تطورت هذه الفنون بفضل برامج الابحاث التى تتعلق بالفيزياء النووية ، وقد وجدت تطبيقات هامة على الصعيدين البيولوجى والطبى وخاصة الالكترونيك والميكانيك والتحليل الكيميائى او فنون تخليق المواد الجديدة ، واجهزة الحس الالكترونى وتطبيقات المجهر الالكترونى الماسح . فنتيجة ذلك تطور الطب النووى تطورا سريعا وتحقق سيكلوترون طبى لمعالجة الامراض السرطانية بواسطة النيوترونات .

*** طريقة تكنولوجية حديثة لفحص الخلايا والانسجة الحية بواسطة استخدام الميكروسكوب الالكتروني .**

يقدم هذا التكنيك امكانيات رائعة وحديثة لفحص المواد البيولوجية والطبية ويطلق على هذا التكنيك اسم Cryodécapage (تبريد ــ = Cryo ، ازالة ــ décapage والتطبيقات الشائعة فى هذا التكنيك تتناول الآتى :

ــ دراسة الخلايا النباتية .

ــ فحص الميكروبات الحية غير المرئية بالعين المجردة .

ــ فحص الانسجة النباتية .

واذا كان لهذا التكنيك فوائد عديدة في مجال الابحاث التطبيقية فله اهمية ايضا فى مجال الابحاث الاساسية . وهذا التكنيك لايزودنا فقط بامكانية الحصول على مقاطع رقيقة من العينات المطلوب فحصها ودراستها « مثل الطرق المستخدمة فى فحص مقاطع رقيقة جدا من المواد الاخرى » ولكنه ايضا يزودنا بمنافع اخرى وعديدة الاغراض نتناول منها الآتي :

ــ رؤية المظهر الخارجى للخلايا .

ــ رؤية الغطاء البلازمى مع امكانية رؤيته بسهولة بواسطة النزع الجزئى لغطاء الخلية .

ــ رؤية المظهر الخارجى للنواة ، والفجوات الصغيرة ... الخ .

ــ دراسة الاسطح الممزقة لهذه الاعضاء الحية. كما لهذا التكنيك فوائد اخرى ، فانه يسمح بازالة تكوين الشوائب غير المرغوبة والتى من الصعب مراقبتها عند التكوين . ويتم هذا التكنيك Cryodécapage تحت فراغ كامل . ويفهم بالخلاء (الفراغ) الغاز ، وخاصة الهواء المخلخل بدرجة عالية . حيث يتم التبريد وطريقة قطع العينة المتجمدة تحت هذا الفراغ . كما يزود هذا التكنيك بترمومتر الازدواج الحرارى وذلك لمراقبة درجة الحررة. وبعد اتمام الحصول على السطح الممزق والمنتج اثناء قطع العينة المتجمدة والتى تم لها عملية Cryodécapage تبدأ الخطوة التالية وتسمى الطبع اى يتم تبخير جزئيات من الكربون على العينة المقطوعة ، وتتم كل هذه الخطوات تحت الفراغ. وبعد ذلك من السهولة التامة فصل الطبقة المتبخرة والتى ترسبت على العينة والمميزة لتركيب الخلية بواسطة الميكروسكوب الالكترونى . ومن المميزات والفوائد الاساسية لاستخدام الخلايا المتجمدة فى الحالة الحية وذلك لغرض فحصها ودراستها ، فانها تحتفظ بحيويتها عند

التحضير تبعا لهذا التكنيك ــ كما اثبت هــذا التكنيك من الامكان وبدون اى مصاعب دراسة هذه العينة المحضرة والمنتجة بهذه الطريقة Cryodécapage بانها تعطى صــورة حقيقية للخلايا والانسجة الحية . وبهذا يثبت بأن العينات لم يحدث ولا يطرأ عليها اى تعديل اثناء التحضير بطريقة Crydoécapage وفحصها باستخدام الميكروسكوب الالكترونى. وهنــا أود اوضح أن الميكروسكوب الالكترونى عند تشغيله يستخدم الشعاع الالكترونى بدلا من الشعاع الضوئى كما فى الميكروسكوبات الضوئية .

* تكنولوجيا الاشــعاع وعلم الكيمياء فى معالجة الامراض السرطانية وغير السرطانية .

تستخدم طريقة تكنولوجية لمعالجــة بعض الحالات الشـــاذة لاوعية المخ . وهذه الطريقة التكنولوجية الجديدة لا تحتاج الى ضرورة اجراء عملية جراحيــة للمريض . حيث أن هذا التكنيك العلاجى بواسطة الفحص الاشعاعى يتم عن طريق اعطاء فرصة للاشعاع كي يتخلل الى الاوعيــة المصابة مستخدما سابر الكترونيــك مغطى بغطاء على شكل بالون . ينفخ بعــدذلك الغطاء ويكون بمستوى جرح الاوعية التى تحت العلاج مما يحدث ســدا للقرح مع المحافظــة على امتداد الشريان ، وهذا يســمح بتــامين وصول الاوكسجين بشكل جيد . كما أن هذا التكنيك الحديث مخصص حاليا لمعالجة الشقوق الناتجة عن رضوض الوجه وعدد من اشكال القروح التى تصيب شريان القلب والتى لم تكن لوقتنا الحاضر قابلة لاجراء عملية بواسطة جراح الاعصاب ، وعمليا غير قابلة للعــلاج باى طريقة أخرى . ومــع ذلــك فبالامكان توســيع نطاق هذا التكنيك فى حالات عديدة قبل اجراء عملية جراحية من اجــل البحث عن أفضل مكان لاجراء العملية بمستوى أوعية المخ وذلك لعــدم اتلاف مرور شريان القلب.

اعــدت شركة فرنسية ــ انجليزية للاشعة آلة تستخدم اشــعة اكس وقد أطلقت عليها اسم دانسيتوم . يتعلق الامر بطريقة تحــدث ثورة في ميدان اســتخدام تكنولوجيا الاشعاع. يمر شــعاع دقيق من اشــعة اكس فــوق المخ وذلك بشكل طبقة بعد طبقة . تجمــع المعلومات بشكل اشــارات كهربائية وترســل الى العقل الالكترونى (أورد يناتير) ليعيــد تركيب الصور .

وهكذا يمكن مشاهدة مالم يسبق تحقيقه بواسطة التصوير بالاشعة ــ الاورام الرخوة ــ تشويهات اوعية الدم وكل امر هــام يجب اكتشــافه بسرعة لانقاذ المريض .

وتتناول هذه الطريقة كالاتى :

يمتص المخ الاشــعة عند مرورها ، كمــا يقيس جهاز الكاشف أهمية هــذا الامتصاص للاشــعة . أما المحــول المستخدم بالجهــاز فيحول الفرق الحادث الى أرقام حتى يمكن دراستها ومعالجتها بواســطة استخدام العقل الالكترونى . تم تغير اســطوانة الفيديو هذه الارقام الى صور واضحة على شريط مغناطيسى لتســجيل صور التلفزيون . كما يأمل الذين يستخدمون الاشــعة توسيع تطبيق هــذه الآلة فى اجزاء اخرى من الجســم .

* علاج المرضى المصابين بسرطان الرئة :

ان الجراحة في الوقت الحاضر هى العــلاج الوحيد الذى يستطيع شــفاء عــدد من من المرضى المصــابين بسرطان الرئة .

فى مركز جراحــة مارى ــ لا نيولــونج فى باريس. اجريت عمليات لالفى مصاب بالسرطان البدائى فى الرئة وقد شفى ٢٣٪ من الذين اجريت لهم عملية منذ خمس سنوات علــى الاقــل . اجريت عمليات اخرى لمئة وستة مرضى مصــابين بــداء السرطان الثانــوى « ميتا ستاز » وقد شفى ٣١٪ من الذيــن

اجريت لهم عمليات تعود الى ثلاث سنوات على الاقل . اما الوفيات خلال العمليات فلا تتجاوز ٣ر٥٪ . يعود التقدم الذى تحقق فى هـذا الميدان خاصة الى معرفة المرض باكرا كما يعود الى مراقبة عدد من انـواع السرطـان المتطور والى علاج كيميائى اكثر فاعليـة واخيرا الى تحسن طاقة العلاج بواسـطة الكوبالت الاشـعاعى .

شـدد العالم بويار (باريس) على ضرورة الجمع بين عدد من الادوية التى يعتبر تأثيرها المشترك له فاعلية اكثر من تنـاول كل عـلاج على حـدة . وبهذه الواسطة يمكن للعـلاج الكيميـائى ان يأمـل القضـاء على الخـلايا السرطانية بشكل اهم . كما تبين ان العـلاج بواسـطة الاشـعة يمكن ان يستخدم بـين مرحلتـين مـن العـلاج بواسـطة الادويـة الكيميائية ... ومع ذلك ، يجب ان يستخدم فى البدء عندما تسد القرحة شعبة الرئة وتسىء الى التنفسى ، من ناحية اخرى ، يعتبر العلاج بواسـطة الادوية الكيميائية مفيدا بعد انتزاع القرحة السرطانية . اما النتيجة فتتحسن بمعدل خمسـين فى المائة وبامكانها كذلـك اسـتدراك او تخفيف الانتكاس .

* معالجة سرطان العظام :

يسفر هذا النوع من السرطان عن ظهور مرض الرئة . ولفتت الانظار خاصة للاعمال التى يقوم بها العالم جافية وفريقه فى الولايات المتحدة ، وهى تتناول اسـتخدام العـلاج الكيميائى بالادوية الكيميائية فى البداية وذلك لوقف نشاط ظهور المرض الذى لا يـزال في حالة بسـيطة . وهكذا يبدو ٦٠ الى ٨٠ فى المائـة من المرضى الذين يعالجون بهذا الشكل فى حالة مرضية (طيبة) بعد مرور اربـع سنوات من اجراء العملية الجراحية ، ولاتبدو لديهم علامـات ظهور المرض ، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٠٪ لدى المرضى الذين يعالجـون بالجراحة فقط .

دعت هذه النتائج الايجابية الى محـاولة استخدام هـذا العـلاج مع المرضى الذيـن استؤصلت الاورام لديهم مع المحافظة والعناية على العضو المصاب والمزود بـبـدلة عظيمـة للحماية وتحل مكان قسم الورم المقطوع . كما تدل ملاحظات اخرى تتناول معالجـة اورام المبيض والامعاء الفليظة والمعدة والرئة لدى عدد محدود وخاص ، تدل على اتجـاه اطباء السرطان حاليا وهو اتجاه يهدف الى عدم الاقتصار على العلاج المحلى بواسطة الجراحة والاشعة ، وانما للاستعانة ايضا بعلاج كيميائى عام لمهاجمة المرض عندما لا يمكن ادراكه وهو موجود . كما سيسمح هذا الشكل الجـديد لمكافحـة السرطان الثانوى بمساهمة المريض مساهمـة فعالة وحقيقية فى علاجه ، كما يمكن بهـذه الطريقة ان تعطى فرصة طيبة لاجـراء عملية تعديل كاملة وتحسين العلاقة بين المـريض واطبائه .

قدم كل من الطبيبين دوبارك وديكولكس تقريرا يبين التقدم التكنولوجى الحديث فى مكافحة السرطان الثانوى (ميتاستاز) للعظم . يمثل السرطان الثانوى والمعروف بالتكـوين البدائى السرطانى انتقالا او مراكز ثانوية للاورام الخبيثة التى تبدو فى موقع بعيد عن المنظمـة فى البـدء .

يقدر الطبيب دوبـارك والطبيب ديكولكس ان عشرين بالمائة تقريبا من الاشخاص المصابين بالسرطان قد عرفوا الاصابة بظهور السرطان الثانوى للعظم .

تؤلف الخلايا السرطانية مجموعات بمستوى العظم وتسـفر عن تحطيم تدريجى للنسيج العظمى والذى يترجم بشكل كسـور . بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠ ادخلت الفنون التقليدية لجراحة النسيج العظمى هذا العلاج الجراحى في حالة ظهور علامات السرطان الثانوى العظمى ولم يكن يعرف قبل ذلك غير العلاج بواسطة تنظيم التشويه عن طـريق تجميد العضـو

المصاب بالجص . فى الوقت الحاضر ــ تطورت فنون تكنــولوجية التحطيم التدريجى للنسيج العظمى او البدلات الخاصة بكسور العظم . وهى تحمل أملا جديدا للمرضى . يكمن هذا الامــل بامكانية الانتقال بحرية وبدون خطــر يهدد انكسار العظم . يحل هذا الفن فــوائد جديدة كما يبين اهمية تكنولوجيا علم البوليمر في العلاج الطبى الحديث والتى ساعدت هذا الشكل الجديد للعلاج .

وهناك أولا استخدام الاسمنت الاكريليكى ، حيث يجرى حفــر العظم المصــاب ويمــلا الفراغ بالاسمنت . وبالامكان كذلك استخدام مسمار فى عظم المصاب ، وتجرى تقويته كذلك بالاسمنت الاكريليكي .

وبالامكان كذلك بالاسـتعانة « بالتحطيم الشامل » الذى يؤمن صلابة فورية ويسمح بالحصول على تقويــة العظم بحيث يستطيع المقاومة فورا وطوال فترة طويلة أمام الحركات الميكانيكية التى يخضع لها . أما جراحة استبدال الاعضاء فتمثل شكلا آخر للعلاج ويوصــى بها : أن تقوية البدلات بواسطة الاســمنت الاكريليكي هى عبــارة عن عنصر اســاسى لنجاحهــا . ويعتمد الاســمنت الاكريــليكي الجراحى على مادة بولي ميثيل ميثا اكريلات وتستخدم كمادة اساسية لمركبين ، فى احدى المركبين تكون جزئيات سلفات الباريوم منتشرة داخل المــادة الاســاسية . وتخلط كميــة معلومة من جزئيات ســلفات الباريوم ببودرة البولى ميثيل اكريلات ويضاف بعد ذلك سائل الميثيل ميثا اكريلات للخليط بالنسبة الاتية :

جزءان من بولي ميثيــل ميثــا اكريلات وزنــا .

١ ــ جزء من ســائل ميثيــل ميثا اكريلات وزنــا .

وبعد ذلك يخلطا خلطا جيدا وان يكون فى حالة رخوة ويضــغط حول قضيب مــن الصلب الموضوع بطريقة مركزية داخل قالب اسطواني من الصلب اللين ومن الضروري بعد ذلك ان يجرى اجراء البلمرة تماما لمركب الاسمنت الاكريليكي وذلك لزمن يتراوح ما بين ٢٠ دقيقة او اكثر .

❊ أمراض الثدى

نجد هنا مدى اهمية تكنولوجيا العصر فى التوصل السريع والكشف عن الجروح فى انســجة الثدى حيــث ان امراض الثــدى « الطفيفة » نجد لها اهميتها وخطورتها . لان مضاعفة الاورام غير السرطانية والتي تعتبــر فى البداية ليس لها اهمية يمكن أن تؤدى الى استئصال الثدى بشكل كامل . لذلــك من المهم ان نتجة الى علماء تكنولوجيا العصر لخدمة هذا المجال . اشار اطباء أمراض الثدى الى انه من المهم الكشف سريعا عن الجروح فى انسجة الثدى . وهنا تتدخل تكنولوجيا العصر لتجد الطريق السليم لانقاذ المرضى . يجرى جمع المعلومات المتعلقة باستخدام وسائل تكنولوجيا العصر للفحص وذلك للحصول على خلاصــة نتائجها بغية الكشف عن أصغر ظاهرة مرضية .

اعدت طريقة للفحص ولا تزال فى مرحلة الاختبار ، وهــي تتناول تسجيل ومقــارنة تبدلات القوى الكهربائية البيولوجية بمستوى الثدى ، ويسمح ذلك بتحديد الثدى الطبيعى والثدى المريض ، وذلك تبعا لاهمية التغير الملحوظ في السعة . كما امكن تحديد اصــل عدد من الاورام الصغيرة التي تبدو فى الثدى على سبيل المثال ، نذكر منها ان الاكيــاس لا تتطور اطلاقا نحو السرطان ولكن يعود أصلها الى عوامل نفسية وجسدية . نتيجة ذلك ادت الى الاهتمام بدراسة وفحص خطوط الجلد والاصابع واليد بكاملها لدى ثلاثة آلاف امراة فقط لوحظ ان عددا من هذه الخطوط يدل اتجاه « تجسيد » للعواطف والاجهادات على الصعيد الجسدى . وفى الوضع الحالي لهذه الاعمال ، قدر ان بعض الحالات الخاصة من الامكان ان يشار اليها وهي قابلية الاصابة

لامراض الثدى الطفيفة نتيجة للاعراض السابق ذكرها .

فى نطاق المحادثات التي تمت بفرنسا (باريس) بشأن مرض السرطان والمصابين بداء السكر وبناء على طلب العالم ماتيه حاول اخصائيان وهما جاكلين فابر وهينريكا أونج تحديد نفسية المصاب بداء السرطان وقد وضحا على التوالي مختلف المراحل التي يتعرض لها المصاب بداء السرطان .

عندما يكتشف المصاب بداء السرطان حقيقة مرضه ، فانه سيواجه مرحلة انهيار عصبي قبل ان يتمالك نفسه . عندئذ من الضروري تخفيف حدة مخاوفه والحديث عن علاجه والحديث مع غيره من عائلته . لانه فى حاجة للثقة بالطبيب الذى يقوم بعلاجه وان يحصل على طمأنينة فعلية من طبيبه . وتحت هذه الظروف فى الامكان ان يتعاون مع الطبيب لمكافحة المرض . وبالتالي عندما يتأكد ويعرف أن جميع التدابير قد اتخذت للتخفيف من آلامه الجسدية والنفسية، عندئذ يقل قلقه ويأسه . كما الح كثيرا كل من الطبيبين جاكلين فابر وهنيريكا أونج بضرورة التحدث بين مرضى السرطان وعائلتهم وكذلك الاطباء ايضا وذلك لتخفيف حدة المرض لديهم . والواقع أن المرضى بداء السرطان ينتظرون من الهيئة الطبية وكذلك من الذين يجاورونهم وعائلتهم قوة الكفاح معهم .

كما أوضح كل من السادة تشوبرتسكى، لورانت ، دروين وتوتان ضرورة تعليم المصابين بداء السكر منذ البداية ما هية مرضه وكيفية معالجته . كما من الضرورى والواجب ان يتخذ هذا التعليم شكلا جديا وعمليا وعلميا . وهو يحتاج الى عشر ساعات تقريبا . وتكمل هذه الدراسات بتوزيع منشورات خاصة على المرضى بداء السكر . وبالنسبة للمرضى الذين يحتاجون لاستخدام الانسولين ، يجب ان يتلقى المريض الاشراف بنفسه على أحواله ومع مراقبة طبية سليمة ، ليستطيع الحياة بشكل عادى على قدر الامكان .

✽ التكنولوجيا وميدان طب الاسنان :

اقيم فى عام ١٩٧٤ المؤتمر الثاني الوطني لجمعية طب الاسنان الفرنسية في قصر المؤتمرات بباريس وتناولت اكثر المذكرات العلمية نزع اللثة من الاسنان واصابتها بالقروح وبنسبة هامة . توازى اصابة الاسنان بالقروح كمية استهلاك السكر . كما لا يوجد أى لقاح ضد قرح الاسنان ، ومن أجل تجنب هذا المرض ، لا بد من المحافظة على الانظمة الصحية والاساسية لتنظيف الاسنان مرارا كل يوم وذلك لمنع ظهور طبقة تتراكم فوق الاسنان . كما يعتبر نزع اللثة عن السن مسئولا عن استئصال عدد كبير من الاسنان .

واذا عني بالاسنان باكرا بالامكان شفاؤها وذلك بفضل جراحة تسمح بالقضاء على رسوب الطرامة فوق اللثة . اما أفضل وقاية لهذه الظاهرة فهي نظافة الفم . وبهذا الشأن ايضا أسفرت عدة ابحاث عن اعداد بدلة الاسنان أى جهاز صغير يقوم مقام عمل السنن واوضحت النتائج بأننا الان نشهد نهاية اسطورة الذهب . الواقع أن هذا المعدن الثمين يستبدل اكثر فأكثر بمزيج يتركب من اساس يعتمد على النيكل والكروم ـ تملك هذه السبيكة مميزات مماثلة ولكنها أصعب اعدادا لانها اقل ليونة . ومع ذلك يعتبر سعرها أقل ، مما يسمح بتحقيق توفير هام عند اعداد بدلة للأسنان . تمكن حوالي سبعمائة طبيب اسنان بكلية جراحة الأسنان بجامعة باريس من اجراء دراسات تكنيكية ترافقها بيانات واقعية عن تأثير الطبقة الصفيحية الشكل التي تغطى السن والتي تحدث التسوس والنخر وتجريد الأسنان . كما أنه من السهولة ان يتمكن الانسان من مقاومة تسوس الأسنان والنخر وذلك بالعناية الصحية على الاسنان . كما ان تنظيف الاسنان

بانتظام يكفى فى الحقيقة لمنع ظهور هـذه الطبقة الصفيحية فوق الاسنان . وهى تتألف بنسـبة ٨٠٪ مـن جراثيم . وفى الواقـع هذه الجراثيم تنتهى بمهاجمة الانسجة التي تسند السن ، وبالتالى تحمى هذه الانسجة وتصبح غالبا مقرا للعدوى قبل أن تفقد الطاقة الكلية التى تسند السن قبل الوقوع .

ومـن اهم الاستنتاجات التي اسفرت بهذا الاجتماعي العلمي التكنولوجي فى ميدان طب الاسنان :

ـ مواد جديدة للاجهزة التي تقوم مقام السن وذلك للحماية وتسمى بالبدلة وملء السدود . كما هناك اصماغ جديدة لها قدرة الالتصاق بالسن بشكل افضل ومـن اهـم مميزاتها بأنه ليس من الضرورى عمل اعداد خاص . وقد أوصى باستخدامها .

ـ زرع الاسنان ، ويعتبر من التجارب التكنيكية الحديثة، ويمثل ذلك جذور صناعية حقيقية كما تستخدم كأساس للجهاز الذى يقوم مقام السن أو عديد من الاسنان (البدلة) ويوضع على جانبي العظم ويثبت فى مسـتوى سمك العظم ، ويبدو ان الاتجاه السائد نحو استخدام الفحم الزجاجي .

كما توصلوا بأنه يوجد تأثيرات جـانبية اخرى وذلك لالتهاب الاسنان ، وبالامكان ان يكون هذا التأثير على القلب وأوعية الدموالعظام والكلية والعين أو الجلد .

فى الوقت الحالى ـ ولمثل هذه الحالات ـ لا بد من العمل بحذر شديد وعدم انتـزاع الأسنان بدون تبصر . وبناء على ذلك يجب تحديد الموقف بدقة سواء لانتزاع الأسنان أو حفظها تبعا للخطر الذى يمكن أن يكون حيويا .

يعتبر الأستاذ دكتور روبيرت فرانك مدير كلية جراحة الاسنانفىستراسبورج ،اخصائيا دوليا شهيرا في ميدان امراض الفم والاسنان ، وتناول قسمهام من ابحاثه كيفيةتركيبالسن . وقد كرس احدث اعماله وتجاربه العلميـــة البحثية لحركة انتقال المواد الكلسية بمستوى مختلف اطراف السن . كما تناولت ابحـاثه بعد ذلك بواسطة استخدام المجهر الالكترونى الماسح (التصوير بالاشعة) . تحققت هـذه الاعمال فى اسنان القط المولود بعد حقنشرايينه بالكلس المشع من نوع (Ca 45)، وبرهن العالم فرانك عن وجود طريقتـين لمـرور الكلس (الكالسيوم) من شعب الدم الى الانسـجة التى يقويها الكالسيوم المشع . يمر الطريـق الاول بين خلايا النسيج والثانى عبر الخـلايا المسؤولة عن تركيب العظم . أما قوة وطـرافة هذا العمل فتعود لاثباته ان الطريق الثانى هو اهم من الطريق الاول . تتحقق هذه الاعمال والأبحاث بواسطة الحيوانات المولودة ، وهى تقدم معلومات ثمينة حول تركيب الأسنان .

والتطبيقات العمملية لمثل هذه الاكتشافات من الامكان ان تتضاعف وخاصة فى ما يتعلق بآلية ظهور وعلاج تركيب السن والانسجـة الخاصة التى تعتمد عليها السن عند الظهور .

كما تحدث أيضا العالم بيار فوهر عضو الاكاديمية الوطنية لطب الاسنان بفرنسـا عن طريقة جديدة تتناول استـخدام اكسـيد الكالسيوم الثقيلأو الهيكسوكاليكس،اكتشفت هذه المادة الجديدة عام ١٩٧٢ من قبل العالم بيار برنار من باريس.وقد درسها فريق يتألف من ستة باحثين تمكنوا من تنظيم استخدامها بشكل علمى . وقد استخدم الهيكسوكاليكس لمعالجة ١٦٠٠ شخص تقريبا . سمح له ذلك بالقول ان هذه المادة يمكن أن تستخدم بشكل فعال فى جميع حالات معالجة الأسنان .

ان امكانيات هذه المادة ليست ضئيلة ،وهى تشمل القضاء على جميع الادوية وتخفيـض استخدام الادوات اليدوية ، وكذلك تخفيض

نسبة اجراء العمليات الجراحية ، ومن شأنها كذلك ان تضاعف نمو العظم من جديد .

ايضا اسفرت عدة ابحاث عن التغيرات الحادثة فى تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص بأقنية جذر السن بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة بالنتائج الاتية :

ـ ليونة عاج جذر السن بواسطة المواد الكيميائية يقلل الوقت اللازم لعملية توسيع قناة الجذر ميكانيكيا . كما وجد ان درجة ليونة العاج تتناسب طرديا مع وقت الانغماس ولذلك حبذ استعمال اى مادة من مواد البحث لمدة ١٥ دقيقة فقط .

ـ ليست عملية تحديد الوزن المفقود طريقة دقيقة لمعرفة تأثير المادة على علاج جذر السن ، ولكن قياس ايونات الكالسيوم الموجودة في خلات الكالسيوم المترسبة تعطى ضوءا أفضل لتحديد تأثير المواد المستعملة فى البحث على عناصر العاج غير العضوية . ومن الواضح من نتائج البحث ان كل المواد المستخدمة تعطى زيادة فى ايونات الكالسيوم بعد مضى ٢٤ ساعة مع تغير بسيط فيها بعد مضى ٤٨ ساعة ـ ومن ضمن النتائج ان تحديد وضع استعمال اى مادة يعطى تفاعلا محدودا .

ـ منحنيات ونتائج تحليل حيود الاشعة السينية (اكس) اعطت اجابة واضحة عن التفاعلات والمركبات الجديدة الناتجة بين عاج جذر السن وبين هذه المواد .

ـ كما وجد ان اساس كل المكونات الجديدة الناتجة هى خلات الكالسيوم ، وان التغيرات فى فوسفات الكالسيوم القاعدية (اساس تركيب السن) تغيرات بسيطة وكل التغيرات تمت فى مركبات أخرى مثل هيدروكسيد الكالسيوم .

ـ درجة نفاذية الصبغة تتناسب طرديا مع وقت الانغماس وهذا يعطى ضوءا جديدا على استعمال المواد الكيميائية قبل استعمال المواد المطهرة .

ـ وجد ان اى مادة كيميائية تستعمل يجب الا تتعدى حدود قناة العصب حتى لا تسبب اى الم للمريض فى بادىء الامر .

ـ كما نستطيع القول بأنه لم يستقر الامر بعد على شكل وضع هذه المواد عند استعمالها اكلينيكيا . ان استعمال كمية هذه المواد في التجارب العملية كانت اكثر بكثير من كمية المادة اللازمة عند استعمالها اكلينيكيا، ولكن هذه الكميات يمكنها ان تعطينا فكرة عن التغيرات التى ستحدث فى عاج السن .

ومن التحليلات الاحصائية ومقارنة حامض الخليك ١٠ فى المائة ، ٢٠ فى المائة وثلاث مواد اخرى متداولة مثل :

EDTA - ENDOSOLVE - LARGALULTRA

وجد انه يفضل تكرار استعمال حامض الخليك كمادة كيميائية لعملية التوسع الكيميائى الميكانيكى اللازمة فى قنوات السن .

* الصحة العامة وطب الاطفال

عرفت ابحاث الكلية خلال السنوات العشر الاخيرة تقدما خاصا فيما يتعلق بأمراض الكلية والضغط . اذا كان قد تحقق فى الواقع تقدم مدهش للعلاج بواسطة الكلية الصناعية وتطعيم الكلية . ولا تزال هذه الوسائل مسكنة كما تمثل حلولا مؤقتة . ان الوقاية من امراض الكلية ترجع عامة لفضل الدراسات والابحاث المتعلقة بالوراثة خاصة ، كما انها ستسمح بتخفيض نقص عمل الكلية لدى الطفل وبالتالى لدى البالغين .

اوضح العالم جون هامبوجر عضو أكاديمية العلوم ومدير مركز ابحاث امراض الكلية في مستشفى نيكر باريس وذلك كان خلال المؤتمر الذى عقد بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس

المؤسســة الوطنية للصـحة العامة والبحث الطبى ، فان زيادة نسبة البولينا فى الدم ليست ناتجة عن تجمع المادة البلورية من البولينـا نتيجة ضعف الكلية لدى الانسان السليم فقط بل انها تقضى على هذه المادة ايضا . وان كثيرا من ذلك برهنت الابحاث التجريبية خلال سنوات عديدة على أن عجز وظائف الكلية يؤدى كذلك الى سلسلة متوالية من الخلل او عدم الاتزان فى المواد الهامة والتى يعتمـد عليها اساسـا الوسط الداخلى لجسم الانسان مثـل المـاء والصـوديوم والبوتاسـيوم والكالسـيوم والماغنيسيوم وغيرها من المواد الثابتة . وبرهنت الابحاث التى تتعلق بأمراض الكليـة والتى حققها عدد من الفرق العملية البحثية من العلماء الفرنسيين والمتخصصين فى هذا الفرع عـلى ما وراء « أزمة الكلية الحادة » من امراض خطيرة تؤدى فى النهاية لوفاة المرضى . وهذه الامراض المختلفة تهاجم الكلية وتحدث فيهـا اصابات . وان معرفة كل من هذا الخـلل وعدم الاتزان فى المواد الاساسية فى تركيب جسم الانسان بشكل أوسع وكذلك البحث عن اسبابه (يتعلق الامر غالبا بالمناعة) يعتبـر لازما للعلاج وكذلك للوقاية من هذه الامراض . ويحاول علماء الكيمياء عزل المـواد السـامة واحدة بعد الاخـرى وهى التى تجـرى مع الدورة الدموية وتعتبر مسؤولة عن الخلـل القاتل . ان الكلية الصناعية وحدها هى التى تستطيع حاليا تحقيق عملية التنظيف .

اما فيما يتعلق بأمراض التهاب الاغشـية المحاطة بالمخ ، نجد حاليا ان يعاد اسـتخدام المضادات الحيوية والسولفاميد لعلاج مثل هذه الامراض ، وبالتالى نتج عن ذلـك ان نسبة الوفيات تناقصت من ٨٠ الى ٢٠ فى المائة ومع ذلك لا تزال هذه النسبة مرتفعة ، ولكن ذلك يعود جزئيا الى قدرة الجرثومة المدهشة والتى تسبب هذا المرض واصرارها على الحيـاة والتطور بسهولة لمقـاومة العـلاج . فاهتـم الباحثون بتصنيع طعم خاص للوقاية من هذا المرض ، وبالفعل ظهرت فعاليته بايقاف الوباء الاخير الذى حدث فى البرازيل .

ذكر العالم تريو من مؤسسة ميريو انه اذا كانت الاوبئة الكبرى المعروفة مرتبطة بالجراثيم من نوع أ ، س ، فلا يمكن التأكد بأن الجرثومة من نوع ب تعتبر مسؤولة لوحدها . فى فرنسا جرى احصاء كل عام وذلك من الالف الى الالف وخمسمائة اصابة ، كما لا يمكن التأكيد بأنها لن تتخذ يوما هذا الشكل من الانتشار . فى الوقت الحالى لم يتمكن التحقيق وتصنيع الطعم المقابل . واما فيما يتعلق بمرض الانفلونزا وذلك خلافا لالتهابات الاغشية المحاطة بالمخ ، لا يوجد حاليا اى علاج .

يقضى داء الانفلونزا في فرنسا كل شـتاء على ٨ ـ ١٨ الف شخص وبينهم ٩٠ ٪ مـن الذين تجاوزوا الستين عاما . اما التطعيم فيبدو افضل الاعمال . ذكر العالم هانون من مؤسسة باستير ما يلى :

اذا كانت حماية التطعيم ضد الانفلونزا فى البداية غير كاملة (جرعة التطعيم) قليلة مع عدم معرفة سلوك تطور الجرثومة التى تعتبر اصل الوباء . اما اليوم فبفضل تطور فنـون تكنولوجية التقنية سـمحت لنا باسـتخدام جرعات منتجة وذات فعالية قصوى مع اختفاء كل الاضرار تقريبا التى كانت سابقا تنتج عنها .

منذ شهر نوفمبر ١٩٧٥ وللان يجـرى بقسم الامراض المعدية فى قسم البحث الطبى الاجتماعى ، وهو تابع للمؤسسـة الوطنيـة للبحث الطبى لاوروبا ، تحقيق يعتمد على نسبة تغيب الطلبة عن حضور الدروس وتعتبر هذه النسبة من التغيب كدليل على اهمية انتشار وباء الانفلونزا . من اجل هذا التحقيق ، جرى اختيار تلاميذ الصف الاول والثانى فى المدارس الابتدائيـة . وتتراوح اعمـارهم بين السادسة والثامنة ، وهو السـن الذى تصيبه عادة امراض الاطفال المعدية (الحصبة

ـ التهاب لوزتي الاذنين .... الخ) فى فرنسا مثلا اختيرت ١٢ مدينة . من بينها نانت ، بوردو ، مونبيليه ، ليون وغيرها من المدن . وفى هذه المدن اجرى مراقبة ستة آلاف طفل تقريبا . وفي كل صف يحدد يوميا عددالغائبين وما سبب التغيب عن الدراسة . وعندما تتجاوز نسبة الغائبين ١٥ ٪ يتوجه شخص مكلف بالتحقيق الى المكان الذى يقع فيه الغياب من اجل تحديد ومعرفة ما اذا كان الامر يتعلق بوباء الانفلونزا . وفى حالة تحديد المرض ويشخص على انه بالفعل وباءالانفلونزا يتناول الخطوات الهامة الآتية :

يجرى التقاط بصاق الحلق لدى الاطفال المرضى وكذلك كل من يجاورهم من العائلة ، ترسل جميع هذه الاثار الى مؤسسة باستير فى باريس او الى مركز مراقبة وباء الانفلونزا او الى المختبرات الوطنية للصحة العامة وهى مختبرات تضم قسم الاوبئة . وبالتالى تقوم جميع الفحوصات اللازمة لعزل عدد من انواع جراثيم الانفلونزا ودراستها دراسة بناءة . ونتيجة لهذه البحوث العميقة سمحت النتائج بمعرفة انتماء هذه الجراثيم الى نوع أ ـ فيكتوريا او نوع الثانى من ب .

وبالتالى استطاعوا انيحددوانوع الجرثومة التى ينتمى اليها وباء الانفلونزا ، ومن هذا المنطلق بدات المؤسسات الصحية فى صنع الطعم الخاص لوباء الانفلونزا واستخدامالعلاج الكيميائى السليم للقضاء على هذه الانواع من وباء الانفلونزا .

امراض الكبد لدى الاطفال

عقد فىاوروبا اجتماع دولى خصصللحديث عن امراض الكبد ومجارى الغدة الصفراءلدى الطفل وكان مقره فى باريس بمستشفىالاطفال بالضاحية الجنوبية . حيث اقيم خلال السنوات العشر الاخيرة مركز ابحاث لدراسة امراض الكبد ومجارى الغدة الصفراء لدى الطفل . ولا يوجد مثيل لهذا المركز في فرنسا نفسها او الخارج ايضا ويديره العالم الاجيل.

اسفر وجود هذا المركز ، نتيجة تعاون بين الخدمات المتخصصة بالمستشفى ،عن دراسة التشخيص والاسباب لامراض الكبد لدى الطفل ، وبين وحدة ابحاث امراض الكبد لدى الطفل . وقد انشئت هذه الوحدة من الابحاث التى تتعلق بامراض الكبد بالمؤسسة الوطنية والبحث الطبى عام ١٩٦٩ .

عقد القسم الاول من هذا الاجتماع الدولى تحت رئاسة العالم روبر دى برو فى قصراونج شامب حيث يوجد هناك مقر المركز الدولى للطفولة . وفى هذا الاجتماع الدولى اجتمع خمسة عشر امريكيا وخمسة عشر اوروبيا . اما المرحلة الثانية فقد عقدت داخل مقر وحدة ابحاث امراض الكبد لدى الطفل . سمحمؤتمر المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبي لعدد كبير من الاطباء والباحثين بالمساهمة فى اعمال القسم الاول .

ترتبط احدى الاعمال الجديدة لهذا اللقاء بتنوع الابحاث العلمية . كما ضم الاخصائيين فى الكيمياء الحيوية وفى علم المناعة وعلم الجراثيم وكذلك الاخصائيين في علم التشريح ـ والامراض او الاطباءالمتخصصين فى امراض الكبد لدى البالغين او الاطفال ـ وفى هذه المناسبة قامت فكرة السباق الاساسيةللتقدم التكنولوجي ودورها الهام فى البحث الطبى.

واشار العالم جوى جود لويسكى الى موضوعين حديثين يتعلقان بالعلاج بواسطة المياه المعدنية : التهاب الكبد الجرثومى والانفعالات الغذائية للطفل ، وبالامكان يؤدى موضوع الانفعالات الغذائية لدى الطفل الى انشاء مستشفى خاص لاجل معالجة اضطراب الهضم لدى الطفل .

التقى حوالى عشرة الاف طبيب من جميع بلدان العالم لتبادل معلوماتهم وخبرتهم فى

نطاق الميدان الطبي والعلاج والجراحة والاختصاصات التكنولوجية العصرية وامراض الفم والاسنان . وتم نقاش اربعة ابحاث حول مواضيع الساعة (المسؤولية الطبية ، ومنع الحمل ــ حوادث منزلية لدى الطفل ، مراقبة وصف الادوية وعدم الافراط في تناولها ــ المصابون بداء المفاصل الروماتزمية) . كما تناول النقاش أيضا جميع ميادين الجراحة العامة والصحة العامة والاختصاصات، وخاصة طب الاطفال، والتوليد وامراض الفم والاسنان اما في مركز المستشفى الجامعي ــ بيتيه ــ سالبتريير فقد جرى نقاش حول الافراط في استخدام المضادات الحيوية لدى الطفل . حيث انه بعد ثلاثين عاما من اكتشاف هذه الادوية، تبدو باستمرار ضرورة تعلم استخدام هذه الادوية بطريقة منتظمة وبدون افراط . لأن الاستخدام غير المنتظم والافراط في استعمالها لا يؤدي فقط الى الاستهلاك المادي (المالي) ، بل يؤدي ايضا الى المضاعفات المتزايدة والخطرة لبذور المقاومة المختارة والبارزة من الانسان ، وهي تبعد عن كل مشروع علاجي . هذه السعة من المقاومة للمضادات الحيوية تعود الى الاحماض المحتوية على « طفيليات » في النواة للخلايا الحية او (بلاسميد) وبصورة عامة ــ من الضروري أن تستخدم المضادات الحيوية بطريقة سليمة والتي تستخدم بدون تمييز على سبيل الوقاية او قبل معرفة ما اذا كانت هذه الجرثومة هي المسؤولة عن المرض ، وكذلك نوع هذه الجرثومة . يقدر علماء الجراثيم انه لا يصح استخدام المضادات الحيوية ــ اي الادوية المقاومة لحرارة الجسم ــ « للتغطية » كما يجب عدم استخدامها على سبيل الوقاية ،الا في حالات محددة بعد معرفة نوع الجرثومة المطابقة للمرض والمقصود مكافحتها . كل هذا يعني عدم اللجوء الى المضادات الحيوية قبل معرفة الجرثومة ونوع حاسيتها النوعية للمرض نفسه .

في الحقيقة ، يعود اكثر حوادث التهابات مجرى التنفس لدى الاطفال والرضع، كما تعود تقريبا كل اصابات الانف والحلق وراس الحلق وشعبة الرئة الى أصل جرثومي . وبالتالي تكون المضادات الحيوية والتي تخفض الحرارة (الحمى) ليس لها تأثير على هذه الامراض بشكل عام .

بالنسبة لاصابة الاطفال بارتفاع الحرارة لمدة طويلة غير معروفة السبب . في هذه الحالة يخشى أن تعطى المضادات الحيوية للطفل لانه من الاحتمال ان تعطى نتائج خاطئة أو سالبة بالنسبة للفحوص البيولوجية اللازمة للعلاج السليم . اما فيما يتعلق باجراء عملية جراحية قادمة او طفل يتناول أدوية كورتيزونية او مانعة للانهيار العصبي ، يعتبر تطور التدابير الصحية الشديدة ، وخاصة في المستشفى ، اكثر فعالية واقل خطورة من العلاج الوقائي بواسطة ادوية المضادات الحيوية .

حقق فريق مؤسسة باستير بفرنسا بادارة العالم فرانسوا جاكوب الحائز على جائزة نوبل الطبية ــ والعالم روبير فور اكتشافا هاما في علم الحياة . سمح هذا الاكتشاف بادراك سبب عدم تأثير مناعة الجسم على الجنين لدى المراة الحامل وكذلك على السرطان في الجسم، بينما تعتبر هذه المناعة سبب لفظ الطعوم لاعضاء خارجية . وبالمقابل لم يحن الوقت للقول ما اذا كان هذا الاكتشاف يمكن أن يساهم في معالجة السرطان . وقد تركزت البحوث التجريبية الاخيرة على صعيد البحث الطبي على موضوع الخلايا التي بدلت نظريات الوراثة والفسيولوجيا وعلم الامراض بكامله . كما اشار البحث الى علم المناعة مع الاكتشاف الهام الى علم الاجنة مع تخمين الامراض في ذرات الخلايا قبل الولادة ، وكذلك الى علم الهرمونات مع الوسائل الحديثة لمنع الحمل .

ذكر العالم مينكوفسكي ان مكافحة الوضع السابق لاوانه ، وهو يمثل السبب الاول للوفيات لدى المواليد الجدد يجب ان يتخذ الافضلية في ميدان الصحة العامة . من أصل ٨٠٠ الف ولادة في فرنسا خلال عام ١٩٧٣ ، تحقق ٨٠ الف ولادة قبل الاوان . ومن اصل هذا العدد ، توفى خمسة عشر الفا ، كما ان عددا شبيها يصاب بعاهات تتعلق بالذكاء والحركة ، ومن ناحية اخرى لاحظ العالم مينكوفسكي ان التقدم الهام في ميدان العلاج لا يجب أن ينسينا ان الكشف عن الحمل الذى يمثل « خطرا كبيرا » والوقاية منه لايزالان يعتبران السلاح الاكثر فعالية ضد الولادة السابقة لاوانها . وان زيارة الحامل للطبيب اربع مرات خلال فترة الحمل تعتبر من الاصل غير كافية . تبين انه في حالة فحص الحامل مرة في الشهر من الامكان تجنب حالات الوفاة للمواليد بنسبة كبيرة . كما يمكن تجنب اصابة ستين الفا بالعاهات خلال خمسة عشر عاما . اشارت الطبية جنفييف باريه المختصة بالتخدير واعادة تحريك المولود اشارت الى الاخطار التى تصيب الحوامل اللواتى يبتلعن جميع انواع الادوية بغرض الوقاية والتقوية . فان عددا من انواع الادوية المدرة للبول يمكن ان تكون سبب عدم التوازن الايونى لدى المرأة والجنين ، كما تتسبب في نقص كمية الكالسيوم لدى الأم . ان الادوية المسكنة والمهدئة للاعصاب تتسرب اكثر الى الجنين بالنسبة للام . لذلك يجب الامتناع المطلق عن كل علاج عند الاقتراب من مرحلة الوضع .

*** ابحاث تتعلق بالصحة الغذائية**

ان الحياة الحديثة قد عدلت بعمق كثير انفعالات الجسم البشرى ، الذى سيحتاج من جديد لاشياء عديدة يجب على ادوية الغد ان تقدمها بمساهمة تكنولوجيا العصر .

يلاحظ في الواقع ان اكثر مساوىء التغذية بدون تعقل وحكمة والتى تسبب الزيادة الفائقة في السعرات والامتصاص الزائد للمواد الدهنية والسكرية بشكل مبالغ فيه يؤدى كل هذا الى الاضطرابات الخطرة بجسم الانسان . وبالتالي لابد من تنظيم تربية حقيقية للتغذية تسمح بالمحافظة على التوازن الغذائي للانسان. بمعنى انه منذ الطفولة، لابد من بذل تربية غذائية صحية للطفل ، مع دراسة دور الفيتامينات وتأثيراتها سواء كان الامر يتعلق بوجودها فى العناصر الطبيعية او حفظها فى المواد الصناعية او تأثيرها بواسطة المنتجات الصيدلية .

عقدت اجتماعات في اوروبا وكان مقر هذا الاجتماع فى باريس لدراسة ابحاث القضايا المتعلقة بالصحة الغذائية . وقد نظمت اخيرا من جانب اللجنة الوطنية للطفولة والمركز الوطني لتنسيق الدراسات والابحاث المتعلقة بالتغذية خلال ثلاثة اجتماعات شدد المشاركون على ضرورة تعديل السلوك الغذائى للاطفال والبالغين ، وذلك بتحقيق تطور في تناول الغذاء الصحى وكمية السعرات اللازمة للطفل . حيث انه من الملاحظ ان الاطفال فى سن الرابعة قد اعتادوا اكل الطعام المالح او الحاوى على كثير من السكر مع عدم شرب الماء .

اشار العالم روسيبيه رئيس اطباء مستشفى سان فانسان دى بول بباريس خلال اجتماع اللجنة الوطنية للطفولة وذلك لدراسة تغذية الشباب ، ذكر ان ثلث حالات البدانة والضعف يبدأ منذ الطفولة ، وان عددا من العادات الغذائية العائلية السيئة تمهد لبدانة الطفل . كما اضاف قائلا : يخشى من تضخم الشحم بشكل غير قابل للنقص لدى الاطفال ويحافظ على ذلك عدم انتظار هرمونى . لذلك يجب على طبيب الاطفال ان يراقب كل زيادة فى الوزن .

كما اشار العالم دوبان خلال اجتماع المركز الوطني لتنسيق الدراسات وابحاث التغذية الى العادات السيئة منذ الاشهر الاولى وخلال العامين الاولين من الحياة . قال : « خلال الاشهر الاولى ينمو الطفل ويزيد وزنه جراما

فى الساعة (حوالى ٢٥ جراما يوميا) اما وزن الدماغ فيزيد جرامين يوميا ، وبعد ١٢ شهرا يزيد وزن الطفل ثلاث مرات بالنسبة لوزنه عند مولده ، كما يبلغ طوله عندما يبلغ عامين نصف الطول النهائي لبلوغه » . وهكذا برهن على اهمية قضايا التغذية لدى الرضيع، وشدد على الاخطاء التى تتردد فى الغالب :

– تجاهل الام للمميزات المختلفة لانواع الحليب وزيادة الكمية .

– استخدام باكر للغذاء المالح او الكثير السكر .

– لم يعد الاطفال بين الرابعة والسادسة يعرفون شرب الماء . كما يعطون مشروبات كثيرة السكر والالوان .

ونظمت ايضا مؤسسة تنظيم الغذاء فى كلية الطب الباريسية مؤتمرا تناول دراسة الموضوعات المرتبطة بالصحة العامة والصحة الغذائية لسائق السيارة . توجد فى الحقيقة علاقة وثيقة بين نظام الغذاء والانتباه . حدد عدد كبير من الاخصائيين التابعين للهيئة الطبية والمنظمات المسؤولة عن سلامة السير ، حددوا تأثير الكحول وعدد من الادوية بصورة خاصة على نوع رد الفعل العصبى . كما دلت الاحصاءات بوضوح على ان نسبة الحوادث تزداد مع زيادة نسبة الكحول في الدم . وان سلامة السير تعتبر افضل طالما نسبة الكحول لاتزداد عن ٣ر. جرام ، ويوازى ذلك كمية امتصاص ضئيلة وخاصة اذا جرى ابتلاع عدد كبير من الادوية دفعة واحدة قبل تناول الطعام فهناك عدد من الادوية المسكنة واللازمة لحالات الصرع والمنشطة والفاقدة للشهية « القاطعة للجوع » وهى تؤثر مثل الكحول وتحدث زيادة فى الوقت اللازم لاحداث رد فعل فى الاعصاب، كما تحدث نقصا فى قدرة تنسيق اعصاب البصر واضطرابات فى التمييز والانتباه . كما وضحت الابحاث التجريبية التى اجريت من قبل مؤسسة تنظيم الغذاء ان الاخطار الواقعية للاضطرابات والتى تسبب الحوادث انما تبدو خاصة عندما يبدا تناول العلاج ، وذلك قبل ان يعتاد الجسم عليه . ومن هذا المنطلق عكف الاخصائيون على العلاقات التى تنشأ بين الاجهاد العصبى وظروف التغذية ، وقد اتفقوا على اهمية الغذاء المعقول والمناسب. ومن اجل تمتع بانتباه كامل وسرعة استجابة ، لابد من تجنب نقص نسبة السكر فى الدم مما يخفف نسبة الاوكسجين وحتى البروتين فى خلايا الاعصاب . وكذلك تناول وجبات الطعام الفنية وهى تحدث عادة رغبة فى النعاس. فنجد من المستحسن بالفعل احترام السعة المنتظمة للانتباه المفروضة على السائق والتى عادة تنقص بعد ساعتين من قيادة السيارة وذلك نتيجة للارهاق . بالتالى يجب هنا على السائق الوقوف بانتظام لتناول وجبات صغيرة من الطعام والمواد السائلة . تسمح هذه التدابير للسائقين بالمحافظة على انتباه اقصى وتجنب جميع الحوادث التى تعود الى تعب الجسد والأعصاب .

انشىء فريق بحثى لدراسة التعب والاجهادات العصبية ، وهو يضم الاطباء والباحثين فى المجالات المختلفة – الأمراض والفسيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب العام والطب المهنى والأطباء المشرفين على الصحة الرياضية (الطب الرياضي) والغدد والتنفس . . . وكانت غاية هذا الفريق البحثي هي تناول المواضيع التالية :

– تحديد الاسباب والمظاهر والعناية بالاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبى أو نفسي .

– جمع ودراسة نشر جميع المستندات المتعلقة بهذه المواضيع .

– اعداد وتطبيق التدابير الصحية والوقاية بالنسبة لجميع علامات الاجهاد .

بسم الله الرحمن الرحيم

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس أن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

صدق الله العظيم

اشارت تحقيقات حديثة الى أهمية وتكرار الاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبى او نفسي . وقد تبينت الاحصائيات للاطباء داخل المستشفيات ان مريضا من أصل اثنين يشكو من التعب والاجهاد العصبي. وعلى صعيد العيادة ، يشمل الضعف جميع مظاهر المرض،وان كل مرض جسمى او عقلى يسبب ضعفا . وعلـى الصعيد النظرى ، اقتصرت الدراسات الفسيولوجية الاساسية الكلاسيكية فى الغالب على تعب العضلات ، وهى غير كافية لابراز مجموع مايتعلق بالاجهاد الناتج عن ضعف القوة وتأثيره على الحياة النفسية والاجتماعية .

※ عسل النحل شفاء للناس

بدلا من استخدام العقاقير والادوية يوجد علاج جديد وقديم عرفه الانسان منذ القدم ــ انه عسل النحل الذى ذكر فى كتاب الله عزوجل . . الهاما من هذا قدم الطبيب الروسى الاصل «روش» في كتاب تحت عنوان « النحل صيدلية مجنحة » يقول فى كتابه ان العسل افضل علاج للأمراض الناتجة عن البرد . . . اما ان يخلط بالحليب الساخن او عصير الليمون او مع الشاى الساخن . . . هذا العلاج عرفه العالم منذ مئات السنين . انه يقضى تماما على البرد او الزكام . ويستخدم ايضا فى ايقاف النزيف الرئوى مع خليط مع عصير الجزر ؛ ويضيف المؤلف . . . ان للعسل فوائد عديدة ونافعة وله آثار نافعة اذا استنشق صباحا فهو يساعد على سهولة التنفس وقاتل للجراثيم، بالاضافة الى انه مقو عام لجميع اعضاء الجسم . . . والدليل على ان العسل له فوائد كثيرة ، خاصة للجهاز التنفسى، فقد انتجت المانيا الغربية دواء للسعال يدخل فى تركيبه نسبة ٤٥ فى المائة من العسل الابيض .

※ علم النفس الهندسى والفسيولوجى

اثبتت الابحاث التجريبية الحديثة ان تطور تكنولوجية الاجهزة الاوتوماتيكية والآلات والمعدات انها غيرت تفكير البشرية ، فكان الانسان فى الانتاج يصنع كل شيء بنفسه ، اما الآن فهو الذى يتحكم في عملية الآلة اى اخذ يتحول اكثر فأكثر الى قائد يصدر اوامره للاجهزة الاوتوماتيكية . رغما عن ذلك التقدم ، فهذه الاجهزة الاوتوماتيكية فرضت على الانسان ان يكون منتبها قوى الذاكرة ، حاضر البديهة ، سريع الاستجابة . فتطورت الدراسات البيولوجية لخدمةالانسان فاستطاع العلماء نتيجة لدراستهم ،وابحاثهم ان يحددوا الوظائف السيكولوجية العليا للانسان اى صنع معدات مهيأة للاتصال والتعامل مع الانسان ومتناسقة مع قدراته وطاقاته . حيث انه

ثبتت عمليا باننا نرى أكثر مما نتذكر في كل خطوة نخطوها . وبذلك يدرس علم النفس الهندسي الطبي باهتمام شديد « السعة » للانسان بوصفه قناة معلومات وقناة اتصال وايضا تحديد وتنمية المواهب المهنية لدى الانسان ورفع مستواها الى مستوى متطلبات التكنولوجية العصرية المتزايدة .

وفى الابحاث التجريبية وعلى مدى واسع يجرى فى هذا المجال وتقدم للانسان عدة مسائل متزايدة الصعوبة . ويقوم العلماء بعد ذلك ، وبواسطة اجهزة خاصة ، بتحديد ما يسمونه « معامل التقدم » اى القدرة على تنمية المواهب ، وتساعد هذه الطريقة على معرفة ما اذا كان الانسان يستطيع أن يعمل فى اية مهنة من المهن التى تتطلب رد فعل دقيق وسرعة بديهية . وضبط اعصاب واسترشاد فى المواقف غير المتوقعة ، وفحص العاملين قبل توزيعهم على الورش والتخصصات والمناصب . ويحدد العلماء الخصائص الفطرية لكل شخص وقدرته على تنميتها . وهذا يساعد على معرفة العمل الذى يناسب كل انسان ، وعلى عدم تضييع الوقت والمجهود فى تعليمه عملا يناسبه او حرفة لا تتفق مع استعدادته . وبفضل تطور علم البيونيكا يقوم العلماء بوضع علاقات جديدة اكثر ارتباطا بين الانسان والآلة .

وعلم البيونيكا هو علم يدرس استخدام العمليات والمناهج البيولوجية لحل المسائل الهندسيةالحيوية . ويمكن تعريف علم البيونيكا ايضا بانه نظرية مناهج اقامة النظم التكنيكية التى تقترب مواصفاتها من مواصفات الاجسام الحية . ويأخذ هذا العلم تسمية من الكلمة الاغريقية « بيون » اى « خلية حية » . وكم من أبحاث تجرى فى ميدان علم البيونيكا ! ان العلماء يبحثون بجهد عن وسائل بيولوجية للوقاية من الاشعة الخطرة ويأملون ان يتمكنوا من بناء مرشحات حية لتنقية الماء والتربة من النشاط الاشعاعى .

* مكافحة التلوث والاضرار الصناعية :

فى المجتمعات الصناعيةوالمجتمعات المجاورة، نجد الهواء يحتوى على أدخنة كثيرة . وكما ان مياه الانهار تحتوى على مركبات كيميائية ، حتى البحر يحتوى على البترول اى متلوث بالبترول ... الخ ، وهذا ما يسمى بتلوث الهواء والماء والبحر والاضرار التى تعود من هذا التلوث تسيء الى الصحة العامة للانسان. فتجرى مباحثات عديدة فيِنطاق مكافحة التلوث والاضرار الصناعية ومكافحة الضوضاء . في الوقت الحاضر يجرى بناء شكل جديد لجدار من الاسمنت ضد الضوضاء وذلك على الطرق السريعة والمزدحمة والتى تكثر فيها الضوضاء بشكل خاص . فامكن تحقيق ستار مصنوع من الزجاج والالمونيوم وهو يندمج تماما مع الموقع؛كما يتشرب نسبة كبيرة من الارتجاجات التى تحدثها السيارات مما يخفف قليلا من انزعاج السكان المجاورين لهذا الطريق المزدحم .

اما التصنيع والتلوث البيئى فهما عنصران متلازمان تتناسب العلاقة بينهما تناسبا طرديا فكلما ازداد التصنيع ازداد التلوث البيئى معه بما قد يؤثر على الصحة العامة وعلى نوع الحياة . فى نطاق المعرض الدولى لتكنولوجيا الآلات لمكافحةالتلوثوالاضرار الصناعية والذى أقيم بين ٧ ، ١١ ديسمبر عام ١٩٧٦ فى باريس وذلك برعاية ومساهمة وزارة نوع الحياة .

قدم هذا المعرض الدولى الاول لمقاومة التلوث والاضرار الصناعية المعدات والمنتجات والوسائل والخدمات المقررة لفنون الهواء والماء والضجيج والنفايا الصناعية ونفايا المدن ومكافحة التلوث والاضرار . حيث أن هناك نصوصا تشريعية عديدة تلزم كل من يسبب التلوث على استخدام تجهيزات لمكافحة التلوث والاضرار . تحققت أخيرا دراسات لحساب اللجنة الاقتصادية الاوروبية فى بروكسل ، افادت أن أسواق صناعة مكافحة التلوث ستعرف تطورا بمعدل ١٤ فى المائة فى السنة حتى عام ١٩٨٠ . سترتفع هذه النسبة الى

١٥٪ فى السنة فيما يتعلق بمعالجة المياه الصناعية ، كما ستبلغ ٥ر٥٪ بالنسبة لتنقية الهواء . اما ميدان أدوات القياس ومراقبة التلوث الجوى فسيزيد بشكل اكيد حوالى ٢٥٪ فى السنة وذلك حتى عام ١٩٨٠ . اما فيما يتعلق باجهزة العزل الحرارى ، أجهزة الحماية ضد أى تغير في درجات الحرارة ستقارب الزيادة السنوية حتى عام ١٩٨٠ ، ١٥٪ ، بينما سيزيد بيع آلات القياس بمعدل ٢٥٪ . بامكان قطاع جمع النفايا والقضاء عليها ، سواء كانت تتعلق بالنفايا المنزلية او الصناعية ، بامكانه ان يعرف زيادة بيع الادوات والمعدات بمعدل ٢٠ فى المائة فى السنة ، وذلك بسبب بدء تطبيق قانون النفايا الصادر فى يوليو عام ١٩٧٥ .

اليوم بوسعناان نقول اننا نشهد اليوم ميلاد مجال طبى جديد حيث تقف معه كلمات التكنولوجيا بمدلولها العلمي جنبا الى جنب مع هذا المجال وتسلح هذا المجال الطبي الذى يعد من أقدم العلوم ، والتى ولدت كعلم وصفى وتجريبى ، باحدث الوسائل فى ترسانة العلوم ، الا وهى طرق التحليل السليمة ، والتفكير الذهنى والحساب الدقيق . ولقد حطمت التكنولوجيا الحديثة الخرافات القديمة والشعوذة والقيم البالية فى المجال الطبى . واصبح تقدم العلماء المؤشر الذى يوضح اتجاه الانسان الحديث ... وبفضل قدرة العقل الانسانى المعاصر الخارقة والمجددة وبفضل ما أصبح يملك من مقومات وقدرات على التطور وبفضل ما حققه وسيحققه من تقدم تكنولوجى .. وبفضل الاكتشافات ذات المستقبل الكبير فى البيولوجيا الجزئية وفى الكيمياء الحيوية والعضوية والفيزياء الحيوية والفيزياء النووية والاشعاعية وعلم الخلايا وعلم الوراثة، وبفضل ظهور اتجاهات جديدة فيها وغير متوقعة مثل الاحصاء البيولوجى والرياضيات البيولوجية ونظرية النظم . فوجدنا وتحققنا ان التكنولوجيا المعاصرة الآن قد دخلت بالفعل فى المجال الطبى بشتى فروعه ، والاستخدامات الطبية للاجهزة الصوتية وغيرها فالعقل هو الطريق للايمان ... ونحن نقبل على الايمان بعقولنا .. وان التقدم أمر لا يمكن الرجوع عنه ، ولا يمكن ايقافه لان العقل دائم البحث والاكتشاف والابتكار . وبجانب هذا العرض أود ان اكرر اهتمامى والتركيز بالنهوض بالارتقاء الفكرى والثقافى (السمو الفكرى ـ المآثر الثقافية) فى العالم العربى ونرتفع به الى اسمى مكانة والاعتناء ايضا بانماء ملكاتنا العقلية وتعميق ثقافاتنا حيث انها تقدم لنا قوة فكرية تقدمية في جو مكيف المناخ . كما يسمح الارتقاء الفكرى والثقافى للطفل بتعليم ما لا يستطيع ان يتعلمه فى الكتب، وبالتالى فان مهمتنا هى دراسة ما يمكن ان تقدمه المآثر الثقافية للعلم والتكنولوجيا ومع دولة العلم والايمان ومزودا بطاقة الاصالة الحضارية التى تملكها الامة العربية .

★ ★ ★

المراجع العلمية

١ ـ الموسوعة الصغيرة في علم السيبرنيتيكا ـ فيكتور بيكيليس

٢ ـ اسس الالكترونيات ـ ا. جيربيتسوف

٣ ـ l'ASSOCIATION POUR LA DIFFUSION DE LA PENSEE FRANCAISE

٤ ـ مؤتمر امراض الاذن والانف والحلق ـ لوشون ـ مدينةالمياه المعدنية بفرنسا سنة ١٩٧٦ .

٥ ـ المؤتمر الثالث والسبعون الفرنسي لامراض الاذن والانفوالحلق والرقبة ـ باريس كلية السان بيير ـ سبتمبر سنة ١٩٧٦ .

٦ ـ فوائد العلاج بالمياه المعدنية ـ الاستاذ شارل دوبريه ـفيشي فرنسا ـ مختبر المياه التابع لمستشفى بيشا .

٧ ـ A New Freezing - Ultramicrotome
H. Moor' Ph.D, K. Muühlethalaer, Ph.D., H. Waldner,
A. Frey, - Wyssling, Ph.D
The Journal of Biophysical and Biochemical
Cytology, 1961, Vol. 10, No. 1

٨ ـ Dijon - France 6e Congrés de la Société européenne de neuroradiologie
„Etude radiologique des Vaisseau anormaux dans les tumeurs cerebrales'' Sept. 1976.

٩ ـ l' exposition „Biocapt 75'' (l'electronique au sevice du malade) BNF n. 1327
du B-12 75

١٠ ـ الايام الوطنية لعلم الاشعة ـ باريس ـ ١٦ ـ ١٨ فبراير/١٩٧٦ بمستشفى امراض الاطفال .

١١ ـ الانسان والالة ـ فرنسا ـ تولوز ـ ٢٥ ـ ٢٦ نوفمبر١٩٧٦ .

١٢ ـ المؤتمر الدولي لجمعية امراض القلب الفرنسية ـ ٦ ـ٨ ديسمبر ١٩٧٦ باريس ٧٥.١٩ .

١٣ ـ المؤتمر الفرنسي للجراحة ـ معالجة سرطان العظم ـ باريس ١٩٧٦ .

١٤ ـ Le Professeur charles Gros, MM. Quennville et Gautherie, Chercheurs a l'institut
National de la Sante et de la Recherche Medicale de Strasbourg France 1976.

١٥ ـ Charles Gros: Fondateure de l'ecole de "Sénologie'' strasbourg - France.

١٦ ـ Professeur Debrun. l'Hospital Henri - Mondor de Creteil - Paris - France.

١٧ ـ P.W.R. BEAUMONT, JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER
1977 p. 1485 part I

١٨ ـ P.W.R. BEAUMONT AND B. L PLUMPTON
JOURANL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1853 part 2.

١٩ ـ ROBERT FRANK, DIRECTEUR DE l'ECOLE DE
CHIRURGIE DENTAIRE a STRASBOURG. FRANCE.

٢٠ ـ التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص بالقنية الجذر بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة ـ رسالة دكتوراه ١٩٧٧ جامعة القاهرة ـ كلية طب الاسنان .

اشرف على الرسالة الدكتورة سلسبيل محمد محمودابراهيم الاستاذ المساعد بكلية طب الاسنان ـ جامعة القاهرة ـ والدكتور مصطفى كمال محمد المدرس بكلية العلوم جامعةالمنصورة .. وصاحبة الرسالة السيدة الطبيبة سلمى حسن العشرى .

٢١ ـ Le Professeur Hannoun l'institut Pasteur - 25° Journees Pharmaceutiques internationales - Paris 1975.

٢٢ ـ الذكرى العاشرة لتاسيس المؤسسة الوطنية للصحةوالبحث الطبى ـ ١٩٧٥ ـ فرنسا .

٢٣ ـ مؤتمر امراض الكبد لدى الاطفال ـ باريس ١٩٧٥ .

٢٤ ـ اجتماع المركز الوطنى لتنسيق الدراسات وابحاثالتغذية باريس ـ ١٩٧٥ .

٢٥ ـ مؤسسة تنظيم الغذاء ـ مؤتمر لدراسة موضوعالقضايا المرتبطة بالصحة الغذائية لسائق السيارة ـ كلية الطب ـ باريس ١٩٧٤ .

٢٦ ـ ايام الجمعية الفرنسية الوطنية للطب ماقبل الوضعوما بعده ـ مدينة تور ـ ١٩٧٤ .

٢٧ ـ Tables rondes - les Entreiens de Bichati :
CHU Pitié - Salpêtrière, 105, Boulevard de l'Hôspital, 75013 Paris 0 Septembre et Octobre 1976.

٢٨ ـ مؤتمر علماء الانفعالات الكيميائية للمواد الحية فيباريس يوليو ـ ١٩٧٥ .

٢٩ ـ Groupe d'etudes de la fatigue - Docteur Pierre Burgard, 2, Square du Croisice - 75015 Paris.

٣٠ ـ La 2° Semaine internationale de l'Euvironnement du 7 au 11 decembre - Paris - 1976.

٣١ ـ التكنولوجيا الحديثة في المجال الطبى للتنمية وبناءالمجتمع لعام ٢٠٠٠/١٩٧٧ لسنة ١٧ العدد ٥٥٦ ـ جريدة الشباب العربى ـ مصر . للدكتور مصطفى كمال محمد .

٣٢ ـ Journees Pharamaceutiques internationales de Paris (26° Journee Pharmaceutiques, Francaises) "Le Pharmacien et le 3° âge" Paris Sep. 1976.

٣٣ ـ 73° Congres Francais d'oto - rhino laryngologie et de pathologie cervicofaciale. Paris Sept. 1976.

٣٤ ـ 22° Réunion europêene d'information en Epileptologie et en Electroencéphalographie Marseille France Sept. 1976.

٣٥ ـ 5° Congres international de médecine Psychosomatique - société francaise de psychosomatique "La place du corps dans la relation PSYCHOSOMATIQUE et Médicale. Paris - sept - 1976

٣٦ ـ Colloque "Biomedica" 11" - TRIA "Homme/machine" Toulouse - France Novembre 1976.

٣٧ ـ Congres international de l'Association dentaire Francaise - Decembre - 1976.

٣٨ ـ Journées nationales de radiologie novembre - Paris - 1976.

٣٩ ـ Dr. Coucazou Jacques Specialisé en Urologie, Acadamie de Moutpéllier, France.

الدافعية بين التنظير والنمذجة

دراسة تحليلية مقارنة

طلعت منصور *

لعبت الدافعية دورا متعاظم الاهمية فى نظريات علم نفس القرن العشرين ، فمفاهيم وفروض الدافعية تؤلف اجزاء متكاملة مع الكثير من نظريات علم النفس بعامة ، والتعلم والشخصية بخاصة . كذلك شهدت العقود الثلاثة الاخيرة من هذا القرن بناء نظريات للدافعية اكثر تخصصا . وترتبط هذه الحركة بطبيعة الحال، بتزايد مقدار النشاط التجريبى ارتباطا بمتطلبات العصر الخاصة بتحقيق الاداء الافضل والتوظيف الامثل لامكانات الفرد وطاقاته النفسية . ومن هنا ، كان الاهتمام المتزايد بعلم النفس الدافعى (Motivational Psychology)، او بعلم الدافعية Motivology(١)

وتصور الدافعية ــ كما يقرر « **بول توماس يونج** » (١٩٦١) ــ على انها مصطلح عام «الكل

(*) دكتور طلعت منصور مدرس الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس . اسهم ببحوث منشورة فى بعض المؤتمرات الدولية . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والمجمع المصرى للثقافة العلمية ، والجمعية الامريكية للتقدم والعلوم .

(١) مصطلح اقترحه « ر. س. وودورث » (١٩١٨) .

محددات السلوك » ، يتطلب منا فى هذه الدراسة ان نضع فى الاعتبار تلك النظريات التى تتضمن مصطلحات اساسية مثل الدافعية الدافع ، الحافز ، الحاجة ، الغريزة ، القوة ، الباعث ، القيمة الذاتية ، وغير ذلك . ونرجو ان نكون قد وفقنا فى انتقاء تلك النظريات التى اثرت فى البحث السيكولوجى وفى تطور التصورات النظرية ابان العقود الثلاثة او الاربعة الاخيرة (٢) .

وهدفنا الا نقدم اهم نظريات الدافعية واحدة تلو الاخرى ، ولكن ان نعرض لنتائج الدراسة المقارنة لنظريات الدافعية وفقا للموضوعات التالية :

١ ـ تطور التنظير فى الدافعية .

٢ ـ مفاهيم الدافعية

٣ ـ نمذجة الدافعية .

(١) تطور التنظير فى الدافعية

لقد قيل عن علم النفس ، كما يقرر « ابنجهاوس » ، ان « له ماضيا طويلا ولكن تاريخا قصيرا » . ولعل هذا يصدق بصفة خاصة على سيكولوجية الدافعية . فقد شكلت فروض ومفاهيم الدافعية جزءا هاما من التصورات الفلسفية والسيكولوجية خلال تاريخها الطويل اعتبارا من فلاسفة الاغريق . لكن الكتاب الاول الذى تكرس تماما للدافعية قد ظهر فى عام ١٩٣٦ (يونج ، ١٩٣٦) ، ولم تظهر المراجع الاولى التى تغطى ميدان علم النفس الدافعى الا فى العقد الاخير . كتب المرجع الاول عالم فذ آخر هو (وودورث ١٩٥٨) ، ثم تبعه آخرون ، بندرا (١٩٥٩) مادسن (١٩٥٩) ، هول (١٩٦١) ، براون (١٩٦١) ، يونج (١٩٦١) ، رتلينجشافر (١٩٦٣) ، اتكنسون (١٩٦٤) ، كوفروآبلى (١٩٦٤) ، تومای (١٩٦٥) ، بولز (١٩٦٧) وغيرهم . وقد ظهر اول مسح للميدان في الكتاب السنوى لعلم النفس المعروف بـ

Annual Review of Psychology

فى عام ١٩٥٢ ، وكتبه « ماورر » .

كان ميلاد علم النفس كعلم مستقل نتاج « التهجين » بين الفلسفة والفسيولوجيا التجريبية . وفى علم النفس التجريبى « الكلاسيكى » هذا ، الذى نشأ على أيدى فخنر وڤونت وابنجهاوس وغيرهم من السيكولوجيين الالمان ، لم يكن ثمة مجال او استخدام للمفاهيم او الفروض الدافعية . ويمكن ان نعزى اسباب هذه الحقيقة التاريخية الى ان السيكولوجيين التجريبيين الكلاسيكيين قد استأثرتهم دراسة العمليات المعرفية ـ خاصة الاحساس والادراك ، كما تملكتهم الطريقة الاستبطانية فى هذا الصدد . وفى نفس الوقت كان هناك اتجاه صاعد آخر فى البلاد الانجلو ـ سكسونية .

سيكلوجيا وايثولوجيا الغرائز : فى الوقت الذى كان فيه علم النفس التجريبى آخذا فى النمو فى المانيا ، كانت هناك ثورة علمية ذات دلالة بالغة تتقدم في انجلترا بنشر « داروين » لكتابه « اصل الانواع » (١٨٥٩) ، وهو الكتاب الذى اثر فى علم النفس تأثيرا بالغ العمق . لقد جعلت نظرية داروين عن التطور البيولوجى فى الامكان تفسير السلوك الانسانى بتطبيق المبادىء ذاتها التى طالما استخدمت في تفسير سلوك الحيوان . ومنذ فجر التاريخ

---

(٢) يمكن الرجوع ، لمن يريد معلومات اعمق واوسع عن نظريات الدافعية ، الى الدراسات المسحية لمجموعة من العلماء المبرزين فى هذا الميدان ، مثل : اتكنسون (١٩٦٣) ، بولز (١٩٦٧) ، تومای (١٩٦٥) ، هيلجارد (١٩٦٣) ، كوفر وايلى (١٩٦٤) ، كيش (١٩٥٩) ، مادسن (١٩٥٩) ، يونج (١٩٦١) ، بالاضافة الى المصدر البالغ القيمة

Jones, M.R. (ed.) Nebraska symposium on motivation. Lincoln : Nebraska Univ. Press, 1953-1963.

كان المفهوم الاساسى المستخدم فى تفسير سلوك الحيوان هو « الغريزة » للاشارة الى « القوى الدافعة » وكذلك « الميكانزمات المحركة » فى سلوك الحيوان. وقد صار ايضا مفهوم الغريزة بعد نشر نظرية داروين ، شائعا بين علماء النفس ، خاصة فى الدول الانجلو سكسونية. لذا قدم وليم جيمس ، وهو أول عالم نفس امريكى ذي شأن كبير ، غرائز متعددة لتفسير السلوك الانسانى ، لكن موازية لمفاهيم تفسيرية أخرى مثل « العادات » و « الانفعالات » و « الارادة » .

كان وليم ما كدوجل (١٩٠٨) ، عالم النفس الانجليزى – الامريكى ، هو الذى اعتبر « الغريزة » على انها مفهوم اساسى فى تفسير السلوك الانسانى . وجوهر نظريته محاولة لاقامة علم النفس استنادا الى مبادىء التطور . وفى كتابه « مقدمة في علم النفس الاجتماعى » ، الذى كان له تأثير بالغ على الفكر السيكولوجى بحيث صدرت منه اكثر من ثلاثين طبعة منذ نشره فى عام ١٩٠٨ ، يعرف « الغريزة » على النحو التالى :

« يمكن ان نعرف الغريزة ، اذن ، على انها استعداد نفسي – جسمى موروث أو فطرى ، تهيء صاحبها الى ان يدرك وينتبه الى موضوعات من فئة معينة، وان يخبر استثارة انفعالية من نوع معين عندما يدرك ذلك الشىء، وان يسلك وفقا لها بطريقة معينة : أو ، على الاقل : ان يخبر اندفاعا نحو ذلك السلوك» (ص ٢٥)

وفى نظريته عن الغرائز ، يقابل ماكدوجل الغريزة بانفعال معين ، مؤكدا بذلك تأثره بالتوازية Parallelism كاتجاه مسيطر على علماء النفس فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخه؛ ومن ثم فهو يربط بين قائمة الغرائز ومايوازيها من انفعالات معينة . مثل غريزة المقاتلة – انفعال الغضب ، غريزة حب الاستطلاع – انفعال التعجب ، غريزة الهرب – انفعال الخوف ، الغريزة الاجتماعية – انفعال الميل للتجمع ، غريزة السيطرة – انفعال الزهو ، الغريزة الوالدية – انفعال العطف والحنان ، وغير ذلك من الغرائز .

ويتضح من التعريف السابق ان «الغريزة» فى نظرية ما كدوجل مصطلح تفسيرى حصرى يتضمن :

(ا) المكونات المعرفية التوجيهية (« ان يدرك » ؛ « ان ينتبه الى ») .

(ب) وكذلك المكونات التنشيطية الدينامية (« الاستثارة الانفعالية » ، « ان يخبر اندفاعا » ، « ان يسلك ») . وتصور مكدوجل للغرائز على هذا النحو ، يعنى فى نفس الوقت انها مصدر لنظام الدوافع . واذ تتحدد هذه الوظائف التوجيهية والدينامية باستعداد وراثى يصير مفهوم الغريزة عند ماكدوجل مفهوما تفسيريا كاذبا Pseudoexplanatory concept تماما ، خاصة وانه لم يقاوم غواية ابتداعه لغرائز كثيرة للغاية . لقد قدم فى كتابه (١٩٠٨) فقط اثنتى عشرة غريزة ، ثم اوصل هذا العدد فيما بعد الى اربع عشرة غريزة لتنتهى بما يعرف بالثمانية عشر ميلا فطريا Propensities ، وهذا التحول فى المصطلح كان نتيجة للجدل النقدى الطويل الذى شغل علماء النفس في العشرينات من هذا القرن . ويتمركز ما يعرف بالجدل حول الغريزة فى عالم النفس « جون واطسون » ، الذى ادرك – وغيره من السلوكيين – الخاصية التفسيرية الكاذبة لمفهوم الغريزة بعد ما صار من الواضح ان الكثير من علماء النفس والانثروبولوجيا كان يلجأ الى ابتداع غرائز جديدة فى كل مرة يحتاجون فيها الى مفهوم تفسيرى للظاهرات التى يدرسونها ، وقد استبقي ماكدوجل فى مفهومه عن الميل الفطرى Propensity concept فقط تلك المكونات الاكثر دينامية

لمفهومه السابق عن الغريزة ، كما يتضح من التعريف التالي :

« الميل الفطرى استعداد ، وحدة وظيفية للتنظيم الكلى للعقل . وهو استعداد ، حينما يستثار ، يخلق ميلا نشطا ، سعيا ، اندفاعا ، أو حافزا نحو هدف معين » (١٩٣٢ ، ص ١١٨) .

ويحدد مصطلح الغريزة فيما بعد على النحو التالى :

« الغريزة هى ذلك الجانب الخاص من تنظيم الكائن الحى (وحدة وظيفية) يعبر عن نفسه فى تتابع للاداء الغريزى (ص ٤٩) .

بهذا التعريف الاخير للغريزة يكون ماكدوجل اكثر اتفاقا مع استخدام المصطلح لدى علماء الايثولوجيا المحدثين الذين حللوا المفهوم القديم للغريزة ، وهو مفهوم حصرى غامض ، الى عناصر متعددة تحمل معانيا محددة أكثر .

يعتبر « ك . لورنز » مؤسس علم « الايثولوجيا » (Ethology) ، (٣) بينما يعتبر « ن . تنبرجن » منظره المنهجى . ويلخص « تنبرجن » نظريته عن الغريزة فى هذا التعريف :

« سوف اعرف الغريزة بطريقة اختبارية على انها ميكانزم عصبى منظم بطريقة متدرجة هرميا ، مستهدف لجوانب معينة مهياة للاستثارة (Priming) يطلق ويوجه بالاندفاعات (impulses) ذات الاصل الداخلى وكذلك الخارجى ، ويستجيب لهذه الاندفاعات بواسطة حركات متسقة تسهم فى بقاء الفرد والنوع (١٩٥١ ، ص ١١٢) .

يعرف « تنبرجن » الغريزة ، كما يوضح هذا الاشتقاق على انها ميكانزم ينشط بالاندفاعات التى تعرف فى موضع آخر كما يلى :

« يحدد تأثير هذه العوامل الخارجية الدافعية لدى الحيوان ، التنشيط والاستثارة لغرائزه » (ص ٥٧) .

هذا الفارق بين الميكانزم والدافعية يوجد ايضا فى النظريات الاخرى التى نمت فى هذا القرن موازية للنظريات « الايثولوجية » .

ورغم ما لنظريات الغرائز من آثار عميقة على علم النفس ، الا ان مصطلح « غريزة » قد استخدم بمعانى مختلفة . فاذا كان التعريف التقليدى للغريزة كنموذج منظم ومركب للسلوك يميز النوع الواحد فى موقف معين ، كنموذج غير متعلم ، وغير مرن بدرجة أو بأخرى ، فان الغرائز المحددة على هذا النحو غير موجودة بين الكائنات الانسانية ، ولم تتضح أى غريزة علميا . ففى الكائنات الانسانية تتأثر كل النماذج المركبة للسلوك بالتعلم ، بل حتى لدى الحيوانات الدنيا ، يتأثر النشاط الغريزى بالبيئة .

---

(٣) يشيع تحديد « الايثولوجية » على اساس وصف « فربلانك »

Verplank, W.S. (1957) Aglossary of some terms used in the objective science of behavior. **Psychol. Rev.** 64, No. 6, Part 2, pp. 1-42.

للعلوم السلوكية الموضوعية ، التي يحدد فيها العالم الايثولوجي على انه « .. عالم سلوكي يلقى تدريبه فى علم الحيوانات ، ويدرس عادة سلوك الحشرات والاسماك والطيور اكثر غالبا مما يدرس الثدييات والمجموعات الاخرى ... انه دارس للسلوك المقارن .. عالم سلوكى يحب حيواناته »(ص ١٤) . اما السلوكى فهو : « ذلك العالم الذى يبحث فى سلوك الحيوانات بطريقة موضوعية والذى يحاول ربط ملاحظاته معا فى نظام نظرى لا يتضمن مفاهيم مستعارة من الاستبطان والفلسفة العقلية » (ص ٦) .

وتوازى نظام الغرائز عند ماكدوجل معنظام للعواطف ينطوى على اثر الخبرة والتعلم على السلوك الغريزى ، وان كان ماكدوجل لم يتنبه الى ذلك . يطلق « ج . ميرفى » (١٩٤٧) على ذلك عملية الجدولة canalization

فالدوافع الاساسية لا تتبدى بنمط غريزى محض ، ولكن مختلطة ومتداخلة مع التجربة والتعلم . واذ اغفل ما كدوجل ما تتصف به الدوافع وما يعتريها من تبدل وتحول ، عنى فرويد بهذا الجانب المميز للدافعية لينتهى الى ان علم النفس مطالب ، ليس برد الافعال الى مصادرها الغريزية ، وانما بالكشف عن هذه التغيرية فى الحالات الدافعية .

فما جرى من اعتباره سلوكا قائما على الغريزة والفطرة والتكوين البيولوجى للنوع ، لم يكن منعزلا عن آثار الخبرة والتعلم . وتلك حقيقة ابدتها دراسات متعددة .

مثال ذلك ، فى حالة حرمان الكائن الحى من الطعام لفترة طويلة ، تحدث عدة تغيرات جسمية :

(١) انقباضات معدية .

(٢) تناقص معدل السكر فى الدم .

(٣) تزايد نشاط الجهاز العصبى المركزى ويشيع الاعتقاد خطأ بأن الجوع يتسبب عن الانقباضات المعدية . لكن يصف بعض الباحثين مريضا خضع لعملية استئصال للمعدة gastrectomy ، الا انه كان يقرر بعدها انه يشعر كالعادة باحساسات الجوع (وانجنستين) كارسلون ، ١٩٣١) . واستجابت الفيران ، التى تعرضت لاستئصال المعدة ، للحرمان من الطعام بنفس « سلوك الجوع » مثل فيران المجموعة الضابطة التى لم تخضع للاستئصال (تسانج ، ١٩٣٨) . هذه النتائج قد ابدتها بحوث (باش ، ١٩٣٩ ، مورجان ومورجان ، ١٩٤٠) الذين وجدوا ، بعد قطع الاعصاب من المعدة الى المخ ، ان مفحوصيهم كانوا يستجيبون كما لو كانوا فى حالة من الجوع . اى ان الانقباضات المعدية ليست حدثا داخليا ضروريا لدافع الجوع ، لكنها أحد المتغيرات العديدة التى عادة ما تتضافر لاحداث الجوع .

وتوضح البيئة التجريبية ان تأثيرات الجوع على السلوك تتغير مع الخبرة بدرجة كبيرة . ولذا ، حينما اخضعت الفيران لجدول منظم من الحرمان مع اطعامها فى نهاية كل فترة من الحرمان ، وجد أنها — بعد عدة مرات قليلة — اخذت تتناول كمية ثابتة من الطعام فى كل مرة ، بدلا من التهام اكبر قدر ممكن من الطعام وتبين احد هذه البحوث (لاورنس ، ماسون ، ١٩٥٥) انه اذا ارتبطت فترة الاطعام التجريبية مع الفترة المعتادة لتناول الطعام ، فان الحيوانات سوف تأكل اكثر مما لو كان الاطعام غير مرتبطا بالفترات المنتظمة لتناول الطعام .

وهكذا ، توضح حقائق علم النفس الفسيولوجى Psychophysiology والمقارن Comparative Psychology ، ابتداء من دراسات بافلوف الشهيرة ودراسات التعلم الحيوانى ، **ان الكثير من جوانب السلوك التى تبدو انها تعتمد على الجوع البيولوجى يمكن ان تستدعى بالمثيرات الخارجية المرتبطة بالهدف فبعض هذه الجوانب فطرى، وراثى ،بيولوجى والآخر متعلم ، وكثيرا ما تتداخل فى علاقات متشابكة مع نظام الدوافع .**

وبالنسبة للانسان ، ثمة فارق كبير بين وجهة النظر التى تذهب الى أن الحاجات الاجتماعية لدى الانسان ، وكذلك حاجاته الجسمية ، جزء من الطبيعة الوراثية للنوع الانسانى ، ووجهة النظر التى تذهب الى أن الحاجات الاجتماعية متعلمة من الثقافة التى نشأ فيها وانه حتى اشباع حاجاته الجسمية

يتأثر بثقافته بدرجة واضحة. ولعل **الدراسات الانثروبولوجية** قد أوضحت ان ما يقرره بعض العلماء من وجود غرائز معينة لا توجد في بيئات أخرى كالثقافات البدائية مثلا، ومن ثم لا يوجد اتفاق على نوع الغرائز وعددها ، وبالتالي يبدى بعض الباحثين ميلا الى رفض نظرية الغرائز .

ويفضل بعض العلماء المحدثين عدم نبذ مفهوم الغريزة ، بل ان يعدلوا من التعريف . فعلى سبيل المثال ، يذهب « ايزنك » الى ما يسميه بـ « الحاجات المتفرزة » Instinctoid needs، وهي حاجات ذات اساس غريزي ، ولكن الطريقة التي تشبع بها تعتمد على التعلم بدرجة كبيرة .

في الحقيقة ، بدلا من تغيير تعريف الغريزة واضافة مزيد من الالتباس الى هذا المفهوم النظري ؛ من الافضل نبذ هذا المصطلح كما يتعلق بالسلوك الانساني . فالتفكير في ضوء هذه « الثنائية » بين الغريزة والتعلم يؤدي بنا الى نفس المنعطف المغلق الذي أعاق التقدم لفترة طويلة في قضية الوراثة ــ البيئة بالنسبة للذكاء .

ولعل من الاجدى ان يكون تفكيرنا في ضوء التركيب الوراثي للكائن الحي في تفاعله مع بيئته وثقافته . وهنا نؤكد الاهمية البالغة لطبيعة التركيب الوراثي . فالقطة ، مثلا ، ترث نوع التركيب الذي يهيؤها لمناشط معينة وفي نفس الوقت يحدد ما تستطيع ان تفعله (ان تمسك الفأر ، وتتسلق الشجرة) ، لكنها لا تستطيع ان تتكلم أو تقرأ كتابا) . والكائنات الانسانية ترث نوع التركيب الذي يمكنها من ان تمشي ؛ ومن ان تسوق السيارة ، ومن ان تتصل بالاخرين عن طريق الرموز والكلمات والمعاني ، ومن ان تخطط للمستقبل . لكنها لا تستطيع ان تنمو طولا الى خمسين قدما ، او ان تعيش على الحشائش ، أو ان تحل المشكلات التي تتعدى حدودها .

فسلوك الكائنات الحية يتحدد بطبيعة التركيب الوراثي والبيئة التي تعيش فيها . ومن ثم ، فان وصف ذلك السلوك على انه سلوك غريزي او متفرز يعتبر تبسيطا زائدا .

● ● ●

في الوقت الذي خرج فيه ماكدوجل بنظرية الغرائز ، ظهر اتجاهان آخران في علم النفس ، تأثرا بداروين أكثر من تأثرهما بفونت . ويمثل هذان الاتجاهان النمو الجنيني لنظامين جديدين في علم النفس :

(١) سيكولوجية التعلم أو الـ (Manthanology) (٤) ، وهو المنحى البيولوجي (Biotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل علم النفس الفسيولوجي وسيكولوجية التعلم .

(٢) سيكولوجية الشخصية أو « علم الشخصية » (Personology) (٥) . وهو المنحى الاجتماعي (Sociotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل سيكولوجية الشخصية . وما حدث بين هذين المنحيين من تفاعل يتضح من شكل (١) .

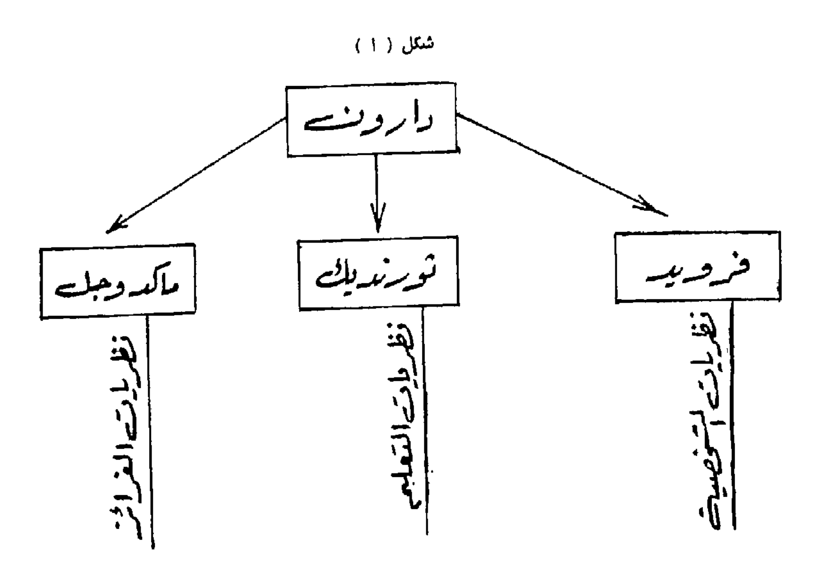
ولا يزال علم النفس الدافعي يرتبط بقوة بهذين الميدانين . كما أن الكثير من التصورات والفروض المعاصرة عن الدافعية يمكن فهمها

---

(٤) هذا المصطلح ماخوذ عن اقتراح قدمه «كلايد نوبل»
(Clyde E. Noble), Contemporary Psychology, 1968, 13, p. 10.

(٥) مصطلح اقترحه « هـ . موراى » (١٩٣٨) .

شكل (١)



فحسب ارتباطا بهذه الحلفية التاريخية ، كما يتضح من شكل (١) :

المنحى البيولوجي لعلم النفس الدافعي :

سيكولوجية التعلم وعلم النفسى الفسيولوجى :

بتأثير الدارونية نما الاهتمام بالتعلم الحيوانى فى أواخر القرن التاسع عشر . ومن بين من استلهم بنظرية التطور عالم النفس الامريكى « ادوارد لى ثورنديك » ، الذى كان الرائد العظيم فى خلق علم نفس تجريبى للتعلم . فى عام ١٨٩٨ نشر تجاربه المشهورة على القطط فى صندوق ـ متاهة، ووصف التعلم «كمحاولة وخطأ » أو « تعلما انتقائيا » (Selective Learning) ولكى يفسر التعلم اقترح عدة قوانين ، من بينها القانون المشهور المعروف بـ « **قانون الأثر** » :

« من بين الاستجابات العديدة لنفس الموقف فان تلك التى تصاحب او تتبع تماما بارضاء للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ، سوف ترتبط بدرجة اوثق بالموقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اكثر احتمالا للوقوع ؛ اما تلك التى تصاحب او تتبع بعدم ارتياح للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ، تضعف روابطها بالموقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اقل احتمالا للوقوع . فبقدر ما يكون الارضاء او عدم الارتياح ؛ تكون قوة او ضعف الرابطة » (١٨٩٨ ، ١٩١١) .

وقد جعل « قانون الأثر » هذا من التدعيم الموضوع الرئيسى فى سيكواوجية التعلم لثلثى قرن . بتقديم مفاهيم «الارضاء» او «الاشباع» Satisfaction « وعدم الارتياح » discomfort كمدعمات ايجابية وسلبية ؛ جعل ثورنديك من المتغيرات الدافعية العوامل الاكثر اهمية فى سيكولوجية التعلم . مثلما صار خفض الدافعية (الارضاء) وعدم الخفض للدافعية (عدم الارتياح) الشروط الاكثر اهمية للتعلم (خاصة في اعمال ثورنديك بعد عام ١٩٢٩) .

وقد استخدم ثورنديك المصطلح الشائع « الغريزة » كدلالة على المتغير الدافعي الاساسى لكن حينما احتدم « الجدل حول الغريزة » استبدل مصطلح « غريزة » فى نظريات التعلم بمصطلحات اخرى للمتغيرات الدافعية الاولية مثل « الحوافز » ، « الحاجات » ، «المطالب» وغير ذلك .

وقد كان « وودورث » (١٩١٨) هو الذى قدم مصطلح« حافز» (drive) لتعيين المتغير الدينامى الذى يحرك او ينشط ميكانزمات السلوك لكن اعظم ادخال المتغيرات الدافعية فى سيكولوجية التعلم كان على يدى « ادوارد تولمان » . لقد قدم كتابه الذائع الصيت «السلوك الغرضى لدى الحيوانات والانسان» (١٩٣٢) المتغيرات الدافعية كالحوافز والمطالب على انها اكثر المحددات السلوكية او المتغيرات الوسيطة اهمية جنبا الى جنب مع المتغيرات المعرفية : « استعداد الغاية ـ الوسيلة » (means and-readiness) و « التوقعات » (expectations) . لم يكن تولمان صاحب نظرية فى التدعيم ، لكن الدافعية بالنسبة له ، لعبت دورا هاما كمحدد للاداء ، الذى يرشد أو يوجه ايجابيا بالمحددات المعرفية .

لم يهتم تولمان ابدا بالنمو الشكلى لنظريته، وعمد الى تغيير مصطلحاته خلال سنوات بحثه فاذ بدأ بـ « المطالب » و « الحوافز » ، تحول الى « الحاجة » ليعود فى النهاية الى « الحافز » (٦)

الان تولمان قد اثرى المنظر الفذ لسيكولوجية التعلم : « كلارك هل » ، الذى تمثل اعماله الرئيسية (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) اعظم نظرية متطورة فى السلوك . فى هذين الكتابين (١٩٤٣ ١٩٥٢) طور هل قانون الاثر عند ثورنديك الى نظرية للتدعيم ، منظمة ومحكمة . وقد استبدل في هذه النظرية ، « الارضاء » عند ثورنديك بـ « اختزال الحاجة » وفيما بعد بـ « اختزال الحافز » وحدد المصطلحين الدافعيين الهامين ، « الحاجة » و « الحافز »، على النحو التالى :

« حينما ينشأ موقف يكون فيه الاداء من جانب الكائن الحى لازما للاحتمالية الامثل للبقاء سواء بالنسبة للفرد او النوع ، يقال انه توجد حالة حاجة . ولما كانت الحاجة ، سواء فعلية أم كامنة ، عادة ما تسبق وتصاحب اداء الكائن الحى ، غالبا ما يقال ان الحاجة تدفع او تحفز النشاط المرتبط . وبسبب هذه الخاصية الدافعية للحاجات ، فانها تعتبر كمنتجة لحوافز حيوانية اولية » .

« ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ فى هذا الصدد أن المفهوم العام للحافز يميل بقوة الى ان يكون له الوضع المنظم لمتغير وسيطاو (*)، لايمكن ملاحظته ابدا بطريقة مباشرة » (هل ١٩٤٣ ، ص ٥٧) .

« الحاجة » ، اذن ، متغير مستقل يحدد المتغير الوسيط « الحافز » « ف » ، الذى بدوره يتحد مع متغيرات وسيطة اخرى فى تحديد السلوك .

ومن بين المتغيرات الوسيطة الاكثر اهمية ، بالاضافة الى الحافز(D)متغير دافعية ـ الباعث incentive - motivation variable (K) الذى يتحدد بمقدار ونوعية الاثابة وقوة العادة م ع س . وهذه المتغيرات الوسيطة تتحد بطريقة تضعيفية فى جهد استدعاء رد الفعل reaction evocation-potential (sEr)

السلوك = دالة (sEr) = دالة (Dx K x sHr)

(٦) ارجع الى الاعمال الرئيسية لتولمان (١٩٤٢، ١٩٥١ ، ١٩٥٩) .

لقد اثرت نظرية هل بعمق فى تطور نظرية التعلم . « فبين نظريات التعلم المعاصرة يشمخ بناء هل مهيبا بروعة بنبانه ، جميلا بتناسب اجزائه ، فريدا فى تناسق تفاصيله (سيد عثمان ١٩٧٤) . فمن بين زملائه وتلاميذه النجباء كان : « ك . سبنس » ، « ن . ميلر » « ماورر » ، « ج . براون » .

يتمثل اسهام « سبنس » فى نمو مفهوم « الباعث » (incentive) بين المتغيرات الدافعية . لقد غير مفهومه من نظرية تدعيم خفض الحافز
drive - reduction - reinforcement theory
الى ما يعرف بقانون الاثر التجريبي
Empirical Law of Effect ، الذي فيه تلعب الدافعية وخفض الدافعية فحسب دورا فى الاداء ، بينما يفهم التعلم على انه تشريط كلاسيكي يتبع « مبدأ التجاور » Contiguity principle (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) .

اما « ميلر » ، بالتعاون مع « دولا رد » ، فقد طبق شكلا مبسطا لنظرية هل على التعلم الاجتماعي (ميلر ، دولا رد ، ١٩٤١) وعلى نظرية الشخصية والعلاج النفسي (دولارد ، ميلر ، ١٩٥٠) وبجانب ذلك ، طور نظرية شكلية عن السلوك الصراعي (ميلر ، ١٩٥٩) ، واكثر المفاهيم اهمية فى نظرية ميلر : «الحافز»، « الامارة » cue ، «الاثابة»، «الاستجابة». يتحدد الحافز على أنه « مثير قوى » : ولكل مثير قوى « وظيفة الحافز » drive - function تستثير الاستجابات وتنشطها.
وبالاضافة الى ذلك ، يمكن ان يكون للمثيرات « وظيفة الامارة » cue-function التي توجه السلوك . اما « الاثابة » فهي ذلك الشيء الذي ينتج « خفض الحافز » ، الذي بدوره يدعم الاستجابات للمثير . وتعريف الحافز كنوع من المثير ينطوي على مزايا كثيرة: **أولا** ، ان قانون التعميم (والقوانين الاخرى للتعلم) يمكن تطبيقة على الحافز ، **ثانيا** ، « ان الميكانزم الاساسي للدافعية (الاستثارة القوية) واحد بالنسبة للحوافز الاولية والمتعلمة ، وان الميكانزم الاساسي للتدعيم (خفض فى الاستثارة القوية) واحد بالنسبة للاثابات الاولية والمتعلمة » (ميلر ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤٠) . وقد قام « ميلر » بتجارب هامة كثيرة عن الدافعية والتعلم .

وقدم « ماورر » ، بالتعاون مع ميلر ، مفهوم « الخوف » كحافز مكتسب ، الذي قد يعتبر الاساس لكثير من الحوافز المكتسبة الاخرى (ماورر ، ١٩٥٠) . ويمثل هذا المفهوم الاساس لما اضطلعنا به من تجارب. وقد غير « ماورر » فى سياق تطور تجاربه نظريته من « نظرية التدعيم ذات العامل الواحد »
One-factor reifnforce- ment theory
الى ما يعرف « بنظرية العاملين »
two-factor-theory) التي عدلها مرة اخرى فيما بعد ، بحيث اصبحت فى الواقع هي نظرية العامل الواحد ، تقوم على « التجاور » (contiguity) على انه العامل الاساسي فى التعلم — وهي بالتالي لا تختلف كثيرا عن نظرية سبنس. وربما يمكن الاختلاف في ان المتغير الدافعي الاساسي هو دافعية « الباعث » فى نظرية سبنس ، و « الخوف » فى نظرية ماورر .

اما « براون » (١٩٦١) فقد بلور نظرية الدافعية الراسخة فى النظرية السلوكية العامة عند هل . وجعل من الواضح ان المتغير البالغ الاهمية (« الحافز ») هو متغير وسيط ، تنشيطي (activating) عام ، لا توجيهي (non-directing) ، ويميز هذا بوضوح مفهوم الحافز عند هل وبراون عن مفاهيم الحافز الاخرى (مثل مفاهيم تولمان وفرويد) ، وبالاضافة الى ذلك ، اتى براون بنظرية اكثر وضوحا واتساقا وقابلية للتحقيق

التجريبي (الامبيريقي) عن «الدافعية الثانية» Secondary movtivation فليس ثمة « حوافز » مكتسبة او متعلمة ولكن هناك « مصادر متعلمة » learned sources للحافز ، التي كلها ـ بنفس الطريقة مثل المصادر الاولية Primary sources (الحاجات) ـ تحدد الحافز العام ذاته او تؤثر فيه . ويشير براون ، مثل ماورر وميلر ، الى الخوف على انه الاساس لكل « الانساق الدافعية الثانوية » secondary motivational systems (١٩٦٨) . علاوة على ذلك ، يتقبل براون امكانية توحيد « الحافز » مع « الاستثارة » في « المنظومة الاستثارية الشبكية » reticular arousal system (RAS)

بهذا التفسير الفسيولوجي للحافز نتلمس خطا آخر للنمو في سيكولوجية التعلم . فاذا تتبعنا الخط الاساسي اعتبارا من ثورنديك ، هناك اتجاه مواز هام آخر يبدأ مع بافلوف .

ولعل من المعروف ان نظام بافلوف لا يتضمن اية مفاهيم دافعية في نظريته الاصلية كما قدمها في عام ١٩٢٧ . وربما يعزى ذلك الى انه قد اجرى تجاربه على الحيوانات في ظل شروط اكثر سلبية وتقييدا . فبدون قيام الحيوانات بافعال حرة ، ليس ثمة حاجة لمتغير تنشيطي في النظرية . لكن هذا يمثل بالطبع تفسيرا سطحيا لأعمال بافلوف . فاذا تفحصنا نظريته بدقة نجد ان عملية التشريط وسلوك الحيوان في الموقف التجريبي يحددهما تفاعل دينامي معقد بين عمليتين اساسيتين : « الاستثارة » و « الكف » . وبين هاتين العمليتين ، تعتبر «الاستثارة» على الاقل عملية تنشيطية ، تحريكية . وبالتالي متغيرا دافعيا بالمعنى التقليدي للدافعية . وبالاضافة الى ذلك تدخل الدافعية في المثير غير الشرطي الذي يدعم الاقتران الشرطي اذا تبع المثير الشرطي.

وغالبا ما يرتبط المثير غير الشرطي بشيء ما ، هو ، وفقا لنظام هل ، اما خفض الحافز drive- reducing (مثل الطعام) او استدعاء الحافز drive-inducing (مثل الصدمة الكهربية) . وفوق ذلك ، يشير بافلوف الى ما يعرف ب « الفعل المنعكس الانتظامي » Orienting Reflex (OR) كعامل حاسم في تكوين اي رد فعل شرطي Conditioned Reaction (CR)

وقد خضعت مشكلات « الفعل المنعكس الانتظامي » (ع ظ) والنشاط الانتظامي «نظ» Orienting activity (OA) لفيض من الدراسات المتعمقة : الفسيولوجية والنفسية وفي الحالات السوية والمرضية في الاتحاد السوفييتي في الثلاثين سنة الاخيرة (ب . انو خين ، ١٩٥٨ ، ش . سوكولوف ، ١٩٥٨، ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٠ ، فنوجرادوفا ، ١٩٦١ ، الخ) .

والفعل المنعكس الانتظامي (عظ) ، وفقا لهده الدراسات ، هو استجابة الكائن الحي الى ظهور مثيرات جديدة او الى اي تغيير في الوسط المحيط (اطلق عليه بافلوف كذلك الفعل المنعكس الاستقصائي exploratory reflex ، **ويمثل الفعل المنعكس الانتظامي استجابة مركبة تسهم فيها تقريبا** كل منظومات الاورجانزم : يدخل فيها استجابات حركية (مثلا ، حركة الجسم والراس والعين في اتجاه المثير) ؛ حشوية (تغير دفع الدم في اجزاء الجسم ؛ تغير النبض والتنفس) ؛ بيوكهربية (تغير تيارات الاداء ، الفعل المنعكس الجلفاني ـ الجلدي Skin - Galvanic Reflex وكذلك التغيرات في بنية المحللات Analyzers وفي استثارية اعضاء الاستقبال الحسي receptors ويتموضع التركيب الفسيولوجي ـ العصبي للفعل المنعكس الانتظامي في المنظومات اللحائية وتحت اللحائية cortical, subcortical systems

(وخاصة التكوين الشبكي reticular formation الذي يباشر تأثيرا تنشيطيا على لحاء المخ) . وللفعل المنعكس الانتظامي اهمية بالغة الحيوية: فهو يضمن الشروط الامثل للادراك والتحليل الاولي للمثيرات الجديدة ، وكذلك استعداد الاورجانزم للاستجابة لها (٧)

وقد ادى منطق نمو البحث الرصين في هذا الصدد الى علماء النفس في الشرق والغرب الى نتائج متقاربة . فهناك تشابه كبير بين نظريتى العالم السوفيتي « ى . سوكولوف » والعالم الكندى « د . برلاين » (١٩٦٠ ، ١٩٦٧) ، حيث يؤكد كلاهما على دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » (RAS) في السلوك الاستقصائي .

تاثر « برلاين » بالعلماء السوفييت وبجان بياجيه الذي عمل معه ، وخاصة **بدونالد هب .** يعزى الى « هب » بصفة خاصة ، في عمله الرئيسي (١٩٤٩) ، وصل علم النفس الغربي بالتقليد البافلوفي الاصلي ؛ كما ينسب اليه الفضل في بعث نهضة في التنظير الفسيولوجي في ميدان علم النفس . لقد كشف « هب » ، في الطبعة الاولى لنظريته (١٩٤٩) ، عن تصور خاص للدافعية ، حيث سلم بأن الدماغ يكون دائما نشطا . وليس ثمة حاجة الى مفاهيم خاصة لتفسير تنشيط السلوك واستثارته . بل تكون الحاجة فقط الى مفاهيم عن توجيهية وتنظيمية السلوك ، الذي يتحدد بما يعرف بتجمعات الخلايا cell-assemblies وتتابعات الاطوار Phases - sequnces

وقد غير « هب » فيما بعد من نظريته عن الدافعية واكد على دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » في الدافعية . وقد احكم « هب » نظريته باتقان اكثر في مقال (١٩٥٩) وفي مرجع (١٩٦٦) . وعلاوة على برلاين ؛ أثر هب كذلك في « جيمس أولدز » (١٩٥٦) الذي برز في تجارب الاستثارة داخل الجمجمة (intracranial stimulation) (٨) ؛ التي اكتشف فيها الوظيفة التدعيمية للحاجز septum

واهمية دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » بالنسبة للسلوك عامة **والدافعية** خاصة قد أقرها العلماء منذ ان اكتشف الفسيولوجيان « موروزى » و « ماجون » وظيفة هذه المنظومة . كما قدماها لاول مرة في عام (١٩٤٩) . وابرزها « ماجون » على نحو

---

(٧) تمثل الدراسات السوفيتية في الفعل المنعكس الانتظامي « ع ظ » والنشاط الانتظامي « ن ظ » اسهامات مهمة في الفكر السيكولوجي العالمي المعاصر . وهي تحتل مكانا بارزا كاتجاه مسيطر على كثير من البحوث النفسية السوفيتية ، وبخاصة في كلية علم النفس بجامعة موسكو ، ورائدها « يوجين سوكولوف » ، « الكسندر لوريا » ، « اولجا فينوجرادوفا » وغيرهم . نظمت « جامعة موسكو - كلية علم النفس » بالاشتراك مع « اكاديمية العلوم السوفيتية » سلسلة من البحوث ظهرت في مجلد بعنوان Orienting Reflex and Explarotor Behavior **في عام ١٩٥٨ ، وترجم الى الانجليزية في عام ١٩٦٥ تحت اشراف** (L. Voronin) **، ويتضمن ٤٨ دراسة في هذا الصدد . كما اجرى العديد من البحوث (٢٨ بحثا) تحت اشراف « سوكولوف » و « فينوجرادوفا » ظهرت في عام ١٩٧٠ (بالروسية) تحت عنوان**

(E; Sokolov, O. Vinogradova (*p*ds.) è Neuronal mechanicms of orienting reflex, Moscow Univ. 1970;

وبحوث غيرها (٢٤ بحثا) تحت اشراف « سوكولوف » قدمت امام مؤتمر (١٩٦٩) عن « الميكانزمات النيرونية للتعلم » ، نظمه قسم علم النفس العصبي والفسيولوجي بكلية علم النفس - جامعة موسكو وقسم فسيولوجيا النشاط العصبي الراقي باكاديمية العلوم الطبية بموسكو ، ونشرت في كتاب (بالروسية) تحت عنوان

(E. Sokolov (*p*d.) : Neuronal mechanisms of learning, Moscow Univ.,1970).

(٨) craniology : **علم الجماجم**

محكم في عام (١٩٥٤) ، وقد يسر هذا الاكتشاف عمل علماء النفس في هذا الصدد ، خاصة في اعمال « دونالد لندزي » (١٩٥٧) . وتكامل دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » في نظرية الدافعية عند « اليزابيث دوفي » (١٩٦٢) التي اكدت ، كما شاع في الثلاثينات ، دور مفهومين اساسيين في وصف السلوك وتفسيره : « التنشيط » (Activation) و « التوجيه » (direction) . وغني عن القول ، انه قبل اخضاع هذه الوظيفة الدافعية للمنظومة الاستثارية الشبكية للبحث ، ساد الافتراض بأنها نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي alitonomic nervous system ، الذي يعتبر الان نظاما جانبيا وثانوي الاهمية مقارنة بالمنظومة الاستثارية الشبكية .

واهمية دور المنظومة الاستثارية الشبكية قد تأكدت ، بالاضافة الى ذلك ، في نظرية « داليبر بندرا » (١٩٥٩) الذي يقرر انه قام بالجمع بين اتجاهي « هب » و « سكنر » .

لعل ارجاء الاشارة الى « ب . سكنر » من قبل يعزى الى ان نظريته ــ او بعبارة ادق ، نظامه الوصفي ــ لا يتضمن اية مصطلحات تفسيرية تشير الى متغيرات وسيطة او تكوينات فرضية . ومن ثم ، لا يتضمن نظام سكنر اية متغيرات دافعية بالمعنى التقليدي ــ حتى اقل من بافلوف . لكن سكنر يستخدم مصطلحات لمتغيرات مستقلة امبيريقية ، ترتبط بالمتغيرات الدافعية . واكثر هذه المتغيرات المرتبطة بالدافعية اهمية في نظام سكنر : « الحرمان » و « التدعيم » . يحدد الحرمان الدرجة العامة للتنشيط ، بينما يحدد التدعيم « قوة الاستجابة »او احتمالية حدوث الاستجابة . ويترفع سكنر في الوقت الحاضر على موقع من اكثر المواقع تأثيرا في سيكولوجية التعلم الحديثة ، ولاقى نظامه القائم على التجريب تطبيقا على مشكلات عامة (١٩٥٣). فقد طبقت نتائج بحوثه على العلاج السلوكي وخاصة على التدريس (١٩٦٨) . ومن الانتقادات المقنعة لاتجاه سكنر المعادي للنظرية antitheoretical orientation تلك التي قدمها « ن . ميلر » (١٩٥٩) ، الذي اشار الى الفائدة « الاقتصادية » لادخال متغيرات وسيطة في تلك الحالات التي يكون فيها اكثر من متغيرين مستقلين وتابعين خاضعين للملاحظة في تجربة .

ومما يجدر الاشارة اليه هنا ، احد الرواد المبرزين في علم النفس الدافعي ، « بول توماس يونج » ، الذي يعتبر اتجاهه اقرب الى سيكولوجية التعلم والاتجاه السيكوفسيولوجي في الدافعية منه الى سيكولوجية الشخصية . اضطلع يونج بتجارب كثيرة على الحيوانات عن مشكلات تفضيل الطعام . وقد بنى ، استنادا الى هذه التجارب ، نظرية وجدانية (hedonistie) (٩) موضوعية للدافعية ، تتمثل مسلمتها الاساسية في ان البواعث (مثل الطعام) تحدد الاستثارة الوجدانية affective arousal وهذه العملية تحدد السلوك وتؤثر في التعلم . ولا يغفل يونج المصادر الاخرى للدافعية (مثل الحاجات ومثيرات النفور) ، لكنه يؤكد ان الانفعالات الوجدانية الايجابية positive - hedonic affects قد اغفلها علم نفس الدافعية التجريبي الحديث وقد نظم يونج (١٩٦١) كل نتائج البحوث في علم النفس الدافعي الحديث في نظامه الوصفي او اطاره المرجعي، الذي يعرف بالاتجاه «متعدد المنظور » multi-perspective او « الانتهاجي » attitudinal ، او «النسبي» relativistic ، هذا النظام ، الذي يبعث

---

(٩) Hedonism : فلسفة اللذة ، مؤداها ان غاية الحياة سعي الانسان الى اللذة وتجنب الالم .

على الاثارة والالهام في هذا الميدان : هو صيغة حديثة لأعماله الفذة المبكرة (١٩٣٦ ، ١٩٤٣)

المنحى الاجتماعي لعلم النفس الدافعي ، ديناميات الشخصية :

في نفس الوقت الذي ابتدع فيه بافلوف وثورنديك وماكدوجل نظرياتهم ، كان « سيجموند فرويد » يرسي اساس التحليل النفسي . لقد كتب ، بعد ان حاول بناء نظرية فسيولوجية (١٨٩٦) ، عمله الرئيسي الاول عن الأحلام (١٩٠٠) . وقد كانت نظرياته ، منذ البداية ، دينامية من حيث انها قد ركزت على « الطاقات » و « القوى » النفسية ، و « الصراعات النفسية الداخلية » كمحددات للسلوك السوي والمرضي . الا ان فرويد قدم اول صياغة منظمة لنظرية الدافعية في عام ١٩١٥ ، حيث حدد متغيره الدافعي الاساسي الفريزة ، او بالاحرى الحافز (١٠) :

« يمكن ان نخلص الى نتيجه بأن الفرائز وليست المثيرات الخارجية هي القوى الدافعية الحقيقية في التقدم الذي رفع الجهاز العصبي بكل كفايته الهائلة الى مستواه الراقي الحالي من النمو . .

« واذا شئنا الان اعتبار الحياة العقلية من وجهة نظر بيولوجية ، تبدو « الفريزة » لنا كمفهوم محايد بين ما هو عقلي وما هو جسمي ليكون كلاهما الممثل العقلي للمثيرات المتولدة من داخل الاورجانزم والمنسابة الى العقل ، وفي نفس الوقت المقياس للطلب على طاقة العقل بسبب اتصاله بالجسم .

« والآن نحن في موقع لمناقشة مصطلحات معينة تستخدم للاشارة الى مفهوم الفريزة ، مثل جهده impetus ، هدفه ، موضوعه ، مصدره .

« نعني بجهد الفريزة عنصرها الحركي ، مقدار القوة او الطلب على الطاقة التي تمثلها . وهدف الفريزة هو في كل حالة الاشباع ، الذي يمكن الحصول عليه بابطال حالة الاستثارة في مصدر الفريزة . أما موضوع الفريزة فهو ما يمكن ان يتحقق فيه او من خلاله هدفها . انه الشيء الاكثر تغيرا بالنسبة للفريزة ولا يرتبط بها في الاصل ، ولكنه يصير متعلقا بها فحسب بسبب ملاءمته خاصة لتوفير الاشباع ويعني مصدر الفريزة تلك العملية الجسمية في عضو او جزء من الجسم ينشأ منه مثير يتمثل في الحياة العقلية بفريزة من الفرائز (فرويد ، ١٩١٥) .

بعد أن قدم فرويد هذه المسلمات والتعريفات الاساسية ، مضى الى مناقشة المشكلات الهامة المتعلقة بعدد وأنواع الحوافز الفريزية :

« اقترح أنه يمكن تمييز مجموعتين من هذه الفرائز الاولية ، غرائز حفظ الذات او غرائز الأنا ، والفرائز الجنسية . لكن ليس لهذا الاقتراح ثقل المسلمة الضرورية ، مثل افتراضنا « للفرض » البيولوجي في الجهاز العقلي ، انه مجرد تكوين مساعد نعتمد عليه فقط طالما يثبت فائدة ، ولن يكون هناك الا فارق ضئيل في نتائج عملنا للوصف والتصنيف لو استبدلناه بتكوين آخر » (فرويد ، ١٩١٥) .

لقد غير فرويد تصنيفة للحوافز الفريزية مرتين : من الحافزين الغريزيين المذكورين الى حافز غريزي واحد (الطاقة الجنسية « الليبيدو ») ، ثم مرة اخرى الى اثنين : غريزة الحياة (الايروس Eros) وغريزة الموت

---

(١٠) اشار علماء عديدون الى ان الترجمة الصحيحة للمصطلح الالماني Trieb ينبغي ان تكون « الحافز » ، وليس « الفريزة » كما شاع ترجمتها ويقترح « رابابورت » (١٩٦٠) تسمية المصطلح الدافعي الفرويدي ب « الحافز الفريزي » Instinctive drive .

(ثاناتوس Thanatos) . ولنترك تفاصيل نظرية فرويد في الدافعية ، حيث يمكن للقارىء الرجوع اليها في مصادر عربية عديدة .

لقيت نظرية التحليل النفسي في الدافعية تغيرا ونموا بعد فرويد ، وقد قدم « كينيث كولبي » (١٩٥٥) تحليلا عميقا لنظرية التحليل النفسي في الدافعية وأبرز أن « الطاقة » energy و « البنية » structure هما المفهومان الاساسيان والمتنامان في نظرية التحليل النفسي في الدافعية (وربما في أي نظرية) . واقترح « نموذجا بنيويا دوريا ــ دائريا cyclic - circular structural model ليحل محل النموذج الثلاثي القديم الذي قدمه فرويد : الهي ، الأنا ، الأنا الأعلى. أما « دافيد رابابورت » (١٩٦٠) فقد قدم تحليلا متعمقا شاملا لنظرية التحليل النفسي في الدافعية ، وفيه اشار الى الفارق بين الاسباب والدافعية ، حيث يعتبر الدافعية نوعا خاصا من الاسباب . وميز بين « الحوافز الغريزية » والانماط الاخرى للدوافع . وأكد، مثل كولبي ، التفاعل الهام بين الحوافز والتركيبات (ميكانزمات الدفاع ، وغيرها). وبالاضافة الى ذلك ، قدم مقارنات بالغة القيمة بين نظرية التحليل النفسي عامة والنظرية التطورية عند بياجية ونظرية التعلم .

ومن النظريات الفذة نظرية «كورت ليفين» في الدافعية، وهي النظرية الوحيدة في الدافعية التي ترتبط بعلم النفس التجريبي الكلاسيكي بينما كان يدرس ليفين مع «فرتيمر» مؤسس مدرسة الجشطلت ، ويرافقه كيولروكوفكا ، استلهم ليفين الشاب للقيام بأولى اعماله التجريبية عن «الميول المسيطرة» determining tendencies التي اعتبرت بمثابة نقد لأعمال « آخ » (١٩٠٥) التي تتناول مشكلة الارادة داخل اطار مرجعي ارتباطي كلاسيكي أوضح « ليفين » (١٩٢٢) انه توجد ميول مسيطرة أخرى بجانب الارتباطات ، وان هذه العوامل المسيطرة هي القوى الدافعية الاولية بجانب « الميكانزمات الارتباطية» . وقد واصل ليفين مع زملائه تجاربه وتحليله التصوري للميول المسيطرة ، أو « الحاجات » (Bedürfnis) كما سماها فيما بعد (١٩٢٨) لم يكن ليفين هكذا مهتما بالحاجات البيولوجية بقدر ما كان مهتما بأشباه الحاجات quasi - needs ، التي هي ميول محتومة بالقرارات (Vorsatz) والحالات الاخرى (Einstellungen) لقد احكم ليفين وزملاؤه باتقان نظرية عن الدافعية الانسانية (كما تتمايز عن نظرية الدافعية الحيوانية التي أحكمتها نظريات التعلم) . وقد طوقت أعماله تلك المشكلات الكلاسيكية مثل «مستوى الطموح»، «النشاط البديل » ، « استدعاء الاداءات المبتورة » (ظاهرة زيجارنك) ، وغيرها . وقد ظهرت نتائج هذه الاعمال في فترة اقامة ليفين بألمانيا ، وقد جمعت وترجمت الى الانجليزية في عام ١٩٣٥ .

اما في فترة اقامته بامريكا ، فقد احكم ليفين نظاما كاملا، معروفا بالنظام الطوبولوجي لوصف تركيب الشخص « ش » والبيئة (المدركة) « ب » . وقد الحق بهذا النظام الوصفي (١٩٣٦) فيما بعد نظاما تفسيريا (١٩٣٨) ، حيث فسر السلوك « س » كدالة للشخص والبيئة : س = دالة (ش ، ب) . ويمثل مفهوم القوى النفسية اكثر المتغيرات الدافعية اهمية . ويتحدد هذا التكوين التفسيري بحالة التوتر في الشخص (المرتبطة بحالة الحاجة في الاورجانزم) وبالقيمة الذاتية Valence لموضوع او نشاط معين في البيئة (المدركة) . واذ تعتبر « نظرية المجال » عند ليفين متقنة ومتسقة للغاية ، الا انها قد خضعت للنقد الشديد من حيث ارتباطها تماما بالاحداث الملاحظة (اي ، تعريفات اجرائية قليلة للغاية) ، واهتمامها ــ وفقا لمبدأ المعاصرة contemoracity اساسا بالقوى العاملة في اللحظة الراهنة ، واغفالها للسياق التاريخي

للظاهرة النفسية ، فنظرية ليفين «لاتاريخية» وفى ذلك تكمن نقطة الضعف الكبيرة فى نظامه الشاهق الذى أقامه . ورغم ذلك ، فقد الهمت نظرية ليفين أعمالا تجريبية عديدة ، سواء فى علم نفس الطفل أو (بخاصة) فى علم النفس الاجتماعى . كما اثر فى نظرية التعلم من خلال « تولمان » وفى نظرية الشخصية من خلال « هنرى موراى » .

يرى « موراى » نظريته كشكل حديث لنظرية التحليل النفسى في الدافعية ويقر بدينه لكل من ماكدوجل وليفين . ويبرز فى كتابه « استكشافات فى الشخصية » (١٩٣٨) تكامل الطرق التجريبية والاكلينيكية ، بما يكشف عن اول امثلة حقيقية للعمل بروح الفريق فى علم النفس . ومن أبرز معالم نظرية موراى محاولة اقامة تكامل للجوانب القيمة من نظرية التعلم مع اساسيات نظرية التحليل النفسى . لذا ، يبتدع موراى تصنيفا محكما على الأصول التطورية genesis للشخصية لوصف السلوك ، لكنه فى تفسيره للسلوك يؤكد — خاصة اهمية احداث الطفولة المبكرة و « ديناميات الشخصية » . وفى اطار ذلك ، يقدم موراى المتغير الدافعى « الحاجة » :

« الحاجة تكوين (وهم مقنع أو مفهوم فرضى) » يكمن وراء القوة (الطبيعة الجسمية — الكيميائية) فى منطقة المخ ، قوة تنظم الادراك والفهم والتعقل والنزوع والاداء بطريقة يتم بها تحويل موقف قائم غير سار الى وجهة معينة . وفى بعض الاحيان تستثار الحاجة مباشرة بعمليات داخلية من نوع معين (حشوية viscerogenic ، غددية endocrinogenic أو تتعلق بسرير المخ thalamicogenic تنشأ فى سياق التتابعات الحيوية ، لكنها تستثار اكثر (في حالة الاستعداد) بحدوث أحد الضغوط الفعالة (أو بصور توقعية لذلك الضغط) . لذا ، تتبدى الحاجة عندما تؤول بالأورجانزم الى السعى أو الى تجنب المواجهة أو — حينما يدخل فى مواجهة — الى الانتباه والاستجابة لانواع معينة من الضغط . وحتى قد تولد الحاجة ادراكات وهمية وتعقلات هذائية (اسقاطات لضغطها المتصور imaged press على موضوعات غير ملائمة . وتصحب كل حاجة على نحو مميز بشعور او انفعال خاص وتميل الى استخدام اساليب معينة (الحاجات الفرعية sub-needs ووسائل الاداء actones لمعاضدة اتجاهها . وقد تكون الحاجة ضعيفة او قوية ، وقتية أو دائمة . لكنها عادة ما توجد وتؤدى الى نشأة سياق معين للسلوك الظاهرى (أو الخيال) الذى (اذا كان الاورجانزم مقتدرا والمقاومة الخارجية ليست مما لا يمكن التغلب عليها) يغير الظروف الحافزة بطريقة تصل بالموقف الى الغاية بما يؤدى الى تهدئة (سلامة او ارضاء) الأورجانزم « (موراى ، ١٩٣٨ ، ص ١٢٣ — ١٢٤) .

يتضح من هذا الاشتقاق ان « الحاجة » عند موراى تختلف عن الحاجة عند هل وأصحاب نظريات التعلم ، حيث تقتصر عندهم على حالة الحرمان فى بعض الاعضاء الطرفية peripheral organs او فى الاعضاء الحشوية viscera الحاجة عند موراى ، من ناحية أخرى ، حالة رئيسية (فرضية) ، أكثر شمولا واحاطة من « الحافز » عند هل (أقرب فى الواقع الى جهد استدعاء رد الفعل sEr عند هل) ، ومن « الحافز الغريزى » عند فرويد . تتضمن نظرية موراى تقريبا اربعين حاجة ، مقسمة الى «الحاجات» حشوية الاصل viscerogenic needs (وعددها ثلاث عشرة) و « الحاجات نفسية الاصل » Psychogenic needs (وعددها عشرون على الاقل) . وتمثل هذه الثروة من المتغيرات الدافعية وكذلك المتغيرات التفسيرية الاخرى جوانب القوة والضعف فى نظرية موراى على السواء . تكمن القوة فى امكانية عمل اوصاف متمايزة لشخصيات

الافراد ، والضعف في المخاطرة بتفسيرات كاذبة قد يقع فيها بعض السيكولوجيين . ومما يجدر ذكره ، أن موراى قد عدل نظريته عدة مرات (١٩٥١ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٩) ليستقر به الامر اخيرا الى استبدال مفهوم « الحاجة » بمفهوم اكثر دقة وتضييقا يعرف ب « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions

« لقد أصبح من الواضح لنا أكثر وأكثر انه يمكن تحديد مكونات الطاقة في الشخصية كاستعدادات للموضوع أفضل من تحديدها كاستعدادات عامة للاداء general actional dispositions (١٩٥٩ ، ص ٣٤) .

ولقد استمر موراى في ابتداع مفاهيم وصفية وتفسيرية جديدة ، وكان له فضل بالغ الاثر على سيكولوجية الشخصية لما قدمه من تصورات نظرية وابتكارات منهجية (من بينها اختبار تفهم الموضوع « التات ») ولما توصل اليه من تجاربه الى نتائج قيمة . ولعلنا لا نجانب الصواب اذا اعتبرنا موراى القوة الدافعة في نظرية الشخصية ، حيث يمكن ان نعده الرجل الثاني فقط بعد فرويد .

ولا غرو ، فقد اقتفى ماكليلاند خطى موراى واخذ يسعى الى استكمال الشوط الى أقصى مداه ، حيث واصل البحوث الامبيريقية مستعينا باختبار تفهم الموضوع «التات» وانماء نظرية في الدافعية . لذا قد أعد صورة جماعية لاختبار التات ، وحاول هو وزملاؤه قياس مضمون الخيالات في قصص التات التي يرويها المفحوصون في مواقف مختلفة عديدة ، حيث يمكن خلق دافعيات مختلفة (دافعيات مثل الجوع ، الجنس ، العدوان ، الخوف ، التواد القوة ، والانجاز) . وعن طريق الجمع بين الطرق التجريبية وطرق الملاحظة الميدانية توصل ماكليلاند وزملاؤه الى تصورات خلاقة للدافعية . كما حققوا كذلك نوعا من التقنين لمنهج تحليل المضمون لقصص التات ، الذى طور الى الحد الذى يمكن معالجته بالحاسبات الآلية . ومن المعالم المميزة ايضا لعلم النفس الحديث ان زمرة ماكليلاند قد ركزت بحوثها وتطورها النظرى اساسا على متغير دافعى واحد ، المعروف بدافع الانجاز (ماكليلاند وآخرون ، ١٩٥٣) وقد أوضحوا ببحوثهم ان الفروق الفردية في قوة دافع الانجاز كما يقاس بالتات تتوقف على البيئة ـ خاصة حينما تدعم أساليب تربية الطفل الاستقلال والاعتماد على الذات لديه . وقد أوضحت زمرته في أعمالها اللاحقة ايضا قيمة التات في قياس الدوافع الاخرى (ماكليلاند ، ١٩٥٥ ، أتكنسون ، ١٩٥٨) . وقام ماكليلاند نفسه بدراسة تأثير دافع الانجاز على النمو الاقتصادى في المجتمعات المعاصرة والقديمة (١٩٦١) .

ومن ناحية التصور النظرى ، قدم ماكليلاند اسهامة بالغة القيمة بالانتقال من تصور محتوم بالحاجة need-determined conception للدافعية الى تصور وجدانى محتوم بالتوقع hedonistic, expectation determined للدافعية (متأثر بنظريات يونج وتولمان ، أو على الاقل مواز لها) . ويتضح هذا من الصياغة الاولى لنظريته :

« يصير الدافع ارتباطا وجدانيا قويا ، يتميز برد فعل توقعى للهدف ويقوم على الارتباط السابق لعلامات معينة مع اللذة والألم » (١٩٥١ ص ٤٤٠) .

ويحدد ويلخص المسلمات الاساسية لنظريته على النحو التالى :

« تعريفنا للدافع كما يلى : الدافع هو تمييز redintegration بواسطة علامة او امارة cue لتغير في موقف وجدانى . ويقصد بكلمة تمييز في هذا التعريف ان تتضمن التعلم السابق وكل الدوافع ، في نظامنا ، متعلمة . والفكرة الاساسية هى ببساطة كما يلى : تكون مثيرات أو مواقف معينة متضمنة تباينات بين التوقعات

(المستوى التكيفى) ولادرا لمصادر للوجدان الاولى غير المتعلم ، سواء الايجابى او السلبى بطبيعته . ومن شأن العلامات أو الامارات التى تكون متزاوجة مع هذه الحالات الوجدانية ان تفير فى هذه الحالات الوجـدانية ، وتصبـح الشروط التى تنتجها قادرة على تمييز حـالة مشتقة من الموقف الوجدانى الاصلى ، لكنهـا ليست متحدة معها » (ماكليلاند وآخرون ، ١٩٥٣ ، ص ٢٨) .

ومن الواضح ان تصور ماكليلاند للدافعية ينحرف الى حد ما عن تصور اسلافه .

وقد لقى هذا المنحى فى اتجاه نظرية «التوقع x القيمة » ("expectation x value'' theory) مزيدا من التطور على يدى « چون اتكنسون »، احد رفاق ماكليلاند الاقربين، اهتم «اتكنسون» خاصة بسلوك المخـاطرة risk-taking behavior

واعتماد علـى دافعيــة لانجــازه . وقــد وقد طور من نظرية دافعية الانجاز الى طراز مثمر للغاية كنظرية للدافعية الانسانية (١٩٦٤) تأثر أتكنسون بقوة بليڤين وتولمان ، كما افـاد الى حد ما من نظرية القرار الحديثة .

تبدو المتغيرات الدافعية الاكثر اهمية ومـا بينها من تفاعلات فى معادلة أتكنسون :

م ح = ع ح × ت ح × ث ح ($T_S = M_S \times E_S \times I_S$)

حيث م ح (T_S) تعنى الميل الى احراز النجاح الذى هو وظيفة لاستعداد ثابت فطرى او مكتسب ، يعرف بـ « الدافع » الى انجاز النجاح " ع ح" (M_S) ، ويتحد مع «توقع» النجاح ت ح (I_S) و « قيمة الباعث » incentive - value للأداء ث ح (I_S)

ويدخل التوقع ـ او الاحتمالية الذاتية «ل ح» (Ps) ـ فى علاقات متبادلة مع الحافز فى مواقف الانجاز بهذه الطريقة :

ث ح = ١ ÷ ل ح

وتوازيا مع هذا الدافع الايجابى لاحـراز النجاح ، يسلم أتكنسون أيضا بـ « الخوف من الفشل » أو « الدافع الى تجنب الفشل »:

م + ش = ع ج ش × ت ش × ث ش

وواحد من المسـلمات الاساسيـة لنظرية اتكنسون ان السلوك نتيجة التفاعل بين دافعين على الاقل . ففى مواقف الاستثارة بالانجـاز يكون السلوك (س) نتاج دافعين متصارعين :

س = م ح ÷ م + ش

لذا يضمن أتكنسون نظريته أيضا بعـض الفروض المستعارة من نظرية ميلر فى السلوك الصراعى .

وفى الفترة الاخيرة عمل أتكنسون مع «نورمان فيزر » ، وجمعا اعمالهما وما قام به زملاؤهم فى مجلد جديد (أتكنسون ، فيزر ١٩٦٦) . فى هذا الكتاب يوضـحون قيـمة نظـريتهما المعروفة بـ « النظرية المصغرة » - miniature theory) لدافعية الانجـاز ويتلمســون السبيل الى امكانية توسيع النظرية الى نظرية عامة فى الدافعية الانسانية تجمع بين نظامين فى علم النفس العلمى : علم النفس الفـارقى (الاختبارات) للشخصية وعلم النفس العـام (التجريبى)

يصف « فيزر » (١٩٦٧) تطبيق نموذج « التوقع x القيمة » على سلوك البحث عـن المعلومات information-seeking behavior

وبالتالى طرق ذلك الميدان من البحث الذى كان يحتله من قبل العلماء من اصحاب الاتجاه البيولوجى وسيكولوجية التعلم (مثل ، برلاين)

وينتقد اتكنسون كذلك « قانون الاثر » لعدم امكانية تطبيقه على السلوك الانجازى (أتكنسون ، فيزر ١٩٦٦) ، ويشير الى الحقيقة بأن « اولبورت » قد اثار هذا النقد ذاته من حوالى ثلاثين سنة » .

وهنا يبرز اتجاه آخر فى سيكولوجية الشخصية ، صاحبه « جوردون أولبورت » . فى كتابه الذائع الصيت عن الشخصية (١٩٣٧) يقترح نظرية ــ أو ان شئنا ، نظاما وصفيا ــ للشخصية ، تتناقض الى حد ما مع الخط الاساسى الدينامى لنظرية الشخصية كما قدمه فرويد وليفين وموراى ، وغيرهم ، ينكر اولبورت اهمية الحاجات او الحوافز البيولوجية وكذلك اهمية النمو فى الطفولة بالنسبة للشخصية الراشد . وكبديل لذلك ، طور فرضا عن الاستقلال الوظيفى functional autonomy لدافعية الكبار (فرض قدمه أصلا «وودورث» ١٩١٨) . وفى تعديل لنظريته يقرر :

« من وجهة النظر هذه يعتبر الاستقلال الوظيفى مجرد سبيل لاقرار ان دوافع الناس تتغير وتنمو فى سياق الحياة ، لأن من طبيعة الناس انهم ينبغى أن يفعلوا هكذا » (اولبورت ١٩٦٨ ، ٢٥٢٨) .

يتفق أولبورت في هذه النظرة الفلسفية الوجودية للانسان مع عالم فذ آخر هو « ابراهام ماسلو » الذى يعتبر من ابرز قادة الاتجاه الانسانى فى نظرية الشخصية . ينتقد « ماسلو » نظرية التحليل النفسى من حيث انها « من جانب واحد » ، تعول على دافعية النقائص deficiency - motivation وتغفل تماما دافعية النمو growth - motivation ويسلم ماسلو ان دافعية النمو هذه التى تتضح كحاجة الى تحقيق الذات يمكن ان تتبدى فى السلوك حينما تشبع الحاجات الاخرى المحتومة اكثر بالنقائص . ويقترح نظاما هرميا للحاجات وفقا للقوة الغالبة prepotency (١٩٥٤) ، يمتد من اكثر الحاجات فسيولوجية الى أعظمها نضجا وتمدينا من الناحية النفسية . ويحدد ماسلو نظام الحاجات الاساسية على النحو التالى :

المستوى الاول : الحاجات الجسمية الاكثر اساسية (كالسعى الى الطعام والماء والهواء والدفء والجنس ، وهكذا) . المستوى الثانى حاجات الامن (وتتمثل فى تجنب الاخطار الخارجية او ما يؤذى الفرد) . المستوى الثالث : حاجات الحب والاستحسان . المستوى الرابع : الحاجات التى ترتبط باقامة علاقات مشبعة مع ذات الفرد ومع الاخرين (وتتمثل فى ان يكون متمتعا بالتقبل والتقدير ، وان يحظى باحترام الذات ، وان يكون محترما ، وأن تكون له مكانة ، وان يتجنب الرفض أو النبذ أو عدم الاستحسان) . المستوى الخامس الحاجات التى ترتبط بالتحصيل والانجاز والمعرفة والتعبير عن الذات (ان يكون الفرد مبدعا ومنتجا ، ان يقوم بأفعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة للاخرين ، ان يحقق امكاناته ويترجمها الى حقيقة واقعة) .

وهنا يختلف ماسلو بنموذجه الهرمى للحاجات وما بينها من علاقات وظيفية متبادلة عن صناع القوائم ، منذ ماكدوجل ، الذين كانوا يكدسون قوائمهم دون محاولة جديدة لبيان الصلة فيما بينها . فقد اوضح ماسلو انه لا يمكن وصف حاجة في عزلة عن الحاجات الاخرى : فالحاجات تنتظم وفقا لأهميتها بالنسبة للفرد ، وتتوقف مقدرة الفرد على اشباع الحاجات « العليا » upper needs (أو ان شئنا حاجات النمو ، الحاجة الى المعرفة والخبرة الجمالية وتحقيق الذات)على مستوى اشباعه للحاجات الاساسية (مثال ذلك ، من الصعب على الفرد العمل بكفاية اذا شعر بعدم تقدير الجماعة أو بأنه غير

محبوب) . وقد لاقى هذا النموذج الهرمى لنظام الحاجات تطبيقات ذات بال فى علم النفس التطبيقى (مثل ، علم النفس التربوى والصناعى) .

ولقد تكرس ماسلو فى السنوات الاخيرة على بناء نظرته الى العلاقة بين سيكولوجية الشخصية وفلسفة الانسان (ماسلو ، ١٩٥٩ خاصة ، انظر ايضا ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨) .

ولاستكمال صورة نظرية الشخصية اليوم، ينبغى الاشارة الى « رايموند كاتل » ، العالم النفسى الانجلو ــ امريكى . ليس من السهل تصنيف كاتل على أنه ينتمى الى مدرسة معينة او تقليد معين فى علم نفس الشخصية ، وانما هو بالأحرى مؤسس وقائد لمدرسة جديدة تتميز باستخدام التحليل العاملى والطرق الرياضية لبناء نظرية نبعت داخل سيكولوجية الذكاء . ولقد ابتدع كاتل اختبارات عديدة للشخصية ، استطاع بها هو وزملاؤه جمع بيانات وفيرة عن الشخصية . واسكن هذه البيانات في نظريته للشخصية ، التى تلعب فيها « السمات الدينامية » أو المتغيرات الدافعية دورا هاما . ولقد استعار كاتل بعضا من هذه المفاهيم عن ماكدوجل وفرويد، لكنه أعاد بناءها فى نظرية أكثر احكاما واتساقا والمتغيرات الدافعية الاساسية فى هذه « الشبكة الدينامية » dynamic lattice التى تعتبر نموذجا للبنية الدينامية للشخصية هى : « الارج » erg (وحدة عمل الطاقة) ، العاطفة sentiment ، و« الاتجاه » attitude] ويحدد « الارج » على النحو التالى :

« يبدو اننا هكذا قد بنينا بحيث ان اشباعاتنا النهائية هى اشباعات غريزية ، أو طاقية ergic . يستخدم مصطلح « ارج » ، وهو مأخوذ عن الكلمة اليونانية ergon بمعنى العمل او الطاقة ، فى التكامل والتفاضل الدينامى dynamic calculus لتركيب لا يزال يعرف حتى الان ، بطريقة غامضة ومتقنة الغاية ، بالغريزة أو الحافز ، الذى هو مصدر الطاقة الكامنة وراء السلوك . وكما سنرى يمكن ان يتعين ويتحدد الارج بدقة بطريقة التحليل العاملى ، بينما غدت الغريزة والحاجة والحافز وغير ذلك على انها كل شىء لكل الناس ولا يمكن ان تعد تستخدم بدقة علمية » (كاتل ١٩٦٥ ، ص ١٨٥ ــ ١٨٦) .

ومن هنا نرى ثمة مصطلحا جديدا للمتغيرات الدافعية الاساسية التى حدد منها كاتل على الاقل احد عشر متغيرا . هذه المصادر التكوينية للطاقة تنساب خلال تركيبات متعلمة تعرف بـ « الاتجاهات » و « العواطف » ــ وهى مفاهيم معروفة ايضا من نظريات الشخصية الاخرى . وانها لتكون رحلة طويلة اذا أردنا تتبع كل أعمال كاتل أو بعمق بسبب حجم ما أنتجه . فبالاضافة الى مقالاته العديدة ، الف عدة كتب (١٩٤٦ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) ، كما اشترك وحرر عددا من الاعمال . ولذا ، فقد عالج كاتل فى قسم خاص فى الفصل المسمى عن « بنية الشخصية » (Personality Structure) الذى كتبه « ويجينز » (J. S. Wiggins) فى الكتاب السنوى لعلم النفس المعروف بـ "Annual Review of Psychology" فى عام (١٩٥٨) .

ويمكن ان نشير الى عالم مبرز آخر فى ميدان نظرية التحليل العاملى للشخصية ، هو « هانز ايزنك » الذى اهتم خاصة بتطبيق نظرية وطرق التحليل العاملى فى علم النفس الاكلينيكى أو « العلاج السلوكى » (انظر ايزنك ١٩٦٤) .

(٢) مفاهيم الدافعية

ليس من السهل تصنيف مفاهيم الدافعية وفرز التشابهات والاختلافات بينها لأنها قد استخدمت بطرق مختلفة بواسطة سيكولوجيين مختلفين ، وأن المتغيرات المتشابهة قد تعينت

بمصطلحات مختلفة في النظريات المختلفة . لذا كان من الضروري محاولة استخلاص مفاهيم الدافعية من خلال الدراسة المقارنة للنظريات المختلفة .

المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والفرضية:

لقد نشأت نظريات الدافعية وبنيت فروضها لتفسير السلوك . لكن ليست هناك حاجة الى المفاهيم الدافعية لكل انماط او جوانب السلوك فردود الافعال الانعكاسية البسيطة (الانعكاسات الولادية) يمكن تفسيرها على أساس وجود مثير يباشر تأثيره على البنية الولادية « القوس الانعكاسي » . اما السلوك المركب (الاداءات أو الافعال السلوكية) فغالبا ما يوصف على انه سلوك فرضي او موجه نحو هدف ، وهذا السلوك يمكن تفسيره بنظريات الدافعية . ومصطلحات السلوك «الفرضي» Purposive و « الموجه نحو الهدف » gool- directed مصطلحات وصفية ذات طبيعة مركبة وتجريدية وقد تستخدم هذه المصطلحات لوصف او تعيين السلوك الذي يكشف عن مركب لسمات عديدة يمكن ملاحظتها .

وقد كان ماكدوجل (١٩٠٨) أول من قام بتحليل ووصف محكات السلوك الفرضي ، هي كما عددها سبعة محكات . وقد اشار تولمان الى هذه المحكات حينما حدد ، في كتابه المشهور ، السلوك الفرضي (١٩٣٢) . وقد اختزل بندرا (١٩٥٩) ، في تحليله العميق ، هذه المحكات الى ثلاثة : الملاءمة apporpriateness ، المثابرة persistence ، الاستقصاء searching . واقترح ايضا مصطلح «الموجه نحو الهدف » بدلا من الفرضي ، حيث يستخدمه كمرادف للسلوك المدفوع .

وربما تعتبر اكثر المصطلحات الوصفية بساطة ودقة تلك التي قدمتها « اليزابيث دوفي» في اعمالها المبكرة في الثلاثينات وأحكمتها فيما بعد (١٩٦٢) . فكل السلوك يمكن وصفه ، وفقا لدوفي ، بالجمع بين مصطلحين وصفيين: «الشدة» intensity و «الاتجاه» direction ، وهما الجانبان من السلوك اللذان يفترض تكشفهما بالنظريات الدافعية.

وغالبا ما نستخدم في التفسير السيكولوجي فئتين من المصطلحات : المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والمصطلحات الفرضية .

تشير المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) الى « المتغيرات المستقلة » التي يفترض انها الاسباب النهائية للسلوك (الذي هو متغير تابع) . وقد تتضمن هذه المتغيرات المستقلة المثيرات الخارجية من البيئة وكذلك المثيرات الداخلية من الاعضاء والانسجة المختلفة للاورجانزم . هذه المثيرات الداخلية ينبغي ان تكون قابلة للملاحظة اذا عولجت كمتغيرات مستقلة يمكن وصفها بمصطلحات تجريبية (امبيريقية) . واذا كانت المتغيرات المستقلة يمكن وصفها كمثيرات (داخلية وخارجية) ، فانه يمكن تسميتها بـ « المتغيرات ـ م » (S-variables)

وقد يفضل بعض علماء النفس ، مثل سكنر الاهتمام اساسا بوصف العلاقات الملاحظة بين « المتغيرات ـ م » والسلوك . وتصاغ هذه الاوصاف في بعض الاحيان في قضايا عامة عن العلاقات المتكررة والملاحظة بانتظام بين انماط « المتغيرات ـ م» وانماط السلوك او«المتغيرات ـ س » . وغالبا ما تعرف هذه القضايا العامة بـ « القوانين » (او علاقات م ـ س) . ويعتبر سكنر تكوين وتطبيق تلك « القوانين » على أنه التفسير العلمي الوحيد . لكن معظم علماء النفس يفضل افتراض وجود متغيرات « توسطية » mediating او « وسيطة » intervening بين « المتغيرات ـ م » ، « والمتغيرات ـ س » . وهذه المتغيرات الوسيطة لا يمكن ملاحظتها .

جدول (١) : المتغيرات ((م ، ف ، س))

في بعض نظريات الدافعية

	المتغيرات — م المتغيرات المستقلة	المتغيرات — ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات — س المتغيرات التابعة
ماكدوجل	مثيرات (خارجية)	الغريزة (١٩٠٨) الميل الطبيعي الميل (١٩٣٢)	سلوك غرضي
فرويد	المصادر الجسمية (السوماتية)	الحوافز الفريزية ، الشحنة الانفعالية ، الهي ، الانا ، الانا الاعلى	تداعيات حرة تقريرات الاحلام اعراض عصابية وغير ذلك من السلوك
تولمان	الحالة الفسيولوجية الشروعية (١٩٣١) الحافز (١٩٥١) المثيرات	الطلب (١٩٣٢) نظام الحاجة (١٩٥١) مصفوفة الاعتقاد — القيمة (١٩٥١)	سلوك غرضي
يونج	الحاجات المثيرات	الحافز ، الحالة ،الاتجاه الرغبة .	سلوك
اولبورت	الحوافز المثيرات	السمات الدافعية والوسيلية	سلوك وسيلي وتعبيري
ليفين	الحاجات المثيرات (خاصة موضوعات الهدف)	القوة ، التوتر ، القيمة الذاتية	سلوك
موراي	ضغط الفا (١٩٣٨) ، والمثيرات الاخرى المصادر الداخلية للحاجات	الحاجات (١٩٣٨) ضغط بيتا (١٩٣٨) شحنة انفعالية الاستعداد للموضوع (١٩٥٩) .	الافعال « اكتون » : ١ — اللفظية « فربون » ٢ — الحركة « موتون »
هل	الحاجة المثيرات الخارجية	الحافز دافعية الباعث جهد الاستجابة قوة العادة	الاستجابة

تابع جدول (١)

	المتغيرات ــ م المتغيرات المستقلة	المتغيرات ــ ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات ــ س المتغيرات التابعة
هب	المثيرات الخارجية والداخلية	قوة العادة تجميعات الخلايا تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة والاستثارة (١٩٥٥)	سلوك منظم
تنبرجن	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية	ميكانزمات الافراج الفطرى ميكانزمات الفريزة الدافعية	السلوك الشهوى الافعال الاستهلاكية
ماكليلاند	الامارات الحرمان من مستوى المواءمة	الدافع الاستثارة الوجدانية	استجابات « التات » وغيرها من السلوك
كاتل	المثيرات الحالة الفسيولوجية	الارج الاتجاه العاطفة	الاستجابات للاختبار وغيرها من السلوك
سكنر	الحرمان المدعمات المثيرات النفورية	قوة الاستجابة او ــ الاحتمال ؟	السلوك الاستجابى وسلوك العملية
اتكنسون	المثيرات	الميل ، الدافع ، التوقع الباعث ــ القيمة	استجابات التات وغيرها من السلوك
برلاين	المتغيرات الموازية	الاستثارة (المنظومة الاستثارية الشبكية)	السلوك الاستقصائي والمعرفى
	جهد الاستثارة	التطلع	

بطريقة مباشرة ، ولكن تستنبح او تفترض ، ولذا يمكن تسميتها بـ « المتغيرات » الفرضية
Hypothetical variables
او « المتغيرات ــ ف » .

وقد قدم « تولمان» ، بهدف تفسير السلوك الفرضي خاصة ، تلك المتغيرات الوسيطة « مثل » « الحافز » و « المعرفة » cognition وعلى اساس طراز تولمان « م ــ ف ــ س » يمكن تقديم تصنيف اساسي للمتغيرات النفسية وتطبيقها على المتغيرات الدافعية فى أهم النظريات التي عرضنا لها ، كما يتضح ذلك من الجدول (١) ، (الجداول الواردة فى هذه الدراسة مأخوذة عن اعمال « مادسن » ١٩٥٩ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٣) .

ويتضح من هذا الجدول أن ثمة استخدما المصطلحات يشيع في علم النفس ينم عن عدم اتساق وفوضى بالفتين . ويتضح ذلك خاصة فى التفسيرات المختلفة المتعلقة بالمصطلحين الهامين : « حاجة » و « حافز » . لذلك يستخدم هل وتولمان (١٩٥١) المصطلحين بطرق متناقضة ، واستخدم موراى « الحاجة بطريقة مختلفة تماما . وهذه الفوضى هي في الواقع اعظم مما يبينه هذا الجدول ، والتي سوف تصبح واضحة من الجداول الاخرى .

الاستعدادات والوظائف :

اعد تولمان ايضا تصنيفا للمتغيرات وفقا لطول مدة وجود المتغيرات : فبعض المتغيرات النفسية توجد لفترة طويلة ، قد تستغرق كل حياة الفرد من الميلاد حتى الموت ، وهي الاستعدادات الموروثة . والبعض الاخر يكون مكتسبا بعملية التعلم فى فترة او اخرى من حياة الفرد ، وتوجد لفترة أقصر او اطول ، ولكنها بعد ان تكتسب تلعب نفس الدور الذي تلعبه الاستعدادات الموروثة . لذا يمكن ان نستخدم مصطلح « الاستعدادات » او «متغيرات الاستعداد » disposition variable للمتغيرات الموروثة وكذلك المكتسبة . وبدلا من « الاستعداد » قد يفضل البعض مصطلحات « العامل » او ربما « التركيب » .

وخلافا لهذه المتغيرات توجد فئة أخرى من المتغيرات النفسية ذات فترة أقصر للوجود ، وتتضمن هذه الفئة فئتين فرعيتين : العمليات ، التي ربما توجد فقط لثوان او دقائق ؛ والحالات ، التي ربما توجد فقط لساعات أو حتى لايام . ولما كان من الصعب التمييز بين العلميات الاقصر والحالات الاطول ، يمكن ان نستخدم المصطلح العام « وظائف » (أو « متغيرات الوظيفة » function variable

ويولي علماء النفس المختلفون اهتماما بفئة من هذه المتغيرات أكثر من الاخرى .

فمتغيرات الاستعداد قد درست اساسا باستخدام طرق الاختبارات فى علم النفس الفارقي ، متضمنا سيكولوجية الشخصية والذكاء . (يوضح مصطلح «التحليل العاملي» الاهتمام « بالعوامل » او الاستعدادات) . ومن ناحية اخرى ، درست متغيرات الوظيفة اساسا باستخدام الطرق التجريبية فى علم النفس العام ، متضمنا التعلم والمعرفة والدافعية .

ومع ذلك ، توجد علاقة وثيقة بين الاستعدادات والوظائف ، حيث أن الاستعدادات تؤثر فى مسار الوظائف وتخلق الفروق الفردية فى السلوك الذي يتحدد مباشرة بالوظائف . ومن ثم ، غالبا ما استخدم المصطلح الواحد للاشارة الى الاستعداد والوظيفة المتعلقة به . وقد يخلق هذا فى بعض الاحيان فوضى وسوء فهم بين علماء النفس . لذا غالبا ما يشير مصطلح « الحاجة » فى سيكولوجية التعلم الى الوظيفة (على نحو اكثر دقة ، الى الحالة) . ومن ناحية أخرى ؛ غالبا ما تستخدم «الحالة» فى نظرية الشخصية

لتغطية كل من الوظيفة الدافعة للسلوك والاستعداد الذي يحدد الفروق الفردية في القوة والفترة وغير ذلك من هذه الوظائف . وقد تنبه موراي لذلك وغير مفهومه الاساسي باستبدال مصطلح « حاجة » الى المصطلح الجديد « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions . وهذا الاستخدام ، الذى يبعث على الارتباك والحيرة لمصطلحات الاستعدادات والوظائف يمكن ان يتضح من الجدول (٢) .

المتغيرات الدينامية والتوجيهية :

ربما تعتبر هذه الفئة من تصنيف المفاهيم اكثر اهمية لنظرية الدافعية ، بقدر ارتباطها الوثيق بالمتغير ـ س : « السلوك الموجه نحو الهدف » .

يمكن ان تعتبر « ليفين » أول من قدم تحليلا متعمقا للمفاهيم الدافعية (١٩٣٨) ، حيث ميز بين القوى والقيمة الذاتية . فالقوى forces تتميز بكل من القوة والاتجاه ؛ ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المتجهات vectors ، أما القيمة الذاتية فهي ، على العكس من ذلك ، يمكن تحديدها فقط قياسا الى قوتها ، ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المعياريات Scalars .

ولم يكن ليفين هو الوحيد الذي ادرك ذلك التحديد للمفاهيم . فقد ميز « وودورث » (١٩١٨) بين الحافز والميكانزم . ويذهب العالم الميرز « پول توماس يونج » الى تحديد مشابه في تقريره ان : « علم النفس الدافعي يمكن تعريفه على أنه دراسة لكل الشروط التي **تستثير وتنظم** سلوك الكائن الحي » (يونج ، ١٩٣٦ ، ص ٤٥) .

وفي نفس الوقت ، سعت « دوفي » (١٩٣٦) الى الفصل بين « الشدة » و « الاتجاه » كمفاهيم وصفية اساسية في علم النفس .

ويذهب « فارير » فيما بعد الى التمييز بين الجوانب « دينامية الاصل » والجوانب « التوجيهية » للمتغيرات السيكولوجية (١٩٥٥) .

وعلى اساس كل هذه التحديدات ، قدم « مادسن » (١٩٥٩) تصنيفا للمتغيرات السيكولوجية يستند الى التمييز بين التأثيرات المختلفة على السلوك (جدول ٣) ؛

١ ـ المتغيرات دينامية الاصل Dynamogenic variables ، وهي تقوم بالتحريك او الاستثارة والتنشيط ، ولذا يكون لها تأثير الشدة intensity effect على السلوك .

٢ ـ المتغيرات التوجيهية directive variables ، وهي تقوم بالتوجيه والتنظيم ، ولذا يكون لها تأثير توجيهي على السلوك .

٣ ـ المتغيرات المتجهة Vector variables وهى متغيرات محددة لكل من الشدة والاتجاه .

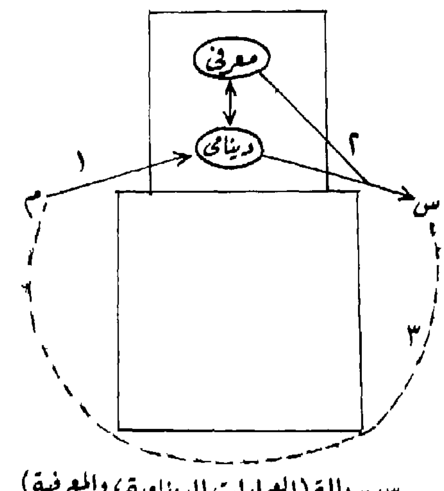
ويتضح من التصنيف (جدول ٣) مرة اخرى مصدر للارتباك بين النظريات النفسية فمصطلح « حافز » يستخدم في نظام هل كمتغير دينامى الأصل ، بينما في نظام فرويد كمتغير متجه . ويستخدم مصطلح « حاجة » كمتغير دينامى الاصل عند هل ، ولكن كمتغير متجه في نظرية موراى (١٩٣٨) وفي نظريات اخرى كثيرة للشخصية .

وبالاضافة الى ذلك ، توجد فروق بين المتغيرات المتجهة ، مثل « الفريزة » عند ماكدوجل و « الحافز » عند فرويد ، من ناحية ، و « جهد الاستجابة » عند هل و « الميل » عند اتكنسون من ناحية أخرى . لذا يعتبر مصطلح « غريزة » عند ماكدوجل غامضا شموليا (ومن ثم ينبغى تصنيفه كمتغير متجه) ، بينما يتحدد بوضوح مفهوم « جهد

شكل (٢)

نماذج الدافعية

نموذج الباعث



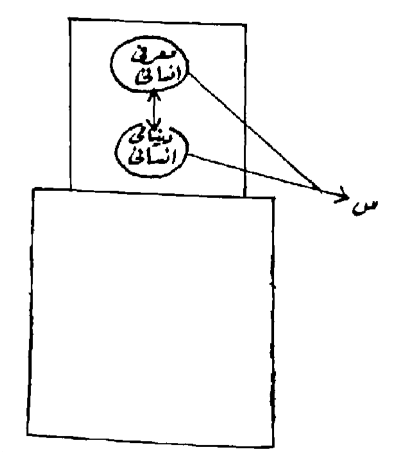
س = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)
العمليات الدينامية = دالة (المثيرات)

نموذج استعادة الاتزان

الجهاز العصبى المركزى
معرفى
دينامى
١
٢
٣
الاورجانزم
حاجات استعادة الاتزان

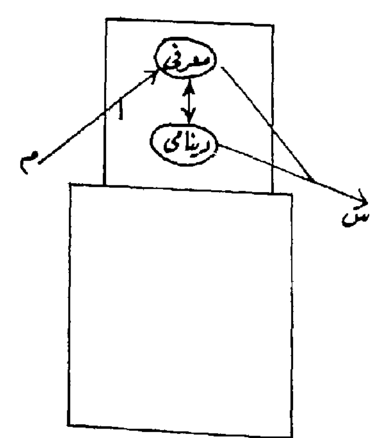
س = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)
العمليات الدينامية = دالة (الحاجات)

النموذج الانسانى



س = دالة (العمليات الدينامية الانسانية ، والمعرفية الانسانية)
العمليات الدينامية الانسانية = دالة (؟) } لاحتمية
العمليات المعرفية الانسانية = دالة (؟) }

النموذج المعرفى



س = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)
العمليات المعرفية = دالة (المثيرات)

جدول (٢) : تصنيف للاستعدادات والوظائف

وفقا لمدة وجود المتغيرات النفسية

	متغيرات الاستعداد « العوامل » او « التركيبات »	متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات
ماكدوجل	الفريزة الميل الطبيعي العاطفة	الميــل
فرويد	الهى ، الانا ، الانا الاعلى ميكانزمات الدفاع	العمليات الاولية والثانويــة الحوافز والطاقة
تولمان	المقدرات والسمات المزاجية (١٩٣٢) استعداد الغاية ـ الوسيلة (١٩٣٢) مصفوفة الاعتقاد ـ القيمة (١٩٥١)	التوقعــات المطالب (١٩٣٢) الحاجات (١٩٥١) الحوافز (١٩٥٩)
يونج	الاتجــاه	الحافز ، الحاجة ، الحالة ، الرغبة ،
أولبورت	السمات الدافعية والوسيلية	السمات الدافعية والوسيلية
ليفين	تركيبات الشخصية والبيئة	التوتر ، القيمة الذاتية ، القوة
موراي	الحاجات (١٩٣٨) الاستعــدادات للموضــــوع (١٩٥٩) الشحنــــة الانفعالات (١٩٥٩)	الحاجة (١٩٣٨) الضغط والشحنة الانفعالية (١٩٣٨)
هل	قوة العــادة	الحافز جهد الاستجابة دافعية الباعث
هب	تجميعات الخلايا	تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة الاستثارة (١٩٥٥)
تنبرجن	ميكــانزمــات الفريزة ميكــانزمــات الافراج الفطري	الدافعية العوامل الدافعية
ماكليلاند	مستوى المواءمة	الدافــع الاستثارة الوجدانية

تابع جدول ٢

	متغيرات الاستعداد العوامل او التركيبات	متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات
كاتل	الارج العاطفة الاتجـاه	تنشيط الارجات ؛ العواطف والاتجـاه
سكنر	احتمال رد الفعل او قوة الاستجابة	الحرمان التدعيمية الاستثارة النفورية
اتكنسون	الدافـع	قيمة الباعث التوقع الميـل
برلاين	المنظومة الاستثارية الشبكيـة والتركيبات العصبية الاخرى	المتغيرات الموازية الاستثارة ، التطلع

جدول (٣) : تصنيف المتغيرات : الدينامية ، والتوجيهية والمتجهةوفقا لتاثيراتها علىالسلوك

	المتغيرات دينامية الاصل	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات المتجهة
ماكدوجل	الميل الطبيعى الميـل		الغريزة العاطفة
فرويد	الشحنة الانفعالية	الانا ، الانا الاعلى العملياتالاولية والثانوية	الحوافز الهى
تولمان	الطلب (١٩٣٢) الحافز (١٩٥١) الحاجة (١٩٥١) الحافز (١٩٥٩)	استعدادالغايةـ الوسيلة والتوقعات (١٩٣) مصفوفةالقيمةـ الاعتقاد (١٩٥١) المعتقدات (١٩٥٩)	الحافز (١٩٣٢) حيز السلوك المباشر (١٩٥١)
يونج	الحاجة الحافز	الحالة الاتجاه	الرغبة (١٩٣٦) الدافع (١٩٦١)
أولبورت	الحافز السمات الدافعية	السمات الوسيلية	
ليفين	الحاجة التوتر القيمة الذاتية		القـوة
موراى	الضغط الشحنة الاشعالية		الحاجة (١٩٣٨) الاستعدادات للموضـوع (١٩٥٩)
هـل	الحاجة الحافز دافعية الباعث	الاستجابةالموقوتة للهدف الحافز ـ المثير قوة العادة	جهد الاستجابة
هب	الاستثارة (١٩٥٥)	التتابع الطورى (١٩٤٩) تجميعاتالخلايا (١٩٤٩) وظيفة الامارة (١٩٥٥)	

تابع جدول ٣

	المتغيرات دينامية الاصل	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات المتجهة
تنبرجن	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية الدافعية	ميكانزمات الافراج الفطرى ميكانزمات الفريزة	
ماكليلاند	الاستثارة الوجدانية	الامارات	الدافع
كاتل	الارج		الاتجاه العاطفة
سكنر	الحرمان		المثيرات النفورية المدعمات قوة الاستجابة
اتكنسون	قيمة الباعث الدافع	التوقع	الميل المتغيرات الموازية
برلاين	الاستثارة	التفكير والعمليات المعرفية الاخرى	التطلع

الاستجابة » عند هل كمزج للمتغير دينامي الاصل («الحافز») والمتغير التوجيهي («قوة العادة ») على النحو التالي : جهد الاستجابة = دالة (الحافز × قوة العادة) .

لكن هل وحواريوه قد خلطوا لسوء الحظ ــ او على الأقل لم يميزوا بوضوح ــ بين البعدين المفهومين : « الاستعداد في مقابل الوظيفة » و « الدينامي الاصل في مقابل التوجيهي» . لذا يكون جهد الاستجابة والحافز وظائف ، بينما قوة العادة في الواقع استعداد (تنشط بالحافز ومن ثم فهي ايضا وظيفة ، ولكن لا يملك هل وحواريوه مصطلحا لقوة العادة كوظيفة) . وربما يعزى سبب هذا الاختلال الى ان الاستعدادات غالبا ما تكون توجيهية (مثلما تكون قوة العادة) ، وان الوظائف غالبا ما تكون دينامية الاصل (مثلما يكون الحافز) . لكن هناك استعدادات تكون دينامية الاصل (مثل العوامل المزاجية) ووظائف تكون توجيهية (مثل الادراك وغيره من العمليات المعرفية) . ولذا تتضمن معادلة اتكنسون : م = دالة (ع × و × ث) تمييزا بين البعدين . م (الميل) ، « و » (التوقع) وكذلك « ث » (قيمة الباعث incentive-value تكون كلها وظائف ، فيها « م » كوظيفة متجهة « و » كوظيفةتوجيهية، « ث » كوظيفةدينامية الاصل . « ع » (الدافع) يتحدد في نظرية اتكنسون (١٩٦٤) بوضوح كاستعداد ــ ولكن ليس بوضوح وفقا لتأثيراته على السلوك ــ ومن ثم ربما يمكن تصنيفه كاستعداد متجه وكذلك كاستعداد دينامي .

واهمية التمييز بين هذين البعدين ربما تتضح اكثر اذا وجدناهما في تصنيف واحد ، يتبين منه لماذا كان المفهوم القديم للغريزة (مثل مفهوم الغريزة عند ماكدوجل) عقيما علميا ، حيث لم يقم اطلاقا بالتمييز والتحديد بين ابعاد المفاهيم ، فالغريزة كانت مصطلحا يشير الى كل من الاستعداد والوظيفة ، وكانت الوظائف تعتبر وظائف متجهة غير محددة .

ويتصف مسار النمو في نظريات الدافعية بتزايد التمايز في المفاهيم بين الابعاد المختلفة للمفاهيم . ويرتبط هذا النمو ، بطبيعةالحال، ارتباطا وثيقا بالنمو التجريبي .

ربما يمكن ان نستخدم تصنيف « دينامي في مقابل توجيهي » على انه يعطي وصفاتقريبيا لنظريات الدافعية : كانت النظريات الاقدم (ماكدوجل ، فرويد ، والى حد ما الاشكال الاولى من نظريات موراي وتولمان) نظريات تستخدم مفاهيم المتجهات . اما النظريات الاحدث فتنقسم الى مجموعتين : تلك التي تؤكد على المتغيرات دينامية الأصل (خاصة هل وحواريوه) ، وتلك التي تؤكد على المتغيرات التوجيهية (خاصة نظريات ماكليلاند واتكنسون) .

والنتيجة الهامة لهذه الدراسة التحليلية المقارنة تكشف عن الميل المتزايد بين علماء النفس الى استخدام المصطلحات المختلفة للاشارة الىمختلف جوانبالمفاهيم منالمتغيرات النفسية التي يعالجونها في نظرياتهم .

واحراز خطوة اكبر في نمو التنظير السيكولوجي يتم بتقبل نظام عام منالمصطلحات طالما انها مفاهيم عامة مشتركة بين علماءالنفس يعبرون عنها بمصطلحاتهم . وبطبيعة الحال ينبغي ان يكون هناك مجال لاستخدام مصطلحات جديدة ومختلفة حينما يبتدعالمنظر مفهوما جديدا او يكتشف متغيرا .

• • •

من هذا التحليل المقارن لنظريات الدافعية وتناولها للمتغيرات الدافعية بمفاهيم مختلفة، يمكن ان نخلص الى تصنيف لنظريات الدافعية خاصة وعلم النفس عامة الى الانماط التالية (جدول رقم ٥ ، ٦) :

١ ــ **نظريات « م ــ س »**(S—R) ، وهي تتضمن كلالنظريات الوصفيةذات لغةالبيانات السلوكية . وهذه النظريات قد تتضمناوصافا

جدول (٤) تصنيف جامع للمتغيرات الفرضية

المتغيرات التوجيهية	المتغيرات الدينامية	المتغيرات المتجهة
الاستعدادات : « الأنا » و « الأنا الاعلى » عند فرويد قوة العادة عندهل	« الدافع » عند اتكنسون	« الهى » عند فرويد
		« الحاجة » عند موراى (= عوامل الشخصية)
الوظائف : « التوقع » عند اتكنسون	« القيمة » عنداتكنسون	« الميل » عند اتكنسون
« الحالة » عند يونج	« الطاقة » عند فرويد	« الحافز » عند فرويد
	« التوتر » عند ليفين	« القوة » عند ليفين
	« الحافز » عند هل	« جهد الاستجابة » عند هل
		« الحاجة » عند موراى (= الحافز)

جدول (٥) : انماط نظريات الدافعية (مادسن ١٩٧٣)

نظريات « م ـ س »	نظريات « م ـ ر ـ س »	نظريات م ـ ض ـ س	نظريات «م ـ ق ـ س»
سكنر	بافلوف	فرويد	اولبورت
بولز	يونج	وودورث	ماسلو
	هب	ليفين	
	تنبرجن	تولمان	
	دوفي	هـل	
	فريمان	ميلر	
	برلاين	سبنس	
	بندرا	براون	
	مورجان	موراى	
	ستيلار	كاتل	
	كونورسكى	ماكليلاند	
		اتكنسون	
		ماك ف هنت	
		كوش	
		فستنجر	
		بربرام	

جدول (٦) : تصنيف موحد لنظريات الدافعية(مادسن ، ١٩٧٣)

انماط النظريات

الفروض الاساسية	نظريات ((م ـ س))	نظريات ((م ـ ر ـ س))	نظريات ((م ـ ض ـ س))	نظريات)) م ـ ق ـ س ((
فروض استعادة الاتزان		بافلوف ؟ دوفى فريمان	فرويد هــل موراى (١٩٣٨)	
فروض الباعث	سكنر بولز	يونج تنبرجن هب برلاين بندرا	موراى (١٩٥٩) ليفين ماكليلاند اتكنسون كاتل ميــلر سبنس	
الفروض المعرفية			براون تولمان وودورث ماك لف هنت كوش فستنجر	
الفروض الانسانية				اولبورت ماســلو

لعلاقات أشبه بالقوانين Law - like relationships بين المتغيرات « م » والمتغيرات « س » ، لكن لا يقوم أى تفسير لهذه القوانين على فروض أساسية .

٢ ــ **نظريات « م ــ ر ــ س »** (S-O-R) ، وهى تتضمن كل النظريات التى تفسر علاقات « م ــ س » باستخدام متغيرات فرضية «ض» ذات معنى فسيولوجى . (« ر » (O) وتعنى الاورجانزم) .

٣ ــ **نظريات « م ــ ض ــ س »** (S-H-R) وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقة « م ــ س » باستخدام متغيرات فرضية لها معنى « محايد » لا يشير الى اى شكل من واقع او مادة (بقول آخر ، التكوينات « الاصلية » genuine constructs ويتضمن هذا النمط ايضا كل النظريات التى تفسر باستخدام النمط الشكلى « للمتغيرات الوسيطة » (مثل ، النماذج الرياضية) .

٤ ــ **نظريات « م ــ ق ــ س »** (S-M-R) وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقات « م ــ س » باستخدام متغيرات فرضية ذات معنى عقلى (« ق » (M) تعنى « عقلى » أو « العقل ») .

٥ ــ **نظريات « ق »** (M) ، وتتضمن النظريات التى تعبر عن فهم لا يقوم على وصف موضوعى ودقيق بلغة البيانات السلوكية ، وانما قد تقوم على لغة البيانات الظاهرية (الفينومينولوجية) . لكن اصحاب هذه النظريات لا يتضحون بجلاء فى هذا بقدر ما يظهرون فى فلسفتهم عن الانسان .

(٣) نمذجة الدافعية

الدافعية ، اذن ، كانت ولا تزال موضوعا لفيض هائل من الدراسات النظرية والتجريبية تمخضت عن بيانات ومفاهيم وفروض ومتغيرات عديدة .

ومن طبيعة الظاهرات المعقدة ان تخضع لمزيد من التحليل وتبين العلاقات ، وبالتالى تعدد النظريات والتصورات . وهنا يتوفر « بالتحليل » بينة متعددة ، قد تكون حتى متناقضة .

ويفرض منطق التناول العلمى لمثل هذه البينة العارمة محاولة تبينها وتبصرها فى اطار تصورات جديدة تكشف عن العلاقات بين النظريات وما بينها من تناقضات . وبقول آخر ، عندما تصل الدراسات والبحوث لظاهرة ما الى حد التشبع الزائد بالبيانات والنتائج ، يستلزم النمو فى دراسة هذه الظاهرة « تركيب » Synthesis هذه البينة الوفيرة فى تصورات ونماذج اخرى تعمد الى جمع اشتات واضداد النظريات المختلفة ، وتسعى الى تكشف ما يجرى بينها من علاقات وتناقضات ، وما تتصف به من الهام أو ابهام ، وما يشيع فيها من وصل وفصل .

يتمثل ذلك فى بعض اتجاهات الفكر السيكولوجى المعاصر التى تعرف بـ « **نمذجة النشاط النفسى** » (Psychic Modelling)

« تتحدد اهمية « النماذج » (Models) فى انها تسمح بأن تخضع للاختبار والمراجعة تلك الأسس التي تقوم عليها مفاهيمنا وفروضنا عن الظاهرة النفسية ، وبان نتبين امكانات التطبيق العملى لهذه المفاهيم والفروض . ويكشف التطبيق انه لكى ندرس قوانين النشاط النفسى بنجاح يمكن ان نستخدم ليس فحسب المنظومات البيولوجية biological systems ولكن ايضا منظومات مبتدعة اصطناعا لمعالجة المعلومات information processing وهذا الاتجاه الرامى الى مزيد من التقدم في بناء النظريات النفسية آخذ فى النمو بتعميق

الشبه بين « النموذج » و « الطراز الأصلي » (prototype) ويعتبر استخدام طريقة النمذجة في بحث النشاط النفسي ليس « مودة » ولكن حتمية تفرضها طبيعة المشكلات المعاصرة لعلم النفس . ومن ثم تمثل النمذجة في جوهرها حلقة بالغة القيمة ، ناقصة في نطاق الطرق المستخدمة في علم النفس والطب النفسي تمكننا من التحقق والمراجعة من البينة التي تتمخض عنها البحوث ، ومن بناء نظرية علمية وعملية متقنة ونافعة .. » (١١)

ولعل هذا الاتجاه يتبدى خاصة في علم النفس الدافعي ، وابرز رواده « ك . مادسن » العالم الدنمركي .

يقدم « مادسن » لعلم النفس العلمي عدة نماذج للدافعية ، ويقرر : « لقد وجدنا انه من المقنع تصنيف الفروض الاساسية ـ البديهيات والمسلمات ـ للدافعية الى أربع فئات نطلق عليها « نماذج الدافعية » Models of motivation لأنها غالبا ما تكون **نظما من المتغيرات الفرضية ذات العلاقات المتبادلة ، يمكن تمثيلها ب « نموذج »** ووفقا للمضمون الاساسي للفروض الاساسية في النماذج ، يصنفها مادسن على النحو التالي (شكل ٢) (١٢) :

(١) نموذج « استعادة الاتزان » "Homeostatic" model

(٢) نموذج « الباعث » "Incentive" model

(٣) النموذج « المعرفي » "Cognitive" model

(٤) النموذج « الانساني "Humanistic" model

نموذج استعادة الاتزان : وهو اقدم النماذج في تاريخ علم النفس الدافعي . وقد ادخل مفهوم « الاتزان العضوي » Homeostasis في علم النفس ، السيكولوجي الامريكي « والتركانون » (١٩١٥) عن الفسيولوجي الفرنسي « كلود برنار » في تصوره « للوسط الداخلي » internal milieu وقد قدم فرويد كذلك (١٩١٥) تصورا مشابها في نفس الوقت .

يتصور هذا النموذج ان **كل العمليات البيولوجية ـ بما فيها السلوك ـ محتومة** باختلال « الاتزان العضوي » ـ أي الشروط القصوى للاتزان في الاورجانزم . وتستمر هذه العمليات حتى يعود « الاتزان » الى حالته الأصلية . ويؤلف اختلال الاتزان **حاجة** تحدد بدورها **حافزا** رئيسيا . وهذا الحافز ، بالاشتراك مع عمليات معرفية ، يحدد **السلوك** الذي يختزل ـ أو « يشبع » ـ الحاجة ، ومن ثم يعيد اقرار الاتزان العضوي .

ويوجد هذا النموذج في تلك النظريات المؤثرة مثل نظريات فرويد وهل . وقد تبنى كثير من علماء النفس هذا النموذج لأنه يتصف بعدة مزايا ، من اهمها :

(١) انه نموذج بسيط .

و (٢) انه نموذج بيولوجي ، وهو مايعتبر هاما بالنسبة لعلماء النفس في فترة ما بعد الدارونية .

وقد ادت شهرة هذا النموذج بعلماء النفس الى سوء استخدامه والى تجاهل الحقائق لفترة

---

(١١) أ. أ. براتكو وآخرون (باللغة الروسية) : نمذجة النشاط النفسي موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

(١٢) K.B. Madsen. Patterns of preferences and models of motivation. Paper presented at the Symposium on Pleasure, Reward and Preference. June 5. - 9., 1972, Korsdr, - Denmark.

طويلة لم تتلاءم فى النموذج . ولذا تعرض هذا النموذج لنقد شديد الوطأة بحيث انه لم يعد قادرا على استبقاء مكانته على انه النموذج الدافعى الثابت الوحيد ، الامر الذى ادى الى ابتداع نماذج اخرى كبدائل له .

نموذج الباعث : استمرت « فترة نموذج استعادة الاتزان » من عام ١٩١٥ (وهو العام الذى خرج فيه كانون بنظريته) حتى عام ١٩٥٣ (وهو العام الذى عقدت فيه « ندوة نبراسكا عن الدافعية Nebraska Symposium on Motivation وقد انتقد « هارلو (H.F.Harlow) فى هذه الندوة نموذج الاتزان على انه ضيق للغاية ، وانه توجد دافعيات أولية بيولوجية اخرى بجانب حافز الاتزان. ولقد اهتم خاصة بوجود « حافز استقصائى بصرى » visual exploratory drive

ولقد اتضح من التجارب الكثيرة فيما بعد ان حتى ما يعرف بحوافز الاتزان homeostatic drives (بصفة خاصة : الجوع ، العطش الجنس) لا يمكن تفسيرها كلية بواسطة استخدام نموذج الاتزان. ومن اقوى الانتقادات الموجهة ضد النموذج الضيق للاتزان تلك التى قدمها « بول توماس يونج » (١٩٤١ ، ١٩٦١، ١٩٦٨) ، وهى تقوم على بينة تجريبية تتعلق بتفضيلات الطعام لدى الحيوانات ، وهذه التفضيلات لم تقم على الاتزان العضوى .

ويمكن تلخيص القضايا الرئيسية المتضمنة فى « نموذج الباعث » كما يلى : يكون لمثيرات خارجية معينة تأثيرا **ديناميا** ، اى تحدد حالة التنشيط state of activation أو تعبئة الطاقة energy mobilization فى الاورجانزم . وهذه الحالة الدينامية ، بالاشتراك مع العمليات المعرفية ، تحدد سلوك الأورجانزم . وغالبا ما يتمخض عن هذا السلوك **اختزال للمثيرات الدينامية الخارجية**) انظر الشكل) ولهذه المثيرات اصلها فى موضوعات المثيرات المعروفة بـ « البواعث » اى موضوعات المثيرات الدافعة motivating stimulus objects (الدينامية ، التنشيطية ، المعبئة للطاقة) . وتتضمن البواعث فى بعض النظريات « المدعمات » (reinforcers) و « موضوعات الهدف » goal objects

ويوجد نوعان من البواعث : الأولية والثانوية

البواعث الأولية ، وهى المتغيرات « م (S) » التى لها تأثير دينامى **فطرى** . وهذه البواعث الاولية تلعب دورا هاما فيما يعرف بالنظريات « الوجدانية » أو نظريات « اللذة » (hedonistic theories) التى تتشامخ بينها نظرية « بول توماس يونج » حيث يوضح ان للاستثارة الخارجية نتائج وجدانية ، وكذلك حسية ، وان « الاستثارة » الوجدانية (affective arousal) توجه الاورجانزم نحو أو ضد موضوع المثير ولذا تؤثر فى الاختيار والتفضيل . ومن النظريات الذائعة الصيت فى هذا الصدد ، نظريات : هب (١٩٤٩) ، ماكليلاند ، وتنبرجن.

ومما تجدر اشارته ان النظرية الوجدانية قديمة للغاية ــ حتى اقدم من نظرية الاتزان. فهى تعود الى فلاسفة الاغريق القدامى مثل ابقراط ، و « اصحاب المذهب النفعى » (مثل بنثام) في القرن الثامن عشر . ويكمن التصور الوجدانى ايضا فى « قانون الأثر » عند ثورندايك وفى « مبدأ اللذة » عند فرويد .

أما البواعث الثانوية ، فهى المتغيرات « م » التى لها تأثير دينامى مكتسب . ولذا تلعب تلك البواعث دورا هاما فى نظرية التعلم الحديثة . وكان بفضل دافعية الباعث عند « سبنس » ان تضمنتها نظرية هل (يشار اليها بالرمز « ك » (K) تكريما لـ (K. W. Spence) وتحدد « دافعية الباعث ، ك » (incentive motivation, K)

هذه ، بالاشتراك مع « الحافز » (ف) و « قوة العادة » (م ع س) ، « جهد الاستجابة » (م ج س) والسلوك المتتابع . اذن ، « ك » متغير فرضي يتحدد بالمتغير « م » : حجم ونوع الاثابة (مثل ، الطعام) المستخدمة في تجارب التعلم التى تشير النظرية اليها .

طور سبنس تصور دافعيــة الباعث عــلى اساس مفهوم هــل عن « استجابة الهــدف السـابقة الجزئية » (fractional antedating goal response) او المعروفة ب « ميكانزم

هَـ سـ - هَـ م " (g^6 - g^r).

« والخاصية المميزة ، بل الوظيفة الوحيدة لهذه الاستجابة السابقة الجزئية ، هى انهــا تنتج مثيرات مميزة للحصول على الهــدف . ويسمى هل هذا المثير ، مثير الهدف الجزئي fraclional goal stimulus (Sg) (مثـ)

ونلاحظ ان حرف مــ صغير دليل على انه

مثير جزئى ، وان هل يربط بين هَـ سـ ← هَـ م

بخط متقطع اشارة منه الى ان الرابطة بينهما داخلية . وتتطلب نشأة اســتجابة الهــدف السابقة الجزئية ان ترتبط هــذه الاستجابة

(هَـ سـ) ارتباطا وثيقا بالحصول على الاهداف

اى بالتعزيز » (١٣)

ولميكانزم استجابة الهدف السابقة الجزئية فى نظام هل تأثير **توجيهى** فحسب ، لكن يشير سبنس الى احتمالية ان يكون لاحباط استجابة الهدف الكاملة complete goal response (RG) (هَـ سـ)

تأثير **تنشيطى** مشابه للحافز . هــذا التــأثير التنشيطى **او الدينامى** لميكانزم

هَـ سـ - هَـ م

فصل عن التأثير **التوجيهى** بالرمز « ك » .

وقد صار « ك » ، فى تعــديلات سبنس (١٩٦٠) الاخيرة لنظريته ، اكثر اهمية من « ف » (الحافز) كمحدد للسلوك ، حيث افترض هنا انهما يتفاعلان بطريقة الاضــافة ، ومن ثم كان تعديل سبنس لمعادلة هل المشهورة على النحو التالى :

م ج س = د [م ع س × (ف × ك)]

او جهد الاستجابة = دالة قوة العادة × (الحافز × دافعية الباعث)

وقد افترض ان « ك » تكتسب **بالتدعيم** ، وتتحدد كاختزال للحافز ، بينما تكون « م ع س » (قوة العادة) مكتســبة **بالتجــاور** contiguity وفقا لما يذهب اليه سبنس .

ومن بين النظريات الحديثة فى الدافعية التى تنتمى الى « نموذج الباعث » : نظرية اتكنسون ومن بين النظريات المبكرة : نظرية ليفين ، لانها تتضمن مفهوم « القيمة الذاتية » valence الذى تأثر به اتكنسون بعمق . كذلك يشبه مفهوم « الشــحنة الانفعاليــة » cathexis عند فرويد المفهوم الحديث للباعث .

النموذج المعرفى : يدخل هذا النموذج تماما في كثــير من النظــريات المبــكرة عن الادراك والعمليات المعرفية ، لكــن بدون احــكامها كنظريات للدافعية .

---

(١٣) سيد عثمان : الفعل المثير الخالص . الكتاب السنوى الاول للجمعية المصرية للدراسات النفســية ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

ومن هنا ، تضـمنت نظـرية الجشطلت الكلاسيكية فروضا دافعية (ف . هيبيدر ، ١٩٦٠) . فقد عالج علماء نفس الجشطلت « الميل الى الاغلاق » أو « الى خلق شكل جيد » على انه متغير دينامى ، « قوة » . وهذا التصور لم يحكم ابدا فى فروض دافعية صريحة ، وربما قصد فحسب بالميل الى الاغلاق تفسير دافعية العمليات المعرفية . لكن استطاع ليفين حبك نظرية عامة فى الدافعية والشخصية ، تعتبر نظرية باعثية incentive theory اكثر منها نظرية معرفية .

وقد الهمت أعمال السيكولوجيين الجشطلت كذلك ، من خلال ليفين ، العالم « تولمان » . تضمنت نظرية تولمان (١٩٣٢) كلا المتغيرات المعرفية والدافعية لكي يفسر السلوك الفرضى لدى الحيوانات والانسان . وكانت بعض المتغيرات ـ خاصة «التهيؤ لدلائل الجشطلت» (sign - gestalt - readiness)

عند تولمان ـ متغيرات دافعية معرفية مختلطة وقد احكم تولمان بعد ذلك (١٩٥١) هذه المتغيرات المختلطة فى « مصفوفة الاعتقاد ـ القيمة (Belief - Value Matrix)

التى تحدد السلوك ، بالاشتراك مع « نظام الحاجة » (Need System) و « حيز السلوك » (Behavior Space) . وقداطلق تولمان نفسه على نظريته (١٩٥٢) « النموذج المعرفى للدافعية »

(A Cognition Motivation Model)

وتتضمن النظريات الحديثة للدافعية شكلين مختلفين بدرجة بسيطة للنموذج المعرفى :

يذهب الشكل الاول الى ان **العمليات المعرفية تحدد العمليات الدينامية** ، وان **للعمليات المعرفية اذن تاثير توجيهي وكذلك دينامى** (بطريقة غير مباشرة) . وخير مثال لهذا النمط نظرية « ليون فستنجر » عن « التنافر المعرفي » .

اما الشكل الآخر للنموذج المعرفى فى الدافعية فيفترض ان **للعمليات المعرفية « دافعيتها الذاتية** او الداخلية » (intrinsic motivation)

وافضل ايضاح لهذا نظرية « وودورث » ، التى تتضمن **تعميما لفكرة « الدافعية الذاتية او الداخلية » فى « نظرية أولية السلوك »** (Behavior Primary theoey)

تقرر هذه النظرية ان اكثر انواع الدافعية اساسية يقوم على تناول البيئة بقوة . وهذه النظرية لا تستبعد الحقيقة بأن الدافعية « الخارجية » extrinsic ـ الحاجات والبواعث ـ قد تحدد ايضا السلوك فى بعض الحالات . لكن الفكرةالاساسية انه حتى بدون هذه المصادر « الخارجية » للدافعية يكون الاورجانزم نشطا .

قدم « ماك . فى . هنت » (١٩٦٥) « صيغة جديدة لنظرية المعلومات » (information theory version)

للنظريات المعرفية المبكرة عن الدافعية ، ويبين ان نظرية « جان بياجيه » تتضمن فرضا كاملا عن الدافعية المعرفية « الذاتية او الداخلية » ، وان نظرية « كارل بربرام » ـ العالم الامريكى السيكونيورولوجى ـ تنتمى الى نفس الفئة .

ولما كانت العمليات المعرفية المركبة تتعلق استئثارا بالانسان ، فان النموذج المعرفى يقترب من النموذج الانسانى .

النموذج الانسانى : لم يتحدد هذا النموذج بوضوح مقارنة بالنماذج الثلاثة الاخرى ، لكن هناك مجموعة من نظريات الدافعية تنطوى على خصائص مشتركة بحيث يمكن تمييزها عن النظريات الاخرى وتصنيفها فى فئة واحدة . ومن المعالم الهامة المشتركة بينها :

(١) التصور الانسانى لعلم النفس .

(٢) افتراض وجود فئة خاصة للدافعية الانسانية . وتعتبر فئة الدافعية هذه ـ او السلوك الانساني ككل ـ « غير » محددة .

ومن أصدق النظريات تعبيرا عن هـذا النموذج : نظرية « أولبورت » و « ماسلو » :

عرض « جوردون أولبورت » نظريته فى كتابه « الشخصية » (١٩٣٧ ، طبعة معدلة ١٩٦١) . فى هذا الكتاب الذائع الصيت ، قدم تحديدا وتمييزا بين العلوم ذات المنحى الفردى (idiographic) والعلوم ذات المنحى الناموسى (nomothetic) ، يقترب من التصورين الخاصين ب « العلوم الطبيعية » (natural) و « العلوم الشرحية » (hermeneutic) . وقدم فيه ايضا تصوره عن « الاستقلال الوظيفى » للدافعية (functional autonomy) الذى تأثر فيه بالفكرة التى عرض لها وودورث فى كتابه الاول (١٩١٨) . ووفقا لهذا التصور توجد بينة تؤيد وجود فئة من الدافعية لدى الراشدين، الناضجين والمتمتعين بالصحة النفسية ،تكون مستقلة وظيفيا عن الدافعية الاولية الاساسية التى توجد لدى الحيوانات والاطفال .

ويوضح أولبورت ان نظريات الدافعية المتضمنة فى نظريات التعلم تستند بطريقة ضيقة للغاية على التجريب على الحيوانات ، وان نظرية الدافعية المتضمنة فى نظريةالتحليل النفسى تستند ايضا بطريقة ضيقة للغاية على دراسة المصابين، وهمأكثرطفلية فيدافعيتهم من الراشدين الناضجين الاصحاء (مادسن ، ١٩٥٩) .

وقد تأثر « ابراهام ماسلو » فى نظريته بأولبورت وغيره . ويعتبر ماسلو امام « علماء النفس الانسانيين (humanistic psychologists) حيث نادى بالحاجةالى تصور انسانى آخر للعلم خلافا للتصور الطبيعى الذى سيطر حديثا على الفكر السيكولوجى الامريكى . وارتباطا بذلك ايضا تبنى تصورا انسانيا خاصا للانسان خلافا للتصور البيولوجى السائد . ويتضمن تصور ماسلو للانسان فرضه المتعلق بنوع راشد انسانى خاص للدافعية يعرف ب « الحاجة الى النمو » (growth need) أو « دافعية التفير » (metamotivation) .

ويمكن الاشارة الى نظرية « توماس مور » (١٩٤٨) كمثال آخر ، وان كان اقل ذيوعا . تفترض هذه النظرية تصورا انسانيا للعلم ونظرية فى « حرية الارادة » اللاحتميةللدافعية الانسانية .

● ● ●

من هذا العرض لنمذجة النشاط الدافعى يتضح الى أى حد تختزل النمذجة الكثير من نظريات الدافعية الى نماذج محددة تسكن فيها مفاهيمها ومتغيراتها . لكن يسعى بعض العلماء الى مزيد من الربط والوصل بين هذه النماذج المختلفة فى تصورات تركيبية synthesis أكثر عمومية ووظيفية . من هذه التصورات ما قدمه « مادسن (١٩٧٢) من « نموذج متكامل » ، يحاول فيه اقرار التكامل بين هذه النماذج ، وان كان يقرر انه لم ينجح فى تضمين النموذج الانسانى داخل « النموذج المتكامل » ، وبالتالى يسعى هذا النموذج الاخير الى التكامل بين النماذج الثلاث الاولى : « نموذج الاتزان » ، «نموذج الباعث» « النموذج المعرفى » .

يقوم التصور التركيبى لهذا النموذجالموحد كما يقرر مادسن ، على فرضين : الاول يقرر ان كل النماذج الثلاث « صادقة جزئيا » بقدر ما تتناول فئات مختلفة من الدافعية . ويقول آخر ، نماذج الدافعية صادقة كلها ، لكنها قد حدت من امكانية تطبيقها . لـذا يفترض ان كل نموذج صادق لفئة خاصة من الدافعية .

اما الفرض الثانى ، فمؤداه ان كل فئةللدافعية تتضمن بنية معينة فى الدماغ (بالاضافة الى « منظومة الاستثارة الشبكية » التي تتضمن كل أنواع الدافعية) . وفى ضوء ذلك ، يقترح مادسن (١٩٧٢) الفئات التالية للدافعية :

١ الدوافع دون سريرية المخ
hypothalamic motives

وهى الفئـة من الدافعيـة التى يفترض وجودها فى مراكز دون سريرية المخ hypothalamic centres وكذلك في منظومة الاستثارة الشبكية(RAS) . وهذه الفئة تكون اكثر صدقا بالنسبة لنموذج استعادة الاتزان . ولكن حتى فى هذه الحالة لا نستطيع اعتبار نموذجالاتزان على أنهصادق تماما ، حيث ان دوافع الاتزان تتضمن ، مثلا، الدافع الجنسى الذى لا يعتبر كلية دافعـا للاتزان العضوى . وربما تحدد البواعثايضا هذا النوعمن الدوافعوكذلك الدوافعالعضوية الاخرى : الجوع ، العطش ، تجنب الألم ، تجنب البرد ، الخ . لذا يمكن ان يطلق على هذه الفئة من الدافعية « الدوافع العضوية »، أو « دوافع استعادة الاتزان » أو « الدوافع دون سريرية المخ » .

٢ ــ الدوافع الحرفية limbic motives

وهى تلك الفئة من الدافعية التى يفتـرض ان تتضـمن « المنظومة الحـرفية » limbic system فى المخ ، وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهنـا يتبين مادســن فروض « كورنورسكى » بأن « الدوافع الانفعالية » تتضمن « مراكز الحوافز الحرفية » limbic drive centers وان «الدوافعالاجتماعية» مشروطة بالدوافع الانفعالية . وهنا ينطبـق خاصة « نموذج الباعث » على هذه الدوافع . لذا يمكن ان تسمى ايضا الدوافع «الانفعالية» و « الاجتمـاعية » بالدوافع « الحـرفية » (الفصوص الحرفية ، وهى المحيطة بالجسم الجاسىء فى الدماغ) أو « الباعث » .

٣ ــ الدوافع اللحائية : Cortical motives

وتتضمن اللحاء المخى cerebral cortex وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهىتلك الفئة من الدوافع التى تقوم بوظيفتها وفقـا للنموذج المعرفى : فالعمليات المعرفية تحـدد دافعيتها . ومن ثم يمكن ان تسمى هذه الفئة بالدوافع « المعرفية » او « اللحائية » .

٤ ــ دوافع منظومة الاستثارة الشبكية
Reticular Arousal System

وهى الدوافع التى يفترض أن تتضمنفقط منظـومة الاستثارة الشـبكية (RAS) وهى الدوافع التى يصدق عليها النموذج « الذاتى أو الداخلى » intrinsic ــ مثل نظـرية اولية السلوك عند وودورث . ومن ثم ، يمكن ان تعرف بالدوافع « الذاتية او الداخلية » أو « دوافع الاستثارة أو التنشيط » (activation motives) .

• • •

والخلاصة : لقد عرف علم النفسلسنوات عديدة بحقيقة تقرر بأنه ذلك العلم الذى ينتج نظريات متعارضة كثيرة . وربما يستمر هذا الاتجاه فى المستقبل . لذا ، من الأهمية بمكان بالنسـبة لعلماء النفس ان يكونوا قادرين على ان ينموا فى انفسهم القدرة على ترشيدتناولهم لهذه النظريات المختلفة ، وعلى اسـتخدامها بوعى ينفتح على علم النفس كعلم ، لا على نظرية بعينها ، وأن يكونوا على بصـيرة من انفسهم فيخفضوا من دفاعاتهم الرامية الى فرض محرمات نظرية theoretical taboo على الظاهرة النفسـية الحية المتسامية ..

وحسبنا تبصر « علم النفس العلمى » !

المراجـــع

ALLPORT, G. W. **Personality : a psychological interpretation.** New York : Holt, Rinehart & Winston, 1937.

Pattern and growth in personality. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.

ATKINSON, J.W. **An introduction to motivation.** Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1964.

(ed.) **Motives in fantasy, and society.** Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1958.

and Feather, N. T. (eds.) **A theory of achievement motivation.** New York : John Wiley, 1966.

Bash, K.W. An investigation into a possible organic basis for the hunger drive. **J. Comp. Physiol. Psychol.**, 1939, 28, 109 - 135.

BERLYNE, D. E. **Conflict, arousal, and curiosity.** New York : McGraw Hill, 1960.

Motivation problems raised by explorstory and epistemic behaviour. In S. Koch (ed.), **Psychology - a study of a science**, Vol. 5. New York : Mc Graw-Hill, 1963.

Reinforcement and arousal. In David Levine (ed.), **Nebraska symposium on motivation.** LLincoln : Nebraska University Press, 1967.

BINDRA, D. **Motivation : a systematic reinterpretation.** New York : Ronald Press, 1959.

BOLLES, R. C. **Theory of motivation.** New York and London : Harper & Row, 1967.

BROWN, J. S. **The motivation of behavior.** New York : McGraw-Hill, 1961.

CATTELL, R.B. **Description and meassurement of personality.** New York : Harcourt, 1946.

Personality ; a systematic theoretical and fectual study. New York : McGraw-Hill, 1950.

Personality and Motivation structure and measurement. New York : World BBook World Book Co., 1957.

The scientific analysis of personality . Baltimore : Penguin, 1965.

(ed.) **Handbook of modern personality theory.** Chicago : Aldine, forthcoming.

COLEY, K.M. **Energy and structure in psychoanalysis.** New York : Ronald Press, 1955.

DOLLARD, J., and MILLER, N.E. **Personality and psychotherspy.** New York : McGraw-Hill, 1950.

DUFFY, ELISABETHI, **Activation and behaviour.** New York : John Wiley, 1962.

EYSENCH, H. J. **The biological basis of personality.** Springfield, III. : Charles C Thomas, 1967.

EYSENCK, H. J., (ed.) **Experiments in motivation.** Oxford : Pergamon Press, 1964.

FARBER, I. E. Anxiety as a drive state. In M. R. Jones (ed.), **Nebraska sympostium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1954.

FEATHER, N. T. An expectancy-volve model of information-seeking behaviour. **Psychological Review**, 1967, 5 (74), 342-60.

FRANKEL, Y.E. **Man's search for meaning : on introduction to logotherapy.** New York : Washington Square Press, 1963.

HEBB, D,O. **Organisation of behavlour .** New York : John Wiley, 1949.

Drive and the CNS (conceptual nevvous system). **Psychological Review**, 1955, 62, 243-54.

A Neurophysiological theory. In S. Koch, **Psychology-a study of science**, vol. I. New York : McGraw-Hill, 1959.

A textbook of psychology. Philadelphia : Saunders, 1966.

HULL, C. L. **Principles of behavior.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1943.

A bahaviour system. New Haven : Yale University Press, 1952.

JONES, M.R. (ed.) **Nebraska symposiumn on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1953-1963.

LAWRENENCE, D.H. & W. A. MASON. Food intake in the rat as a function of deprivation intervals and feeding rhythms. **J. Comp. Physiol. Psychol.** 1955, 48, 267-271.

A dynamic theory of personality. New York : McGraw-Hill, 1935.

Principles of tepological psychology. New York : McGraw-Hill,s1936.

A conceptual representation and the measurement of psychological forcess. Durham N.C. : Duke University Press, 1938.

Field theory in social science. D. Cartwrigh (ed.) New York : Harper & Row,19 1952.

LINDSLEY, D. B. Psychoophy siology motivation. In M.R. Jones (ed.), **Nebrska symposium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1957.

LURIA, A. R. **Human brain and psychological processes.** New York : Harper, 1966.

MC CIELLAND, DAVID C. **Personality.** New York : Dryden Press, 1951.

The achieving society. Princeton, N. J. : Van Nostrand Reinhold, 1961.

(ed.) **Studies in motivation** : New York : Appleton-Century-Grofts, 1955.

ATKINSON, JOHN W., CLARK, RUSSELL A., and LOWELL, L. **The acjievement motive,** New York : Appleton-Century-Grofts, 1953.

MC CIELLAND, D. and WINTER, D. **Motivating economic achievement.** New York : Free Press, 1969.

MC DOUGALL, W. **An introduction to social psychology.** London : Methuen, 1908. 1908. The 1960 edition is used here. The energies of men, London : Ethuen, 1932.

MADSEN, K.B. **Theories of motivation,** 4th ed. Copenhagen : Munke-gaard, 1959. 4th ed., 1968.

Integration through meta-science. Exemplified by a comparative study of psychological theories. **Proceedings of the XIV International Congress of Philosophy,** Vienna &s1968 b.

Modern theories of motivation. Copenhagen : Munksgaard, 1973.

MASLOW, A. H. **Motivation and personality.** New York : Harper and Row, 1954.

New knowledgo in human values. New York : Harper and Row 1959.

Toward a psychology of being. Princeton, N.J., : Van Nostrand Reinhold, 1962.

The psychology of science. New York : Harper & Row, 1966.

A theory of meta-motivation ; The biological rooting of the valne-life. Journal of Humanistic Psychology, è967, 93-127.

MILLER, N.E. An experimental investigation of acquired drives. **Psychological Bulletin,** 1941, 38, 534-35.

Studies of fear as an acquirable drive. **Journal of Experimental Psychology.** 1948, 38, 89-101.

Learnable drives and rewards. In S. S. Stevens (ed.), **Handbook of experimental psychology.** New York : John Wiley, 1951.

Liberalization of basic S-R-concepts : extension to conflict behaviour, motivation, and social learning. in S. Koch (ed.), **Psychology - A study of a science** vol. 2. New York : McGraw-Hill, 191959.

And DOLLARD, J. **Social learning and imitation.** New Haven, Conn : Yale University Press, 1941.

MORGAN, C. & J. T. MORGAN, Studies in hunger : II the relation of grastic denervstion and dietary sugar to the effect of insulin upon food intake in the rat. **J. Genet. Psychol.,** 1940, 57, 153-163.

MORUZZI, G., and MAGOUN, H.W. Brain stem reticular formation and activation of EEG. **EEG Clinical Neurophysiology,** 1949, 1, 455-73.

MOWRER, O. H. A stimulus-response analysis of anxiety and its role as a reinforcing agent. **Psychological Review**, 1939, 46, 553-65.

Learning theory and personality dynamics. New York : Ronald Press, 1950.

Motivation. **Annual Review of Psychology**, 1952, 3, 419-32.

Learning theory and **behaviour.** New York and London : John Wiley, 1960a.

Learning theory and the symbolic processes. New York and London; John Wiley, 1960b.

MURPHY, G. **Personality : A biological approach to origins and structure.** New York: Harper, 1947.

MURRAY, H. A. **Explorations in personality.**New York : Oxford University Press,s1938.

Toward a classification of interaction. In T. Parson and E. A. Shill (eds.),

Towards a general theory of action. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

PETERS, R.S. **The concept of motivatiou,** London : Routledge & Kegan Paul, 1958.

AIRPORT, D. The structure of psychoanalytic theory : a systematic attempt. In S. Koch (ed.), **Psychology a study of a science,** vol. 3. New York : McGraw-Hill 1959.

On the psychoanalytic theory of motivation. In M.R. Jones :ed.) **Nebraska symposium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1960.

SKINNER, B.F. **Science and human behavior.** New York : Macmillan, 1953.

Technology of tesching, New York : Appleton-Century-Crofts, 1968.

SOKOLOV, E.N. **Perception and the conditioned reflex.** Oxford : Pergamon Press, 1963.

SPENCE, K. W. **Behaviour theory and conditioning.** New York, Conn. : Yale University Press, 1956.

Behaviour theory and learning. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1960.

and JANET TAYLOR SPENCE (eds.) The **Pschology of learning and motivation.** New York and London : Academic Press.

THOMAE, H. (ed.) Allgemeine Psychologie II : **Motivation.** Gôttingen : Hogrefe's Verlag Für Psychologie, 1965.

THORNDIKE, E. L. Animal intelligence. **Psychological Review,** 1898, Monograph Supplement 2, 8.

Animal intelligence, New York : Macmiltan, 1911.

TINBERGEN, N. **The study of instinct.** Oxford ; Oxford University Press, 1951.

TOLMAN, E. C. **Purposive behaviour in animal and men.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1932.

Drives towards war. New York : Appleton-Century-Crofts, 1942.

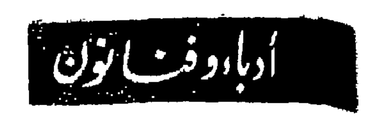
A Psychological model. In T. Parson and E.A. Shill (eds.), **Toward a general theory of action.** Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

Principles of purposive behaviour. In S. Koch (ed), **Psychology, A study of a science,** vol. 2, New York : McGraw-Hill, 1959.

TSANG, Y. C. Hunger Motivation in gastrectomized rats. **J. Abnorm. Physiol. Psychol.,** 1938, 26, 1-17.

WANGENSTEEN, O.H. & A.J. CARISON., Hunger sensations in a patient after total gestrectomy. **Proceedings of the Society of Experimental Biology,** 1931, 28, 545 - 547.





ابن شرف القيرواني

وآراؤه النقدية فى رسالته ((اعلام الكلام))

محمد سلامة يوسف

ابن شرف افريقى أو بالاحرى مغربى المولد والمنشأ والمربى ، وقد كان معاصرا لدولة بنى زيرى خلفاء العبيديين على المغرب وعمالهم عليه ، بعد ان فتحوا مصر واتخذوا من القاهرة قاعدة لملكهم ، وما ان جلا العبيديون عن المغرب حتى تنفس أهل السنة الصعداء بعد ان لقوا على ايدى العبيديين ضروبا من الاذى وصنوفا من العسف والوانا من الاضطهاد زهاء ستين عاما أو اكثر ، حاولوا فيها بشتى الوسائل ومختلف الأساليب فرض المذهب الشيعى وقمع المذهب السنى والقضاء على اهله ، ولاسيما المالكية منهم .

ولما ولى المعز بن باديس ـ واسطة عقد بنى زيرى واشهر ملوكهم وربيب المالكية ورضيع لبانها ـ بدا له أن يقطع الصلة الواهية التى تربطه بالعبيديين الشيعيى النحلة ، فاعلن انفصاله عنهم ، وخلع طاعتهم ، ولعنهم على اعواد المنابر ، وحمل المغاربة على اعتناق مذهب مالك والاستمساك به دون سواه متاسيا فى ذلك بملوك بنى امية بالاندلس ، يقول ابن الأثير : ((وهذا المعز اول من حمل الناس بافريقية على مذهب مالك ، وكان الاغلب عليهم مذهب أبى حنيفة)) (١) ويقول ابن خلدون : « وكان المعز منحرفا عن مذاهب الرافضة ، ومنتحلا للسنة فاعلن بمذهبه لأول ولايته ، ولعن الرافضة ، ثم صار الى قتل من وجد منهم » (٢) .

---

(١) الكامل ٩ : ٩٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦ : ١٥٩ .

بيد أن المعز لم ينعم طويلا بالاستقلال ، فقد اغضب العبيديين ، واحفظهم واثار موجدتهم عليه ، فأخذ الخليفة المستنصر الموتور يفكر كيف يثأر لنفسه من المعز الذى انشق عليه ، وخلع طاعته ، فاشار عليه وزيره اليازورى أن يشرعوا فى ارسال العرب الى المغرب ، فاصلحوا بين زغبة ورياح وكانت بينهم حروب وحقود واعطوهم مالا ، وامروهم بقصد القيروان ، وملكوهم كل مايفتحونه ، ووعدوهم بالمدد والعدد فدخلت العرب افريقية ودارت رحى الحرب على ارض المغرب حتى عجز المعز عن رد عادية الأعراب المغيرين ، وسقط فى يده ، واضطر الى ان يشير على رعيته بالارتحال عن القيروان الى المهدية سنة ٤٩ هـ وهكذا نجحت المكيدة التى بيتت بليل ، وخربت القيروان دار العلم بالمغرب ، وانحسرت موجة العلم والأدب عن القيروان الى المهدية العاصمة الثانية لأمراء بنى زيرى ، وارز اليها العلماء والادباء والشعراء .

وقد عاش ابن شرف فى ظلال المعز بن باديس ، واتصلت اسبابه باسبابه ، وانخرط فى سلك خدمته ، ولقى حظوة كبيرة فى بلاطه ، حتى اصبح شاعر المعز المقدم عنده الأثير لديه على سائر من في بلاطه من الأدباء والشعراء باستثناء ابن رشيق .

حياته :

هو ابو عبد الله محمد بن ابى سعيد احمد بن شرف الجذامى القيروانى ، هذا ماورد فيما اثر لنا من كتب التراجم والطبقات التى ترجمت له ، وعرفت به قديما وحديثا ، **فياقوت** يقول في ترجمته له : (محمد بن ابى سعيد محمد المعروف بابن شرف الجذامى القيروانى) (٣) **ويقول الصفدى** : « محمد بن أبى سعيد بن احمد بن شرف القيروانى أبو عبد الله الجذامى(٤) ويقو **ابن شاكر الكتبى** فى فواته : « محمد بن سعيد بن احمد بن شرف القيروانى الجذامى » (٥) ويقول **ابن بشكوال** : « محمد ابن أبى سعيد بن شرف الجذامي القيروانى يكنى ابا عبد الله » (٦) ويقول **السيوطي** : « محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامى » (٧) ويكتفى **ابن بسام** فى ترجمته بقوله : « وكان ابو عبد الله بن شرف بالقيروانى من فرسان هذا الشأن » (٨) **ويغفل الدباغ فى معالم الايمان** (٩) ذكر نسبه ويهمله ، ولا يشير اليه ، أما **ابن دحية** فى كتابه المطرب فقد أورد سلسلة نسبه ، وانتهى به الى قحطان نقلا عن **ابن الكلبى** أول من راد علم الأنساب ، والف فيها حيث يقول فى بداية ترجمته له : (من ولد جذام بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كذا نسبه ابو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى (١٠) اما المحدثون فقد

---

(٣) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٤) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٥) فوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

(٦) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٧) بغية الوعاة : ٤٦ .

(٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٢ .

(٩) معالم الايمان : ٣ : ٢٣٩ .

(١٠) المطرب : ٦٦ .

تبعوا القدامى عند ترجمتهم لابن شرف . **فالبغدادى** فى هدية العارفين يعرف به وينسبه بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجدامى القيروانى » (١١) ,ويقول **محمد كرد على :** « أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجدامى القيروانى » (١٢) ويقول**صاحب معجم المطبوعات :** « أبو عبد الله محمد بن سعيد بن احمد بن شرف القيروانى الجدامى » (١٣) .

ومن عرضنا لما ورد عن اصحاب التراجم والطبقات قديما وحديثا فى نسبه عند ترجمتهم له ، وتعريفهم به نجدهم قاطبة يجمعون على انه عربى صليبة وليس ولاء ، وانه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية القحطانية التينزحت الى افريقية فيمن نزح اليها من القبائل العربية ابان الفتوح الاسلامية لهذا الصقع ، والقت به عصا التسيار ،وطاب لها المقامبمدينة القيروان، فهو اذن عربى صريح ينتمى الى ارومة عربية قحطانية ، وقد كان نسبة العربي امرا متعالما مشهورا، حتى ان ابن رشيق، قريعه ومنافسه في بلاط المعز بن باديس ، لم يستطع ان يغمزه فى نسبه أو يطعن فى عروبته ، وينال منها عندما استحكم العداء بينهما ، فعندما نقرأ فى ترجمة ياقوت لابن رشيق : « ,وكان بينه وبين ابن شرف الاديب مناقضات ومحاقدات ، وصنف فى الرد عليه عدة تصانيف ، كان أبوه رشيق روميا ذكر ذلك هو فى الرد على ابن شرف بعد ذكره نسب ابن شرف : هو اسم امراة نائحة ، ثم قال : واما انا فنضر الله وجه هذا الشيخ فى ، واتم به النعمة على ، فما ابغى به ابا ، ولا ارضى بمذهبه مذهبا ، رضيت به روميا لادعيا ولا بدعيا » (١٤) فيبدو لنا من هذا النص أن ابن شرف ربما كان ينبز ابن رشيق بأرومته الرومية ، ويغمزه في نسبه في الأعاجم ، ويطعن عليه ، وينتقص منه بذلك ، وينال منه فى زمن كان العربي يعتز فيه بعروبته ، ويستشعر فيها العزة والشمم،وكان الموالى المنتمون الى أصول غير عربية لايالون جهدا فى الانتفاء من الولاء الذى وسمهم بميسم الدلة والصغار ، ومن ثم اخذوا يصطنعون الأنساب العربية ، وينتفون جهدهم من أصولهم غير العربية التى نمتهم ، حتى اننا نجد أبا مسلم الخراسانى وهو من هو يصطنع لنفسه نسبا عربيا يزعم فيه انه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ، وقد قرعه بذلك ابو جعفر المنصور ، وانكر عليه هذا النسب المزعوم عندما هم بالايقاع به وقتله على مايروى لنا الطبرى فى تاريخه : (١٥) ونرى ياقوت فى ترجمته للجاحظ يورد لنا قصة تدل على سخرية الجاحظ (١٦) بهذه الصناعة التى راجت فى عصره ، الا اننا نرى ابن رشيق فى رده على ابن شرف يصرح برضاه عن نسبه في الأعاجم ، ويفخر بأرومته الرومية ، ويعرض

---

(١١) هدية العارفين ٢ : ٧٢ .

(١٢) رسائل البلغاء : ٢٠٢ وانظر ترجمة حسن حسنى لابنشرف فى مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥١ .

(١٣) معجم المطبوعات ١ : ١٣٩ .

(١٤) معجم الأدباء ٨ : ١١١ .

(١٥) تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٦ — ١٦٧ .

(١٦) معجم الادباء ١٦ : ٩٤ .

بابن شرف الذى قالوا عنه : ان شرفا اسم امه (١٧) ، وانه ليس له اب معروف، كما غمزه بذلك مرة اخرى حيث يقول :

أمـا ابـى فرشيـق لسـت أنكـره
قل لى أبوك وصوره من الخشب

وهكذا نرى ان اصحاب التراجم والطبقات يجمعون على أن ابن شرف عربى صريح ، وانه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية اليمنية (١٨) التى ينتهى نسبها الى قحطان .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له ، وعرفوا به الى مكان ولادته ومسقط رأسه ، ويغلب على الظن أنه ولد بالقيروان ، اما سنة مولده فاننا لانكاد نجد أحدا اشار اليها ممن ترجموا له من اصحاب التراجم القدامى ، اما المحدثون **فقد حددها الأستاذ محمد كرد على وحسن حسنى بنحو سنة ٣٩٠ هـ (١٩)** ، اما سنة وفاته فانهم يكادون يتفقون على **انه توفي سنة ٤٦٠ هـ (٢٠) ولم يشذ عن هذا الاتفاق سوى الصفدى وابن بسام والسيوطي** اما الصفدى فانه أورد تاريخ وفاته بأسلوب الشك والاحتمال ، ولم يقطع بان وفاته كانت فى هذا التاريخ حيث يقول : « وتوفى سنة ستين واربعمائة ، أو فيما قبلها » (٢١) ، اما ابن بسام فقد أورد فى اخبار ابن شرف انه توفى سنة ٣٦٢ هـ نقلا عن ابن رشيق حيث يقول : « حكى ابو على فى رسالة قراضة الذهب انه مات سنة أثنتين وستين وثلثمائة (٢٢) وهو خبر غريب ووهم واضح ، اذ انه لم يكن ولد ، وخرج الى الوجود فى هذا التاريخ ، وقراضة الذهب التى بين ايدينا الآن لا نجد فيها اشارة الى هذا الخبر الغريب ، ولعل ابن بسام كان يعنى سنة اثنتين وستين واربعمائة لا اثنتين وستين وثلثمائة ، اما السيوطى فقد ذهب الى انه توفى سنة ٥١٨هـ وهو خبر غريب ووهم واضح ، ولا ندرى من اين اتى بهذا التاريخ مع أن ترجمته له لا تعدو سطرين استقاهما ونقلهما من الصلة لابن بشكوال ، وبالرجوع الى المصدر الذى استقى منه ، ونقل عنه ، لا نجد ابن بشكوال يذكر تاريخ وفاة ابن شرف بل اغفله تماما واهمله ولم يشر اليه ، على هذا فتحديد تاريخ وفاة ابن شرف بسنة ٥١٨ هـ من اختراع السيوطى ، وليس كما زعم من انه نقله عن ابن بشكوال حيث يقول : « مات سنة ثمان عشرة وخمسمائة ذكره ابن بشكوال فى زوائده على الصلة (٢٣) اما مكان وفاته فنحن

---

(١٧) يقول الصفدى : « قيل ان شرف اسم ام احمد فعلى هذا لاينصرف ، واسم أبيه فينصرف » الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وبعد ان يعدد رسائل ابن رشيق فى هجاء ابن شرف وذكر اغلاطه يقول : « وانشدنى فى بعضها :

بنـو شـرف شـرف امكـم ... وليسـت اباكـم فـلا تكـذب
ولكنهـا التقطـت شيخكـم ... فاثبـت فى ذلـك المنصـب
ابينـوا لنـا امكـم اولا ... ونحـن نسامحكـم بالاب

انظر الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(١٨) فى كشف الظنون : ١ : ٤٦ « جـذام بضم الجيم والذال قبيلة من اليمن » .

« ١٩ » رسائل البلغاء : ٣٠٢ وانظر مجلة المقتبس ٦ : ٣٥١.

(٢٠) انظر معجم الادباء ١٩ : ٣٨ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ وكشف الظنون ١ : ٤٦ وهدية العارفين ٢: ٧٢ وظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ والأعلام للزركلى ٣ : ٩٠٠ .

(٢١) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٢٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ .

(٢٣) بغية الوعاة : ٤٦ .

نعلم انه توفى فى دار غربته بالاندلس متنقلا بين ملوك الطوائف . الا اننا لا نكاد نجد احدا من اصحاب التراجم القدامى حدد لنا مكان وفاته اللهم الا ياقوت الذى يكاد ينفرد بين القدامى بتقرير أن وفاة ابن شرف كانت باشبيلية (٢٤) ، كما ذهب الى ذلك من المحدثين حسن حسنى عبد الوهاب حيث يقول: « واجتاز ابن شرف وحده الاندلس ، وسكن المرية وغيرها ، وتردد على ملوك الطوائف كآل عباد باشبيلية وغيرهم وبهذه المدينة الاخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ » (٢٥) وتبعه في ذلك طائفة من المحدثين . (٢٦) ونحن نشك في هذا الخبر ولا نكاد نطمئن الى انه توفى باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه بأسباب المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية وعاش فى كنفه الى أن ادركته منيته ، لاننا نجد ابن بسام في ذخيرته يقول عن ابن شرف : « واستقر اخيرا عند المأمون بن ذى النون فعليه خلع آخر لبوسه ، ونثر بقية كيسه ، وكانت لعباد همة فى اصطحاب الاحرار واستجلاب ذوى الاخطار ينصب لذلك الحبائل ويعمل فيه الحق والباطل ، حتى اذا غشوا الى سرجه ، واغتروا بزبرجه سامهم رد قبيس على ابيه ، واخذهم بالسعاية بين الفرقد وأخيه » (٢٧) ثم يذكر بعد ذلك ان ابن شرف كان يتجنب عبادا ، ويتحاماه فيقول : « وكان ابن شرف هذا ممن فهم منحاه ، وصم عن رقاه ، فلم يجتمع مععباد فى صعيد ، ولا اهدى له السلام الا من بعيد » (٢٨) ثم يذكر بعد ذلك أن اول ما بعث به ابن شرف الى المعتضد باشبيلية خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره ابن زيدون ، وانه اجيب على ذلك برسالة من انشاء ابن عبد البر يستحثه على القدوم على حضرة المعتضد الذى وجه اليه بما يعينه على رحلته اليه (٢٩) فامتنع ابن شرف من القدوم على حضرتهواكتفى بأن اهدى اليه كتابه « أبكار الافكار » يقول ابن بسام : « فتوقف ابن شرف عن القدوم بقدمه ، وكلف ذلك سن قلمه ، وطرد تأليفه « ابكار الافكار » « باسم عباد ، وبعث به اليه على البعاد » (٣٠) فلما وصل الكتاب والخطاب الى المعتضد لم يجد بدا من انفاذ صلته اليه ، (٣١) ورد على ابن شرف برسالة من انشاء عبد البر أيضا ، ثم يقول ابن بسام بعد ذلك : « ومع وصول هذه الصلة الى ابن شرف لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوف وينتقل فى الدول من منزل الى منزل ، ومن بلد الى بلد الا حضرة المعتضد فانه كان يخاطبه ، وينشده :

احبك فى البتول وفى ابيها
ولكنى احبك من بعيد (٣٢)

---

(٢٤) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٢٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ .

(٢٦) انظر الدولة الصنهاجية لاحمد بن عامر : ٨٤ وعصرالقيروان : ١٠٨ والاعلام ٣ : ٩٠٠ .

(٢٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٢٨) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢٩) المصدر السابق : ١٢٥ .

(٣٠) المصدر السابق : ١٣٨ .

(٣١) المصدر السابق : ١٤١ .

(٣٢) المصدر السابق : ١٤٢ .

ثم يورد له ستة ابيات طريفة خاطب بهـا المعتضد ، واياسه من لقائه والوقوع في حبائله ، ولا بأس من أن نوردها لطرافة معانيها وهى :

ان تصيـدت غـيرى صيـد طائـرة
اوسعتهـا الحـب حتـى ضمها القفص

حسبتى فرصـة اخـرى ظفـرت بهـا
هيهـات ما كـل حين تمكـن الفـرص

وظاهــر حســن ايضـا لقصتهـا
لكـن لهـا باطـن في طيهـا قصـص

لـك الموائـد للقصـاد مترعـة
تروى وتشبـع لكـن بعدهـا غصص

ولسـت اعجـب من قـوم اذا انتشبوا
لكنمـا عجبـي مـن معشـر خلصـوا

ولـم يطـب قـط لـى مـن بلـد ولا
سلـوى اذا كان فى عقباهما مغـص (٣٣)

ثم يعلق ابن بسام على هذه الابيات بقوله : « قال هذا لتواتر الخبر عن المعتضد بازوروار ركنه ، وخشونة حزنه فاضرب عن ضربه ، ولم يتعرض للنشبة فى حبائل نشبه ، خوفـا أن يورطه فى الهوان ، ويسقط العشاء به علـى سرحان ، ويطيح فى جملة ما طاح على يديه من الخلطاء والندماء » (٣٤) وهكذا يخالجنا الشك ولا يمكننا ان نطمئن الى أن ابن شرف انتهـى به المطاف الى اشبيلية ، وانه توفى بها كما يقول ياقوت من القدامى ، ومن ذهب الى ذلك مـن المحدثين ، ونرجح أنه أدركته منيته بطليطلة فى كنف ابن ذى النون .

اما اسرته فقد سكـت عنها المترجمـون ، واغفلوها ولم يشيروا اليها ادنى اشارة ، ولم يحفلوا بها شأنه شأن غيره من العلماء والأدباء، فلا نكاد نعرف من اسرته الا ولده جعفرا ، وكان كأبيه اديبا شاعرا ، وقد ترجم له ابن بشكوال فى صلته ترجمةموجزة ذكر فيهاأن له رواية عن ابيه ، وانه اخذ عنه ديوانـه حيث يقـول : « جعفر بن محمد بن ابى سعيـد بن شـرف الجذامى القيروانى ، واصله منها ، وبها ولـد سنة اربع واربعين واربعمائة ، وخرج عنهـا عند اشتداد الفتنة عليهـا سنـة ٤٤٧هـ الـى الاندلس ، واستوطن برجة من ناحية المرية ، يكنى ابا الفضل له رواية عن ابيـه ، واخـذ ديوان شعره ، وعن القاضى أبى عبد الله بن المرابط وأبى الوليـد الوقشى وأبـى سعيـد الوراق وغيرهم » (٣٥) ويقول **محمد كرد على** : « وخلف ابنا يدعى أبا الفضل جعفرا كان أديبا ومجيدآ ايضا ، اورد له العمـاد فى خريدتـه والفتح في قصائد وفصولا تشهد لـه بطـول الباع » (٣٦) وفي الفصل الذى عقده ابن بسام بعنوان « ما اخرجته من شعر ابن شرف فى أوصاف شتى » نجد ابن شرف قد فصل القول واجاد فى تصوير نكبةالقيروان حاضرة افريقية، وما اصابها علىأيدى أعرابالصعيد من صنوف التخريب والتدمير ، وما لحق بأهلها من الوان العسف والاضطهاد ، وما حل بهم من فنون الاذى وضروب التعذيب ولا غرابة فى هذا فقد هزته مأساة القيروان ، وافزعتـه الكارثـة ، وازعجته عن حرمه الآمن ، فلا عجب أن انطقته بعدة قصائد تعد من عيون الشعر العربـى فى رثاء المدن والامصار ، ويعنينا هنا انه يصف فى احدى مراثيه للقيروان حال افراخه الصغار ـ ،

---

(٣٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٣٤) المصدر السابق : ١٤٣ .

(٣٥) الصلة ١ : ١٢٩ كما ترجم له الفتح بن خاقان فىقلائده : ٢٥١ ـ ٢٥٨ وافاض فى الثناء عليه ونقل شعره الرقص والمطرب .

(٣٦) رسائل البلغاء وانظر مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ .

وما تجشموه من صعاب واهوال فى الصحارى والقفار وعلى متون البحار فرارا بانفسهم من عسف الاعراب واذاتهم فيقول :

كأنى وافراخـى اذا الليـل جننـا
وبـاتت الكـرى يجفـو جفونـا ويطـرق

حمائـم اضللـن الوكـور فضمهـا
تجانسهـا حتـى تـراءى المفـرق

اذا افزعتهـم نبـوة زاحمـوا لهـا
ضلوعـى حتـى ودهـم لو تفتـق

ويصفـر جسمى عـن جميع احتضانهم
فيثبـت ذا فيـه وذا عنـه يزهـق

كأنهـم لـم يسكنـوا ظـل نعمـة
لها بهجـة مـلء العيـون ورونـق

الـى أن غـدوا قـن الفيافـى فتـارة
تبـاع وفى بعـض الاحايـين تعتـق

وطـورا علـى مـوج البحـار كأننـا
قذى قـد وثقنـا اننا ليـس نفـرق

ونحـن نفـوس تسعـة ليـس بيننـا
وبين الـردى الا مويـد معلـق (٣٧)

كما نجده في مدحة اخرى بعث بها الـى المعتضد يشير الى طفلين له : احدهما ابن أربع سنوات والآخر ابن ست سنوات، وما تجشماه في هذه السن الفضة من صعاب فيقول :

اجشمهـم ليـل القفـار وظلمـة الـ
بحـار وكـم ريعـوا وللستـر ارخـاء

ولـى منهمـا سهمـان هـذا ابن اربـع
وهـذا ابـن سـت كلمـا كـان اغفـاء

اضمهمـا والليـل داج كأنمـا
همـا نقطتـا يـاء وجسمـى هـو الياء

فطـورا يفشيهـم على ذكـرك الكـرى
فتصبـح اضـواء عليهـم ولالاء

وطـورا يمجـون الدجـى ومطالـه
ومـا كـان للغايـات مطـل وارجـاء

فتضجـر منهـم انفس ربمـا بكـت
بكـى هـو للصـم الجلاميـد ابكاء (٣٨)

ويكاد هذا هو كل ما نعرفه من أسرة ابـن شرف ، وما أثر لنا مـن اشارات اليهـا ، فى آثاره الشعرية التى وصلت الينا .

●●●

كان ابن شرف شخصية خصبـة متعـددة المواهب ، فهو أديب ناقد كاتب شاعر صاحب منظوم ومنثور ، فياقوت يبـدأ ترجمتـه له بقوله : « الاديب الكاتب الشاعر » (٣٩) وبعده الصفدى احد فحول شعـراء المغـرب (٤٠) ، ويقول عنه ابن شاكر الكتبى : « احد فحـول شعراء الاندلس والمغرب » (٤١) . ويقول فيه ابن بشكوال : « وكان من جلة الادباء وفحول الشعراء ، وله كتب مصنفة فى معنى ذلك كلـه ويشـير ابن خلدون فى مقدمته الى علو مرتبته فى الشعر هو وقريعه ابن‌رشيق فيقول : « ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق

---

(٣٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١ .

(٣٨) المصدر السابق : ١٧٩ .

(٣٩) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٤٠) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٤١) فوات الوفيات ٢ : ٢٥٥ .

وابن شرف ، واكثر ما يكون فيها من الشعراء طارئين عليها » (٤٢) وحين عرض له ابن رشيق فيمن عرض لهم من شعراء عصره قال فيه كما نقل لنا ابن فضل الله العمرى : « شاعر حاذق متصرف كثير المعانى والتوليد ، جيد المقطعات والتقصيد ، اشعر اهل زمانه من شق غباره ، واحذقهم من اقتفى آثاره ، وما منهم الا اغـــر نجيب » (٤٣) فابن رشيق فى موقفه من ابـــن شرف هو موقف الرجل المنصف الذى يعرف له قدره ، وينصفهولا يغمطه حقه، ولا يبخسه فيما يعلم ، ولا ينتقص من قدره الذى يعرفــه له ، وهو موقف يحمد لابن رشيق اذا عرفنـــا ما كان بينهما من منافسة ، والواقع ان ابـــن شرف كان من الشعراء المجيدين ، وقد اتسم شعره بقوة التراكيب وسلاسة المعانى ، ودقة الوصف ، ووضوح الافكار ، كما هو واضـــح من اشعاره التى أوردنا طرفا منها ، ويقول فيه ابن بسام : « من فرسان هذا الشأن ، واحد من نظم قلائـــد الآداب ، وجمعأشتات الصواب وتلاعب بالمنظوم والمـــوزون تلاعـــب الرمـــاح بأطراف الفصون » (٤٤) وقد اورد ابن بسام طائفة كبيرة من شعره ونثره ، وبسط القول فى أخباره الادبية وافاض فيها حتى كسر عليها مايزيد عن خمسين صفحة ، بل ان لابن شرف **رواية عن أبى الحسن القابسى وأبى عمران الفاسى** الفقيهين يقول ياقوت : « روى أبى الحسن القابسى وأبى عمران الفاسى » (٤٥) ويقـــول الصفدى : ورى ابن شرف عـــن أبى الحسن القابسى (٤٦) ويذكر ابن بشكوال أن لابن [illegible] رواية عن أبى الحسن القابسى وأبى [illegible] الفاسى وصحبة لهما ، وان أبا الوليد [illegible] عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، ثم [illegible] اخبرنا عنه ابنه الادب ابو الفضل جعفر [illegible] بجميع مجموعات [illegible] ، وكتب بذلـــك الي [illegible] رحمه الله » (٤٧) [illegible] الدباغ : « ولابى [illegible] الله محمد [illegible] رواية عن الشيخ ابى الحسن [illegible] عمران الفاسى ، وذكره الشيـــخ [illegible] الباجى ، واثنى عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء وان عام الأدب من بعض علومه » (٤٨) ويبدو أن صلة ابن شرف بالفقهاء والفقه كانت قوية متينة ، وان روايته عن الفقهاء كانت معروفة مشهورة ، حتى رأينا الدباغ يسلكه فى جمعه الفقهاء ، ويعده منهم ، فيترجم له ، ويعرف به في كتابه **« معالم الايمان »** وكأنه كان مشهورا بالعلم والفقه في عصره ، معدودا من جملة الفقاء والعلماء ، بل انه يبدو أن شخصيته الفقهية العلمية كانت أغلب عليه من شخصينه الادبية ، وان شهرته بالفقه والعلم طغت علـــى جانب شهرته بالأدب وفاقتها ، حتى اننا نجد الدباغ فى نهاية ترجمته له ينقل لنا ثناء ابى الوليد الباجى عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وان

---

(٤٢) المقدمة : ٥٦٥ ولا نوافق ابن خلدون على ماذهب اليهمن انه لم يكن بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف ، وان اكثر من فيها من الشعراء طارئون عليها ، اذ انه وجد بافريقية من الشعراء من هم فى مرتبة ابن رشيق وابن شرف ، بل ربما وجدنا من الشعراء المعاصرين لهما منهو اشعر منهما مثل عبد الكريم النهشلى والرقيق القيروانى وعلي بن عبد الغنى الحصرى وغيرهم .

(٤٣) مسالك الابصار جـ ١١ قسم ٢ : ٢٣٨ .

(٤٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ وقد نقلالدباغ فى ترجمته لابن شرف عن ابن بسام انظر معالم الايمان ٣ : ٢٣٩ .

(٤٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٤٦) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٤٧) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٤٨) معالم الايمان ٣ : ٢٣٩ .

علم الأدب من بعض علومه (٤٩) ويقول الدكتور باغي : « وكأن ابن شرف قد كان مشهورا بالعلم والفقه في زمنه ، ولهذا فلسنا نجد له ترجمة لدى ابن خلكان أو ياقوت بخلاف ابن رشيق فله ترجمة لديهما » (٥٠) ونرى أن الدكتور باغي قد جانبه الصواب فيما ذهب اليه من انه لم يجد ترجمة لابن شرف لدى ابن خلكان ، او ياقوت بخلاف ابن رشيق ، ورده ذلك الى ان شهرة ابن شرف في زمنه بالفقه قد غلبت على جانب الادب بخلاف ابن رشيق ، فالواقع اننا نجد ترجمة لابن شرف عند ياقوت في معجمه ،واذا كانت ترجمته قد سقطت من ابن خلكان فليس ذلك بسبب شهرته بالفقه ، لأن ابن خلكان لم يقصر وفياته على الترجمة للأدباء وحدهم دون غيرهم ، بل ترجم لشتى الطبقات ومختلف الطوائف والفئات من خلفاء ووزراء وقضاة وفقهاء ومحدثين وقراء ومفسرين ونحاة ولغويين وأدباء وشعراء وكتاب ومؤرخين ورواة ووعاظ وصوفية ومتكلمين .

وقد توطدت العلاقات بينه وبين معاصره ابن رشيق ، وتوثقت الصلات بينهما قبل أن يجمعهما بلاط المعز بن باديس واسطة عقد بيته كما يقول ابن خلكان (٥١) والذى كانت القيروان فى عهده كما يقول ياقوت، « وجهة العلماء والأدباء ، تشد اليها الرجال من كل فج ، لما يرونه من اقبال المعز على أهل العلم والأدب ، وعنايته بهم » (٥٢) كما كانت حضرته محط بنى الآمال ومنتجع الأدباء كما يقول ابن خلكان (٥٣) ، وقد حدثنا ابن رشيق كيف كان يشهد مرارا لدته ومعاصره ابن شرف وهو يكتب القصيدة فى غير مسودة كانه يحفظها ثم يقوم فينشدها ، ويذكر انه لا يستطيع أن يحصى ما كان بينهما والروابط المتينه التى تجمع بينهما تدفع بابن شرف الى أن يحضر كل يوم صاحيا حينا ، وفي سكر حينا آخر على مايروى الصفدى حيث يقول : «وقال ابن رشيق في حقه فى الانموذج : لقد شهدته مرات يكتب القصيدة فى غير مسودة كأنه يحفظها ، ثم يقوم فينشدها ، واما القطعات فما احصى ماكان يصنع منها كل يوم بحضرتى صاحيا كان أو سكرانا ، ، ثم يأتى بعد ذلك اكثرها مخترعا بديعا » (٥٤) .

وبعد أن اتصلت اسبابهما بأسباب المعز بن باديس ، وجمعهما بلاطه ، وتهيأ لهما أن يكونا شاعرى حضرته وملازمى ديوانه ، حتى أصبحا متقدمين عنده البرين لديه على سائر من فى بلاطه من الادباء ، يقول ياقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من فى حضرته من الأفاضل والأدباء » (٥٥) .

ويقول حسن حسنى : « وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق فكان يلتفت تارة الى الاول ، وأخرى الى الثانى ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الادبيين مناقضات ومهاجاة رسمها كل منهما فى رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل الينا منها شيء فيما نعلم(٥٦) .

---

(٤٩) معالم الايمان ٣ : ٢٤١ .

(٥٠) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٢ .

(٥١) وفيات الاعيان ٤ : ٣٢١ .

(٥٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٣) وفيات الاعيان ٤ : ٣٢١ .

(٥٤) الوافي بالوفيات : ٣ : ٩٨ .

(٥٥) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٦) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٢ .

ويبدو انهما كانا اقرب الى نفس المعز من سائر الشعراء ، واكثر استجابة لما يمليه عليهما ولهذا رأيناه كثيرا ما كان يستدعيهما، ويخلو بهما حين يطيب له أن يلهو ، وكان على ما يظهر لنا يرغب فى اثارة اسباب المنافسة بينهما في مجالسه الادبية ، ويقوم هو بدور الحكم احيانا فى المفاضلة بينهما ، يقول ابن ظافر : « ان الاتفاق والتوارد بين الشاعرين يقع اكثر مايقع عندما يضيق المقترح عليهما بأن يعين لهما الوزن والقافية»(٥٧) ثم ينقل عن « ابكار الافكار » لابن شرف ما يؤيد ماذهب اليه فيقول: « أكثر ما يقع هذا الاتفاق الغريب والتوارد العجيب اذا ضيق المقترح على الشاعرين بأن يعين الوزن والقافية .

ذكر ابو عبد الله بن شرف القيروانى فى كتاب (ابكار الافكار) قال : استدعانى المعز بن باديس يوما ، واستدعى ابا على الحسن بن رشيق ، وكنا شاعرى حضرته وملازمي ديوانه ،فقال : احب أن تصنعا بين يدى قطعتين فى صفة الموز على قافية الغين ، فصنعنا حالا من غير ان يقف احدنا على ما صنعه الآخر ، فكان الذى صنعته :

يا حبذا الموز واسعاده
من قبل مضغ الماضغ

لان الى أن لا مجس له
فالفم ملآن به فارغ

سيان قلنا ماكل طيب
فيه والا مشرب سائغ

والذى صنعه ابن رشيق :

موز سريع اكله
من قبل مضغ الماضغ

ماكله لآكل
ومشربة لسائغ

يخال وهو بالغ
للحلق غير بالغ

فامرنا للوقت ان نصنع فيه على حرف الدال ، فعملنا ، ولم ير احدنا صاحبه ما عمل ، فكان ماعملته :

هل لك فى موز اذا
ذقته قلت حبذا

فيه شراب وغذاء
يريك كالماء القذى

لو مات من تلذذا
به لقيل : ذا بذا

وما عمله ابن رشيق :

لله موز لذيذ
يعيده المستعيذ

فواكه وشراب
به يداوى الوقيذ

ترى القذى العين فيه
كما يريها النبيذ

قال ابن شرف : فانت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصة واحدة

---

(٥٧) بدائع البدائه : ١٢٧ ، ويقول ابن دحية : « وبسندنا الى ابى عبد الله محمد بن شرف قال : اكثر مايكون توارد الخواطر ووقوع الاتفاق ومايقاربه اذا طلب الشاعران اوالناشران معنى واحدا فى قافية واحدة » المطرب : ٦٧ لم يورد بعد ذلك شعرى ابن رشيق وابن شرف فى وصف الموز، وفى مدح الزغب على سوق بعض حظايا المعز .

والقصـد واحدا ، ولقـد قال من حضر ذلك اليوم : ماندرى مم نتعجب أمن سرعة البديهة، أم من غرابة القافية،أم من حسن الاتفاق»(٥٨) ثم ينقل ابن ظافر بعد ذلك عن ابن شرف قوله: « اسـتخلانا المعز يوما ، وقال : اريـد أن تصنعا شـعرا تمدحان به الشـعر الرقيـق الخفيف الذى يكون على سوق بعض النساء، فانى أستحسنه وقـد عـاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ، فاحب ان أريهن هـذا ، وأدعى أنه قديم لاحتج بـه على من عابه ، وأسر به من عيب عليه ، فانفرد كل منـا ، وصنع فى الوقت ، فكان الذى قلت :

وبلقيسـية زينـت بشـعر
يسـير مثل ما يهب الشحيح

رقيق فى خـدلجـة رداح
خفيف مثـل جسم فيه روح

حكى زغب الخدود وكل خد
به زغـب فمعشـوق مليـح

فان يك صرح بلقيس زجـاجا
فمن حدق العيـون لها صروح

وكان الذى قال ابن رشـيق :

يعيبون بلقيسـية أن راوا بهـا
كماقدرأى من تلك من نصب الصرحا

وقد زادهاالتزغيب ملحاكمثل ما
يزيد خدود الغيد تزغيبهاملحا

فانتقد المعز على ابن رشيق قوله «يعيبون» وقال : قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقدا مافطنت له»(٥٩) . وهكذا رأينا المعز بن باديس الذى كان حريصا على أن يقرب الكتاب والشـعراء وان يلحقهم بخاصته ، ويجمعهم في ديوانه ، حتى أجتمع فى بلاطه مائة شاعر بليغ كمـا يقـول حسن حسنى ،(٦٠) يطيب له أن يبعث في الشعراء روح التنافس ، وان يدفعهم الى التسابـق فى الاجادة ، والمباراة فى الاحسان فيما يقترحه عليهم من اغراض ، وان يسـاجل بعضـهم بعضا ، ويناظره فيما يفرض عليهم ، ويطلب اليهم القول فيه ، وأن يغرى بعضهم ببعض شـحذا لقرائحهم ، واسـتخراجا لاجـود ما عندهم ، حتى عادت تـلك المسـاجلات والمناظرات على الادب بأطيب الاثر وأحسن النتائج يقول حسن حسنى « وكثيرا ما كـان المعز يظهر الميل الى أديب دون آخر ،أو ينشب بين شاعرين فيوقع بينهما تنافسا أدبيا ينشأ

(٥٨) بدائع البداله : ١٢٧ ـ ١٢٨ والمطرب : ٦٧ ـ ٦٨وليس فى اتفاقهما هـذا ما يدعو الـى التعجب ، أو يثير الاستغراب لان العلاقات الوثيقـة والروابط المتينة التـىجمعت بينهما واتصالهما الدائم الطويل قبل ان يجمعهما بلاط المعزبن باديس . واتفاقهما فى الاخذ من مشاهير علماء عصرهماوادبائه امثال القزاز وابـى اسحق الحصرى وغيرهمـا .. بالاضافة الى الغرض الواحد الذى فرض عليهما ، وطلـبالبهما ان ينظما فيه على قافية واحدة ، فضلا عن أنهما لم يكونا يصدران فى ذلك عما يدور بخواطرهما ولم يكونا يتناولانهذه الموضوعات التى فرضت عليهما كما يحسان بها فى دخائل نفوسهما ، وكما تقع فى وجدانهما . وقد نتج عن كل ذلك أنجاء شعرهما فى الموضوعات المفروضة عليهما متقاربا متشابها كما رأينا ، وهكذا سخر المعز الشعراء لازجاء أوقات فراغهاللاهى العابث ، وللهوة حين يطيب له ان يلهو ، ويلذ له حين يحلو له ان ينشد اللذة ويطلبها فيتقدم اليهم أن يصنعـواشعرا فى مدح زغب نبت على سوق من عيبت به من حظاياه ، او يلفوا فى وصف فاكهةمن الفواكه حتى كان الشعراء فى بلاطهلايكادون يصدرون الا عما يدور بخلده ، ويهجس فى خاطره ، وتحدثه به نفسه وقلما كانوا يصدرون عن داخل نفوسهم اووجدانهم .

(٥٩) بدائع البداله : ١٢٧ ـ ١٢٨ والمطرب : ٦٨ ـ ٦٩

(٦٠) بساط العقيق : ٥١

عنه تسابق في اختراع المعاني وتوليد المبتكرات، وحصل بسبب هاته المنافسات نهوض في سوق الادب ، وظهرت حركة علمية وفكرية اجتنت افريقية من ثمراتها اليانعة ما يحق لها الافتخار به »(٦١) .

ويغلب على الظن ان ما اثر لنا عن ابن رشيق وابن شرف من مساجلات ومناظرات وما قام بينهما من مناقضات صورتها وسجلتها كتب الادب ، كان لا يعدو ان تكون لونا من الوان المباريات ، وضربا من ضروب المناقشات لايصدران فيها عن داخل نفسيهما ، وكان الناس من حولهما يلقفون ما يصدر عنهما ، ويغرون احدهما بصاحبه ، ويثيرونه عليه ، ويهيجونه به ، ويحرشون بينهما استخراجا لما عندهما ، واستمتاعا بما يصدر عنهما ، ثم يحكون لهما ما ذلك ، ولم يكن كل ذلك ليصل بهما الى حد التعرض او العداء او القطيعة وانفصام عرى المودة وتقطع اسباب الصداقة بينهما ، وانما تحفظ هذه المناقضات احيانا احدهما على صاحبه وتهيجه وتثير حميته عليه ، فينصرف مغاضبا ، ولكنه سرعان ما يعود اليه، وتتصل أسباب الصداقة والمودة بينهما ، ولا يبقى للحفيظة والغضب مكان في نفسه ، وقد فطن لذلك ياقوت ، ونبه اليه حيث يقول : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الافاضل والادباء فكان يقرب هذا تارة ، ويدني ذاك تارةأخرى فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا ، ولكن لم يتغير احدهما على الآخر بما جرى بينهما في المناقضات (٦٢) نعم لم يتغير أحدهما على الآخر بسبب هذه المساجلات والمناقضات ، وليس أدل على ذلك من ان المكاتبات والمخاطبات ظلت متصلة بينهما ، يكتب كل منهما لصاحبه ويجيبه حتى بعد انانخرطا في سلك خدمة المعز ، واشتد التنافس بينهما ، فها هو ذا ابن شرف يسبق ابن رشيق الى صقلية ، وحين يصل اليها يتذكر أيامه مع ابن رشيق ، فيكتب اليه ـ وهو بالمهدية ـ قصيدة يتشوقه فيها ، ويجيبه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروى لنا القفطي حيث يقول : « وكان بين ابن رشيق وبين محمد بن شرف الشاعر مباينه بعد مواصلة وذلك انهما كانا شاعرى ابن باديس، ودخلا اليه ، واتصلا بخدمته في وقت واحد ، وكان ابن شرف ممن لا ينكر حذقه ، ولا يدفع في هذا النوع صدقه ، ولم يزل بينهمامكاتبات ومخاطبات ، فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه اولها :

عدمناك من بعد وان زدتنا قربا
على ان فيما بيننا سببا سهبا

---

(٦١) بساط العقيق : ٥٥ كما يقول في موضع آخر عن تنافس ابن رشيق وابن شرف ، وحرص المعز على اذكاء جذوة التنافس بينهما : « فانه (اى ابن شرف) كان يترصد الزلات للوثوب على صاحبه ، وجرى بسبب ذلك تنافس ادبي ومكافحة اقلام ، وتسابق الى الاختراع والابتداع ،اجتنى منها سوق الادب فواكه فكرية رسمها كل واحد منهما في تاليف كانت احسن اثر لنتائج قرائح شاعرينا ، وربما كان الامير المعز يحرص على هذا التنافس بين ابن رشيق وابن شرف بالتفاته تارة الى الاول . واخرى الى رفيقه سعيا منه وراء تنشيط الآداب وترويج موادها .... » بساط العقيق : ٥٩ ويقول احمد امين : « وقد كانا صديقين ، ثم دبت بينهما الخصومة فتساجلا في الادب كتلك المساجلة التي كانت بين الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني » ظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ .

(٦٢) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ كما اشار ياقوت الى ما كان بينهما عند ترجمته لابن رشيق حيث يقول : « وكان بينه وبين ابن شرف الاديب مناقضات ومحاقدات ، وصنف في الرد عليه عدة تصانيف : » معجم الادباء ١١٠ ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق في الرد على ابن شرف من انه منسوب الى امرا القيس .

وكتب اليه ابن رشيق قصيدته التي أولها :

عتابا عسى أن الزمان له عتبى
وشكوى فكم شكوى ألانت له قلبا(٦٣)

ولعل هذا هو مادفع الصفدى فى ترجمته لابن شرف الى أن يشير الى أن ما جرى بينه وبين ابن رشيق من مهاجاة ومعاداة انما هو أمر يحدث عادة بين المتعاصرين(٦٤) حيث يقول : « وكانت بينه وبين ابن رشيق مهاجاة وعداوة جرى الزمان بعادتها بين المعاصرين » ثم يتبع ذلك بسرد اسماء عدة رسائل لابن رشيق يهجو فيها ابن شرف ، ويعدد أغلاطه ومساوئه ، فيقول : « ولابن رشيق فيه عدة رسائل يهجوه فيها ، ويذكر اغلاطه وقبائحه منها « رسالة ساجور الكلب » و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نجح الطلب » « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » و « [illegible] الملح ونسخ اللمح »(٦٥)ويقول الوزير السراج فى ترجمته لابن رشيق :« وكان بينه وبين عبدالله بن أبى سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيروانى مناقضات ومهاجاة ، وصنف عدة رسائل فى الرد عليه منها رسالة سماها « ساجور الكلب »و«رسالة نجح الطلب » و « رسالة قطع الانفاس » ورسالة نقض الرسائل الشعوذية »و «القصيدة الدعية » و « الرسالة المنقوضة » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال »(٦٦) اما العمرى فى مسالك الابصار فقد ذهب الى ان ما وقع بينهما انما هو من قبيل ما وقع بين الخوارزمى وبديع الزمان»(٦٧) ويؤكد ماذهبنا اليه انهم كانوا فى هذا العصر كثيرا ما يلجأون الى الهجاء لا لشىء الا للتندر والتسلية وازجاء اوقات الفراغ ، ومن ذلك ما يرويه الصفدى وابن شاكر الكتبى(٦٨) من أن ابن شرف قال بيتين على قافيــة القاف فى ذم حمام ، فبلغ ذلك ابن رشــيق ، فقال مجيزا لهذين البيتين ببيت هجا فيه ابن شرف ونبزه بالعور والصلع وهــو :

وأنت أيضــا أعــور أصلع
فصادف التشــبيه تحقيــق

---

(٦٣) انباه الرواة : ١ : ٣٠١ والقفطى وان كان لم يحدد المكان الذى بعث منه ابن شرف قصيدته الى صاحبه يتشوقه فيها الا انه يغلب على الظن انه بعث بها من صقلية ، لانــه من المعروف أن ابن شرف سبق صاحبه اليها ، ثم يقــول القفطى بعد ذلك ثم ان المنافسة اوقعت بينهما ، وتخارجا فى الهجاء ، وعمل ابن رشيق عدة تصانيف فى الرد عليه واخراج معايب اقواله ساستوفى لمحها وملحها فى كتابى الذى اسميه« الانيق فى اخبار ابن رشيــق » بمشيئة الله وعونه انباه الرواة ١ : ٣٠٣ فالقفطى هنا يعد باخراج كتاب يشتمل على رسائل ابن رشيق ومصنفاته فى الرد على ابن شرف وابراز اغلاطه ومعايب اقواله ، ولا ندرى ان كان القفطى قد وفى بوعده فاخرج هذا الكتاب ام لا .

(٦٤) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٦٥) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ وفوات الوفيات ٢ : ٤١ويقول ابن بسام : « وبينه وبين ابى على بن رشيق ماج بحر البراعة ودام ، ورجع نجم هذه الصناعة فاستقام وذهب من المناقضة مذهبا تنازعاه شرا طويلا ، وخلداه ذكرا محمولا ، واحتملاه ان لــم يسمح الله وزرا ثقيلا . وكــان ابو علــى اوسعهما نفسا واقربهما ملتمسـا ، ولابن شرف أصالة منزعه وجلالة مقطعه ومتانة لفظه وسعة حلقه ، فتسمع بشعره ملائمن ومعوعة وجمجمة ، ولكن ما ابعد ما يرويه وابدعه » الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٦٦) الحلل السندسية فى الاخبار التونسية الجزء الاول القسم الاول : ٢٧٩ ويقول ابن خلكان : « وكانت بينه وبين ابى عبد الله محمد بن ابى سعيد بن احمد المعروف بابــن شرف القيروانى وقائع وما جريات يطول شرحها » وفيات الاعيان ١ : ٣٦٨ .

(٦٧) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا عن مسالك الابصار جـ ١٧ ويقول حسن حسنى « وقع بينهما بالقيروان ماوقع بين جرير والفرزدق او بين الخوارزمى وبديع الزمان » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البلغاء ٣٠٥ .

(٦٨) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٨ والغيث المسجم ٢ : ٢٥٥ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

بل انهم كثيرا ماكانوا يهجون انفسهم ، ويتندرون عليها حين لا يجدون من يهجونه ويتندرون عليه ، فقد اجتمع ابن رشيق يوما مع بعض اصحابه وكان فيهم ابن شرف وكان أعورا ، والطوسي وكان اعمى وكان ابن رشيق أحولا ، فقال في صاحبيه وفي نفسه :

لابد في العور من تيه ومن صلف
لانهم يبصرون الناس أنصافا

وكل احول يلفى ذا مكارمة
لانهم ينظرون الناس أضعافا

والعمى أولى بحال العور لو عرفوا
على القياس ولكن حاف من حافا (٦٩)

ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز بن باديس مقدما عنده اثيرا لديه ، ولم تزل المناقضات والمساجلات والمناظرات متصلة بينه وبين ابن رشيق ، ولم يزل الهجاء والتندر قائما بينهما ، وهكذا مضت الحياة بهما وبغيرهما من الشعراء الذين ضمهم بلاط المعز بن باديس الى ان هاجم أعراب الصعيد القيروان ، فاضطر المعز الى الخروج منها ومغادرتها الى المهدية سنة ٤٤٩ هـ ولحق به من شعراء بلاطه وكتاب ديوانه ، ومن بين من لحق به ، واتصل بخدمته بالمهدية ابن شرف وابن رشيق يقول ياقوت : « ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز الى أن هاجم عرب الصعيد القيروان ، واضطر المعز الى الخروج منها الى المهدية سنة سبع واربعين واربعمائة ، فخرج ابن شرف وسائر الشعراء معه اليها ، واستقروا بها »(٧٠) ولكن المعز في المهدية كان مهموما محزونا ضيق الصدر منقبض النفس ، فقد سقطت القيروان حاضرة ملكه وقصبة افريقية في ايدى الاعراب الذين عاثوا في الارض فسادا ، وانتقصوا مملكته من اطرافها ، واشاعوا في جنباتها الخراب والدمار ، فلم يعد يعقد المجالس الادبية ، ويدعو اليها الشعراء ، ويقترح عليهم الاغراض التى تخطر بباله ، وانما هو منقبض النفس ، ضيق الصدر ، متبرم بكل شيء ، فاذا حدث وعقد مجلسا من تلك المجالس التى كان كثيرا ما يعقدها بالقيروان ، ودعا اليه الشعراء لا يلبث أن يضيق ذرعا به وبمن فيه من الشعراء ، كما فعل حين مزق الرقعة التى فيها قصيدة ابن رشيق ، ولم يكتف بتمزيقها ، حتى قدمها طعمة للنيران . يقول العمرى في مسالك الابصار نقلا عن ابن بسام : « ولما طلع نجوم النحوس بسماء المعز بن باديس خرج الى المهدية بسماء كاسفة الاقمار ، وذماء اقصر من طى الخمار ، وكان ابو على ممن انحشر في زمرته المحروبة ، وتحيز الى فئته المنكوبة اقام معه ، وغشى المهدية فما بعد اسطول الروم ، فأصبح البحر ثنايا تطلع المنايا ، وآكاما تحمل موتا زؤاما ، فدخل على المعز حين وضح الفجر ، فوجده في مصلاه ، والرقاع عليه ترد ، والشموع بين يديه تتقد فقام ينشده قصيدته التى أولها :

تثبت لا يخامرك اضطراب
فقد خضعت لعزتك الرقاب

فقال له : مه ، متى عهدتنى لا اتثبت ، اذا لم تجئنا الا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا ؟ ثم امر بالرقعة التى كانت فيها القصيدة فمزقت ، ولم يقنعه حتى ادناها الى الشمع فاحرقت»(٧١) .

---

(٦٩) الغيث المسجم ٢ : ٢٥٥ وديوان ابن رشيق :١١٦ ـ ١١٧ .

(٧٠) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٧١) المكتبة الصقلية : ٦٥. نقلا عن مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

ويضيق ابـن شرف بالمقـام في المهـدية ، وينبو بها منزله ، ولا يطيب له العيش بها بعد ان لقى من المعز انقباضا عن كل شيء ، وضيقا بالشـعر ، وانصرافا عنه ، وعزوفا عن الادب، وازورارا عن الشعراء ، ونفورا منهم ، وعزوفا عنهم ، وعدم ارتياح لهم ، وانحرافـا عمـن لحق به من الادباء ، وجفـاء لهم ، فلم يلبث بالمهدية الا قليلا حتى ركب ثبج البحـر ، وولى وجهه شطر صقلية وافداً على اميرهـا القائد أبى محمد الحسن بن عمر بن مطكود ، وكأنما ترامى الى سـمعه ، ونمى الى علمه ان الشعراء يصيبون حظوة كبيرة في بلاط هـذا الامـير ، وانه يقدمهم ويؤثرهم ، ويحبوهم ، ويجزل لهم العطاء ، ويقول ياقوت : (فأقام ابن شرف مدة بالمهدية ملازما خدمة المعز بن باديس وابنه تميم ، ثم خرج منها قاصدا صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق فاجتمعا بها ، ومكثا بها مـدة »(٧٢) وقد أشار العمرى الى ان ابن شرف سبق ابن رشيق الى صقلية حيث يقول بعد أن أورد خبر ابن رشيق مع المعز ، وتمزيق المعز للرقعـة التى كانت بهـا قصيدته التى لم يرقه مطلعها ، ولم يعجبـه ابتداؤها واستهلالها واحراقها ، والجفـوة التى وقعت بينهما نتيجة لذلك : « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق ، وكانت وجهته الى صقلية ، وكان ابن شرف قد سبقه اليها وقد قتله عليها »(٧٣) ويقول حسـن حسنى : « واقام ابن شرف مدة بالمهـدية مع زمرة شـعراء الملك يخدم الامير المعز وابنـه تميما الى أن رحل عنها قاصدا جزيرة صقلية لـا سمع من كرم اميرها »(٧٤) .

وكأنى بابن شرف وقد وصل الى صقلية ، واطمأن مقامه بها تذكر عهدا سـلف ، وأياما مضت مع ابن رشـيق فى ربـوع القـيروان والمهدية ، وفى بلاط المعـز بن باديس ، فيبعث اليه وهو بالمهـدية بقصـيدة يتشوقه فيهـا ويجيبه ابن رشـيق بقصيدة أخرى على مـا يروى لنا القفطى حيث يقول : « فمن شـعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشـيق وهو بالمهدية يتشـوقه ، أولها :

عدمناك من بعد وان زدتنا قربا
على أن فيمـا بيننا سببـا سهبا

وكتب اليه ابن رشيق جوابا عنها قصيدته التى اولهـا :

عتابا عسى أن الزمان لـه عتبى
وشكوى فكم شكوى الانت له قلبا(٧٥)

ويركب ابن رشيق ثبج البحر الى صقلية فى اثر صاحبه ابن شرف ، وينزل بمازر احدى مدنها على اميرها ابن مطكود ، فيؤثره ، ويقربه، ويسلكه فى عداد خاصته ، ويصيب عنـده حظوة كبيرة ، حتى انه قرأ عليه كتبه ، ومن بين ما قراه عليه من كتبه العمدة ، وعـاش فى كنفه ، ولم يزل عنده حتى أدركته الوفـاة يقول القفطى « ونزل مازر احـدى مدنها على اميرها ومتوليها ابن مطكود ، فأكرمه واختصه، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رأيتـه من قراءته عليه كتاب العمدة فى صـنعه الشعر ، وهو اجل كتبه واكبرها ، ورأيت خط ابن رشـيق على نسخة منها ، ولم يزل عنده الى أن مات بمازر» (٧٦) بيد أن الاسـتاذ احمد أمين ذهب الى انهما فرا عند غزو الهلاليين

---

(٧٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٧٣) المكتبة الصقلية : ٦٥٠ ـ ٦٥١ نقلا عن مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

(٧٤) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٥ .

(٧٥) انباه الرواة ٣ : ٣٠١ .

(٧٦) انباه الرواة ١ : ٣٠٣ .

مدينة القيروان ، وان ابن رشيق قصد الى صقلية ، بينما ولى ابن شرف وجهه شطر الاندلس . (٧٧) ولم يشر الى انهما خرجا مع المعز بن باديس بعد خراب القيروان الى المهدية ، واقاما بها معه مدة ، ثم ذهب ابن شرف الى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق ، ثم شخص ابن شرف وحده الى الاندلس تاركا صاحبه بصقلية ، وان ابن رشيق قد رام بعد ذلك الشخوص الى الاندلس فلم تطاوعه نفسه على ركوب البحر ، فاقام بمازر حتى ادركته منيته بها .

ويبدو أن ابن رشيق اصاب حظوة كبيرة عند ابن مطكود امير مازر ، وكان أقرب الى نفسه وآثر عنده من ابن شرف ، وليس فى هذا غرابة ، فقد كان لابن رشيق أثر بعيد في النهضة الادبية بصقلية فقد ذاعت شهرته بها ، وترامت اليها أخباره الادبية ، وطنت اشعاره في جنباتها ، وتداول أهل صقلية اخباره ، وتلقفوا اشعاره ورووها وتدارسوها ، حتى غدا مطمح أنظار بعض الصقليين ، وامامهم الذى يتأسون به فى اتجاهم الادبى ، كما كان له أصدقاء كثيرون معجبون به بهذه الجزيرة ، وقد اتصلت أسباب الصداقة بينه وبينهم ، وكانوا على اتصال دائم به ، ويدل على ذلك اننا نجد واحدا منهم وهو ابو عبدالله **الصفار** يصرح بذلك حيث يقول : « كنت ساكنا صقلية ، واشعار ابن رشيق ترد على ، فكنت اتمنى لقاءه ، حتى قدم الروم علينا ، فخرجت فارا بمهجتى ، تاركا لكل ماملكت يدى (٧٨)

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نراه ذا أثر فى النهضة الادبية بجزيرة صقلية ، فبعد أن رحل اليها ، والقى بها عصا التسيار ، واطمأن مقامه بها أخذ يدرس كتابه العمدة ، والتفت حوله طائفة من اهل الادب ، واقبلوا عليه يأخذون عنه ويتلقون عليه ، وغير بعيد ماسبق ان ذكرناه من أن ابن مطكود أمير مازر نفسه قرأ على ابن رشيق كتابه العمدة ، وقد كلف اهل صقلية بكتاب العمدة ، وشغفوا به ، واقبلوا عليه يتدارسونه ، وممن كلف به من اهل صقلية ابو عمر عثمان بن على بن عمر الصقلى ، فقد قراه ، واعجب به ، واختصره ، يقول حاجى خليفة : « واختصره الصقلى وسماه العدة » (٧٩) .

وهكذا يتبين لنا من خبر أبى عبدالله الصفار مع ابن رشيق أن اشعار ابن رشيق قد سبقته الى صقلية ، وذاعت بها ، وانه كان باتجاهه الادبى والنقدى موضع الاعجاب والتقدير من ادبائها ، بالغ التأثير فيهم ، حتى اننا نرى ابن حمديس الصقلى مع انه أبعد حظا منه فى الشاعرية يتناول شعره بالمعارضة .

ويبدو أن خاصة ابن مطكود وجلساءه كان يحلو لهم ان تقوم المناظرات بين ابن رشيق وابن شرف ، وان تتصل المساجلات والمناقضات بينهما ، كما كانت فى القيروان ، فقد ترامت اليهم أخبارهما الادبية ، وسمعوا بما كان بينهما من مناقضات ومساجلات ، ووصلت اليهم اخبار ابن رشيق واشعار وعبرت البحر

---

(٧٧) ظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ .

(٧٨) بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص ٢ : ٣٦وورد الخبر مع بعض تصرف فى مسالك الابصار المجلد السابع عشر وانظر المكتبة الصقلية : ٦٥١ وما بعدها وفى الخريدةقسم شعراء المغرب : ٨٣ ـ ٨٤ فى فصل بعنوان « جماعة من شعراء جزيرة صقلية عند الحديث عن ابى عبد الله محمدبن على الصباغ الكاتب : (وكان فى عهد ابن رشيق ، وبينهما مراسلات » ..... وكتب اليهابو على بن رشيق عند وصولهمن القيروان الى مازو فى أول رسالة ..) لم يورد ثلاثة ابيات من الشعر اجابه عليها ابن الصباغ بثلاثة ابيات اخرى .

(٧٩) كشف الظنون ٢ : ١٦٩ وانظر المكتبة الصقلية : ٧٠٤ويقول القفطى فى ترجمته لعثمان بن على : « ومن مصنفاته مختصر عمدة ابن رشيق وشاهدت هذا المختصر بحلب بخطهعند ابن القيسرانى ، وقد زاد فيه ابوابا اخل بها ابن رشيق وهى واقعة موقعها من التصنيف » ، انباه الرواة ٢ : ٣٤٣.

الى صقلية قبل ان يعبرها هو اليها ، وكأنما طاب لهم أن تقوم تلك المناقضات والمساجلات والمناظرت بينهما فى ربوع صقلية ، كما قامت بينهما من قبل فى ربوع القيروان ، وان يعيداها سيرتها الاولى حتى ينشط الشاعران ، وتروج سوق الأدب ، ويلهو الناس ، ويسمعون بما يصدر عنهما . يقول العمرى : « وكان قد وقع بينهما بالقيروان ماوقع بين الخوارزمى وبديع الزمان ، فلما اجتمعا يومئا بصقلية تنمر بعضهما لبعض ، وتشوق اعلام البلد لما كان بينهما من ابرام ونقض » (٨٠) وكان اهل صقلية سعوا بين الشاعرين وحرشوا بينهما ، واغروا احدهما بالآخر ، الا أنه يبدو انه كان بصقلية من أهل القيروان من يخشى مغبة الخصومة بين الشاعرين ، ويدرك سوء عاقبتها ، لو دبت عقارب السعاية بين الشاعرية ، واذكى القوم نار العداء بينهما ، فأخذ نفسه باصلاح ذات بينهما ، حتى لايصبحا فى دار غربتهما موضعا لتندر اهل صقلية وسخريتهم يقول العمرى : « فقصد ابن رشيق بعض اخوانه ، وقال له : انتما على الاحسان وشيخا اهل القيروان ، وقد اصبحتما بحال جلاء وبين الاعداء ، والأشبه بكما الا تفريا اديمكما ، ولا تطمعا الأعداء لحومكما ، فقال لـه : ايت ابن شرف ، فوجده أجنح للسلم ، وادنى الى الحلم ، برىء اليه من صببه وصعده ، وأعطاه بذلك صفقتى لسانه ويده » (٨١) بيد ان ابن رشيق كان يتحرش احيانا بابن شرف ، وينال منه ، ويتعرض له ، ويسعى به ، ولعله كان يفعل ذلك مدرعا بمكانته من ابن مطكود امير مازر ، وبمنزلته الرفيعة التى احتلها من نفوس اهل جزيرة صقلية ، ودالته عليهم ، فكان كما يقول العمرى : « ربما اعترض وتعرض ، وتحطب وتلمظ ، واما ابن شرف فلم يحل ماعقد ، ولا حال ماعهد » (٨٢) .

ويطيب لابن شرف المقام بجزيرة صقلية ، فقد هادنه ابن رشيق ، وامتدت الهدنة فيما بينهما واتصلت ، واصلح من بالجزيرة من اهل القيروان ذات بينهما ، واستقامت الامور بينهما ، حتى عادا الى الصفاء والاخاء والسماح . يقول حسن حسنى : « فلما اجتمعا بصقلية تسامحا » (٨٣) ثم تهيأت الظروف لابن شرف ، واتيحت له الفرصة ، فركب ثبج البحر ، وعبر الى عدوة الاندلس وولى وجهه شطر ملوك الطوائف ، وتردد عليهم ، وانتهى به المطاف عند المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة يقول ابن بسام : « فتردد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة اهوال ومباشرة خطوب طوال . . . واستقر اخيرا عند المأمون بن ذى النون ، فلبسه خلع آخر لبوسه ، ونشر بقية كيسه » (٨٤) ويقول الدباغ : « وقدم الاندلس ، وسكن المرية وغيرها وتردد على ملوك الطوائف » (٨٥) حتى سلكه ابن شاكر فى عداد فحول شعراء الاندلس والغرب ، فقد استهل ترجمته بقوله : « محمد بن سعيد بن احمد بن شرف القيروانى الجذامى احد فحول شعراء الاندلس والغرب » (٨٦) ويعده الصفدى احد شعراء الغرب (٨٧) .

---

(٨٠) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا من مسالك الابصار المجلدالسابع عشر .

(٨١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٣) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ ورسائل البلغاء:٣٠٥ .

(٨٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٨٥) معالم الايمان ٣ : ٢٣٩ .

(٨٦) فوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

(٨٧) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

ويؤكد ماذهبنا اليه ـ من أن المهادنة التى تمت في جزيرة صقلية بين ابن رشيق وابن شرف قد امتدت واتصلت ، وان الامور بينهما قد استقامت وصلحت ـ مانقرأ فى كتب التراجم من أن ابن شرف حين عقد النية على مغادرة صقلية ، وازمع الرحلة الى الاندلس استنهض صاحبه ابن رشيق فى ان يجتمعا بالطريق ، وان يجوزا معا الى الاندلس ، ويبدو أن ابن رشيق تباطأ عنه ، ولم ينهض معه ، بل تردد واعتذر عن عدم النهوض ، فمضى ابن شرف وحده ، يقول ياقوت : « ثم استنهضه ابن شرف على دخول الاندلس ، فتردد ابن رشيق ، وأنشد » :

مما يزهدني فى ارض اندلس
اسماء مقتدر فيها ومعتضد

القاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

فاجابه ابن شرف على الفور :

ان ترمك الغربة فى معشر
قد جبل الطبع على بغضهم

فدارهم مادمت فى دراهم
وأرضهم مادمت فى أرضهم (٨٨)

ثم شخص ابن شرف منفردا الى الاندلس ، وتنقل فى بلادها ، وسكن المرية بعد مقارعة اهوال ومقاومة خطوب ، وتردد على ملوك الطوائف كآل عباد وغيرهم ، وتوفى باشبيلية سنة ستين واربعمائة كما يقول ياقوت ، وقد سبق ان ذكرنا أنه يخالجنا الشك ، ولا يمكننا ان نطمئن الى انه توفي باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه باسباب المعتضد ، وعاش فى كنفه الى ان ادركته منيته . وقد سبق ان بسطنا القول فى هذه المسألة ، وانتهينا الى ترجيح أنه توفى بطليطلة فى كنف ابن ذي النون لأننا نجد ابن بسام يقول : « فتردد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة اهوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر اخيرا عند المأمون بن ذى النون فعليه خلع آخر لبوسه ونثر بقية كيسه » (٨٩) .

آثاره ومصنفاته :

خلف لنا ابن شرف مؤلفات كثيرة سقطت من يد الزمن ، ولم يصل الينا منها الا القليل ويشيد ابن بسام بمؤلفاته وينوه بها حيث يقول : « ولأبى عبد الله عدة تواليف افاضها بحارا ،واطلعها شموسا واقمارا » ويقول حسن حسني : « اما تآليف ابن شرف فكثيرة على مانقله الينا المؤرخون » ومن هذه المؤلفات .

أبكار الافكار :

ويشتمل هذا الكتاب على مختارات مما انتجه ابن شرف من شعر ونثر يقول فيه ياقوت « ابكار الافكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره » (٩٠) ويقول الصفدى : « وهو كتاب حسن فى الادب يشتمل على نظم ونثر من كلامه» (٩١) ويقول ابن دحية : «ولابن شرف مصنفات عديدة وأوضاع مفيدة منها » ابكار الافكار » فى سفرين ، وهو اختراع كله فى الحكم والأمثال والنظم والنثر » (٩٢) ويقول حاجي خليفة: «ابكار الافكار لمحمد بن سعيد الجذامى

---

(٨٨) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٨٩) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣

(٩٠) معجم الادباء ١٩ : ٤٣

(٩١) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ :٤١

(٩٢) المطرب : ٦٦

القيرواني .. جمع فيه من نظمه ونثره » (٩٣) ويقول البغدادى : « له أبكار الأفكار نظما ونثرا » (٩٤) ويقول حسن حسنى : « اما تآليف ابن شرف فكثيرة على مانقلــه الينا المؤرخون فمنها كتاب » أبكار الافكار « جمع فيه ما اختاره من نظمة ونثره ، وهو انفس مصنفاته ، مفقود وقد يوجد شيء منه في كتب الأدب » (٩٥) ويحدثنا ابن شرف نفسه عن كتابه هذا ، فيذكر أنه اشتمل على مائة نوع من مواعظ وامثال وحكايات قصار وطوال حيث يقول : « وقد كنت حاولت منه مالم أسبق اليه ، ولم اجعل سوى ناظرى معينى عليه ، فصنعت الكتاب الملقب » أبكار الافكار « يشتمل على مائة نوع من مواعظ وامثال وحكايات قصار وطوال » (٩٦) ثم يشير الى انه من اختراعه ، ومما انتجته قريحته ، وانه اشتمل على الجد والهزل فيعقب ذلك بقوله : « مما عزوتها الى من لم يحكها ، واضفت نسجها الى من لم يحكها ، قد طررت بلمح الجد والهزل ، وحسنت بمقابلة الضد للمثل ، وليس فى ذلك كله رواية رويتها عن قديم ولا جديد ، ولا حديث بها عن قريب ولا بعيد ... » (٩٧) .

وقد اهدى ابن شرف هذا الكتاب الى المعتضد ، وبعث به اليه . يقول ابن بسام : « وطرز تأليفه (أبكار الأفكار) باسم عباد ، وبعث به اليه على البعاد ، وقد كان وسمه قبل باسم باديس بن حبوس » وهذا الكتاب مفقود يكون كل ما وصل الينا منه هو مانقله ابن ظافر فى كتابه « بدائع البدائه » (٩٨) .

أعلام الكلام :

وقد حدثنا ياقوت عن هذا الكتاب وموضوعه ، حيث يقول وهو بسبيل تعداد مؤلفات ابن شرف : « وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة » (٩٩) ثم يشير عقب ذلك مباشرة الى أن لابن شرف كتابا آخر بعنوان « رسالة الانتقاد » ويحدثنا عنه بقوله : « ورسالة الانتقاد وهى على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهليين والاسلام » (١٠٠) فهل هما كتابان مختلفان أو انهما اسمان لكتاب واحد ، ونحن نرجح ان رسالة اعلام الكلام هى رسالة الانتقاد ، وأنهما اسمان لكتاب واحد .

وقد نشر هذا الكتاب حسن حسنى فى مجلة المقتبس تحت عنوان « رسائل الانتقاد » على نسخة فى خزانته واخرى في خزانة الاسكوريال برقم ٥٣٦ (١٠١) من القسم العربى ، كما نشر ضمن « رسائل البلغاء » كما نشره الخانجى مستقلا سنة ١٩٢٦ م وصدره بمقدمة جاء فيها : « كتاب اعلام الكلام الذى ننشره اليوم بين يدى القارىء الكريم وقد سبق لأحد الافاضل التونسيين ، وهو حسن افندى عبد الوهاب

---

(٩٣) كشف الظنون ١ ٤٦

(٩٤) هدية العارفين ٢ : ٧٢

(٩٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٥

(٩٦) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٤٠

(٩٧) المصدر السابق : ١٤٠ ــ ١٤١

(٩٨) بدائع البداية : ١٢٦ ــ ١٢٨

(٩٩) معجم الأدباء ١٩ : ٤٣

(١٠٠) نفس المصدر السابق والصفحة

(١٠١) انظر حديثه عن النسخ التى اعتمدها فى « رسائل الانتقاد » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٠

ان نشره في مجلة المقتبس تحت اسم » رسائل الانتقاد « وقد خيل لحضرته أن رسائل الانتقاد هذه غير أعلام الكلام ، كما أشار بذلك في مقدمته » (١٠٢) ويحدثنا الدكتور ياغى عن رسالة اعلام الكلام وأنها هى بعينها « رسائل الانتقاد » كما أنها تسمى ايضا « مقامة عن الشعراء » فيقول : « أعلام الكلام نشرها الخانجي وهى هى رسائل الانتقاد » ، كما هى في الاسكوريال برقم ٥٣٦ وعليها اسم » مقامة عن الشعراء« وقد صورتها لى الجامعة العربية، وبينها وبين نسخة الخانجي بعض الاختلافات القليلة » (١٠٣) وهكذا نرى ان « أعلام الكلام » و « رسالة الانتقاد » و « مقامة عن الشعراء » كلها أسماء أطلقت على كتاب واحد ومسمى واحد .

وتكاد هذه الرسالة تكون هى الأثر الوحيد الذى وصل الينا من مصنفات ابن شرف وآثاره التى امتدت اليها يد الضياع ، وقد كتبها بأسلوب السجع المعروف في المقامات ، وأثقلها بالمحسنات البديعية ، واتخذ لها شخصا خاليا دعاه (أبا الريان الصلت بن السكن) وتحدث على لسان هذا الشخص الخيالى أو البطل عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين فوصف كل واحد باختصار ، وعرض لمزاياه وعيوبه فى ايجاز ، وأغفل المغمورين منهم والمجاهيل ولم يشر اليهم ، ويقول ياقوت : « وهى على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والاسلام » (١٠٤) ويحدثنا عنها ابن بسام بقوله : » ولابن شرف مقامات عارض بها البديع فى بابه وصب فيها على قالبه ، منها مقامة فيها بعض طول لكنه غير مملول ، آخذة بطرف مستطرف من أخبار الأدباء وذكر الشعر والشعراء » (١٠٥) ويقول أحمد أمين : « كما وضع ابن شرف كتابه (أعلام الكلام) وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريرى ، تعرض بطلها لمشهورى الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه في قول قصير ، ويبين مزاياه وعيوبه فى ايجاز » (١٠٦) ويقول حسن حسنى : « وهى من اجمل ما وضع الواضعون فى هذا الفن الجليل الذى كاد أن يكون مفقودا فى التصانيف العربية » (١٠٧) كما ذهب في مقدمته لها الى انه يبدو ان ابن شرف كان يهدف من ورائها الى معارضة كتاب « العمدة » لابن رشيق وانها ربما كانت اطول مما وجده وحققه ونشره، وقد استند فى رايه هذا الى ما جاء فى سياق كلام ابن شرف فى مقدمته للمجلس الاول يقول حسن حسنى : « ويلوح لى ان مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة كتاب «العمدة» .... الا ان الرسائل المعارض بها كانت اطول واكثر مما وجدناه واوردناه هنا يؤيد ذلك ما جاء فى سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الاول حيث يقول : « فاقمت من هذا النحو عشرين حديثا » فالمظنون انه يقصد بالحديث مجالسه مع الاستاذ الموهوم الذى سماه « أبا الريان » كما اختلق الحريرى فى مقاماته شخص

---

(١٠٢) انظر مقدمة رسالة أعلام الكلام ، وممن ذهب من المحدثين الى ان رسالة « اعلام الكلام» كتاب آخر غير « رسائل الانتقاد » حسن حسنى حيث يقول وهو بصدد عرض مؤلفات ابن شرف : «ومنها كتاب « أعلام الكلام » به نخب وملح مفقود ايضا ، ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون أنه ألفها بمدهجرته القطر التونسى كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها « مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ ـ ٣٥٥ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٦

(١٠٣) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٥

(١٠٤) معجم الادباء ١٩ : ٤٣

(١٠٥) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٥٤

(١٠٦) ظهر الاسلام : ١ : ٨ : ٢٠٨

(١٠٧) بساط العقيق : ٥١

الحارث بن همام واخترع الهمدانى عيسى بن هشام ، فعسى أن يساعدنى الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس ان كان فى عالم الموجودات » (١٠٨) .

هذه هى رسالة اعلام الكلام واقوال العلماء القدامى والمحدثين فيها وفي موضوعها ويجدر بنا قبل أن نتحدث منها ان نقارن بينها وبين « كتاب العمدة » و رسالة قراضة الذهب » لابن رشيق .

واذا قارنا بين رسالة « اعلام الكلام » لابن شرف ، والعمدة ورسالة قراضة الذهب لابن رشيق وجدنا تشابها بينهما فى كثير من الموضوعات ، فابن شرف مثلا يقول عن ابن الرومى : « واما ابن الرومى فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ماليس له فى الاطراء فتح فيه ابوابا ، ووصل منه اسبابا، وخلع منه اثوابا وطوقبه رقابا»(١٠٩) ويقول ابن رشيق « وكان ابن الرومى ضنينا بالمعانى ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه الى كل ناحية ، حتى يميته ، ويعلم أنه لا مطمع فيه لاحد »(١١٠) ونرى ابن شرف فى الرسالة يحدثنا عن الشعراء القدامى والمحدثين ويحمل على اتجاه الرواة وعلماء اللغة ومقاييسهم فى تقسيمهم للشعراء الى طبقات ، وتفضيلهم القديم لمجد قدمه وسبق الزمن بصاحبه حيث يقول :«وتحفظ من شيئين : احدهما أن يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : ان يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور فى الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما او عليها»(١١١) ثم يقول : « وقد وصف تعالى فى كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ،ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة « وقال تعالى » لن نعبد الا ما وجدنا عليه آباءنا ...) فلا يرعك ان تجرى الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السماوات والارض ، وبه أحكم الابرام والنقض ، وسامثل لك فى هذا أمثالا ، واملا اسماعك مقالا ، وفهمك عدلا واعتدالا ، هذا امرؤ القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرا ، وقو السعت الاقوال فى فضله اتساعا لم يفز غيره بمثله، حتى ان العامة تظن بل توقن أن جواد شعره لا يكبوا ، وان حسام نظمه لا ينبو وهيهات من البشر الكمال،ومن الآدميين الاستواء والاعتدال»(١١٢) ثم يمضى يعدد على بعض الشعراء القدامى كثيرا من السقطات والهنات ، وينعى عليهم ما وقعوا فيه من اخطاء وعيوب ويجرحهم ، ويشهر بهم بادئا بامرىء القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم ذكرا وشعرا ويرى أنه كسائر الشعراء لا يخلو من العيوب ولايسلم من الهنات والمآخذ ، ثم يعرض لطائفة من عيوبه وسفساف شعره وساقطه .

واذا كان ابن شرف يحدثنا عن القدامى والمحدثين كما رأينا فى النص السابق ايراده من هذه الرسالة الذى حمل فيه على مقاييس الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، فاننا نجد ابن

---

(١٠٨) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥١

(١١٠) العمدة ٢ : ٢٣٦ ـ ٢٢٧

(١٠٩) اعلام الكلام : ٢٤

(١١١) اعلام الكلام : ٢٨

(١١٢) اعلام الكلام : ٢٨

رشيق يعقد لهم بابا مستقلا وقائما بذاته في كتابه العمدة بعنوان « القدماء والمحدثين » .

وإذا كان ابن شرف يحدثنا في رسالته عن امرىء القيس، ويذكر انه « مؤسس الاساس، وبنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون : اسيلة الخد ، حتى قال امروء القيس : اسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا وجيداء ، وتامة العنق ، حتى قال امروء القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ، ويسبق الظلام ، أو الظليم ، وامثال هذا ، حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد هيكل « ومثل هذا له كثير»(١١٣) فاننا نرى ابن رشيق يحدثنا في رسالته « قراضة الذهب » عن امرىء القيس بقوله: «وانا اقتصرمن جميع الشعراءفي اكثر مااورده على امرىء القيس ، لانه المقدم لا محالة ، وان وقع في ذلك بعض الخلاف فالمميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة في نفسه مالا يجده لغيره من كلام الشعراء ، والبحث والتفتيش يزيدانه جلالة ، ويوجبان له على ما سواه مزية ، ويشهد الطبع وذوق الفطرة شهادة بينة واضحة لا تدركها شبهة اذا قصد الانسان العدل ، وترك التعصب واول ما أبدا من ذلك ماكان من جهة الاستعارة كقوله : « بمنجرد قيد الاوابد هيكل » فانه اول من قيدها ، وسبق الى الاستعارة البديعة فاتبعه الناس »(١١٤) فهل لنا بعد هذه المقارنة بين اعلام الكلام لابن شرف ، وقراضة الذهب والعمدة لابن رشيق التي اوردنا أطرافا منها أن نقول : ان احدهما تأثر بصاحبه ، وتأسى به ، أو نقول : ان اتفاقهما وتشابههما هو مجرد توارد خواطر كالذي رأينا في الاشعار التي حملهما عليها المعز بن باديس ، ودفعهما اليها دفعا مثل اشعارهما في صفة الموز أو في وصف شعر السوق .

وقد بدا لي بعد كل هذا أن استنتج ان ابن رشيق اخذ من ابن شرف ، وأميل الى انه تأسى به ، وارجح انه تأثر به خاصة اننا نجد ابن شرف يستهل رسالته،ويفتحها بقوله : « هذه احاديث صفتها مختلفة الانواع، مؤتلفة في الاسماع ، عربيات المواشم غريبات التراجم ، وعزوتها الى ابي الريان الصلت بن السكن من سلامان ، وكان شيخا هما في اللسان ، وبدرا تما في البيان ، قد بقي احقابا ، ولقي اعقابا ، ثم القته الينا من باديته الازمات واوردته علينا العزمات فامتحنا من علمه بحرا جاريا ، من فهمه زندا واريا ، وادرنا من بره طرفا ، واجتنينا من ثمره طرفا ، ونحن اذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل(١١٥) ...» فابن شرف يصرح في هذا النص انه كتب هذه الرسالة في مقتبل الشباب وصدره ، واذا عرفنا أن ابن شرف ولد في سنة ٣٩٠ هـ كان لنا أن نزعم انه الفها بين سنتي ٤١٠هـ و ٤٢٠هـ اي في العقد الثالثمن عمره فيمقتبل الشبابوشرخه وصدره ، فاذا أضفنا الى ذلك انه يمكننا ان نقول : ان ابن رشيق الف كتابه « العمدة » في الفترة ما بين سنتي ٤١٢هـ و ٤٢٥ هـلاننا نجده يورد خبر هجاء دعبل بن علي الخزاعي للمعتصم ,وهروبه من وجهه ، فارا بمهجته

---

(١١٣) اعلام الكلام : ١١٦

(١١٤) قراضة الذهب تحقيق الشاذلي بو يحيى ط تونس سنة ١٩٧٢ م ص ٢٠ ــ ٢١ .

(١١٥) اعلام الكلام : ١٣

(١١٦) العمدة ١ : ٥٧

منـه ، بعد أن طلبه المعتصم ونـذر دمه ، وابعاده في الهرب حتى أدركته منينه ، وحم قضاؤه بالمغرب بزويلة بنى الخطاب حيث دفن الى جوار قبر عبدالله ابن شيخه القزاز حيث يقول : « والى جانبه قبر عبد الله بن شيخنا ابى عبد الله محمد بن جعفر النحوى رحمه الله » (١١٦) فهو يذكر قبر ابن شيخه القزاز، ويقرن اسم شيخه بقوله : « رحمه الله » فاذا ذهبنا الى ان الدعاء بالرحمة انما هو لشيخه القزاز وأنه كان قـد توفى اثناء كتابة تلميذة ابن رشـيق قصة دعبل وخبره مع المعتصم امكننا ان نقول : أن ابن رشيق ابتـدأ تأليف كتابه هذا فى سنة ٤١٢هـ وهنـاك قرينـة ثانية تدل على أن هـذا الكتاب الف فى الفترة آنفة الذكر ، وهى أن اول ما يطالعنا من هـذا الكتاب أن ابن رشيق يرفعه الى ابى الحسن على بن أبى الرجال رئيس ديوان انشاء المعز بن باديس ، ويهديه اياه ، فيقول : « السيد الامجد والفذ الاوحـد حسنة الدنيا وعلـم العليا وبانى المكارم وآبى المظالم رجل الخطب وفارس الكتب ابى الحسن على ابن ابى الرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم ، الذى نـال الرياسة وحاز السياسة » (١١٧) ولم يكن ابن رشيق في صنيعه هذا ، واهدائه كتابه الى ابن ابى الرجال بدعا من المؤلفين والمصنفين وانما كان يجرى على سنة العصر الذى عاش فيـه ، فقد جرت عادة العلماء والادباء حينئذاك ان يرفعوا كتبهم ومصنفاتهم الى الامراء والوزراء وكبار رجالات الدولة ، ويهدونها اليهم ابتغاء للمثوبة والمنفعة ، والتماسـا لجزيل عطائهم ونوالهم وصلاتهم وطلبا للشهرة وذيوع الصيت فلا على ان ابن رشيق ان يجرى على سـنة

عصره ، فيهدى كتابه الى ابن ابى الرجال ، وأن يسرف فى مدحه ، ويغالى فى اطرائه شأنه شـأن غيره ممن هم على شاكلته من الادبـاء والكتاب حتى يقول : « ولم أرسم كتابى هذا باسم السـيد زاده الله تعالى سموا لاكـون كجالب التمر الى هجـر ، ومهـدى الوشى الى عدن ، ولكن تزينا باسـمه الشريف وذكره الطيب ؛ واستسلاما بين علمه الطائل وادبـه الكامل ... (١١٨) فاذا عرفنا أن ابـن أبى الرجال هذا الذى اهداه ابن رشـيق كتـابه « العمدة » توفى سنة ٤٢٥ هـ فان من المقطوع به ان يكون هذا الكتاب قد تم تأليفه قبل هذا التاريخ ، وعلى هذا يكون ما ذهبنا اليـه ، وافترضناه من ان ابن رشيق اخذ من رسالة اعلام الكلام لابن شرف ، وافاد منها ، وتأثـر بها امر جائز يقبله العقل ، ولا يحيله ،ولايمنع من ذلك أن ينفى ابن رشـيق عن نفسه فيكتابه العمدة تهمة الاخذ من بعض معاصريه ، وذلك انه حين الف كتابه العمدة ، واخرجه للناس يبدو انه ظفر باعجاب الجمهور ، واصـاب الحظوةعندهم الامر الذىاوغر صـدور خصومه فنالوا من الكتاب ، وانتقصوا مـن قـدره ، وبخسوه حقـه ، ونقموا علـى صاحبـه ، وغمطوه حقه ، وادعوا عليه الاخذ والانتحـال والسرقة ، فقال معرضا بهم فى بدايـة بـاب التضمين والاجازة : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقوب فى العلم ولا حذق بالصناعة كجماعة ممن وسم فى بلدنا بالمعرفة ، وينسب اليها مكذوبا عليه فيها ، كاذبا فيما ادعـاه منها ، ولتعرفهم فى لحـن القول »(١١٩) كما يعرض بهم في موضع آخر حيث يقول : « وكم في بلدنا هذا من الحفاظ

---

(١١٧) العمدة ١ : ٣

(١١٨) العمدة ١ : ٥

(١١٩) العمدة ٢ : ٨٠

قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين » ان البغاث في أرضنا يستنسر ، ولولا أن يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم في هذا الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يعدخطله، ويحصي زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه مايدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادعوها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا ، وقد بلغني ان بعض من لا يتورع عن كذب ، ولا يستحي من فضيحة زعم انى اخذت مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الان ما علمها » (١٢٠) وربما كان يقصد بمن لا يتورع عن الكذب ، ولا يستحي من الفضيحة ابن شرف القيرواني قريعه وغريمه ومنافسه في بلاط المعز بن باديس .

وقد ذهب حسن حسني الى قريب مما ذهبنا اليه ، فقد ذكر أن ابن رشيق الف كتابه « العمدة » في حدود سنة ٤٣٠هـ أو قبلها بقليل حيث يقول : « واشهر تاليف لابن رشيق في الادب هي كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده الفها في حدود سنة ٤٣٠ هـ أو قبلها بيسير» (١٢١) وانه لمن الغريب حقا ان يذهب الميمنى الى ان ابن رشيق الف هذا الكتاب بعد سنة ٤٤٩هـ معتمدا في ذلك على خبر أبيات لابن رشيق وردت في هذا الكتاب وهي :

وذيالك له رجل طحون
لما نزلت به ويد زجوج
يطير باربع لا عيب فيها
لظهران الصفا منها عجيج
خرجت به الى الاوهام سبقا
وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز ابى تميم
أمر بمن سواه فلا أعيج

فابن رشيق يحدثنا عن هذه الابيات بقوله : « ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولى اليه ـ ادام الله عزه ـ عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا » (١٢٢) فالميمن يرى أن ابن رشيق انما ذهب الى المهدية ، ولحق بالمعز بن باديس بها بعد خراب القيروان على ايدى الاعراب سنة ٤٤٩ هـ وهى سنة جلاء المعز عن القيروان الىالمهدية، ولنا ان نسائل الميمنى وان نناقشه فيما ذهب اليه ، فمن ذا الذى زعم أو قال : ان المعز بن باديس لم يذهب قط الى المهدية الا في سنة ٤٤٩ هـ بعد خراب القيروان ؟ ومن يستطيع ان ينكر أن المعز قد ذهب اليها ، وزارها قبل هذا التاريخ اثناء ازدهار ملكه لتفقد احوال رعيته فيها ، اليست احدى المدن الكبار الواقعة في نطاق دولته ؟ اليس المعز قد ولى عليها ابنه تميما ، وعهد اليه بامرها ؟ ثم الم يحدثنا المؤرخون القدامى والمحدثون انالمعز كان بالمهدية فيصحبة جدته يوم مات ابوه باديس ,وانه ولى الملك ، وآلت اليه الامارة وهو بها سنة ٤٠٦ هـ ؟ على ما يحدثنا ابن ابى دينار حيث يقول عن وفاة باديس : « فادركه اجله على مدينة المحمدية آخر ليلة من ذى القعدة سنة ستواربعمائة، فكتم أكابر دولته موته ، وتشاوروا فيما بينهم، فاتفق رايهم على تولية ولده المعز وكان صغيرا اذ ذاك لم يبلغ عشر سنين ، فجعلوا باديس في تابوت .... وأوصلوه الى المهدية

---

(١٢٠) العمدة ٢ : ٢٢٨
(١٢١) بساط العقيق : ٨٧
(١٢٢) العمدة ١ : ٢٠٣

وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهــة وجعلتها حرزا لاموالها ، لمــا كانت تــرى من الفتنة فى دولة ولدها باديس»(١٢٣) .

على ان قصة هذه الابيات التى اعتمد عليها الميمنى فى تحديد زمن تأليف كتــاب «العمدة» وردت برواية اخرى في النسخة الخطية اقدم نســخ الكتاب تقول هذه الرواية : « قبــل وصولى اليها » فهو يصرح فيها أنه قال هذا الشــعر قبل ان تتصل اسبابه باســباب المعز بن باديس ، وينخرط فى ســلك خدمتــه ، ويصطنعه المعز ، ويصطفيه لنفســه ، ويصبح شــاعر بلاطه المقدم عنده الاثير لديه ، وليس ادل على ذلك من انه قال هذا الشعر عــن اقتراح احــد شعراء الوقت ، ولو كان قــد قاله بعــد سنة ٤٤٩ هـ ـ كما ذهب الميمنى ـ ما كان بحاجة الى اقتراح غيره عليه أن يقول شــعرا وانما يكون الاقتراح قبل أن يصــل حبله بحبل المعز ، فيدفعه المقترح الى أن يقــول شــعرا فى هذا الفرض او ذاك ، وبذا يكون الزمن الذى حددناه لتأليف الكتاب اقرب الى الصحة والصــواب ، ولا يكون ابن رشيق الفــه بعد ســنة ٤٤٩هـ بحال من الاحــوال كما ذهب الميمنى .

على أننا لو تركنا هذا الموضــوع جانبا ، ونظرنا الى سن ابن رشيق حــين رحل الــى المهدية ولحق بالمعز بن باديس بها سنة ٤٤٩هـ لرأيناه قد ناهز الستين اذ انه ولد سنة ٣٩٠هـ على ارجح الروايات ، فكيف نســتسيغ أو نتقبل أن يسلخ ابن رشيق من عمره ســتين عاما ، وان يقضى حياته الا اقلها لا يــؤلف شيئا ، حتى اذا ما اصبح فى خريف العمر ، وغدا شيخا هرما ، واضطربت امــور الدولة ، والتاثت احوال الرعيــة ، وحدثت ماســاة ســقوط القيروان في ايدى الاعرب ، وازعج عن حرمه الآمن ، واجلى عنه مرغما ، ونزح الى المهدية على كــره منه ، راح يكتب واخذ يؤلف مثــل هذا الكتاب ، والميمنى نفســه يقول عنه « ولكن لمــا انتقل المعز من ســبيل اعراب مصر الى المهدية ، وتبعه صاحبنا ، طاش فكره ونال رايه ، فكان يمتعض من ادنى فلتة ، ويجبه على احقر بادرة ، ويسىء الظن بصديقه الوفى وصاحبه الحفى ، فارتحل الى صقلية وهو كاره .. مع أنها لم تكن احسن حالا من افريقية »(١٢٤) فشيخ هرم مثل ابن رشيق هذه حاله ونفسيته وتلك ظروفه يزعج عن حرمه الآمن ، ويجلو عن موطنه القيروان مرغما ، ويذرف على ضياعه دموعا صادقة ، ويصور لنــا مأســاته اروع تصوير واصدقه فى مرثية من اصدق شــعر ابن رشيق عاطفة واعمقــه اثرا فى النفس ، ثم يعانى فى هــذه السن آلام الوحشة والاغتراب ويتجرع مرارة نبو المعز عنه ، وجفوته له ، لا يمكنه بحال من الاحوال ان يؤلف مثل هذا الكتاب في ذلــك الحين ، وانما المستســاغ والمقبول والاقــرب الى الصواب أن يكون قد الفه قبل ذلك فى

---

(١٢٣) المؤنس : ٧٩ ـ ٨٠ وفى بساط العقيق : ٤٢ : « ولما ادركت المنية والده باديس آخر ليلة من ذى القعدة سنة ٤٠٦ هـ بمدينة المحمدية ، تفاوض مديرو الدولة بينهم ، فاتفق رايهم على تولية المعز ، وكــان وقتئذ فى التنزه صحبة جدته بالمهدية « ويفهم مــن كلام ابن عذارى ان المعز كــان فى صحبة عمته ام ملال عنــد توليه الامارة بالمهدية ، وليس فى صحبة جدته انظر البيان المغرب ١ : ٢٨٦ وقد ذهب الى ذلك احمد بن عامر فى كتابه « الدولــة الصنهاجية » حيث يقول عن ام ملال : « وهى سيدة بنت الامير المنصور وشقيقة الامير باديس نشأت ودرجت في كتف والدها واخيها ، واشتهرت برجاحة العقل وسعة التفكير وثقب الراى وعلو الثقافــة ... وبذلك تأهلت لان تنتخب وصية على ابنه الامير المعز الذى ولي الامارة وعمره ثمانية اعوام .. » الدولة الصنهاجية : ٦٢ ـ ٦٣ وذكر ابن الاثير ان ولاية المعز كانت بالمهدية ، ولم يشر الى وصاية عمته عليه حيث يقول : « ووصلوا الى المهدية ، والمعــز بها ثامن المحرم ، فركب المعز ووقف حبيــب يعلمه بهم ، ويذكر لــه اسماءهم ، ويعرفه بقوادهــم واكابرهــم ، فرحل المعــز من المهدية ، فوصل الى المنصورية منتصف المحرم » الكامل ٩ : ٩٥

(١٢٤) ابن رشيق : ٥٠

شرخ شبابه ومقتبل عمره ، والدنيا عليه مقبلة والسلطان عنه راضى ، والظروف مهيأة له ومتاحة ، والزمان موات له ومساعد ، ومن العجيب ان الميمنى يقرر بعد ذلك ان ابن رشيق سنة ٤٤٩ هـ كان فى عهد هرمه وشيخوخته ، وانه لم يصنف فيه شيئا جديرا بالذكر حيث يقول : « ان هذا العهد كان عهد هرمه وهمومه ، وانه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر اصلا ،او على ما بلغنا»(١٢٥)

فهل لنا بعد كل هذا ان نركن الى ماذهبنا اليه ، وافترضناه ، واستنتجناه من أن ابن رشيق اخذ من ابن شرف ، وتاثر به ،وكان من الممكن ان نطمئن الى ما انتهينا اليه لولا اننا راينا ابن شرف يورد فى مقدمة رسالته ما ينقض كل ما افترضناه واستنتجناه وذهبنا اليه ،وياتى عليه من القواعد ، ويجعلنا لانطمئن الى ما انتهينا اليه حيث يقول « ولعمرى ما اشكر من نفسي ، ولا أثنى على شىء من حسى الا ظفرى بالاقل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الغربة من قولى ، وثلمته صفقات الفتنة من لبى ، وقطعت اهوال البر والبحر من خواطرى ، واضعفت الوحشة والوحدة من غرائزى وبصائرى »(١٢٦) فهذا النص يدل على أن الرسالة كتبت بعد معاناة اهوال في البر والبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وليست هناك الا فتنة سقوط القيروان التي هزته ، فخلد مأساتها فى عدة قصائد تعد من عيون شعر رثاء المدن ، هذا اللون الذى شاع فى الاندلس والمغرب العربى قبل أن يعرفه المشارقة ولا نكاد نعرف الا غربته فى صقلية ، ثم الغربة والوحدة فى الاندلس كما سبق أن بينا ، واذا كان الامر كذلك وكانت كتابة الرسالة بعد هذا كله فلا يمكننا ان نزعم ان ابن رشيق تاثر بابن شرف أو أخذ عنه لا في (العمدة) ولا فى (قراضة الذهب) ، ولعل هذا النص هو الذى دفع حسن حسنى الى ان يرجح أن ابن شرف الف هذه الرسالة بعد هجرته من القطر التونسى حيث يقول وهو بصدد تعداد مصنفات ابن شرف : « ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون أنه الفها بعدهجرته القطر التونسى كما يستفاد من سياق كلامه فى مقدمتها» (١٢٧) .

ومن هنا نرى أنه لم يكد يصل الينا من مؤلفات ابن شرف الكثيرة التي يقول فيها ابن بسام : « ولابى عبدالله عدة تواليف افاضها بحارا ، وأطلعها شموسا واقمارا » (١٢٨) والتى يحدثنا عنها حسن حسنى بقوله : « أما تاليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله الينا المؤرخون سوى رسالته أعلام الكلام»(١٢٩) اما باقى مؤلفاته فقد فقدت ، وامتدت اليها يد الضياع ، الا انه ينبغى أن نشير هنا الى أنه توجد اثارات من نثره وشعره مبثوثة فى ثنايا كتب الادب ، ولا سيما (الذخيرة) لابن بسام ،فقد احتفظ لنا فيها بجملة صالحة من آثاره تكفى لابراز قيمتها ، وأورد لنا طائفة كبيرة من نثره وشعره ، وبسط القول فى اخباره الادبية وافاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، فمن نثره الذى

---

(١٢٥) ابن رشيق : ٦٧

(١٢٦) رسالة اعلام الكلام : ١٤

(١٢٧) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ ــ ٢٥٥ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٦

(١٢٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٤ .

(١٢٩) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البلغاء ٣٠٦ وقد عد البغدادى ضمن مؤلفات ابن شرف حجج النصح وسر البر ، ولا ندرى شيئا عن موضوع هذين الكتابين ولا المصادر التى استقى منها اذ اكتفى بذكرهما دون أن يشير الى موضوعهما ولا الى المصادر التى اعتمدها فى هذين الكتابين .

اورده ابن بسام رسائله الى المعتضد التى خاطب فى احداها وزيره ابن زيدون ، وفصل من رسالة بعث بها الى المظفر بن الافطس ، وفصول من النثر فى مختلف المعانى وشتى الموضوعات ، ثم ختمها بقصة قصيرة سماها مقامة ، وقد التزم السجع ، وكلف بالمحسنات بالبديعية فى كل كتاباته ، فأثقل نثره بالمحسنات البديعية ، واسرف فى استعمالها ، وغالى فى تزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، وحشد فيها كل ما يستطيع أن يأتى به من تلك المحسنات حتى اننا لانكاد نجد عبارة واحدة لا تثقلها المحسنات ، وقد كان هذا شأنه فى كل ما اثر لنا عنه من نثر سواء اكان نثرا انشائيا صرفا كالرسائل والفصول التي اوردها ابن بسام ، وتحدثنا عنها آنفا ، أم كان نثرا تناول فيه الابحاث الادبية مثل رسالته «أعلام الكلام » تلك الرسالة الوحيدة التى وصلت الينا من بين مؤلفاته ، والتى تناول فيها الشعراء بالنقد ، فقد حشد فيها كل المحسنات البديعية ، وكلف بالسجع الركيك ، واحتفل به ، والتزمه من أول الرسالة الى آخرها كما أولع بالالفاظ الغريبة ، حتى كادت الافكار والاحكام العامة الخالية من الضبط ، والتحليل المشتملة عليها هذه الرسالة تضيع فى أمواج السجع والالفاظ الغريبة ، وتغيب فى خضم الصنعة المفرطة المغالى فيها ، فهو يعرض فيها للشعر والشعراء ومنازلهم في الجاهلية والاسلام ، ويبين رايه فيهم وموقفه منهم سالكا فى ذلك سبيل المقامات .

ومستخدما اسلوبها ، فعنى بتزيين الالفاظ واهتم بتزويق العبارات ، وكلف بالسجع ، واحتفل بالمحسنات والصنعة ، حتى انك لاتكاد تجد عبارة واحدة فى هذه الرسالة لا تنوء بأثقال المحسنات البديعية والصنعة المفرطة المغالى فيها .

اما الاشعار التي اوردها ابن بسام فهى فى موضوعات شتى منها المقطوعة الطريفة التى خاطب فيها المعتضد ، وبعث بها اليه يؤنسه من لقائه ، والوقوع في حبائله ، وهى تصور خوفه من المعتضد واشفاقه من القدوم عليه ادق تصوير واروعه ، ومنها عدة مقطوعات فى النسيب وقصائد فى مديح المنصور حفيد ابن ابى عامر وابن طاهر أمير مرسية وابن ابى الرجال رئيس ديوان الانشاء فى بلاط المعز بن باديس ، وعدة قصائد فى رثاء القيروان ووصف نكبتها وتصوير مأساتها تعد من عيون الشعر العربى في رثاء المدن والامصار ، ومنها مقطوعة تعد من رائع الشعر وجيده يصف فيها ما كان من صيانة الحريم وامتناعهن وتصونهن قبل حدوث مأساة القيروان وما صرن اليه بعدها من الانكشاف والتبذل فى الحل والترحال ، وما عانينه من خطوب وأهوال يقول فى هذه المقطوعة :

بعد خطوب خطيت مهجتي
وكان وشك البين امهارها

ذا كبد افلاذها حولها
قسمت الغربة اعشارها

اطافل ما سمعت بالفلا
قط فعاينت الفلا دارها

ولا رات ابصارها شاطئا
ثم جلت باللج ابصارها

وكانت الاستار آفاقها
فعادت الافاق استارها

ولم تكن تعلو سريرا علا
الا اذا وافق مقدارها

ثم علت كل عثور الخطا
ترسى بها الارض واحجارها

ولم تكن تلحظها مقلة
لو كحلت بالشمس اشفارها

فاصبحت لا تتقي لحظة
الا بأن تجمع أطمارها

وفى البيت الخامس من هذه المقطوعة قلب مليح يقول ابن بسام معلقـا على هذه المقطوعة « قوله » وكانت الاسـتار آفاقها » من الكلام الفصيح والقلب المليح ، ويشبه منحاه وان لم يكن في معناه قول الاول :

فرد شعورهـــن السـود بيضا
ورد وجـوههن البيض سودا

وكقول الآخـر :

نديمتى جـارية ساقيـة
ونزهتى ساقية جارية(١٣٠)

وقد بسط ابن شرف القول ، واجاد كل الاجادة فى تصـوير نكبـة القـيروان حاضرة افريقيـة ، وما أصابها على أيدى الاعراب من صنوف التخريب والتدمـير ومالحق بأهلهـا من الوان العسف والاضطهاد ، وما حاق بهم من فنون الاذى وضروب التعذيب ، ومالحق بهم من الذلة والهوان ، وكان ابن شرف قد احس لذع المصيبة وحرها ، وذاق مـرارة النكبة ، وتجرع غصص الكارثة فى نفسه واهله وولده ، وهزته المأساة وازعجته عن حرمـه الامن، وعانى من وبلاتها ما عانى فانطقته بشعر صـورها فيه تصويرا دقيقا ، حتى انه قلما نجد عند غيره من الشعراء من صور مأسـاة القيروان مثل هذا التصوير الدقيق المتمثل، ونحس مثل هذه اللمسات الحزينة التى تشيع فى كل مراثيه للقيروان ووصف مأساتها وماحل باهلها ، ومـن ثم كانت مراثي ابـن شـرف للقيروان ، وتصويره لمأساة سقوطها ، وماحل باهلها من اصدق الشعر عاطفة ، واعمقه اثرا فى النفوس وخاصة حين يصور حال اسرته واطفاله الصغار ، وما تجشموه في هذه السن الفضة من صعاب فى الصحارى والقفار وعلى متون البحار فرارا بانفسهم من عسف الآعراب وعنتهم وأذاتهم .

يقول ابن شرف :

كأنـى وافراخـي اذا الليـل جننـا
وبات الكرى يجفـو جفونـا ويطـرق

حمائـم اضللـن الوكـور فضمهـا
تجانسهـا حـتى تراءى المفـرق (١٣١)

الى آخر هـذه المقطوعـة التى سـبق ان اوردناها عند حديثنا عن اسرته . ومن أشعاره قصيدة يندب فيها القيروان ، ويبكى فيهـا وطنه الضائع ، ويذرف على ضياعه دموعا صادقة ويسترجع ذكرياته بالقيروان فى مرارة واسى وحسرة ولوعة ، ويتشوق حياته الماضية بها،وعهوده السالفة فى ربوعها ومغانيها فيقول:

ياقـيروان وددت انـــى طائــــر
فـأراك رؤيـــة طائـــــر متأمـــل

آهـا وايـة آهـة تشـفى جـــوى
قلـب بنـيران الصبابـــة مصطلـــى

ابـدت مفاتيـــح الغيـوب عجائبـا
كانـت كوامـن تحـت غيب مقفـل

زعموا ابـن آوى فيك يعوى والصـدى
بـذراك يصـــرخ كالحـزيـن المثكـل

يا بيـــد روطـة والشـوارع حولهـا
مغمـورة ابـدا تغـص وتمتلـــــى

يا اربعي في القطـب منهـا كيف لـى
ببعاد يـوم فيـك لـى ومن أين لـى

---

(١٣٠) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ وانظـرمعالم الايمان ١ : ١٤

(١٣١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١

يالـو شهـدت اذا رايتـك فى الكـرى
كيف ارتجـاع صبـاى بعـد تكهـل

لاكثـرة الاحسـان تنسـى حسـرة
هيهـات تذهـب علـة بتعلـل

واذا تجـدد لـى اخ ومنـادم
جـددت ذكـر اخـاء خـل أول

لـو كنـت أعلـم ان آخـر عهدكـم
يوم الرحيل فعلت مالـم أفعل (١٣٢)

كما توجد مقطوعات من شعره فى كل الكتب التى ترجمت له مثل (معجم الادباء) (والوافى بالوفيات (و (المطرب) (معالـم الايمان) ، كما توجد آثار من شعره ونثره في ثنايا الكتب الادبية الآخرى مثل) الفيث المسجم (ففيه عدة مقطوعات من شعره ، كما توجد قطعة من نثره في مدح الشطرنج .وهذه القطعة موجودة أيضا فى(نزهة الجليس ومنية الأديب الانيس).

ونستطيع ان نقول ان أجود اشعار ابن شرف هى قصائده التي رثى فيها القيروان .وطنه الضائع وبكاها فيها ، وندب أيامه بها ، واسترجـع ذكرياته فيها ، وصور حال اسرته وأطفالـه الصفار ، .وما تجشموه من صعاب بعد ان هزتهم المأساة وازعجتهم الفتنة عن حرمهـم الآمن ، وتلك التى صور فيها اجلاء العرب لآهلها بعـد أن روعوهـم فى حرمهم الآمـن ، وأوقعوا بهم ، ووصف خروج نساء القيروان وسفورهن من هول الكارثة وتبذلهن وامتهانهن، وما لقينه من أهوال واخطار ، وما تجشمنه من صعاب بعد رغد عيشهن ، وتقلبهن فى أعطاف النعيم مصونات ممتنعات .

ونود ان نشير هنا الى ان المغاربة قد كلفوا بتقليد المشـارقة ، وان ابن بسام قد أدرك ذلك، واحس تعلق بنى وطنه بالمشارقة ، وولوعهم بتقليدهم ، والتأسى بهـم ، فاحفظه ذلـك ، واغضبة وأثار حميته ، فراح ينعى على قومه تطلعهم الى المشرق وعلمائه وأدبائه ، وافتتانهم بهم ، واحتفالهم بآثارهم ، .وكلفهم بتقليدهم والتأسي بهم حيث يقول : « ان أهل هـذا الافق ابو الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، ففاظنى منهم ذلك ، وانفت مما هنالك غيرة لهذا الافق القريب أن تعود بدوره اهلة وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان واختص اهل المشرق بالاحسان » (١٣٣) .

اما في مجال الشعر فقد كان غاية ما يطمح اليه احد الشعراء المغاربة أوالاندلسيين وتصبوا اليه نفسه ان يشبه باحد شعراء المشرق ويلحق به ، ويقرن اسمه باسمه ، فالثعالبى يعجب بابن دراج القسطلى ، ولايتجاوز فى تعبيره عن اعجابه به ان يشبهه بالمتنبى فى المشرق ، ولا

---

(١٣٢) الذخيرة القسم الرابـع المجلد الاول : ١٨١ – ١٨٢وانظر معالم الايمان ١ : ١٥ مما اورد له الدباغ قصيدة يصف فيها خلاء القيروان ، وجلاء اهلها عنها ، منها :

الا منـزل فيـه انيـس مخالـط
تـرى سيئـات القـيروان تعاظمـت
تراهـا اصيبـت بالكبائـر وحدهـا
ترحـل عنهـا قاطنوهـا فـلا تـرى
تكشفـت الاستـار منهـم وربمـا

الا منـزل فيـه انيـس مجـاور
فجلـت عـن الغفـران والله غافـر
الـم تـك فيهـا فى البـلاد الكبائـر
سـوى سائـر او قاطـن وهـو سائـر
اليمـت سـتـود منهـم وستائـر

وانظر الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٢ – ١٨٤

(١٣٣) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٢

يعدو ان يلحقه به فيقول : « وكان بصقع الاندلس كالمتنبى بصقع الشام » (١٣٤) ولم يكن ابن شرف بدعا من شعراء عصره من المغاربة فى التعلق بالمشارقة والافتتان بهم، فنراه ونحن نطالع الذخيرة لابن بسام مفتونا بالمتنبي ، كلفا بمجاراته ومعارضته ، وكأنى به وقد زهى بشاعريته ، واحس انه نظير للمتنبى ، وقرين له حتى حدثته نفسه أن يجاريه ويعارضه ، وسولت له أن يطاوله ويساميه ، يقول ابن بسام ان ابن شرف « قال يوما للمأمون بن ذى النون أيام خدمته اياه ، واستشفافه صبابة عمره فى ذراه ، وقد اجروا ذكر أبى الطيب ، فذهبوا في تأنيبه كل مذهب : ان رأى المأمون ــ لافارق العزة والعلا ــ ان يشير الى اى قصيدة شاء من شعر ابى الطيب حتى اعارضه بقصيدة تنسى اسمه ، وتعفى رسمه فتثاقل ابن ذى النون عن جوابه علما بضيق جنابه ، واشفاقا من فضيحته وانتشابه والح ابو عبد الله حتى احرج ابن ذى النون واغراه ، فقال له : دونك قوله « لعينيك مايلقى الفؤاد وما لقى » فخلا بها ابن شرف اياما ، فوجد مركبها وعرا ، ومريرتها شزرا ، ولكنه أبلى عذرا ، وارهق نفسه من امرها عسرا فما قام ولا قعد ، ولاحل ولا عقد » (١٣٥) .

كما يذكر ابن بسام فى موضع اخر ان ابن الاشرف كان في وصفه نكبة القيروان ومأساتها متأسيا بابن دراج ، ومقلدا له ،ثم ينال منه ، ويغمطه حقه ، ويصفه بالقصور عن شأو ابن دراج كدابه دائما في التعصب لبنى وطنه وانتقاص من عداهم وغمط حقوقهم ، والغض من شأنهم ، حيث يقول مقارنا بين بيتين لابن شرف وابن دراج :

« قوله (اى ابن دراج) :

فمن حرة حليت بالجلاء
وعذراء نصت بنص الزميل

ثم يتبع ذلك بقوله : « انتحى ابن شرف فيما وصف فتنة قيروانه منحى القسطلي فى شكوى زمانه ، والحديث عن الفتن ، فكاثر البحر بوشل مشفوه ، وجارى الريح بكودن لافضل فيه » (١٣٦) الا انه ينبغي الا نغمط ابن شرف حقه فى الشعر ، فهو يعد من الشعراء المغاربة المجيدين ، وشعره يمتاز بوضوح المعانى والافكار والدقة فى الوصف وجزالة الالفاظ والتراكيب كما راينا من اشعاره التى تناولناها وعرضنا لها .

هذه هى آثار ابن شرف التى فقدت وامتدت اليها يد الضياع ، والتى لم يبق لنا منها الا اثارات منثورة فى ثنايا الكتب ، وقد عرضنا لنثره وشعره حسبما اسعفتنا النصوص ، ولنعرض لآرائه النقدية المتمثلة فى رسالته « أعلام الكلام » .

آراؤه النقدية :

تتمثل آراء ابن شرف في النقد الأدبى فى رسالته « أعلام الكلام » تلك الرسالة التى ضمنها آراءه النقدية ، وبين فيها موقفه من كثير من القضايا الادبية التى كانت تشغل بال معاصريه ، وهى باشتمالها على عديد من القضايا النقدية ، واحاطتها بكثير من المسائل الادبية ربما تعد متنا فى النقد الأدبى .

---

(١٣٤) اليتيمة ٢ : ٢٠

(١٣٥) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٤

(١٣٦) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٧٤ على ان ابن شرف كان معجبا بشعر ابن دراج وخاصة اشعاره التى قالها فى محنته انظر اعلام الكلام : ٢٦

وقد سبق أن عرضنا لها ، وبينا آراء العلماء فيها، ومواقفهم منها، وقارنا بينها وبين قراضة الذهب والعمدة لابن رشيق ، وذكرنا انه كتبها بأساوب المقامات، ذلك الاسلوب الملتزم للسجع، والمثقل بالمحسنات البديعية ، والمتسم بتزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، والحافل بحوشى الالفاظ وغريبها ، وانه اتخذ لها شخصا خاليا أو بطلا دعاه ابا الريان الصلت بن السكن ، وتحدث على لسان بطله عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين واغفل المغمورين منهم واهملهم ولم يشر اليهم .

وقد ابتدأ هذه الرسالة واستهلها بقوله : « هذه أحاديث صفتها مختلفة الأنواع مؤتلفة في الاسماع، عربيات المراسم، غريبات التراجم، واختلقت فيها اخبارا فصيحات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف ، وأسانيد طراف ، يروق الصغير معناها ، والكبير مغزاها ، وعزوتها الى أبى الريان الصلت بن السكن من سلامان » (١٣٧) .

ثم يذكر انه لم يكن مبتدعا لهذه لاحاديث على غير مثال سابق ، ولم يكن سابقا الى اختراعها وابتكارها ، وانما هو متبع لمن سبقه في أمثالها ، وحاذ حذوهم وناسج على منوالهم، ولاسيما بديع الزمان الهمداني في مقاماته التى بلغ عددها على مايرويه الرواة في ذلك الحين عشرين مقامة ، وان كان هذا العدد لم يكد يصل اليه فيقول : « واحتذيت فيما ذهبت اليه ، ووقع تعريضي عليه من بث هذه الاحاديث مارايت الأوائل قد ضمته في كتاب » (كليلة ودمنة) فاضافوا حكمه الى الطير الحوائم ، ونطقوا به على ألسنة الوحوش والبهائم، لتتعلق به شهوات الأحداث ، وتستعذب بثمرة الفاظ الحداث وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون الكاتب في تاليفه كتاب « النمر والثعلب » وهو مشهور الحكايات بديع المراسلات ، مليح الكاتبات ، وزور ايضا بديع الزمان الحافظ الهمداني وهو الاستاذ أبو الفضل أحمد بن الحسين مقامات كان ينشئها بديها في أواخر مجالسه وينسبها الى راوية رواها له يسميه عيسى بن هشام ، وزعم أنه حدثه بها عن بليغ يسميه ابا الفتح الاسكندرى ، وعددها فيما يزعم رواتها عشرون مقامة ، الا أنها لم تصل هذه العدة الينا، وهي متضمنة معاني مختلفة، ومبنية على معان شتى غير مؤتلفة ، لينتفع بها من الكتاب والمحاضرين من صرفها من هزل الى جد ومن ضد الى ضد ، فاقمت من هذا النحو عشرين حديثا ، ارجو أن يتبين فضلها ، ولا تقتصر عما قبلها » (١٣٨) .

ويحدثنا ابن خلكان عن بديع الزمان ومقاماته بقوله : « صاحب الرسائل الرائعة والمقامات الفائقة على منواله نسج الحريرى مقاماته ، واحتذى حذوه ، واقتفى اثره ، واعترف في خطبته بفضله ، وانه الذى ارشده الى سلوك ذلك المنهج » (١٣٩) .

وقد اقر الحريرى لبديع الزمان بالفضل حيث يقول في خطبة المقامات : « فاشار من اشارته ، وطاعته غنم الى أن انشيء مقامات اتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع » (١٤٠) .

---

(١٣٧) رسالة اعلام الكلام : ١٣ وسلامان بفتح اوله ماءلبنى شيبان على طريق مكة الى العراق ، وبه مات نوفل بن عبد مناف . معجم ما استعجم ٢ : ٧٤٥ ويبدو أن ابن شرف اختار سلامان الذى هو منزل لقبيلة شيبان اشادة بهذه القبيلة وتنويها بشانها ، اذ ينسب اليها ولي نعمته ابو الحسن على بن ابى الرجال الشيبانى رئيس ديوان الانشاء في بلاط المعز بن باديس .

(١٣٨) رسالة اعلام الكلام : ١٣ ــ ١٤

(١٣٩) وفيات ١ : ١٠٩

(١٤٠) وفيات الاعيان ٢ : ٢٢٨ وانظر مقدمة مقامات الحريرى : ٤ ط الحلبى .

ومقامات بديع الزمان تبلغ اربعمائة مقامة عارض بها احاديث ابن دريد على ما ذكره الحصري في زهر الآداب حيث يقول : « ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الازدي أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره وابداها للابصار والبصائر ، واهداها للافكار والضمائر في معارض أعجمية والفاظ حوشية فجاء أكثر ما اظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجتها الاسماع ، وتوسع فيها اذ صرف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة فعارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى احدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندري وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر في معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص أحدهما بالرواية » (١٤١)

بيد أن المتداول منها الآن بين أيدينا احدى وخمسون مقامة فقط ، ويغلب على الظن أنه لم يصل الى افريقية في عصر ابن شرف سوى عشرين منها ، ويقول برو كلمان : «بديع الزمان يفتخر في احدى رسائله بانه صنف اربعمائة مقامة ، وطبيعي انه لا ينبغي فهم العدد هنا على معناه الحرفي ، فهذا محمد بن شرف القيرواني المتوفى سنة ٤٦٥هـ لم يكد يعرف في كتابه « أعلام الكلام » سوى عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغي أن يكون عدد المقامات التي أثرت وبقيت لنا وهو احدى وخمسون مقامة قد ثبت منذ زمن طويل ، لان الحريري عارض هذا العدد بمثله » . (١٤٢)

وابو الريان الصلت بن السكن الذي اجرى ابن شرف على لسانه هذه الاحاديث انما هو رجل استعاره ، أو شخص جرده من نفسه ، وانتزعه منها ، فكان ابن شرف يخاطب أبا الريان هذا البطل المزعوم ويسأله ، وابو الريان يجيبه بما يعرفه عن كل شاعر الا انه قصر حديثه على الشعراء المشهورين في العصور الجاهلية والاسلامية ، واغفل المجاهل والمغمورين منهم ، واهملهم ولم يشر اليهم وعلل ذلك بعدم قدرته على استقصائهم ، والاحاطة بهم ، ومن ثم اجتزأ بالمشهورين وقصر حديثه عليهم ، يقول ابن شرف : « وجاريت أبا الريان في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم واسلامهم ، واستكشفته عن مذهبه فيهم ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم فقال : الشعراء أكثر من الاحصاء ، وأشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء فقلت : لا اعنتك بأكثر من المشهورين ، ولا اذاكر رأيك الا في المذكورين مثل الضليل والقتيل ... (١٤٣) » ومضى يسرد أسماء المشهورين من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمولدين ، كما سرد أسماء طائفة من مشاهير شعراء الاندلس والمغرب مثل : احمد بن عبد ربه ، وابن هانيء وابن دراج القسطلي وعلي بن العباس الايادي التونسي ، حتى انتهى من سرد أسماء المشهورين وتسميتهم طالبا من ابي الريان أن يبين رأيه فيهم واحدا واحدا ، فأجابه ابو الريان بقوله : « لقد سميت مشاهير وابقيت الكثير . قلت : بلى ولكن ما عندك فيمن سميت لك قال:

---

(١٤١) زهر الآداب ١ : ٢٦١

(١٤٢) تاريخ الادب العربي ٢ : ١١٣ ـ ١١٤ وهو يقصد المماثلة التقريبية فان عدد مقامات الحريري خمسون مقامة ، وقد اشار الحريري نفسه في مقدمته الى ذلك حيث يقول :« وانشات على ما اعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة ... خمسين مقامة » مقدمة المقامات ص ٥

(١٤٣) رسالة اعلام الكلام : ١٤

اما الضليل مؤسس الاساس ، وبنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون : اسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس » اسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة ، واشباه هذا ، وجيداء وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون فى الفرس السابق : يلحق الغزال ، يسبق الظليم او الظلام وامثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الاوابد هيكل « ومثل هذا له كثير .... (١٤٤) »

ويحدثنا عن الحارث بن حلزه اليشكرى بقوله : « واما ابن حلزه اليشكرى فسهل الحزون ، قام خطيبا بالموزون ، والعادة أن يسهل شرح الشعر بالنثر ،وهذا اسهل السهل بالوعر ، وذلك مثل قوله :

ابرموا امرهم بليل فلما
اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن
تصهال خيل خلال ذلك رغاء

فلو اجتمع كل خطيب سائر من اول وآخر يصفون سفرا نهضوا بالاسحار ، وعسكرا تنادى بالنهوض الى طلب الثار لما زادوا على هذا ان لم ينقصوا منه ،ويقصروا عنه ، وسائر قصيدته على هذا المسلك شكاية وطلاب نصفة وعتاب فى عزة وانفة ، وهو من شعراء وائل واحد السنة هاتيك القبائل ... (١٤٥) »

وهكذا مضى أبو الريان على هذا الاسلوب ، واخذ يصف طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم عرض للمخضرمين ممن ادركوا الجاهلية والاسلام كالنابغة الجعدى ، ثم مضى الى الشعراء الاسلاميين واتبعهم بالحديث عن شعراء بنى امية ، ثم ذكر جملة من الشعراء المولدين ، ومضى يحدثنا عمن تلاهم ، واتى بعدهم ، ثم ختم حديثه بالعرض لطائفة من شعراء المغرب والاندلس مثل : ابن عبد ربه وابن هانيء وابن دراج وأبى على الايادى حيث يقول : « هذا ما عندى في شعراء المشرق ، وقد سميت لى من متاخرى شعراء المغرب من لعمري لا يبعد عن معاصره ، ولا يقصر عن سابقة واما ابن عبد ربه الاندلسي وان بعدت عنا دياره فقد صاحبتنا اشعاره .. (١٤٦) .

ومن الامثلة التى اوردناها نجد ان ابا الريان كان يقف عند كل شاعر ليقدم ما عنده ، وما يعرفه ، ويقرر وضعه وماعرف به وتميز به ، ويبرز صفاته وخصائصه ومميزاته ، وما تفرد به عما عداه .

وبعد ان اعجب باحاديثه عن الشعراء المشهورين من الجاهليين الى المولدين ، ومن المشارقة الى المغاربة والتى اوردنا اطرافا منها، اخذ يسأله عن النقد ، ويبدى رغبته الشديدة فى ان يقف على رايه فيه ، وان يقتبس من عمله الصائب ، وان ينال نصيبا منه ، فيجيبة بأن النقد موهبة تولد مع الانسان فمن وهبه ومنحه وحظى بنصيب منه كان قادرا على الميز بين جيد الشعر ورديئة واستحسان الحسن منه ، واستقباح القبيح منه ، اما من لم يرزق هذه الموهبة ولم يحظ بها فهو غير قادر على التمييز بين جيد الشعر ورديئه والتفرقة بينهما ، ويؤيد رايه وماذهب اليه من أن النقد موهبة ومنحة يحظى بها اناس دون آخرين انه راى كثيرا من علماء الشعر ورواته ممن له يؤتوا هذه الموهبة لانفاذ لهم فى نقد الشعر ، ولا فطنة عندهم ولا بصيرة فى التمييز بين جيده ورديئه ، بينما راى كثيرا ممن لا علم لهم بالشعر ممن منحوا هذه الموهبة لهم نفاذ وبصيرة وادراك

---

(١٤٤) رسالة اعلام الكلام : ١٥ — ١٦

(١٤٥) رسالة اعلام الكلام : ١٧

(١٤٦) رسالة اعلام الكلام : ٢٦

لغامض الشعر ، وقدرة فائقة على الميز بين جيده ورديئه يقول ابن شرف : « قلت لابى الريان فى مجلس عقب هذا المجلس : يا ابا الريان لقد رايت لك نقدا مصيبا ومرمى عجيبا، ولقد ارغب فى ان انال منه نصيبا ، فقال : النقد هبة فى المولد ، وفيه زيادة طارف الى تالد ولقد رايت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ فى نقده ، ولا جودة فهم فى رديه وجيده وكثير ممن لا علم له يفطن الى غوامضه والى مستقيمه ومتناقضة » . (١٤٧) باستحسان ولا استقباح ، والا نبادر الى استملاح ولا استبراد الا بعد انعام نظر وطول روية واناة ، فالاستحسان والاستهجان تابعان للروية وطول النظر وحسن المران والدربة ، فيجب ان ننعم النظر ،ونستخدم الفكر في نقد الشعر ، والا ما كنا قادرين على النفاذ الى كنهه وحقيقته وجوهره لمعرفة محاسنه ومساوئه وادراك غوامضه ومتناقضه ، والوقوف على مستقيمه واعوجه من جميع الوجوه ، فالخطأ موكل بالعجلة ، ومع المستعجل الزلل ، ثم يعلل ما ذهب اليه من ضرورة التزام الاناة والروية وحسن المران والدربة فى الشعر ، وان الاستحسان والاستهجان تابعان للروية وطول النظر وحسن المران والدربة وان الشعر منه ما يملأ لفظه المسامع فنخطىء فيه ، ونتوهم فى معناه، ونغلط فى حقيقيته، ولا نلتفت الى كنهه ومفهومه ، فنحكم باستحسانه لما فيه من قعقعة وجلبة والفاظ تملأ المسامع دون نظر الى معناه ، وهو غير جدير بالاستحسان ، كما أنه لا ينبغى ان نتعجل باستهجان الشعر واستقباحه اذا اشتمل على الفاظ مألوفة معتادة وكلمات مبتذلة مطروقة كثر استعمالها ودورانها على الألسنة ، حتى ننعم النظر فى معناه ، فكم من معنى طريف غريب فى لفظ مبتذل مألوف ، فالمعنى اذن هو الغاية المنشودة ، يقول ابن شرف : « قلت : انا شديد الرغبة الى فضلك فى ان تسهمنى من ميزك وعقلك ما استهدى بسراجه على مستقيم منهاجه ، فاقف من سرائره على بعض ما وقفت ، واعرف من مفاخره ومعانيه جزءا مما عرفت ، قال : نعم اول ما عليه تعتمد ، واياه تعتقد الا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر، واعلم ان العجلة في كل شيء مركب زلوق وموطىء زهوق ، وان من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع قعاقع ، فلا ترعك شماخة مبناه ، وانظر الى ما فى سكناه من معناه ، فان كان في البيت ساكن فتلك المحاسن، وان كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما فى اضعافها ، فكم من معنى عجيب فى لفظ غير غريب» .(١٤٨)

ثم يعرض ابن شرف لقضية اللفظ والمعنى ، ويبدو أنه كان يقف من هذه القضية موقفا وسطا ، فهو يرى أن الالفاظ قوالب واجسام للمعانى هى الارواح فهو اذن لا يفضل اللفظ على المعنى ولا المعنى على اللفظ بل يجمع هذين الركنين في وحدة كاملة لا تتجزأ ولا تتقسم ، ومن ثم فهو ينادى بضرورة الموازنة بين اللفظ والمعنى والعناية بكل منهما ، فان حسنا بلغ الشعر الغاية المنشودة ، وان قبح احدهما انحط الشعر عن مكانته المرجوة ، ونزل عن مستواه المطلوب ، الا انه كان يفضل المعنى على اللفظ ، ولعل ذلك راجع الى شيوع هذا المذهب وسيادته فى المغرب وميل المغاربة الى اعتناقه والاخذ به ، يقول ابن شرف : « والمعانى هى الارواح ، والالفاظ هى الاشباح فان حسنا فذلك الحظ الممدوح ، وان قبح أحدهما فلا يكن الروح » (١٤٩) ويكاد ابن

(١٤٧) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

(١٤٨) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

(١٤٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٧ ــ ٢٨

شرف في هذه القضية قضية اللفظ والمعنى يتفق مع ابن رشيق الذي يقف منها ايضا موقفا وسطا لا يفضل احدهما على الآخر ، ولا يفصل بينهما ، بل يشبههما ايضا بالروح والجسد الا ان ابن رشيق بسط القول فى هذه القضية ، وفصله فى كتابه العمدة : « اللفظ جسم ، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما اشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظا كالذى يعرض للاجسام من المرض بمرض بعض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من ألوان أدواء الجسوم والارواح ، فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة فى السمع كما ان الميت لم ينقص من شخصه فى رأى العين الا أنه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصبح له معنى لأنا لا نجد روحا في غير الجسم البتة » (١٥٠) فابن رشيق فى هذا النص يشير الى الارتباط الوثيق والتلاحم التام بين اللفظ والمعنى ، وتلازمهما وتلاحمهما ، فاللفظ جسم روحه المعنى ، ومن هنا كان ما يوصف به أحدهما يعد وصفا للآخر ، وما يعترى أحدهما من ضعف أو يطرأ عليه من اختلال ينعكس على الآخر .

ثم يتحدث ابن شرف عن طبقات الشعراء القدامى والمحدثين ، ويحمل حملة عنيفة على مقاييس علماء اللغة والرواة فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم القديم واستحسانه لا لشيء الا لمجرد قدمه ، وسبق الزمن بصاحبه ، ولعلهم كانوا مدفوعين فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم الشعر القديم وايثاره واستحسانه الى انه كان موضع الاستشهاد والاحتجاج به للغة ، فالشعر القديم حتى الردىء منه صالح للاحتجاج والاستشهاد به في اثبات اللغة وقواعدها وضوابطها وتفسير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، اما الشعر المحدث فغير صالح لشيء من ذلك ، فالاحتجاج به ساقط ولا يجوز الاستشهاد به ، وانما يؤتى به على سبيل التمثيل والاستئناس ، يقول ابن شرف منبها الى خطأ هذه القضية ، وحاملا على اتجاه الرواة وعلماء اللغة فى تفضيلهم القديم لمجرد قدمه ، ومفندا مقاييسهم ،ومحذرا من الوقوع فيها : « وتحفظ من شيئين : احدهما : ان يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثانى : أن يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور فى الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، وحينئذ تحكم لهما او عليهما ، فهذا باب فى اعتلاقه استصعاب ، وفى صرف العامة وبعض الخاصة عنه اتعاب » (١٥١)

فهو ينبه فى هذا النص الى خطأ هذه القضية قضية تفضيل القديم لمجرد قدمه وينظر الى الشعر بعين النصفة ، ويدعو الى التزام الحيدة فى الحكم عليه ، وتقويمه من حيث هو أثر فنى دون نظر الى قائلة وزمنه ، ثم يقول : « وقد وصف تعالى فى كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى : « لن نعبد الا ما وجدنا عليه آباءنا » . . . فلا يرعك ان تجرى على منهاج الحق في جميع الخلق ، فبه قامت

---

(١٥٠) العمدة ١ : ١٠٣ - ١٠٤

(١٥١) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

السمـاوات والارض ؛ وبـه أحكـم الابـرام والنقض » . (١٥٢)

ثم طفق ينعى على بعض الشعراء القدامى كثيرا من الهنات ، واخذ يعدد عليهم طائفة من السقطات ، وما وقعوا فيه من أخطاء واغلاط وتعقبهم مشهرا بهم ، ومجرحا اياهم بادئا بنقد امرىء القيس اقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرا وتعداد سقطاته واخطائه وسرد عيوبه وهناته ، وما أخذ عليه مع اتساع الاقوال في فضله اتساعا لم يحظ به غيره ، حتى أن عامة الأدباء والنقاد يظنون بل يوقنون ان جواد شعره لا يكبو ، وأن حسام نظمه لا ينبو ، وهيهات من البشر الكمال ، ومن الآدميين الاستواء والاعتدال ، ثم اخذ ينقده ويعدد عليه سقطاته واخطاءه في معلقته أعظم ما اثر لنا عنه من شعر حيث يحدثنا عن هذه العيوب وتلك الهنات في هذه المعلقة بقوله : « يقول في قصيدته المقدمة ومعلقته المفخمة :

ويوم دخلت الخـدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات انك مرجـلي

كما كان اغناه عن الاقرار بهـذا ، ومـا اشد غفلته عما أدركه من الوصمة به » (١٥٣) وعدد ما ترتب على فعلته هذه من العيوب والهنات والسقطات والمآخذ، فيقول: « وذلك ان فيه اعدادا كثيرة من النقص والبخس منها: دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها قول عنيزة له : « لك الويلات » ومن قولـه لا تقال الا للخسيس ، ولا يقابل بها رئيس. . » وهكذا يمضي يسرد عيوبه وسقطاته وهنـاته الى قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضـع
فألهيتها من ذي تمائم محـول

فينقده بقوله : « وانما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقه ، واطراح سواه كالقيسين في ليلى ولبنى ، وغيلان بمية وجميل وبثينـة وسواهم كثير ؛ فلم يكن لهـا عاشـقا بل فاسقا » (١٥٤)

ويمضي في نقده على هذا النحو ، ثم يجره ذلك أو يسوقه الى ذكر أبيات ثلاثة من قصيدة له أخرى غير المعلقة وهي :

سموت اليها بعد ما نام اهلهـا
سمو حباب الماء حـالا على حال
فقالت : لحاك الله انك فاضـحي
الست ترى السمار والناس احوالي
حلفت لهـا بالله حلفـة فاجـر
لناموا فما ان من حديث ولا صال

ونقد هذه الأبيات ، وعدد ما فيها من عيوب وهنات وسقطات بقوله : « فاخبرها هنـا أنه هين القدر عند النساء وعند نفسه وبرضاه قولها : « لحاك الله » فحصل على «لك الويلات من تلك ، وعلى « لحاك الله » من هذه ، فشهد على نفسه انه مكروه مطرود غير مرغوب في مواصلته ، ولا محروص على معاشرته ، ولا مرضي بمشاكلته ، ثم اخبر عن نفسه انه يرضى بالحنث والفجور ، وهذه اخلاق لا خـلاق لها » (١٥٥)

ثم يأخذ على امرىء القيس انه اقر واعترف بما يكتمه الأحرار حيث يقول : (ثم اقر في مكان آخر من شعره بما يكتمه الاحرار ، ولا ينم بقبحه الا الاوضاع الاشرار ، فقال :

ولـما دنوت تسـديتها
فثوب نسيت وثوب اجر

---

(١٥٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٨
(١٥٣) رسالة اعلام الكلام : ٢٨ ــ ٢٩
(١٥٤) رسالة اعلام الكلام : ٢٩
(١٥٥) رسالة اعلام الكلام : ٣٠.

واى فجر في الاقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبه ، وأين هذا من قول يعقوب الخريمي :

ولا اسأل الولدان عن وجه جارتي
بعيدا ولا ارعاه وهو قريب (١٥٦)

ثم يعلل ابن شرف اعتراف امرىء القيس بهذه المنديات واقراره بما كان يأتيه من فحش وفجور بأنه كان مبغضا للنساء مفروكا من حلائله وأزواجه لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فحرمه ، ومنع منه فعلا ادعاه كذبا وزورا . شأنه شأن غيره من الشعراء ممن كانوا مبغضين للنساء كالفرزدق مثلا فيقول : « وانما سهل عليه كل هذا حرصه على ما كان ممنوعا منه ، وذلك انه كان مبغضا للنساء جدا ، ومفروكا ممن ملك عصمتها لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا ، وله اشباه فيما أتاه يدعون ما ادعاه افكا وزورا وكذبا وفجورا ، ومنهم الفرزدق » (١٥٧)

وهكذا يمضى ابن شرف فى نقده لامرىء القيس ذلك الشاعر الذى ساد الاعتقاد فيه عند العامة وبعض الخاصة انه لا ينتقد ، وكان نقده فى موضعه فنعى عليه عيوبه ، وما أتاه من فحش وفجور وتعهر ، وعدد عليه هناته وسقطاته .

ثم ختم حديثه عن امرىء القيس بأن قرر ان هذه العيوب والمآخذ وتلك السقطات والهنات والاستدراكات نزرة قليلة بالنظر لما اقر له به من الفضائل الادبية التى تفرد بها ، وسبق اليها ، وبالقياس الى محاسنه ومزاياه التى خصها بحديث سابق ، ونوه بها ، وأنه مؤسس الأساس ، وبنيانه عليه الناس ، فاذا كان قد سما اسلوبه ، وعلا في أمور عديدة ومواضع كثيرة فقد انحط وتسفل فى سلوكه ونهجه فى اخرى ، فيقول : « ولسنا ننكر هذه العيوب ونزارتها وما اقررنا له به من الفضائل وندارتها » (١٥٨)

ثم يعرض لحال المتعصبين للقديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ويرى انهم غفل سذج ، وأنه من الأولى بهم الا يتعرض لهم ، وأن يتركهم وشأنهم يتخبطون في عمايتهم وضلالتهم وجهلهم فيقول : « وستجد ناصرا لا يصدق معاصرا ولا يفضل على متقدم عصر متأخرا يبنى على ضعفه اسمه ، ويغذيه من الجهل والعيب بنفسه فاذا اعترضك من هذا النمط معترض فأعرض عنه ، ودعه على اخلاقه .... واتبع المنهج الذى اوضحته لك (١٥٩) ثم يذكر أن فضلاء الشعراء كثيرون جدا الا انه قلما يسلم واحد منهم من هنات وعيوب وسقطات واخطاء ، فلكل منهم سقطاته وعيوبه ، ثم يرى أن يجتزىء بالعرض لبعض هذه العيوب ، اذ ليس فى وسعه ان يحيط بها وان يأتى عليها مستهدفا من وراء ذلك ايضاح منهج من مناهج النقد ، والتدريب عليه لا حرصا على انتقاص الفصحاء ، ولا رغبة فى غمط حقوقهم والنيل منهم ، وليس الغرض التنديد بالأدباء دون عرض المحاسن والفضائل وبيان نواحى النقص فمنهجه مبنى على القصد والاعتدال يقول : « وفضلاء الشعراء كثير جدا ، ولكل سقطات ، وسأقفك على بعضها لعظيم المؤونة فى الاحاطة بها ليس الا لأوضح لك بذكرها منهجا من مناهج النقد ، لا حرصا على نقص الفصحاء ، ولا قصدا الى تهجين الصرحاء ، وأية رغبة لنا فى ذلك وهم جرثومة

---

(١٥٦) رسالة اعلام الكلام : ٣٠

(١٥٧) رسالة اعلام الكلام : ٣٠

(١٥٨) رسالة اعلام الكلام : ٣٣

(١٥٩) رسالة اعلام الكلام : ٣٣

فروعنا ،وبهم افتخارنا جميعنا» (١٦٠)ومثل لذلك بزهير بن أبي سلمى ، وحمل عليه ، واورد جملة من سقطاته وطائفة من هنــاته وعيوبه في معلقته مع اعترافه برفعة مكانته في الشعر وسمو منزلته فيه ، فيقول : « قــال زهير على ما وصفناه به ، ووصفه غيرنا من العلو والرفعة في هذه الصنــعة من مذهبتــه الحكمية ومعلقته العلمية :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمتــه ومــن تخــطىء يعمــر فيهرم

وقد غلط في وصفها بخبط العشواء على أننا لا نطالبه بحكم ديننا ، لأنه لم يكن على شرعنا، بل نطلبه بحكم العقل فنقول : « انما يصــح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضــهم ينجو ، وقد علم هو ، وعلم العالم حتى البهائم أن سهام المنايا لا تخطىء شيئا من الحيــوان حتى يعمها رشقها ، فكيف يوصف بخبــط العشواء ... (١٦١) فهو لا يعيب على زهير هذا البيت ، ولا يأخذ عليه ما فيه من مخالفة لعقيدتنا وخروج على ديانتنا ، لما كان عليــه من جاهلية ، فهو غير مطالب بحــكم ديننــا وشريعتنا ، لانه لم يكن على شريعتنا ولم يكن يدين بديننا فلا تثريب عليه من هذه الناحية، وانما عاب عليه انه عارض العقل وخالف المنطق فيما رآه ، وذهب اليه من أن المنايا خبــط عشواء ، فرايه في هذه القضية فائل ومذهبه باطل ، ثم عاب عليه بيتا آخر ورد في معلقتــه هو :

ومــن لم يذد عن حوضــه بســلاحه
يهــدم ومن لايظــلم لنــاس يظــلم

بأنه أسرف وتجاوز حدود الحق والعدل ،وقد كانت له مندوحة عن ذلك فيقول في تعليقه على هذا البيت : « وقد تجاوز في هذا الحق الباطل وبنى قولا ينقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم وعرة مراكبــه ، مذمومة عواقبه في جاهليته واسلامنا ، فحرض في شعره عليه » (١٦٢)

وهكذا مضى ابن شرف في نقد زهير ، وعاب عليه ابياتا اخرى في قصائد اخرى له غــير المعلقة ، وبعد ان عرض لطائفة من هنــاته ، وعيوبه ختم حديثه عنه بأن له سقطات وهنات اخــرى غير ما سردها وعددها ، وأنه لولا المشقة والكلفة لأتى عليها وعرض لها مع ما عرف عنه واشتهر به من انه أمدح الشعراء واجزلهم ، ثم ذكر ان التعصب له من الامور المستقبحة التي لا تحسن بالناقد المنصــف ، اذ أن النقد الموجه له لا يغمط حقه ، ولا ينال منه ، ثم ذكر ان ماجاء في شعره من هنــات وسقطات لا يخل بما عرف عنه من حــكمه الاخرى الرائعة وحسن اسلوبه ورقته ومــا أثر لنا عنه من أقوال مستحسنة وعبــارات مليحة وان المستحسن لا ينكر ، والقبيح لايهمل فيقول : « ولزهير غير هذا من السقطات لولا كلفة الاستقصاء هذا على اشتهاره بأنه امدح الشعراء ، واجزل الوافــدين على الاشراف والأمراء ، ويتعامى المتعصب له عن وضوح هذا البيان ، وسينكر جميع هذا البرهان ، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاء وظلما ومطالبة وهضما ، ويزعم أن جميع الشعر لو طلب هــذه المطالبــة لبطل صحيحه ، وانعجم فصيحه ، والباطل الذى زعم ، والمحال الذى به تكلم ، فالسليم سليم والكليم كليم ، وانما سمع المسكين أن أملح الشعر ما قلت عبارته ، وفهمت اشــارته

(١٦٠) رسالة أعلام الكلام : ٢٣

(١٦١) رسالة اعلام الكلام : ٢٣ ــ ٢٤

(١٦٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٤

ولمحت لمحه ، وملحت ملحه ، ورققت حقائقه ، وحققت رقائقه ، واستغنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وامثال هذا الكلام فى استعمال لطائف النظام ، فتوهم أن خلل الشعر زلله وضعف اركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لغوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما قدمنا من الاوصاف المستحسنة ومن لمح اشاراته وملح عباراته » (١٦٣)

ثم يقرر بعد ذلك أن فيما ذكره وأورده من شعر هذين الشاعرين الفحلين المتقدمين القديمين ما يغنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، ويجزىء عن تسقط عثرات غيرهما ومن عداهما والبحث عنها فليقس عليها ما لم يقله ، فقد أوضح امرا عظيما يتصل بسلوك الشاعر ومنهجه ونفسيته وانه تناول شعره ونقده من ناحية اتصاله بالمجتمع وتعلقه به ، فيقول : « وفيما اطلعتك عليه من شعرى هذين الفحلين والمتقدمين القديمين ما يغنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، فقس على ما لم تره بما ترى ، واعلم أن كل الصيد فى جوف الفرا ... » (١٦٤)

ونراه يتعصب للمتنبى، وينتصر له، فيقول: « واما ابو الطيب المتنبى فقد شغلت به الألسن وسهرت فى أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره والآخذ لذكره ، والغائص فى بحره ، والمفتش عن جمانه ودره ، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تغلو فى مدحه ، وعليه خوارج تتعايا فى جرحه ، والذى أقول : ان له حسنات وسيئات ، وحسناته اكثر عددا ، واقوى مددا ، وغرائبه طائرة وامثاله سائرة ، وعمله فسيح ، ومميزه صحيح ، فيقدر ويدرى ما يورد ويصدر (١٦٥)

ويظهر من حديثه عن قدامى الشعراء واشعارهم ، وعن الشعراء المحدثين وانتاجهم ، وما جادت به قرائحهم ، وموازنته بين الفريقين القدامى والمحدثين ان ضلعه كان مع المحدثين وميله اليهم وهواه معهم وتعصبه لهم ، كما يبدو لنا ذلك فى ثنايا الرسالة .

ثم اخذ فى سرد عيوب الشعر وتعدادها مبتدئا باللحن اظهر عيوب الشعر ، اذ تضيق عنه اللغة العربية ولا تتسع له ، وحذر من ارتكابه والوقوع فيه ، وان تحيل له بعض النحويين بشتى الحيل ، واعتذر له بمختلف الاعذار فيقول : « ومن عيوب الشعر اللحن الذى لا تسعه فسحة العربية كقول جرير : »

واو ولدت لعنزة جرو كلب
لسب بذلك الجرو الكلابا

فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وكقول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال الا مسحتا او مجلف

فرفع مجلفا وحقه النصب . وقد تحيل بعض النحويين ايضا للفرزدق على وجه الاقواء احسن منه ، فاحذر مثله ، واياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر فكيف بضيق » (١٦٦)

ثم عد من عيوب الشعر ايضا خشونة حروف الكلمة كلفظة « بوزع » التى وردت فى بيت من قصيدة لجرير تعد من عيون شعره واحسن قصائده واجزلها وافصحها فثقلت

---

(١٦٣) رسالة اعلام الكلام : ٣٦ – ٣٧

(١٦٤) رسالة اعلام الكلام : ٣٧

(١٦٥) رسالة اعلام الكلام : ٢٥

(١٦٦) رسالة اعلام الكلام : ٣٧ – ٣٨

القصيدة ، واستبردت بهذه اللفظة التي لاتكاد تجد لها نظيرا في شعر جرير كله وذكر ان الفرزدق قد كثرت في شعره الفاظ كثيرة خشنة يقول ابن شرف : « ومما يعاب به الشعر ، ويستهجنه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا
هلا هزات بغيرنا يا بوزع

وهذا البيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير واملحها واجزلها وافصحها ، فثقلت القصيدة كلها بهذه اللفظة ، وللفرزدق لفظات كثيرة خشنة الحروف تجدها ان استقصيتها وفتشتها على لفظة جرير هذه ، ولا تكاد ترى اختا لها في شعره » (١٦٧)

ثم عد من عيوب الشعر ايضا التعقيد اللفظي وتقديم آخر الكلام وتأخير أوله ، وذكر انه مما يكرهه النقاد ، ولا يستسيغونه ، واننا لا نكاد نرى هذا العيب في شعر جرير ويمثل له ببيت الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا
أبو امه حي أبوه يقاربه

ويعلق عليه بقوله : « وهذا غاية التعقيد والتنكيد ، وليس تحته سوى انه شريف كابن اخته ، ولا تكاد ترى في شعر جرير شيئا من هذا » (١٦٨)

ثم ذكر ان من عيوب الشعر ايضا الكسر وهو وصف شامل لكل عيوب الشعر ، وعده من أشد عيوب الشعر ، وانه لايمكن ارتكابه والوقوع فيه ، اذ انه اذا وقع في الشعر اخرجه عن اسمه فلا يسمى الشعر الذي وقع فيه هذا العيب حينئذ شعرا ، وليس هذا العيب مما يقع لمن وصف بالشعر وعد شاعرا من الشعراء وسلك في عدادهم ، اما سائر عيوب الشعر المتصلة بالوزن او القافية أو الضرورات الشعرية كالاقواء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف ، فكل هذه العيوب محتملة ويمكن للشاعر ارتكابها ، والوقوع فيها واستعمالها ولا يخرج الشعر معها عن كونه شعرا الا ان السلامة من هذه العيوب وتجنبها وعدم الوقوع فيها وارتكابها افضل واجمل ، فيقول : «ومن عيوب الشعر كلها الكسر ، لانه يخرجه عن نعته شعرا ، وليس مما يقع لمن نعت شاعرا ، فأما الاقواء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف فكل ذلك يستعمل الا أن السالم من جميع ذلك افضل وأجمل » (١٦٩) ثم عد من عيوب الشعر المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها مثل مجاورة كلمة «الدل» لكلمة «الشنب» واقترانها بها في قول الكميت:

حور تكامل فيها الدل والشنب

وكقول بعض المتاخرين في مرثية له :

فانك غيبت في حفرة
تراكم فيها نعيم وحور

وان كان النعيم والحور من مواهب اهل الجنة فليس بينهما في النفوس تقارب ولا لفظة تراكم مما تجمع بين الحور والنعيم ، وكقول بعض المتاخرين :

والله لولا ان يقال تغيرا
وصبا وان كان التصابي اجدرا
لأعاد تفاح الخدود بنفسجا
لثما وكافور الترائب عنبرا

---

(١٦٧) رسالة اعلام الكلام : ٣٨
(١٦٨) رسالة اعلام الكلام : ٣٨
(١٦٩) رسالة اعلام الكلام : ٣٨

فأجاد الوصف واحسن الرصف لكون الورد من قبيل البنفسج ، وهكذا نجد ابن شرف قد بسط القول ، وافاض في الحديث عن العيب الذى سماه « مجاورة الكلمة ما لا يناسبها » (١٧٠) وعد هذا العيب من عيوب الشعر المذمومة .

ثم ذكر ان لفضلاء الشعراء المولدين سقطات وهنات مختلفات في اشعارهم ، ووعد بأنه سيذكر أطرافا منها لا رغبة في طلب الزلات وتلمسها ولا شهوة في اقتفاء العثرات واستقصائها وتتبعها ، وانما لنستدل بها على اغراضنا ونقف منها على منهجنا ، ويضرب مثلا لذلك ببشار فقد كانت طبقات شعره تتفاوت وتتباين ، فيسمو ويرتفع كثيرها ، وينحط ويسفل قليلها ، وكذلك شعر أبى تمام حتى بلغ من تفاوت طبقات شعر هذين الشاعرين وتباينهما الى هذا الحد أنك لو سمعت جيدها لانكرت ان رديئهما لهما ، ولو صح عندك وثبت ان هذا الرديء لهما لانكرت جيدهما ، ونفيته عنهما ، واقسمت انه ليس لهما ، وانما هو لغيرهما فيقول : « ولفضلاء المولدين سقطات مختلفات في اشعارهم ، اذاكرك منها فى اشياء لتستدل بها على اغراضك ، ولا لطلب الزلات ولا لاقتفاء العثرات ، كان بشار تتباين طبقات شعره فيصعد كثيرها ، ويهبط قليلها كثيرا ، وكذلك كان حبيب الطائي فاذا سمعت جيدها كذبت ان رديها لهما ، واذا صح عندك ان ذلك الردى لهما اقسمت ان جيدها لغيرهما » (١٧١)

ثم عد من عيوب الشعر الافتتاحات الثقيلة والابتداءات المستبردة المحجوجة وضرب لهذا العيب أمثلة كثيرة مثل قول أبى تمام :

هن عوادى يوسف وصواحبه

ومثل قول ديك الجن :

كأنه وكأنها حلل الخلة
وقف الحلول اذ بفما

ووجه العيب في افتتاحى ابى تمام وديك الجن انهما ابتدآ قصيدتهما بضمائر لم يسبقها اسم ظاهر تعود عليه .

كما عاب أيضا الافتتاحات التى يتطير بها ، ويتشاءم منها ، والكلام المضاد للغرض المطلوب ويضرب مثلا لذلك بابتداء قصيدة ابى نواس التى انشدها جعفر بن يحيى البرمكى يهنئه ببنائه دارا جديدة ، فدخل عليه عند كمالها وقد جلس للهناء والدعاء ، وعنده وجوه الناس فابتدأ فانشد قصيدة مطلعها :

اربع البلى ان الخشوع لبادى
عليك وانى لم اخنك ودادى

فنكس جعفر راسه ، وتناظر الناس بعضهم الى بعض ثم تمادى ، فختم الشعر بقوله :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم
بنى برمك من رائحين وغادى

فكمل جهله، وتمم خطاه، وزاد القلوب المتوقعة للخطوب سرعة توقع ، واضاف للنفوس المتوجعة بذكر الموت شدة توجع ، وأراد ان يمدح فهجا ، ودخل ان يسر فشجى » (١٧٢)

ثم يضرب مثلا آخر لهذا العيب بما وقع للمتنبي في أول شعر انشده كافورا الاخشيدي وهو :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن امانيا

---

(١٧٠) تحدث ابن شرف عن هذا العيب في ص ٢٨ ، ص٢٩ من رسالة اعلام الكلام .

(١٧١) رسالة اعلام الكلام : ٣٩

(١٧٢) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

ووجه العيب فى هذا المطلع انه خاطب كافورا بالكاف ، وهذا أمر مستهجن ، وخاصة فى اول لقاء له معه وفى ابتداء استجداء واستعطاف ... » (١٧٣)

ثم يضرب مثلا آخر لقبح مطلع القصيدة واستفتاحها وقع لأحد الشعراء المعاصرين له، فيذكر أن بعض الشعراء انشد بعض الأمراء فى يوم المهرجان :

لا تقل بشرى ولكن بشريان

غرة الداعى ووجه المهرجان

فأمر الأمير باخراج الشاعر، واستطاربافتتاحه وحرمه احسانه ، ثم علق على هذا المطلع المستقبح بانه لو كان هذا الشاعر حاذقا لكان اصلاح هذا الفساد ايسر الاشياء عليه ،وذلك بأن يعكس البيت فيقول :

وجه من أهوى ووجه المهرجان

اى بشرى هى لا بل بشريان (١٧٤)

ثم يذكر أن من عيوب القافية البالغةالغاية في الاستهجان والاستقباح انتأتى بكلمةالقافية معجمة لا ترتبط بما قبلها من الكلام ، وانما هى مفردة بحشو القافية كقول بعض الشعراء:

فبلغت المنى برغم اعاديك

وابقاك سالما رب هود

يقول ابن شرف : « فانت ترى غثاثة هذه القافية ، والله تعالى رب جميع الخلق وكل شيء فخص هودا عليه السلام وحده لضعف نقده ، وعجز عن الاتيان بقافية تليق وتحسن » (١٧٥)

ثم يذكر ان مما يقبح فى النسيب الجفاء على الحبيب والقسوة عليه والتضجر ببعده ، واغلاظ العقاب على هجره وصدوده ،ويضرب مثلا لذلك بقول ابى نواس فى اول قصيدته المشهورة التى مدح بها الخصيب بن عبد الحميد عامل مصر :

اجارة بيتينا ابوك غيور

وميسور مايرجى لديك عسير

فان كنت لا خلا ولا انت زوجة

فلا برحت منا عليك ستور

وجاورت قوما لا تزاور بينهم

ولا قرب الا أن يكون نشور

يقول ابن شرف : « فلم اسمع بأوحش من هذا النسيب ، ولا باخشن من هذا التشبيب وذلك قوله ان لم تكوني لى زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور التراب عليك ، ولا كان جارك‌ما عشنا نحن الا الموتى الذين‌لا يتزاورون ولا يتواصلون الى يوم النشور مع ان كلامه يشهد عليه بانه شاك ، وانما المعروف فى أهل الرقة والظرف ، والمعهود من اهل الوفاء والعطف ان يفدوا أحبابهم بالنفوس من كل مكروه وبوس ، فأين ذهبت ولادته البصرية وآدابه البغدادية حتى اختار الفدر على‌الوفاء وبلغت به طباعه الى أجفى الجفاء » (١٧٦)

ثم عرض للسرقات الشعرية ، وعدها من عيوب الشعراء ، وذكر أن أنواعها كثيرة وأقسامها متعددة ، فمنها سرقة الفاظ ،ومنها سرقة معان ، ويبين أن سرقة المعانى اكثر من سرقة الالفاظ لانها اخفى ، وسرقة المعانى متعددة : فمنها سرقة المعنى كله ، ومنهاسرقة

---

(١٧٣) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

(١٧٤) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٥) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٦) رسالة اعلام الكلام : ٤١ ـ ٤٢

البعض ، ثم ذكر ان احسن السرقات السرقة باختصار فى اللفظ وزيادة فى المعنى ، وان اقبح السرقات هي السرقة بزيادة الفاظ مع قصور عن المعنى ، وهناك سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص ، والفضل في مثل هذه السرقة راجع للمسروق منه ، ولا شيء للسارق ، ومثل لها بسرقة ابى نواس معنى بيت ابى الشيص بتمامه وهو :

وقف الهوى بى حيث انت فليس لى
متأخر عنه ولا متقدم

فسرق ابو نواس معنى هذا البيت بكماله فقال :

فما حازه جود ولا حل دونه
ولكن يسير الجود حيث يسير

يقول ابن شرف : « فهذا على ان بيت ابى الشيص احلى واطبع ، ومع حلاوته جزالة وقد ذكر عن الحسن انه قال : ما زلت أحسد ابا الشيص على هذا البيت حتى اخذته منه، وسرقة المعاصر قصور همة » (١٧٧)

ثم ختم حديثه عن عيوب الشعر بالحديث عن الاخلال بالتناسب فى المعنى والأبيات ، او تعقيد الكلام ومثل له بقول المتنبى :

« كفى بك داء ان ترى الموت شافيا »

وهذه العيوب التى عرض لها ابن شرف اوسعها علماء البلاغة والبيان بحثا ودراسة ، وافاضوا فى الحديث عنها ، فالاخطاء اللغوية معيبة يؤاخذ عليها الشاعر واللحن ينتقص من قدرة الشاعر ، ويغض من شانه ، والخلل اللفظى فى المفردات وفى التراكيب معيب على الشاعر ، ويستوجب توجيه النقد اليه .

ثم ختم الرسالة بالحديث عن أحسن الشعر واجوده ، فقال : «فأمانقد المستحسن فتمثيله لك يعظم ويتسع لكثرته فلا يسعنا ايراده ، وكفى ما سلم فى جميع ما أوردناه فهو فيحيز السالم ، ثم تتسع طبقات الجودة فيه ، واحسن الحسن منه ما اعتدل مبناه ، وأغرب معناه ، وزاد من محمودات الشعر على سواه ثم يمدح الأدون فالأدون بمقدار انحطاطه الى حيز السلامة ، ثم لا مدح ولا كرامة » (١٧٨)

ثم بدا لابن شرف أن يسأل أبا الريان السؤال الاخير بعد ان طوف معه كل هذا التطواف ، فسأله عن مذهبه فى انتقاء الاشعار واستفسر عن منهجه وطريقته فى اختيارها ، وعزم عليه ان يخبره عما سأله عنه ، واقترح عليه أن ينشده ولا يمل من مستحسن الاشعار واجودها ، وأن يملى عليه ولا يمل من منتقاها ومتخيرها ، ومنتخبها ، فاجابه أبو الريان الى طلبه ، وحقق رجاءه ومبتغاه . وهكذا نجد ابن شرف يختتم رسالته بايراد عدة أمثلة من اجود الاشعار ومنتخبها ومتخيرها فى شتى الموضوعات وفى مختلف الاغراض ، فابتدأ بايراد طائفة منها في الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة اخرى من منتخب شعر الغزل ، ثم اتبع ذلك بايراد مختارات من المراثى مبتدئا بمرثية قتيلة بنت النضر بن الحارث فى اخيها النضر بن الحارث وقد قتله الرسول صلى اللى عليه وسلم صبرا ، وتعد هذه المرثية من أحسن المراثى وأفصحها وأوجعها واقرحها ، ثم عرض لمنتخبات من اشهر المدائح وبذلك تنتهى هذه الرسالة .

هذه هي رسالة اعلام الكلام لابن شرف التى تمثل آراءه النقدية ، ومن حديثنا عنها، وعرضنا لآرائه فيها يتبين لنا أن آراءه النقدية قد عرض لها كثير من النقاد السابقين عليه والمعاصرين له كالجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق

---

(١٧٧) رسالة اعلام الكلام : ٤٢

(١٧٨) رسالة اعلام الكلام : ٤٦

وان ابن شرف لم يأت بجديد فى هذه القضايا النقدية التى عرض لها كما يتبين لنا من آرائه النقدية فى هذه الرسالة أنه بالرغم من الجهد الذى بذله فى اصدار احكام صحيحة على الشعراء وبيان منازلهم وتقويم أدبهم ، فان هذا الجهد قد ضاع فى خضم التعابير اللغوية المتخيرة ، وغاب فى أمواج الالفاظ المنتقاة ، كما نلاحظ انه يهمل التدقيق فى الافكار التى يبنى عليها احكامه كما فعل قريعه ومنافسه ابن رشيق فى كتابه « العمدة » ومن ثم جاءت أحكامه عامة خالية من التحليل والتدقيق ضائعا ما فيها من صواب محدود فى خضم السجع الركيك وحواشي الالفاظ وغريبها ، وغائبا ما اشتملت عليه من افكار فى أسلوب المقامات التى التزمه فى هذهالرسالة ذلك الأسلوب المعنى بتزيين الالفاظ ، وتزويق العبارات والحافل بالمحسنات البديعية والصنعة اللفظية ، حتى انه لا وجه للمقارنة والموازنة بين أحكام ابن شرف وآراء ابن رشيق التى بلغت درجة الكمال اذ يوجد بون شاسع بينهما ، فابن شرف ، فضلا عن أسلوبه الذى هو دون أسلوب ابن رشيق فى كتابه « العمدة » ، لم يبلغ منزلة ابن رشيق فى النقد الأدبى ، ولنجتزىء بعرض آرائهما فى قضية القديم والمحدث ، فابن شرف يقول : (وتحفظ من شيئين : احدهما أن يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمع له ، والثاني : ان يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور فى الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما أو عليهما ، فهذا باب فى اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه اتعاب ، وقد وصف تعالى فى كتابه تشبث القلوب بسيرة القديم ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » ..... فلا يرعك أن تجرى على منهاج الحق فى جميع الخلق ، فيه قامت السموات والأرض ، وبه احكم الابرام والنقض (١٧٩) وابن شرف لم يأت بجديد فى هذه القضية ، ولم يعد أن يكون مرددا لكلامهم . فمعاصره ابن رشيق أدلى بدلوه فى هذه القضية وتكلم فيها بأسلوب أوضح من أسلوب ابن شرف ، وعالجها على نحو أكمل وأوفى مما عالجها به صاحبنا ، فهو مثلا يستهل الباب الذى عقده فى العمدة بعنوان « باب فى القدماء والمحدثين بالحملة على المقاييس البالية التى اصطنعها الرواة واللغويون فى تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، ويبين أن القدم والحداثة أمران نسبيان ، فيقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالاضافة الى من كان قبله (١٨٠) ... » كما يقول في موضع آخر : « وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا ببناء فأحكمه وأتقنه ، ثم اتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن » (١٨١) كما نجد لابن قتيبة السابق عليهما فى هذه القضية رأيا أكثر دقة ووجاهة وصوابا من رأييهما ، فقد بسط القول فى هذه القضية وفصله ، وافاض فيه حيث يقول : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل للفريقين ، واعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه ، وانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقدم قائله ، ويضعه فى متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده الا انه قيل فى زمانه ،

---

(١٧٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

(١٨٠) العمدة ١ - ٧٣

(١٨١) العمدة ١ : ٧٤

او انه راى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم » (١٨٢) كما يقول بعد ذلك : « فكل من اتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، واثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله او فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء اذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (١٨٣) ويردد ابن قتيبة رايه هذا في القديم والمحدث مرة اخرى في مقدمة كتاب « عيون الأخبار » حيث يقول : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتاخرين واشعار المحدثين اذا كان متخير اللفظ لطيف المعنى لم يزر به عندنا تأخر قائلة، كما انه اذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ، فكل قديم حديث في عصره ، وكل شرف فأوله خارجية ، ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم ووضع الموجود ورفض المبذول وحب الممنوع وتعظيم المتقدم وغفران زلته وبخس المتاخر والتجنى عليه ، والعاقل من ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم » (١٨٤) ومن أقوال ابن قتيبة التى عرضنا لها فى قضية القديم والحديث نجد أن رايه فى هذه القضية كان أكثر دقة وصوابا ووجاهة من راى ابن شرف وابن رشيق .

وهكذا يتضح لنا اتجاه ابن شرف في النقد الأدبى وطريقته فى تناول القدامى والمحدثين والموازنة والمقارنة بينهم وقضية القديم والحديث حظيت باهتمام كبير من النقاد العرب ، وكانت الشغل الشاغل للأوساط الادبية فى المشرق والمغرب على السواء وفى جميع العصور ومختلف البيئات ، وقد بينا موقف معاصره ابن رشيق منها ، وموقف ابن قتيبة السابق عليهما من هذه القضية ايضا .

كما يتضح لنا كيف تناول ابن شرف فى رسالته « أعلام الكلام » الشعر والشعراء ومنازلهم فى جاهليتهم واسلامهم ومذاهبهم قديمهم وحديثهم ، وكيف كانت الاشعار قبل امرىء القيس سواذج حتى جدد فيها ، ووضع الأساس الذى بنى عليه الناس ، وكيف أقام الصوى والاعلام التى اهتدى بها كل من جاء بعده ، فقد كانوا يقولون : « اسيلة الخد » حتى قال امرؤ القيس : « أسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون : « تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » واشباه هذا من الاستعارات والاشارات التى لم يفطن لها من قبله ، وتاسى بها وبنى عليها من أتى بعده ، فحسنت بها اشعارهم ، وكيف اخذ يتناول كل شاعر على حدة ، ويعرض لأخباره المشهورة وسماته ومميزاته الخاصة به ، وكيف مضى في ابداء رأيه على هذا النحو فى مشاهير شعراء المشرق، ثم انتقل بعد ذلك الى مشاهير الشعراء المغاربة والاندلسيين يعرض لهم ، ويبدى رأيه فيهم دون التقيد بمنهج نقدى شامل ودون تحليل أو تعليل ، وكيف عرض بعد ذلك لطائفة من عيوب الشعر ، وكيف اختتم رسالته بايراد نماذج وعرض امثلة من أجود الاشعار ومتخيرها فى شتى الموضوعات ومختلف الاغراض مبتدئا بعرض أبيات من شعر الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى متخيرة من شعر الغزل ، ثم أورد منتخبات من المراثى مبتدئا بمرثية قتيلة بنت الحارث فى أخيها النضر بن الحارث احسن المراثى وافصحها واوجعها ثم عرض ذلك لمنتخبات تعجبه من اشهر المدائح .

هذه هى طريقة ابن شرف فى النقد الأدبى ، وهى كما رأينا لا تتقيد بمنهج نقدى يقوم على الاستقصاء والاستقراء والتحليل والتعليل

---

(١٨٢) مقدمة الشعر والشعراء : ٦ - ٧

(١٨٣) مقدمة الشعر والشعراء : ٧

(١٨٤) مقدمة عيون الاخبار : ٧

والتدقيق وانما تتناول طائفةمن الاخبار النقدية وأثارات متفرقة هنا وهنــاك ، وتبدى آراء جزئية في هذا الشاعر أو ذاك ، وتصدر احكاما عامة متناثرة فى الأدب . يقــول احمد أمين : « وظهرت فى المغرب حــركة جيــدة فى النقد الأدبى وردت أول الأمــر نتفــا فى كتب الأدب كقول عبد الكريم النهشلي : قد تختلف المقامات والأزمنة والبــلاد ، فيحسن في وقت مــا لا يحسن فى آخر ، ويتستحسن عند اهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره .... ومثل قــول ابراهيم الحصرى : الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع الجيد الطبع مقبول فى السمع قريب المثال بعيد المنال أنيق الديباجة رقيق الزجاجة .... ثم ارتقى هذا النقد حتى صار موضوعا قائما بنفسه » (١٨٥) وتظل هذه الطريقة فى النقد الادبى سائدة فى المغرب الى أن يجىء ابن رشيق فيتخصص فى نقد الشعر عامة ، وينفرد به ، ويوليه عنايته واهتمامه ويشمله برعايته ، ويأخذ لهــذا الأمــر اهبته ، ويعد له عدته ، فيبوب البحث وينظم منهجه ، ويفرد لذلــك كتابه « العمدة » الذى توج به حــركة النقد الادبى التى ظهرت فى المغرب ، فقد نقل فيه فن النقد الادبى كما يقول الأستاذ احمد امين : « من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين كما فعل صاحب الموازنة والوساطة الى نقد للشعر عامة » (١٨٦) ويقــول ابن خلدون : « وهــو الكتاب الذى انفرد بهــذه الصــناعة واعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبلــه ولا بعــده مثله » (١٨٧) ويقول فيه القفطى : « وهــو اجل كتبه واكبرها ، وانه اشــتمل على ما لم يشتمل عليه تصنيف من نوعه ، واحسن فيه غاية الاحسان » (١٨٨) .

★ ★ ★

---

(١٨٥) ظهر الاسلام ١ : ٣٠٦ ـ ٣٠٧

(١٨٦) ظهر الاسلام ١ : ٣٠٧

(١٨٧) مقدمة ابن خلدون : ٥٧٤

(١٨٨) انباه الرواة ١ : ٣٠٣

مراجع البحث

١ ـ الأعلام للزركلى ط ثانية سنة ١٩٥٥م .

٢ ـ أعلام الكلام لابن شرف القيروانى ط مكتبة الخانجىسنة ١٣٤٤هـ .

٣ ـ انباه الرواة على أنباء النحاة للقفطى تحقيق أبى الفضلط دار الكتب جـ ١ سنة ١٩٥٠م ، وجـ٢ سنة ١٩٥٢ ١٩٥٢ وجـ٣ سنة ١٩٥٥م وجـ٤ سنة ١٩٧٣م .

٤ ـ بدائع البداله لعلى بن ظافر ط بولاق سنة ١٢٧٨هـ .

٥ ـ بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ط المطبعـةالتونسية سنة ١٣٣٠هـ .

٦ ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى طـالسعادة سنة ١٣٢٦هـ .

٧ ـ البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب لابن عذارىط بيروت بدون تاريخ .

٨ ـ تاريخ الادب العربى لبروكلمان ترجمة عبد الحليم النجارط دار المعارف سنة ١٩٥٩م .

٩ ـ تاريخ الامم والملوك لابن جرير الطبـرى ط الحسينيةالمصرية سنة ١٣٢٦هـ .

١٠ ـ حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها لعبد الرحمنياغى ط بيروت سنة ١٩٦١م .

١١ ـ الخريدة ، قسم شعراء المغرب للعماد الاصفهانى طـتونس سنة ١٩٦٦م .

١٢ ـ ديوان ابن رشيق جمع وتحقيق الدكتور عبد الرحمنياغى ط بيروت .

١٣ ـ الذخيرة لابن بسام ط لجنة التاليف والترجمة والنشرسنة ١٩٤٥م .

١٤ ـ رسائل البلغاء اختيار وتصنيف محمـد كرد على طـلجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦م.

١٥ ـ ابن رشيق القيروانى للدكتور/عبد الرؤوف مخلوفسلسلة أعلام العرب ط لجنة التاليف والترجمة والنشر .

١٦ ـ زهر الآداب للحصرى تحقيق علي محمد البجاوى طـالحلبى سنة ١٩٥٣م .

١٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيـق الشيخ أحمـدشاكر ط الحلبى سنة ١٣٦٦هـ .

١٨ ـ الصلة لابن بشكوال ط مكتب نشر الثقافة الاسلاميةسنة ١٩٥٥م .

١٩ ـ ظهر الاسلام لاحمد امين ط لجنة التاليف والترجمـةوالنشر .

٢٠ ـ العمدة لابن رشيق القيروانى تحقيق محيى الدين طـمصر سنة ١٩٢٤م .

٢١ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب سنة ١٩٢٥م .

٢٢ ـ الغيث المسجم فى شرح لامية العجم للصـفدى طـالوطنية بالاسكندرية سنة ١٢٩٠هـ .

٢٣ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى تحقيق محيى الدينط النهضة سنة ١٩٥١م .

٢٤ ـ قراضة الذهب فى نقد اشعار العرب لابن رشيق تحقيقالشاذلى بو يحيى ط المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٧٢م .

٢٥ ـ الكامل لابن الاثير ط مصر سنة ١٢٩٠ هـ .

٢٦ ــ كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون لحاجى خليفةط استامبول سنة ١٣١٠هـ .

٢٧ ــ مجلة المقتبس المجلد السادس .

٢٨ ــ مسالك الأبصار جـ ١١ قسم ٢ مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .

٢٩ ــ المطرب من اشعار اهل المغرب لابن دحية تحقيق الابيارى وزميله ط المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤م .

٣٠ ــ معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان للدباغ ط تونس سنة ١٣٢٠هـ .

٣١ ــ معجم الأدباء لياقوت الحموى ط دار المامون .

٣٢ ــ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكرى تحقيق السقاط لجنة التاليف سنة ١٩٤٥م .

٣٣ ــ مقدمة ابن خلدون ط المكتبة التجارية بدون تاريخ .

٣٤ ــ المكتبة الصقلية لامارى ط ليبسك سنة ١٨٥٧م .

٣٥ ــ المؤنس فى أخبار افريقية وتونس لابن أبى دينار ط تونس سنة ١٢٨٦هـ .

٣٦ ــ النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف للميمنى ط السلفية سنة ١٣٤٣هـ .

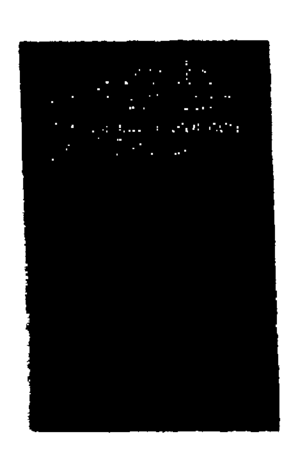
٣٧ ــ هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل البغدادى ط استامبول سنة ١٩٥٥م .

٣٨ ــ الوافى بالوفيات للصفدى جـ ٣ ط الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٣م .

٣٩ ــ وفيات الاعيان لابن خلكان تحقيق محيى الدين ط السعادة سنة ١٩٤٨م .

★ ★ ★





مقدمة السكان

تحليل سوسيولوجي

عرض وتحليل الدكتور مصطفى ناجي

يتكون الكتاب من ثلاثة اجزاء رئيسية مقسمة الى سبعة عشر فصلا بالاضافة الى اربعة ملاحق وثماني صفحات من البيبلوجرافيا وفهرس . وتبلغ مجمل صفحاته ٥٢٤ صفحة. يضم الجزء الاول خمسة فصول ويعالج بصفة اجمالية التصورات المختلفة عن الناس والسكان والمجتمعات

(Perspectives on People, and Societies)

وفيه استعرض المؤلف تأثير التغيرات السكانية على التنظيم الاجتماعي والاقتصادى والسياسي بصفة اجمالية وفى المجتمع الامريكي بصفة خاصة .

الجزء الثانى من الكتاب (الفصل السادس ــ العاشر) يتضمن مناقشة عوامل التركيب السكانى ومتغيراتها ــ الوفيات (Mortality) ــ الولادات (Fertility)والهجرة (Migration) .

الجزء الثالث والاخير يشتمل على ستة فصول تتعلق بالنتائج التي تترتب على التغيرات السكانية وانماطها الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كذلك السياسات السكانية .

Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs. New Jersey 07632.

بدأ الفصل الاول باحصائيات توضح مدى الانفجار السكاني الذى حدث فى العالم خلال القرن العشرين ، حيث ازداد عدد السكان من بليون ونصف فى بداية القرن الى ما يقارب اربعة بلايين فى عام ١٩٧٥ ، مع احتمالية وصول هذا العدد الى ستة بلايين فى نهاية القرن المذكور اى بمعدل نمو يوازى أربعة اضعاف .

رغم الحديث الكثير عن الانفجار السكاني* والوعي الذى بدأ يتزايد عن ابعاد المشكلة يعتقد المؤلف ان ذلك لا يعني بالضرورة وجود تفهم علمي للمشكلة أو اتفاق على النتائج التي تترتب على الزيادة السريعة فى السكان ، وقد لخص الآراء المتداولة الى : ـ

أ ـ ظاهرة الانفجار السكاني تمثل كارثة على الجنس البشرى حيث ان النقص فى الغذاء والمصادر الاولية والتلوث والتلف الذى يحدث في البيئة كلها يشكل ظواهر تنبيء وقوع كارثة ، وان مجرد تخفيض معدل نمو الزيادة السكانية لن يؤخر وقوع مثل هذه الكارثة ، ولذا فهناك ضرورة حتمية وملحة لتوقف النمو السكاني تماما ، أى الوصول الى معدل للسكان معادل للصفر (Zero Population Growth)

ب ـ التزايد السكاني يوفر فرصة ذهبية للنمو والتوسع الاقتصادى والاجتماعي وذلك بتطويره فرص العمل ، ومساعدته فى اكتشاف واستغلال المواد الاولية عن طريق استعمال الابتكارات التكنولوجية والتنظيمية .

جـ ـ الانفجار السكاني يعتبر عاملا مضاعفا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويؤدى الى قصور الخدمات الاجتماعيةبصورة عامة . ومن مسلمات هذا الرأى أن حل كثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية سيكون متيسرا لو تناقصت معدلات نمو السكان المرتفعة فى كثير دول العالم النامي .

تطرق المؤلف فى الفصل الثاني الى منشأ وتطور الحركة المنادية بتوقف النمو السكانى، كما استعرض نشاطات المنظمات القائمة بالدعوة لهذه الفكرة ، وناقش الوسائل التى اتبعتها لتحقيق اهدافها . لقد ظهرت هذه الحركة فى أوائل الستينات من خلال انشطة بعض منظمات القطاعين العام والخاص فى الولايات المتحدة بهدف التأثير على برامجتنظيم الاسرة وتشجيع تحديد النسل . وما لبثت أن تطورت أهداف الحركة من اهتمامأوليبسعادة الافراد كمبرر لتحديد النسل الىابراز خطورة النمو السكاني على النواحي الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية كمبرر أساسي يستوجب ايقاف النسل . واشار المؤلف الى عدم وضوح كيفية التوصل الى الاهداف المنادى بها ، خاصة وأنه من المسلم به أن تنظيم الاسرة الاختيارى لن ينتج عنه توقف أوتوماتيكي فى الزيادة السكانية . وأن تحقيق معدل نمو سكاني معادل للصفر يستوجب اعتبار برامج اخرى اجبارية .

رغم استمرار الجدل العلمي حول خطورة النمو السكانى وافضل الوسائل المتبعة « لتحديد » أو « ايقاف » النسل (اختيارية أو اجبارية) ودور الزوجين أو الافراد فى مقابل مسئولية الدولة ، نبه المؤلف الى حقيقتين :

(١) معدل الولادات فى الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة قد اخذت بالانخفاض الواضح حتى وصلت فى السبعينات الى مستوى منخفض يضمن بالكاد الاستبدال (Replacement)

* خصصت مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد الخامس (يناير ـ مارس ١٩٧٥) لمناقشة المشكلةالسكانية .

(٢) معدلات النمو السكاني في بعض الدول النامية وخاصة في دول شرقي آسيا كالصين وتايلند واندونيسيا وكمبوديا والجمهوريات الاسيوية في الاتحاد السوفييتي قد بدات بالتناقص بشكل ملحوظ ، مما حدا بكثير من علماء الديموجرافية بدراسة احتمال توقف النمو السكاني عامة في هذه الدول في خلال القرن العشرين وتحليل النتائج المحتمل وقوعها .

من النماذج المستخدمة في شرح النمو السكاني التي قام المؤلف بمناقشتها في الفصل الثالث نموذج التحول الديموجرافي (Demographic Transition) والتي تصف تجربة العالم الغربي والصناعي في تخفيض معدل نموه السكاني منذ بداية حركة التصنيع، ويمكن وصف مراحل هذا التحو كالآتي : ـ

١ ـ مرحلة ما قبل التصنيع وهي الفترة التي تكون فيها معدلات كل من الولادات والوفيات مرتفعة .

٢ ـ مرحلة بداية التصنيع وفيها تنخفض معدلات الوفيات مع بقاء معدلات الولادات ثابتة ومرتفعة ، وهذه المرحلة هي التي ينتج عنها ما يسمى بالانفجار السكاني .

٣ ـ مرحلة التصنيع وفيها تبدا معدلات الولادات بالانخفاض .

٤ ـ مرحلة ما بعد التصنيع وفيها تصل معدلات الولادات الى مستوى منخفض يتناسب مع المعدلات المنخفضة للوفيات وبتمامها تتم مرحلة التحول الديموجرافي .

وفي نهاية الفصل حدد المؤلف ثلاثة انماط من استراتيجية الاستجابة لنمو السكان .

النمط الاول : ويشمل التوسع في الحدود وضم اراض جديدة ، وهي استراتيجية اتبعت في كل العصور (الحل السياسي أو الغزو) ولو أن احتمالاتها اصبحت ضعيفة في الوقت الحاضر .

النمط الثاني : اقتباس الابتكارات الحديثة في التكنولوجيا والنظم الاجتماعية لغرض استغلال الموارد الطبيعية استغلالا افضل (الحل الاقتصادى) .

النمط الثالث : ويتمثل في تحديد نمو السكان سواء عن طريق زيادة الوفيات أو تناقص الولادات (الحل الديموجرافي) . ولقد كان اللجوء الى زيادة الوفيات وسيلة منتشرة في بعض المجتمعات .

قدم المؤلف في الفصل الرابع هيكلا عاما (Typology) ليوضح العلاقة بين العوامل الديموجرافية والتركيب الاجتماعي، وفي شيء من الدقة وصف احتمالات تأثير هذه العوامل على البيئة الانسانية والنظم الاجتماعية . وقد قسم السكان حسب المتغيرات الآتية : العدد Size المساحة Area الكثافة السكانية (Population Density) ريف وحضر Rural / Urban والتركيب العمرى Age Structure وكذلك خصائص النمو . وكانت تقسيماته للمجتمع مقتصرة على : بدائية ـ بسيطة ـ ومتطورة بالنسبة لقدراتها التكنولوجية .

وبعد تعريف المجتمع الانساني على انه مجموعة من السكان المرتبطة بأنماط من العلاقات الاجتماعية بغرض المعيشة والتأقلم للبيئة المحيطة ، تطرق المؤلف الى النظريات العلمية البارزة في حقل البيئة الانسانية Human Ecology والتي تصنف المجتمعات حسب طبيعة تكنولوجيا انتاج المواد الغذائية التي تمتلكها . وكذلك نظام تقسيم العمل في هذه المجتمعات . وذكر المؤلف أن التحول التدريجي للمجتمعات من المستوى البدائي

البسيط الى التنظيم المتطور المعقد يعزى الى التوسع الايكولوجي المتأثر بالزيادة السكانية وما ينتج عنها من تكيف اقتصادى واجتماعي وتنظيمي لغرض تحمل المضاعفات التي قد تنشأ في مرحلة النمو والتطور .

وبتطبيق مفاهيم الهيكل العام الذى حدده المؤلف على المجتمع الامريكي (الفصل الخامس) حاول أن يربط بين العوامل الديموجرافية ، وخاصة عامل الهجرة ، وبين التغيرات التي حدثت في التكنولوجيا وأنماط الاستيطان والتكيف الايكولوجي المتميز بالاتجاه الظاهر نحو العمران وخاصة في الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية .

وبمقارنة امريكا ذات الطابع الريفي في القرن التاسع عشر بامريكا الحضارية في القرن العشرين ، اتصفت الاولى بانتشار المجتمعات الصغيرة Communities المنعزلة نوعا ما والمأهولة بالأسر ذات التركيب الممتد والوظائف المتعددة ومنها : الدينية والترفيهية وتربية النشء ، هذا بالاضافة الى كونها وحدات انتاجية واقتصادية كانت تمثل حلقة الوصل الرئيسية ما بين الفرد ونشاطاته واتصالاته في المجتمع .

يتصف المجتمع الامريكي حاليا بالتركيز الشديد في الكثافة السكانية في جزء بسيط من مساحته الشاسعة وفي التزايد الحضرى والعمراني الهائل المتميز بالمجتمعات اللامتجانسة التي يغلب عليها نمط الاسر الصغيرة التي تغير كثيرا من وظيفتها التربوية والاقتصادية والترفيهية وفقدانها لمعظم هذه النشاطات .

وابرز المؤلف اهمية عامل الهجرة (الخارجية منها او الداخلية) في : ١) تشكيل أنماط توزيع السكان وتطورها في المجتمع الامريكي والتي ادت في النهاية الى ظهور المدن الضخمة Megalopolis . ٢) احلال روابط اجتماعية متصفة بالحضارية محل الروابط التقليدية مثل رابطة الدين ، الجنسية ، المنشأ ، كذلك الروابط العائلية .

بدأ المؤلف الجزء الثاني من الكتاب بتعريف للتحليل الديموجرافي على انه وصف كمي للطاقة البشرية ولمكوناتها بالمجتمع . تلا ذلك استعراض اولي (الفصل السادس) لطرق دراسة النمو السكاني وكيفية حساب مؤشرات النمو ، وبين كذلك استعمالات ابرز هذه المؤشرات وهي معادلة الموازنة السكانية ($P_2 = P_1 + B - D + M$) حيث (P_2) حجم السكان في وقت (2) يساوى حجم السكان / P_1 / في وقت سالف زائدا حجم الولادة (B) ناقصا حجم الوفيات (D) زائدا او ناقصا حجم الهجرة (M) . كذلك اشار الى بعض مصادر البيانات عن السكان مثل التعدادات والمسوحات وسجلات الظواهر الحياتية .

ومن الواضح أن الهدف من هذا الفصل هو تزويد القارىء المبتدىء بقليل من الخلفية العلمية من مفاهيم ومصطلحات ومؤشرات .

في الفصول الاربعة التي تلت قام المؤلف بمناقشة علاقة التركيب الاجتماعي وكلا من الوفاة والبقاء (الفصل السابع) والزواج وصنع الزواج Match Making (الفصل الثامن) والولادات (الفصل التاسع) والهجرة (الفصل العاشر) .

تتبع المؤلف في الفصل السابع التطورات التي حدثت في معدلات الوفيات في أوروبا وغيرها من القارات المسكونة بالعنصر الاوروبي حيث شهدت تناقصا تدريجيا ومستمرا منذ القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الثانية . وكان ذلك التناقص نتيجة لتحسن الاحوال الاجتماعية والتعليمية والاستجابة للتطور الاقتصادى والاستقرار السياسي الذى

ادى الى اصــلاحات اجتماعيــة وارتفاعات فى مستوى المعيشة وكذلك فى تحسن طرق الوقاية العامة ، أما فى الدول الناميــة فان الانخفاض السريع فى معدلات الوفيات الذى حدث عقب الحرب العالمية الثانية فيرجع الى ادخال وسائل الصحة العــامة والصــحة الوقائية والطب الحديث اكثــر مما هــو ناتج عن اى تفسير اجتماعي او اقتصادى .

بالرغم من ان علماء الديموجرافية قد ابدوا اهتمامهم بدراسة الحالة الزوجية للســكان وتأثيرها على معدلات الولادات ، الا انهم ، وفى راى المؤلف ، أقل رغبة فى دراسة العلاقة ما بين الزواج من ناحية وتركيب الاسرة وتكوين القرابات والطبقات الاجتماعية من ناحية ثانية حيث ظلت هذه المواضيع موضوع اهتمام علماء الاجتماع والانتروبولوجي. وعند مقارنة الدول الاوروبية والغير اوروبية نجد ان ظاهرة الزواج المتاخر او الامتناع الكلي عنه منتشرة فى معظم الدول الاوروبية عنهــا فى الدول الاخــرى ، وتفسير هذه الظواهر انها ناتجة عن الشعور المتاصل بالفردية Individualism وباهمية احساس الفرد بالاستقرار الشخصي والمــالي كخلفية لازمة للزواج والانجاب .

ان ظاهرة رواج الزواج Marriage Boom التي وقعت بعد الحــرب العالميــة الثانية فى الولايات المتحدة واوروبا حدثت بين مجموعات من السكان كانت تتحاشى الزواج كليا أو تختار الزواج المتاخر ولذا ادت حركة رواج الزواج هــذه الى تخفيض ســن الزواج وكذلك الى تخفيض نســبة غير المتزوجين فى المجتمع مما نتج عنه تقارب معدلات الزواج فى المجتمعات الاوروبيــة وبين الريف والحضر وكذلك بــين الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وفى تحليــل وصــفي انتروبولوجي لظاهرة الزواج ، اختيار الزوج ، والزواج المبكر اشار المؤلف الى التغيرات التي حدثت فى الزواج كنظام اجتماعي وركز بشكل محدد على اختلاف طبيعة الزواج فى المجتمعات الاوروبية أو التي من اصل أوروبي عنها فى المجتمعات الاخرى . ومن خصائص المجتمعات الاوروبية :

١ ــ وجود فائض من النساء فى سن الزواج بالمقارنة بالمجتمعات الاخرى .

٢ ــ انتشار الفكرة القائلة بأن الزواج يجب أن تســبقه فترة طــويلة من التعارف بين الطرفين .

٣ ــ اللجوء الى تأجيل الزواج نتيجة لشعور الفرد باهمية الضــمانات الماليــة وتطلعه الى مستوى معيشة أفضل .

٤ ــ عملية اختيار الزوج او الزوجة تتصف بانها اقل تأثــرا بعوامل الســن أو العنصر أو الدين أو مستوى التعليم والقرابة واللغة عنها فى المجتمعات الاخرى .

هذا بالاضافة الى أن عــوامل اخــرى ذات طابع ديموجرافي يمكن أن تسبب حالات من الضغوط على الزواج Marriage Sqeze وذلك بجعلها العرض والطلب يفقدان التناسق فيما بينهما ، ومن امثال هذه العوامل الهجرة المتزايدة لاحد الجنسين وكذلك اختلاف سن الزواج ما بين الــزوج والزوجــة المنتشر من الدول النامية . هــذا بالاضــافة الى بعض التقاليد التي تحتم الزواج من نفس الطبقــة الاجتماعية .

ان مســؤولية اختيــار او تحديد ظــروف الخطبة وكذلك مكان الاقامة وطبيعة الاحوال المعيشية للمتزوجين الجدد ما زالت فى يد الآباء او الاقارب ، ولم تتــرك كامــلا للاشــخاص انفســهم حتى في الزواج العصرى مــا زال للاباء قــدرة التحكم فى مكــان وكيفية تقابل الطرفين .

من المتفق عليه بين علماء الديموجرافيا ان عامل الولادات هو العامل الرئيسي المؤثر فى النمو السكاني . ولدراسة هذا المتغير يتبع الباحث عادة فى تحليله احد المستويين التاليين أو كليهما : ـ الأول Macro وهو عبارة عن تحليل العوامل الهيكلية الرئيسية المؤثرة على الخصوبة والولادات . الثاني Micro أو التحليل الدقيق المتعلق بدراسة العوامل السلوكية والفردية المؤثرة على الظاهرة .

رغم وصول معدلات الولادة فى أوروبا والدول الغربية عموما الى مستوى منخفض نسبيا في بداية الحرب العالمية الثانية ، عادت للزيادة فى الفترة التي تلت الحرب مباشرة Baby Boom ، وكان هناك نمطان لهذه الظاهرة (الاول) استمر لفترة زمنية قصيرة لتعويض حالات الولادات المؤجلة خلال فترة الحرب . (الثانية) أمتد لفترة اطول خاصة فى الولايات المتحدة واستراليا ونيوزلندا وكان محصلة تعويض للولادات المؤجلة فى فترة الحرب بالاضافة الى زيادة حقيقية فى معدلات الولادة والاتجاه نحو الولادات على فترات زمنية متقاربة . بدأت الولادات فى دول أوروبا الشرقية وجنوب أوروبا ودول امريكا اللاتينية مثل الارجنتين بالتساقط تدريجيا فى أبان الحرب العالمية الاولى ولكنها اخذت بالانخفاض السريع حتى الحرب العالمية الثانية .

عند بداية الحرب العالمية الاولى كان معدل الولادات فى الدول الاقل تطورا (النامية) عاليا نسبيا (أعلى من ٣٥ بالالف) ، وتتصف معدلات الولادة بالانخفاض الملحوظ فى مجموعة منها بعد الحرب العالمية الثانية بينما استمرت معدلات الولادة العالية فى البعض الآخر .

كما ابرز حقيقة ظاهرة وهي ان الدول التي اتجهت فيها معدلات الولادة بالانخفاض السريع لم تتبع الا القليل مما يوصف بسياسة سكانية محدودة ، وفى الواقع لم تحظ برامج تحديد النسل فى أغلبها بالتشجيع المباشر . ولذا استخلص المؤلف بأن منشأ الاسرة الصغيرة والعودة الى معدلات الولادة المنخفضة فى الدول الغربية ليس له علاقة وطيدة بأى سياسة سكانية حكومية بوجه عام .

لقد اتجه علماء الديموجرافية حديثا الى التحليل الدقيق Micro لموضوع الخصوبة والولادات والاختلافات فى كل منها كالتباين فى عدد الولادات وفى توقيت المواليد . .هذا وبالاضافة الى ذلك يرجع الباحثون الى الكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية لتفسير حجم الولادات واختلافاتها ومن امثلة ذلك نظرية العلاقة ما بين المنزلة الاجتماعية والحراك الاجتماعي

Social Status and Social Mobility

ومستوى الخصوبة وكذلك نظرية الكلفة ـ المنفعة ـ Cost-Benifit القائلة بان العامل الاقتصادى يتحكم فى تقديرات الزوجين وبالتالي فى لجوءهما الى استعمال اساليب منع الحمل او عدم استعمالها .

ذكر المؤلف ان دراسة الهجرة تتطلب وجهة نظر أكثر من خلفية علمية واحدة ثم تطرق الى شرح تاريخى للهجرة العالمية وخاصة الهجرة من أوروبا والتى اتجه معظمها الى الولايات المتحدة ، ورغم ذلك فان نسبة المهاجرين الى المولودين فى الشعب الامريكى لم تزد فى دورتها عن ١٣٪ . وقليل جدا من دول العالم التى يبلغ فيها المهاجرون نسبة عالية من السكان تصل فى بعض الحالات الى النصف مثل الكويت وهونغ كونغ واسرائيل .

كان للهجرة الداخلية تأثير كبير على توزيع السكان فى الولايات المتحدة وعلى حركتهم الى الغرب التى صاحبت الاسكان بالولايات الغربية وخاصة ولاية كاليفورنيا . كما ادت الى التزايد السريع فى درجة العمران بالولايات المتحدة فى فترة زمنية قصيرة . وتظهر آثار التحرك

السكانى أيضـا فى ظاهرة نمـو الضاحيـة Suburbanization الذى تزايدت بشكل ملحوظ من بعد الحرب العالمية الثانية .

رغم ان معظم العوامل الخلفية التى ينبغى دراستها بالنسبة لظاهرة الهجرة ما زالت غير واضحة ومتغيرة التأثير فان معظم النظريات التى توضح اسباب الهجرة تركز حول ضرورة فهم تأثير العوامل الاقتصادية على الميل للهجرة وكذلـك علاقـة الصفـات الاجتماعيـة والديموجرافية كالعمـر والحالـة الزوجيـة والجنس وخلافه على الاستعداد للهجرة .

هذا ورغم الاعتراف بوجود عدة عوامل غير اقتصادية مؤثرة على ظاهرة الهجرة الا انه ما زال ينظر الى تحركات القوى البشرية على انها متعلقة بصورة رئيسة بالعوامل الاقتصادية خاصة فرص التوظيف ، اختلاف الاجور ، وهيكل سوق العمالة والبطالة بانواعها .

ان للهجرة تأثيرا واضحا ليس فقط على المجتمع بل ايضا على الفرد وهناك علاقـة ما بين هجرة الافراد وصفاتهم الديموجرافية وغـير الديموجرافية كالخصوبة والانحرافات والمرض العقلى وخلافه . بالاضافة لذلك فان الهجرة تأثيرا آخـرا مباشرا على العـلاقات والمنظمـات الاجتماعيـة وكذلك على الميـول السياسية والانفصـال العنصرى او الثقـافى ونظم التعليم وخلافه .

وباختصار ان معظم المجتمعا تالتى تشتد بها حركة الهجرة يجب ان تطور منظماتهـا ومؤسساتها لكى تضمن الاستقرار والاستمرارية فى الصلات والتفاعلات الاجتماعية على جميع المستويات .

فى الجزء الثالث من الكتاب يناقش المؤلف انماطا مختلفة من الاستجابات الاجتماعيـة والديموجرافية والاقتصادية والسياسية للتغير السكانى . ويبتدىء الفصـل الحـادى عشر بمناقشـة تأثير التغـير السكانى على النظم الاجتماعية مثل تقسيم الـ Division of Labor وتوسيـع المحيط الاجتماعى وكذلـك تبنى المبتكرات والاستفادة منها مستعينا فى شرحه بالنظريات العلمية المفسرة لهذه الظواهر ومشيرا الى أن النمو السكانى على نطاق واسع يجعل مستحيلا على التركيب الاجتماعى ان يستمر بصورته الاولى . هذا بالاضافة الى ان التزايد فى الكثافة السكانية يؤدى بدوره الى تكثيف النشاطات المتعلقة بانتاج المواد الاساسية كما حدث فى ظاهرة الانقلاب الزراعى Agriculture Revolution

لقد حدد المؤلف نمطين من استراتيجية الاستجابـة الديموجرافية للنمـو السكانى وتتلخص فى : 1) زيادة الاتجاه العمرانى بما فيه زيادة وتعدد المناطق المتصفـة بالحضر والعمران وانتشار المدن الكبيرة Megalopolis ب) اتجاه بعض المجتمعات الى تشجيـع الهجرة الخارجية . ونظـرا لان احتمالات الهجرة الخارجية اصبحت فى عالمنا الحاضر محدودة ، فان النمط الرئيسى للتجاوب ينحصر فى الاتجاه نحو العمران وفى استعمال الزراعة المكثفة . ولظاهرة العمران صفات اجتماعية مميـزة منهـا تبـاين صـفات السكان Heterogeneous وتنوع وتعدد الاتحادات والنظم الاجتماعية . هذا بالاضافة الى الميـل للتخصص Specialization الوظيفى والبنائى .

ونظرا لعدم وجود سياسة تحكم الهجرة الداخلية فى معظم الدول باختلاف بعض الدول الاشتراكية ، فان المؤلف يتساءل عما اذا كان من المستطاع التأثير فى الحراك السكانى عن طريق سياسة سكانية محددة . ويستخلص بان الموضوع ما زال يحتاج الى بحث اكثـر لتحديد ابعاده .

فى الفصل الثالث عشر انتقل المؤلف الى مناقشة اشكال الاستجابة الديموجرافية وابتدا بذكر مبدا قديم عن الضوابط الايجابية Positive Check لمالتوس والقائلة بحتمية ارتفاع الوفيات فى حالة زيادة السكان عن الموارد الغذائية . وتساءل المؤلف عما اذا كان من الممكن ان تسمح اخلاقيات المجتمعات الحديثة بمعدلات اعلى للوفيات كوسيلة لمجابهة اية زيادة فى السكان غير متوازنة مع الزيادة فى الموارد الغذائية وبالتالى هل تلجأ الى تخفيض معدلات الوفيات فى حالة نقص السكان ، استخلص من الدراسات التى قام بها كل من Clark و Kreziok عن اتجاهات معدلات الوفيات بين الاطفال فى المجتمعات الريفية والغير صناعية الى انه من الجائز ان تكون التغيرات التى تحدث فى مستوى الوفيات وفى معدلاتها حسب العمر استجابات من المجتمع لظاهرة نمو السكان بغرض التكييف والبقاء .

كما نبهنا المؤلف الى فكر اخر من افكار مالتوس عن اهمية التحكم فى سن الزواج كوسيلة من وسائل الحد من النمو السكانى والذى لا شك فيه ان انماط الزواج والطلاق واعادة الزواج والقيم المتحكمة فى هذه الظواهر لها ارتباط بمحاولات المجتمع التحكم فى معدلات نمو سكانه ، ولو ان نوعية هذه الارتباطات غير مدروسة . وقد اشار المؤلف على سبيل المثال الى الاتجاه الحديث نحو انخفاض سن الزواج وزيادة نسبة السكان المتزوجين وارتباط كل منها مع التوسع فى استعمالات وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاض وخاصة فى الدول الغربية لا سيما فى الولايات المتحدة .

وفى نبذة تاريخية عن تطور وسائل منع الحمل اشار المؤلف الى تواجد العديد من وسائل منع الحمل فى مختلف العصور وانه رغم ما نشر عن الموضوع فى القرن التاسع عشر تطورت الى حركة نسائية كان الفرض منها هو الاصلاح الاجتماعي لمكانة المراة وليس التحكم فى السكان وتحديد النسل . ان مجهودات مسز (Singer) منذ عام ١٩١٣ فى الولايات المتحدة وفى مدينة نيويورك بالذات تشكل بداية الحركة المنادية باستعمال وسائل منع الحمل وتحديد النسل . لقد تطورت الحركة بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية على يد مستر John D. Rockfeller 111 وانبثق عنها مجهودات هيئة الامم المتحدة ومنظماتها وبرامجها فى العالم النامي . كما تكونت فى الدول الاوروبية ولا سيما الولايات المتحدة بعض المنظمات حديثا التي تطالب بوقف نمو السكان وتؤكد بضرورة استخدام جميع الوسائل الممكنة بما فيها العمليات الجراحية Sterilization وذلك للاعتقاد بعدم كفاية وسائل منع الحمل التقليدية مثل استعمال حبوب منع الحمل .

ان العلاقة التى تربط العوامل الاقتصادية والعوامل الديموجرافية علاقة متشعبة ودقيقة . ومن أبسط مظاهرها احداث التغير السكانى ردود فعل فى كل من حجم ومعدل نمو كل من القوى العاملة والعمالة وسوق العمل ، وكذلك فى حجم كل من الادخار والاستثمار ومستوى الانتاجية . وعند مناقشة هذه الموضوعات (الفصل الرابع عشر) فرق الكاتب ما بين انماط الاستجابات الاقتصادية للزيادة السكانية فى كل من الدول النامية وفي الدول الاقل نموا .

ونستعرض فيما يلي آراء المؤلف حول نوعية الارتباط بين النمو السكانى والعوامل السالف ذكرها .

النمو في القوى العاملة : تعتبر كل من معدلات النمو السكانى وهيكل التركيب العمرى السكان ومعدلات الهجرة بانواعها من المتحكمات الاساسية فى نمو القوى العاملة وفى تحديد نسبتها فى السكان . من المعروف ان حجم

القوى العاملة يتأثر بمعدلات الاشتراك فى سوق العمل لكل من المجموعات العمرية والبيئية المختلفة ، وتلك تتأثر بدورها بعوامل ذات طبيعة ديموجرافية كحجم الاسرةوالهجرة من الريف الى الحضر وزيادة حجم السكان الذين يبلغون سن التقاعد وخلافه .

من الظواهر التى تتضارب حولها الآراء هى العلاقة المحتمل وجودها بين النمو السكانى من جهة وبين مستوى البطالة من جهة اخرى وارتكز المؤلف فى شرح هذه العلاقة على آراء كل من Spengler و Keynes فمن راى الاول مثلا ان النمو السكانى ولو بمعدل قليل يعتبر امرا ضروريا لتلافى البطالة الشديدة .

وفي حالة تغيب معدل نمو سكانى مناسب فان على الحكومة ان تزيد من نفقاتها لتعويض النقص فى الاستهلاك المحتمل نشوءه . هذا طبعا يناقض كثيرا من آراء Spengler التي ترى في تناقض معدل نمو السكان خلفية مشجعة لمستويات أعلى العمالة .

ورغم أن المؤلف لم يلتزم برأى معين فى هذه المسألة الا انه أوضح أن العلاقة ما بين النمو السكاني وكل من البطالة والعمالة تختلف بالدول النامية عنها فى الدول الصناعية . فمعظم الدول النامية تتصف بارتفاع معدلات النمو السكانى وبالتالى ترتفع فيها معدلات الزيادة السنوية فى القوى العاملة ، وبالتالى معدلات كل من البطالة والبطالة المقنعة بالذات .

هذا بالاضافة الى ان الهجرة السكانية فى الدول الصناعية عادة ما تحدث تكاملا بين الموارد البشرية والموارد الاقتصادية فى حين انها فى الدول الاقل نموا تعبر عن نقص دائم في الطلب على العمل الناتج من انخفاض الاجور فى الزراعة كذلك ارتفاع الزيادة السكانية في المناطق الزراعية .

أشار المؤلف الى أهمية دراسة تأثير التركيب العمرى للسكان والتغيرات التىتحدث فيه على معدلات الادخار ، ورغم انه فيما يبدو ينتمي الى المدرسة القائلة بأن الزيادة فىعدد الاطفال فى حد ذاتها ليس لها تأثير كبير على القدرة على التوفير حيث أن :

١ ـ معظم الادخارات تتوقف على حجم الضرائب فى القطاع العام اكثر من توقفها على الادخارات النوعية فى الاسرة .

٢ ـ عدم وجود الادلة الكافية على أن ادخارات الاسرة تشكل المصدر الرئيسى للاستثمارات .

اورد المؤلف عدة نماذج توضح اختلاف الآراء حول تأثير النمو في السكان على مستوى الانتاجية Productivity منها : أولا) قوانين مالتوس عن تناقص العوائد فى قطاع الزراعة Laws of Diminishing Returns التى ينتج عن ازدياد كثافة العمل وحدود الرقعة الزراعية . ثانيا) افكار آدم سميث عن الاقتصاد على نطاق واسع Economics of scale والتى تعكس نوعية العلاقة بين الحجم والانتاجية ، ومن مضمونها انه كلما زاد حجم الوحدة زادت كفاءتها الانتاجية . كذلك قام المؤلف بشرح آراء كينز المشهورة عن الركود الاقتصادى Staguation وينتج من نقص فيالنمو السكانى وللاسباب الاتية : ـ

١ ـ فى المجتمعات الغنية براس المال التي تتصف بمستوى دخل مرتفع ونمو بطيء في السكان عادة ما يكون صعبا فيها زيادة فرص الاستثمارات .

٢ ـ فى المجتمعات الغنية براس المال ، نسبة صغيرة من الدخل المرتفع يستهلك فقط تاركا نسبة أكبر للاستثمارات .

٣ ــ فى حالة ثبات أو نقص معدل النمــو السكانى تزداد معدلات البطالة لعــدم كفايــة الطاب على الخدمات والبضائع .

٤ ــ تغيب التأثير الايجابي الذى يحدثه النمو السكاني فى تشجيع ارتباطات التعاقــد وتشكيلها لنمو كل من الانتاج وانتاجية الفرد.

وقد اشــار المؤلف الى انه لا يوجــد نتائج علمية ثابتة تحدد العلاقات الرئيســية ما بين كمية العمل والقدرة الانتاجية ، وكيف تتأثر كل منها بازدياد السكان وان عدم نجاح الاقتصاديين أو بالاحرى تجاهلهم لمعالجة هذه العلاقة يرجع عادة الى أنها تحــدث فى اطــار اجتماعي وسياسى وعليه فان نوع الاستجابة تختلف باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية وان هذه الظروف تتوقف على ثلاثة متحكمات:

١ ــ قرارات الجهة المنظمة للاقتصاد.

٢ ــ الضوابط والمتغــيرات التى يمكن تطبيقها على الوحدات الاقتصادية .

٣ ــ تركيب هيكل الجزاءات والتقديرات وكذلك العقوبات المنظمة للنشاطات الاقتصادية.

من المسلم به ان اى تغير ملحــوظ فى السكان غالبا ما ينتج عنه اعادة تركيب كثــير من المؤسســات والمنظمات والعلاقات الاجتماعية.

من أمثــال الظواهر الاجتماعية التــى تنتج عن التغير السكانى وخاصة عن الهجرة التغيرات التى تطرأ على التركيب الوظيفــى والبيئى والعنصرى في بعض الحالات مما حدا ببعض علماء الاجتماع القول بان مقدارا مــن الصراع يصاحب دائما التغير في العلاقة بــين المجموعات السكانية وبين مؤسســاتها الاجتماعية وان الاستجابة الاجتماعية لنمو السكان تأخذ عادة عدة اشكال منها :

أ ــ خلق انماط من السلوك الذاتــي والفردى ومن التطلعات الشخصية ذات الفائدة المحدودة فى فهم أو تكييف التطلعات الجماعية.

٢ ــ زيادة الاختلافات الموجودة في المهارات وفى احتياجات الافراد .

٣ ــ امكانية التغاضي عن أو السماح لبعض السلوك المتحرر من التقاليد بالتواجد مع السلوك العرفى .

٤ ــ تشكيل قوى اجتماعيــة بهــدف تنظيم أو استغلال أو تجنب الخلافات الفردية وخاصة الناشئة عن قصور فى بعض الامكانيات والمجهودات مما يضاعف امكانية المجتمع نحو الانتاج والاستهلاك بل والبقاء ، وفى مقدمتها قدرته على التكيف .

ومن راى المؤلف انه اذا كان للنمو السكانى القــدرة على توافر احتمــالات الاختــلافات والتنازع الاجتماعي فانه من الواضح أن ازدياد الكثافة السكانية تخلق حاجة للتميز الطبقي وكذلك التباين فى النظم الاجتماعية وذلك يرجع لان ارتفاع الكثافة السكانية يصاحبه عادة :

أ ــ ارتفاع معدلات الاتصالات الانسانية الناتجة من القرابة الجسمانية .

ب ــ التنافس نحــو الاولوية فى جــذب الاهتمام وفي المشاركة .

جـ ــ التنــافس لحــرية الوصول الى المؤسسات والاماكن وفى المجهودات الاجتماعية.

وباختصار فمن الجائز أن يقــلل النمو السكاني من قيمة بعض الارتباطات الاجتماعية ويجعلها قليلة الفائدة في نفس الوقت يمكن ان ينمى مزايا ارتباطات اخرى . ولذا فانه مــن الطبيعي أن تأتى الاستجابة الاجتماعية لمثــل هذه التغيرات السكانية فى صــورة ابتكارات اجتماعية بما فيها من تغير فى القيم وقــوانين

التبادل وكذلك فى تعريف الموارد بل والحوافز الاجتماعية .

اختتم المؤلف هذا الفصل (الخامس عشر) بمناقشة سطحية لتأثير الهجرة على الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستعمل التقسيمات الآتية للمقارنة: المهاجر باستمرار ، المهاجر أحيانا ، الغير مهاجر أو الثابت ، وبين كيف أن عملية الهجرة ينتج عنها اعادة صياغة الصفات الاجتماعية للمنظمات والمؤسسات وحتى للمجتمعات الصغيرة نتيجة الحركة السكانية .

ابتدأ المؤلف (الفصل السادس عشر) بقوله ان موضوع الاستجابة السياسية للزيادة السكانية ما زال حديثا ولم يحظ بالدراسة المناسبة الا مؤخرا . ثم وجه اهتمامه الى ثلاثة موضوعات ذات علاقة : أولا ـ الضغوط السياسية والادارية التي يتعرض لها المجتمع نتيجة للزيادة السكانية. وثانيا ـ التكامل السياسى المرتبط بظاهرة تغير الخواص Variation الصفة التى تلازم عادة التغيرات السكانية . وثالثا الحراك السكانى على الانضمام والاشتراك فى الاحزاب والمنظمات السياسية والنخبة القيادية .

استخلص المؤلف : أولا ـ أن المجتمعات ذات الكثافة السكانية العالية والنمو السكاني المتزايد تتطلب نسبة مرتفعة من الخدمات الحكومية بشتى أنواعها مثل الخدمات الصحية والترفيهية والتعليمية وخلافه . وثانيا ـ التركيبات العمرية فى حد ذاتها تؤثر فى نوعية وتخصص الخدمات الحكومية اللازمة ، فمثلا ازدياد الاعمار فى سن الشباب يتطلب التوسع فى بناء المدارس وفي فرص العمل فى حين أن زيادة نسبة كبار السن فى السكان تتطلب التوسع فى برامج العلاج الطبي والضمان الاجتماعي وخلافه . ثالثا ـ يصاحب الزيادة السكانية عادة ازدياد حجم الهيئات التشريعية فى المجتمع وازدياد تعقيداتها وتحول العملية التشريعية الى تنظيم شبه بيروقراطى نظرا لازدياد ظاهرة تعدد الخواص التى تصاحب الزيادة السكانية . واخيرا يتأثر التوازن السياسى بين المجموعات المهنية والدينية والثقافية والعنصرية ليس فقط بالزيادة السكانية ولكن بحركة وهجرة السكان الداخلية وقدرة الاحزاب والمنظمات السياسية على توضيح مواقف معينة وقيم ايدولوجية محددة لكل الجماعات والمجموعات المختلفة من السكان.

واخيرا يتساءل الكاتب فى الفصل الاخير عن امكانية تواجد مدينة الاحلام Utopia ذات الصفات الاجتماعية والديموجرافية المتكاملة وكذلك تساءل عن دور السياسة السكانية فى تحقيق ذلك الحلم . فصل بين مفهوم كل من السياسة السكانية والنظرية السكانية حيث عرف الاولى على انها تتكون من تبنٍ واضح لحاكم أو جهة ذات سلطة لبعض الاهداف السكانية التى تخدم المنفعة العامة ، وكذلك التحكم في الموارد المتاحة بشأن تحقيق هذه الاهداف اما بواسطة تدخل مباشر أو غير مباشر فى عوامل الوفيات والولادات والهجرة .

وقد رأى المؤلف ان السياسة السكانية يجب فصلها عن السياسات الاخرى المحتملة التأثير على حجم ونمو وانتشار السكان ولكن من خلال تشكيلها لعوامل اخرى غير العوامل الديموجرافية . هذا بالاضافة الى انه لا يمكن بصفة عامة تحديد تركيب محدد للسياسة السكانية يكون له صفة الدوام وانما هي عادة اقل تحديدا وغالبا ما تشمل فترة زمنية معينة .

قام المؤلف باستعراض التجربة الامريكية واستنباط الخلفيات التي صاحبتها وخاصة ظاهرة الهجرة من أوروبا والعوامل التي ادت الى اقفال سياسة الباب المفتوح وظهور نظام الحصة Quata System المنظمة للهجرة في أوائل العشرينات والتى استبدلت

بقانون الهجرة الصادر فى ١٩٦٥ والسارى المفعول حتى الآن .

وتطرق الى شرح برنامج المساعدة الامريكية للدول النامية فى تنظيم الاسرة وكيف انه بعد تردد طويل توسعت الحكومة الامريكية فى هذا المضمون عن طريق برامج المساعدات ــ الخارجية وبرامج المساعدة لفرض التنمية منذ منتصف الستينات . اشار ايضا الى نتائج الدراسة التى قامت بها الهيئة المشكلة بأمر من الرئيس السابق نيكسون فى عام ١٩٧٥ لدراسة النمو السكاني ومستقبل أمريكا واستعرض باختصار أهم النتائج التى توصلت اليها اللجنة بعد دراسات مستفيضة لاكثر من عامين والتى اثرت فى المفهوم العام للمشاكل السكانية .

وبمقارنة الولايات المتحدة والدول الاوروبية وجد ان اهتمام الدول الاوروبية يختلف من دولة الى اخرى حسب طبيعة المشكلة السكانية فى كل منها ومع ذلك فان الخلاف الرئيسى بين التجربة الامريكية والتجربة الاوروبية هو حداثة فكرة السياسة السكانية في الولايات المتحدة وتواجدها تاريخيا فى كثير من الدول الاوروبية التى توصف بالمقارنة بانها :

١ ــ تقبل مبدأ مسئولية الدولة في تجميع البيانات وتنظيمها بل وفى التدخل لحل كثير من المشكلات الاجتماعية بما فيها مشاكل الهجرة وتوزيع السكان .

٢ ــ شهدت ظواهر سياسية كثيرة مترتبة على تغيرات ديموجرافية مثل الحروب، تصارع القوميات الاوروبية ، انهيار النظام الاقطاعى وخلافه .

٣ ــ تبنت حكوماتها فى بعض الاوقات مبادىء اقتصادية وفلسفية ذات محتوى ضمني بفضل الزيادة فى حجم السكان Mercantilism .

ورغم وجود هذه الخلفية التاريخية للمسألة السكانية فى أوروبا فان الخطوات التى ادت الى انخفاض الولادات فى تلك القارة لم تكن فى الواقع ضمن سياسة سكانية وانما تطورت تماما دون تدخل حكومات الدول المعنية وجاءت استجابة لاصلاحات اجتماعية . وحتى القوانين التي لها تأثير مباشر على الولادات كالسماح بالاجهاض في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية التى اعقبت الحركة الاشتراكية نشأت من مفهوم القوانين المتعلقة بحماية حقوق المرأة وبرامج العدل الاجتماعى .

تبنت كثير من الدول النامية حديثا مبادىء عامة يمكن وصفها بأنها تشكل سياسة سكانية والغرض الواضح فى خطط معظم هذه البلدان هو تخفيض معدلات النمو السكاني . في عام ١٩٧٤ ــ تبنت ٣٣ من الدول النامية سياسة سكانية الفرض منها تخفيض معدلات النمو فى حين تبنت ٣٠ دولة أخرى برامج تنظيم الاسرة لفرض تحسين المستوى الصحي والاجتماعى وخلافه .

وفى هذا المضمار (برامج تنظيم الاسرة) كان لكثير من المنظمات العالمية والمؤسسات الخاصة ولبعض الحكومات الغربية كالولايات المتحدة والسويد نشاط ملحوظ مما كان له أثر واضح فى انخفاض معدلات الولادة وخاصة فى بعض دول الشرق الاقصى كتايلند وتايوان وكوريا والفلبين .

ومع ذلك فان بعض الانتقادات قد وجهت لهذه البرامج على أنها تحاول ان تحل محل برامج الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والتى هي فى نظر الناقدين أهم بكثير فى المدى البعيد لسكان هذه الاقطار .

وفي اعتقاد المؤلف انه كلما ازدادت معرفتنا عن الخصوبة والولادة وعلاقتها بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فان درجة كبيرة من الاستقرار فى معدلات النمو السكانى ستحدث تدريجيا عن طريق التحكم في الولادات

ســواء تم ذلك عن طريق سياسة سـكانية محدودة أم لا .

ويختم الموضوع بقوله ان اتباع سياسـة سكانية واضحة من شأنه ان يساعد المجتمعات على سرعة وســهولة وصــولها الى مرحلـة الاستقرار السكاني .

قبل توجيه اهتمامنا لمناقشة بعض آراء المؤلف اود ان اورد قليلا من السلبيات واغلبها يقع فى نطاق التنظيم والعرض اكثر منها فى مجال المعلومات .

من الواضــح ان الكتــاب غني بالافكار والنظريات العلمية المتعلقة بموضوع السكان. غير ان المؤلف قدم الكثير منها بطريقة الحشر ولم يعطها حقها من التفصيل . هذا بالاضافة الى احساس القارىء بأن المناقشة لم تتبـع مستوى واحدا فى كل الفصول ، فمثلا يظهر المؤلف كثيرا من العمق ودقة التحليل فىالجزء الثالث من الكتاب والذى فى اعتقادى هـو اقوى جزء فيه فى حين تتصف بعض فصول الجزء الثانى بكثير من الملاحظات السطحية وبدائية التحليل .

ان اهتمام الكاتب موجه بصورة خاصة للسوق الاكاديمية الامريكية لتوزيع الكتاب . لذا فان كثيرا من تحليلاته انصبت علىالولايات المتحــدة بالذات رغم انه حــاول بين الحين والآخر مقارنة الولاياتالمتحدة الامريكية بالدول الناميــة .

كالعادة في كل الكتب المدرسية ، معظم المعلومات الاحصائية الواردة فى الكتاب تتوقف عند فترة زمنية معينة ، حتى عام ١٩٧٥ . معظمها ايضا متداول في كتب اخرى عن علم السكان اكثر استعمالا وانتشارا فى جامعات الولايــات المتحــدة واخص بالــذكر كتــاب William Peterson بعنوان السكان Population و Ralph Thomlinson عـن ديناميكية السكان Population Dynamics

ولذا فان الكتاب لم يأت بجـديد من ناحيـة التحليل الديموجرافى البحت Formal Demography

اما من جهة ربط العوامل الديموجرافية بالتركيب الاجتماعيوانماطه فلا شك ان المؤلف قد قـدم محاولة لا بأس بها فى ابراز تشعب ودقة هذه العلاقة . لذا فان معالجتهللموضوع من وجهة نظر سوسيولوجية بحتة ولو انهـا لم تفسح له المجال للاهتمام بوجهة نظرالفروع العلمية الاخرى عن طبيعة السكان ، الا انهـا اتاحت له التركيز على التركيب الاجتمــاعي بمضمونه الاوسع وبصورة منظمة ، وكـذلك الرجوع الى كثير من النظــريات والنمــاذج العلمية من كل من فرعى الاجتماع والبيئــة الانسانية ، مما يجعل الكتاب اكثر تشــويقا لمتخصصى فروع الاجتماع والانتروبولوجـي عنها لمتخصصى علم الديموجرافيا البحتة .

قدم المؤلف كتابه على انه كتاب مدرسي الغرض منه اعطاء تحليل دقيق لنقط الالتقاء والتداخل ما بين العوامل السكانية والتركيب الاجتماعى . واتبع فى تحليله ما اسماه بالمنهج الاستكشافى وليس المنهج الجامع ، اراد عن طريقه أن يثير كثيرا من الجدل بطرح الجديد من الاسئلة اكثر من محاولته حسم الاسـئلة المطروحة والوصول الى نتائج علمية ثابتة .

وفى هذا المضمون يمكن تحديد مجموعة من المشاكل والاسئلة العامة الرئيسية والتى يحس القارىء حتى بعد قراءة الكتاب بأنهـا مازالت بحاجة الى توضيح . وفى اعتقــادى، وذلك هو الرأى الســائد بين معظم دارسي علم السكان ، ان الاجابة عليها ستأتى فقط عـن طريق الدراسات العلمية المستفيضة والبحوث الدقيقة ومنها الاتى : ـ

١ ـ مشكلة تحديد الارتباطات المتشعبة بين عوامل النظام الايكولوجي وهى السكان ، البيئة ، التنظيم الاجتماعى والتكنولوجيا . رغم ان المؤلف اهتم اساسا بعاملى الســكان

والتنظيم الاجتماعى الا أنه من المعروف ان لكل من عاملى البيئة ,والتكنولوجيا ضغوطها على طبيعة العلاقات المذكورة ، وفى الواقع مازال هناك كثير من الاختلاف بين مدارس علمى الاجتماع والبيئة حول أولوية أى من العوامل الداخلية في هذا النظام حيث يتجه كثير من التحليل الحديث الى ابراز أهمية عامل التكنولوجيا كعامل مؤثر .

٢ ـ رغم أن المؤلف ناقش الاستجابة الاقتصادية لنمو السكان فى فصل منفرد فان تحديد طبيعة العلاقة بين النمو السكاني والتقدم الاقتصادى لم تتوفر . ومازال هناك اختلاف بين مؤيدى الحل الديموجرافى لمسالة التخلف ومحبذى طريقة التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع ظهور رأى ثالث مناد باعتبارهما سياستين متكاملتين فى مرحلة النمو .

٣ ـ جدوى استعمال النماذج العلمية المبنية على تجارب الغرب والدول الصناعية فى تفسير ظاهرة التحول الديموجرافى فى الدول النامية حيث تمر هذه الدول بظروف تاريخية مختلفة وحيث التركيب الاجتماعي والاقتصادى والسياسى والديموجرافي فى هذه الدول أى الدول النامية يعطى لها أنماطا معينة .

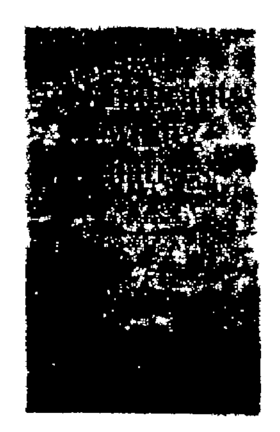
٤ ـ الجدل القائم حاليا بين مؤيدى تحديد النسل والراغبين في ايقاف النسل تماما وامكانية اتباع كل منهما بل وشرعية كل منهما وخاصة على ضوء ومحاولة استعمال الطرق الاجبارية كما حدث فى الهند اخيرا .

يتبع المؤلف الرأى القائل بأن المعدلات العالية للزيادة السكانية ، وخاصة اذا اقترنت بظاهرة الهجرة الداخلية او الخارجية تولد جوا من التنافس والصراع الداخلى فى النظم الاجتماعية والسياسية ، وأن الحركة السكانية المرتفعة تؤثر فى قيم المجتمع .

بالمقارنة نجد ان اهتمام الباحثين حاليا هو دراسة احتمالات توقف النمو السكانى والوصول الى حالة الثبات السكانى Stationary Population فى بعض الدول توقع الآثار المترتبة على تضخم قيمة الهرم السكاني ,وتحوله باتجاه كبار السن والشيخوخة من جمود للتنظيم والعلاقات الاجتماعية واحتمالات انطباعها بالتحفظ ،كذا تقلص الحراك السكانى والوظيفى بل وبعض انشطة النظام الاقتصادى نفسه وبصفة خاصة الانشطة الموجهة لمجابهة نمو السكان والاستجابة لاحتياجات ذوى الاعمار الصغيرة .

باختصار قدم الكتاب كثيرا من الوصف والتحليل لتأثير زيادة السكان على العلاقات الاجتماعية والسياسية والبيئية وخلافه ، ولكنه لم يتعرض لمناقشة تأثير الوصول الى معدلات نمو معادلة للصفر على طبيعة وتركيب مجتمع المستقبل ، هذا بالرغم من وجود كثير من الاهتمام العلمي بالموضوع . وليس من الواضح ان كان هذا الاغفال هو نوعا من التخلف العلمي أم انه اختصار لما هو ممكن ادماجه عمليا فى كتاب ,واحد اغلب الظن انه الاخير .ومع ذلك كان يجدر بالمؤلف الاشارة البسيطة الى الاهتمامات الحالية خاصة فى نطاق مناقشة تجربة الولايات المتحدة والدول الغربية الاخرى .

رغم الانتقادات التى أشرنا اليها فانه مما لاشك فيه ان كتاب البروفيسور ماترس يعتبر خطوة هامة فى طريق توسيع نطاق الدراسات السكانية من مضمونها التقليدى المهتم بالنواحي الكمية والاحصائية فقط ، الى مضمون تحليلي اشمل وخاصة في هذا التخصص الاكاديمي الذى يزداد فيه التراث العلمي بسرعة ملحوظة . رغم تخلفه الواضح في جامعاتنا العربية ليس فقط من الناحية الاكاديمية ولكن ايضا فى البحث والتطبيق فى منطقة من العالم يتوجب ان تجرى بها دراسات ديموجرافية مفصلة . واخيرا ما أحوج المكتبة العربية الى اثراء احتوياتها القليلة فى هذا التخصص العلمى عن طريق البحث ,والنشر والترجمة .



مهاجرون سود ومواطنون بيض

عرض وتحليل الاستاذ عبدالله عبدالغني غانم

يحظى موضوع الهجرة فى الوقت الحاضر ، وفى ظل مشكلات الانفجار السكانى ، باهتمام متزايد من كثير من علماء الجغرافيا والسكان والاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد وغيرهم .

وقد حظى موضوع الهجرة في بريطانيا بقدر اكبر من الاهتمام خاصة مع وجود مشكلة الملونين من مهاجرى دول الكومنولث الذين يعيشون كأقليات وسط الاغلبية البيضاء من المواطنين الاصليين باعتبارهم ينتمون الى سلالات مختلفة عن ابناء البلاد . ومن ثم ارتبطت دراسة موضوع الهجرة في بريطانيا بموضوع آخر هو العلاقات بين السلالات . ووجهت أبحاث عديدة نحو دراسة علاقة هؤلاء المهاجرين بالمواطنين البيض وذلك فى مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وكتاب اليوم هو أحد هذه الكتب التى تعالج **العلاقات السلالية في مدينة نوتنجهام احدى** المدن البريطانية . ومن الجدير بالذكر أن الموضوع سبق ان تناوله وفى نفس المدينة باحثون آخرون ومنهم اليزابيث بيرلى ، **وايراكينز نلسن وغيرهم .**

---

* Daniel Lawrance: Blaek Migrants : White Nations,Cambridge University Press, 1974.

ومؤلف كتاب اليوم هــو دانييــل لورانس محاضر علم الاجتمــاع بجامعــة نوتنجهــام . ويتألف الكتاب من ثمانية فصــول بما فيهــا المقدمة والخاتمة .

وفي المقدمة التى اعتبرهــا المؤلــف فصــلا مستقلا نجده يذكر ان الباحثين الذين درسوا العلاقات بين السلالات فى نوتنجهام قد اختلفوا **بما بينهــم ، فقد قــال البعض بأن مدينــة** نوتنجهام لا تعكس اى صراع سلالــى ، وان العلاقات بين السلالات فى هذه المدينة تتســم بالوفاق والتسامح . بينما قال البعــض الآخر بوجود ازمة فى العلاقات السلالية بين الملونين من ناحية والمواطنين البيض من ناحية اخرى . ومؤلف كتاب اليوم يوافق الرأى الثانى، ويرى **ان شهرة مدينة نوتنجهام بالوفاق والتجانس** بين السلالات قول لا يصمــد كثيرا النقــد وان **القائلين به أساءوا فهم العلاقات بين السلالات** فى هذه المدينة، وانهم اعتمدوا فى قولهم بالوفاق في العلاقات على عدم وجود معارضة منظمة ضد الملونين فى المدينة . ويعلق على هذا بأن **فهم العلاقات السلالية** يقتضى ان نتعمق بعيدا **عن المظهر الخارجي . وان ما نعتقده وما كنا** نأمله من الابحاث التى تناولت هذا الموضوع في **مدينة نوتنجهام هوان تقوم هذه الدراســات** باعطاء تقييم للدور الذى تلعبه العوامل الثقافية **والبنائية فى علاقات السلالات وفى رؤية كل من المواطنين البيض للمهاجرين والعكس .**

كذلك هنــاك حاجة لربط هــذه الرؤيــة بالظروف التى اتت بالمهاجرين الى بريطانيا . لماذا تركوا بلادهم ؟ لماذا اتوا الى بريطانيا ؟ هــل في نيتهم العودة الى مواطنهم الاصلية ؟ ولا بد من معرفة المكانة التى يحتلها المهجرون فى كل من مجال المسكن والتوظف ، وان نقرر **ما هي الاسواق الممكن لهم ان ينافسوا فيها فى** هذين المجالين سواء حاليا او مستقبلا . هذه النقاط لابد ان تربط بسياسة التطور العام فى بريطانيا والسؤال الان هو : ماهي المشكلات السياسية اليوم وكيف تؤثر او تصطدم بالعلاقات السلالية، **فاذا اجبنا على هذه الاسئلة امكن ان** نجيب على التساؤل اذا ماكانت مدينة نوتنجهام تحظى بعلاقات سلالية متوافقة ام لا .

ويذكر المؤلف ان فصول الكتاب توضح ان غياب الصراع الظاهر لا يجب أن يختلط بحالة التوافق السلالى المزعومة. وان هذا هو مانجده في نوتنجهام حاليا. حيث أن عدم غياب الصراع الظاهر والتوافق السلالى هو الذى أوجــد حالة من التفاؤل فى غير موضعها .

ويضيف المؤلف : ان غياب الصراع الظاهر في العلاقات الســلالية لا يرجع الــى سيادة التسامح فى هذه العلاقات بل انه يرجع الى الطريقة التى يحدد على اساسها المهاجرون وضعهم فى البلاد كما ان عدم ظهور الصراع يرجع أيضا الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية (فى مجالات الاســتخدام أو العمــل والاسكان) ، أدت الى تقليل التنافس المباشر بين الآهالى والمهاجرين ومن ثم قللت من فرص الصراع المكشوف ومع ذلك فان هذه الظروف فى سبيلها للتغير وذلــك يزيد مــن احتمالات **المنافسة والصراع. ويقول انه بعد دراسة ذلك** كله يمكن الحكم على العلاقات السلالية بالمدينة. ثم ينهى الفصل باستعراض تيار الهجرة نفســه الى المدينة مؤكدا انه قد بدأ فى الخمسينيات بالنسبة لجــزر الهنــد الغربية وأن الهنــود والباكستانيين قــد بدأوا الهجــرة اليهــا فى **السيتنات ويوضح تعداد ١٩٦٦ (بالعينــة)** أنه حوالي ٨٥٠٠ نسمة ممن يعيشون بالمدينة هاجروا اليها من دول الكومنولث ، وذلك بين سكانها البالغ عددهم ٣٠٥ آلاف نسمة أغلبهم من الجمايكيين ثم الهنود ثم الباكستانيين .

ويعالج المؤلف في **الفصــل الثانــي** بعــض الظروف التى اثرت فى الطريقة التى ينظر بهــا المهاجر الى وضعه بالمدينة. فيعالج أسباب قيام المهاجر بالهجرة الى بريطانيا . ثم يعالج نقطة لها تأثيرها في دراسة سلوك المهاجر بالمدينة

وهى نظرة المهاجر الى هجرته وهل هلى هجرة دائمة ام مؤقتة وقد ثبت ان معظم من تناولهم البحث لاينوون الاستقرر الدائم فى بريطانيا . والنقطة الثالثة التى يعالجها فى هذا الفصل هي مدى اتفاق ما وجدوه فى بريطانيا بالمقارنة مع ماتوقعوه قبل هجرتهم اليها .

وباستعراض اسباب الهجرة التى ساقها المؤلف بالنسبة للجماعات الثلاث (جمايكيون ، هنود ، وباكستانيون) نجد ان اجراء عملية حسابية بسيطة على الجداول الموضحة لهذه النقطة توضح أن أسباب الهجرة تأخذ نفس الترتيب للجماعات الثلاثة . وهذه الاسباب هي : السبب الاقتصادى يليه الرغبةفى السفر واكتساب الخبـرة ثم الرغبـة فى التعلم او مواصلة التعليم . ثم مجموعة رابعة وضعها المؤلف تحت عنوان (أسباب أخرى) .

ونجد أن أسباب اختيار بريطانيا كمنطقة مهجر هى الاسباب التالية (لانها المكان الوحيد المتاح ــ مجرد الرغبة فى المجيء الى بريطانيا ــ وجود الأهل والأصدقاء بها . ــ أخرى) . واخيرا يوضح الباحث أن الهجرة عموما الى نوتنجهام هى هجرة اختيارية .

كما اوضـحت المناقشة التفصيلية حـول النظرة للهجرة وهل هى دائمة أم مؤقتة .

قال المولف انهناك عددا كبيرا منالدراسات كلها توضح ان عددا كبيرا من المهاجرين الملونين الى بريطانيا لا ينوون الاستمرار في بريطانيا وهذه الحقيقة اوضحها كل من فيلبـوت ، وشيلاباترسون وديفيدسون، وغيرهم. وانهذه الحقيقة قد أوضح بروكس بشأنها امرا هاما عندما قال : أن كثيرا من الذين يوضحونأنهم سيعودون لمواطنهم الاصلية لا يفعـلون ذلك بالفعل ، ويعلق المؤلف بانه من الأفضل الا نركز على هذه النقطة أى قصد الاستقرار أو العودة بالفعل وانما يجب أن نركز على أثر هذا القرار على السلوك الحالى لانه حتى لو لم يكنالمهاجر يقوم بالادخار فعلا من أجل العودة فان هـذا لا يعنى أن سلوكه واتجاهاته فى مجالات اخرى غير متأثرة بعمق بقصده فى العودة . وهنـا يوضح ان كلاًمن الهنود والباكستانيين يرون أن بريطانيا مجتمع غريب عنهم وأنهم ليسـوا راغبين فى التمثل له . بعكس الجامايكيين . وليس معنى هذا أن الجامايكيين يشـعرون بانهم بريطانيين بل أن ٩٠ ٪ منهم أفادوابأنهم يشعرون بعكس ذلك رغم تمثلهم للمجتـمع الانجليزى . وقد ثبت أن النسبة الغالبة من المهاجرين يرسلون معونات اقتصادية لذويهم بمواطنهم الاصلية . كما ثبت ان اصـطحاب الزوجة الى منطقة المهجر أو الجـذب ليس دليلا على نية الاستقرار الدائم بها اذ ثبت أن ٩٣ ٪ من مصطحبى زوجاتهم فى بريطانيا من المهاجرين من الباكستانيين و ٨٩ ٪ منالهنود ينوون العودة لبلادهم. وعموما فان اعلانالرغبة فى العودة كان اكثر وضوحا بين غير مصطحبى زوجاتهم وبجانب ذلك فان نية العودة لدى المهاجرين لعبت دورا هاما في مقابلة المهاجرين للظروف غير المرضية بنوع من التسـامح . فحيث انهم ينظرون للهجرة كشيء مؤقتفانهم يدخلون هذا فىالاعتبار فىالحكم علىمايواجهون من معاملة غير مرضية . أما عن النقطة الثالثة اى التوقعات والواقع فقد أجاب ٨٦ ٪ من المبحوثين انهم لم يجدوا بريطانيا كما كانوا يتوقعون ، فقد اوضحوا صعوبة حصولهم على العمل وكسب المال . والتفرقة العنصرية والاستقبال السيء للملونين والمستوى المنخفض معيشيا ، والأسكان الرديء وغيره .

وتناول المؤلف فى الفصل الثـالث مشكلة التعصب بين المواطنين الاصليين فى نوتنجهام تجاه الملونيين . فيتناول اهـالى نوتنجهـام انفسهم بالدراسة وبخاصـة أولئـك الذين يعيشون بالقرب من الملونين فى المناطقالداخلية من المدينة ويوضح في الجزء الاول من هـذا الفصل عدم القبول العام لدى الاهالى بالنسبة

للملونين . ويتعرض للدراسة التى قام بها ابراهام على عينة من ٢٥٠٠ حالة فى خمس مدن من بينها مدينة نوتنجهام نفسها والتى تناول فيها ابراهام موضوع التعصب . وينتقد المؤلف الاساس الذى وضعه ابراهام فىدراسته هذا لتعريف التعصب حيث قال ابراهام أن التعصب كلمة تستخدم فقط لتدل على الاتجاهات العدوانية التى ترجع الى عمليات تقع داخل حامل الاتجاهات العدوانية نفسه. ويعلق المؤلف بأن هذا التعريف لا يميز بين الاتجاهات الناجمة عن مصادر واسباب مختلفة وهنا يرى المؤلف ان المقياس الذى وضعه نيكولاس ديكين وصنف على اساسه موقف المبحوثين (عندما درس التعصب للجنس) الى اربعة اقسام ـ شديدو التعصب ـ متعصبون ـ متوسطوالتعصب ـ غيرمتعصبين يرى ان هذا المقياس أفضل من تصنيف ابراهام الذى كان تصنيفه للافراد هو (متعصبون ـ ميالون للتعصب ـ متسامحون ـ واخيرا ميالون للتسامح) حيث يرى المؤلف أن عدم وجود العداء لا يعنى بالضرورة وجود التسامح مثلا . ويضيف المؤلف انه ليسهناك داع للقول بأن مقولة التعصب هى المحدد الرئيسى او الوحيد للعلاقات السلالية، فهناك القوانين التى تنظم الهجرة والتى تحرم التفرقة العنصرية وغيرها . ويقرر المؤلف هنا اناغلب الاهالى فى نوتنجهام من البيض يعتبرونالملونين قوما مختلفين عنهم وانهم اقل منهم ، ولا يجب ان يتساووا معهم .

ويعالج الفصل الرابع الاسكان والعلاقات السلالية ، فيشير الى ان ازمة الاسكان فى نوتنجهام ترجع الى القرن الثامن عشر ، قد بدأ الانفجار السكانى منذ ذلك التاريخ مع التطور الصناعى السريع ويتابع المؤلف التطور فى تعداد السكان بالمدينة منذ ذلك التاريخ حتى الان .

وهو في هذا الفصل يحاول توضيح العلاقة بين الاسكان والعلاقات السلالية فى نوتنجهام . فبالرغم من المشكلة السكانية الواضحة التى تعانى منها نوتنجهام ، فانه لم يظهر صراع واضح فى مجال الاسكان . ولكن هذا مرجعه الى الظروف غير المتعمدة والاتجاهات العفوية، وليس مرجعه وجود التسامح لدى السكان الاصليين فى نوتنجهام فى مجال الاسكان .

ويوضح المؤلف ان قيام ازمة الاسكانونقص المسكن يخلق خصومة وعداء بين السود والبيض ، وهو امر يعتمد على عدة عوامل من اهمها مدى التبرم الذى يشعر به اولئك الذين يعيشون فى ظروف اسكانية سيئة وهم الان كما يبدو غير متبرمين بهذه الظروف وان كانوا ليسوا جميعا بالطبع مشتركين فى عدم التبرم بها .

وفى هذا الفصل يقوم الباحث بوصف المساكن الخاصة بالملونين موضحا اختلافها عن مساكن ابناء نوتنجهام من حيث ما تتمتع به من تجهيزات كالماء الساخن وغيرها . ويعلق بانه وحتى الان فان الملايين من البريطانيين عموما يعانون من ازمة اسكان حادة اذ لا زال حوالى ٢ مليون يعيشون بمساكن تنقصها الضرورات مثل ، الحمامات ، كما لا زال البعض يعيش بدون مساكن بالمرة ـ كما لازال مليونا نسمة يعيشون فى مناطق متخلفة . وجوهر مشكلةالاسكان فى نوتنجهامليسانعدام المساكن . بل هو نوع هذه المساكن . فالاف الاسر لا زالت تعيش دون المستوى الملائم . ولكن حيث لا يوجد تعريف متفق عليهللاسكان غير الملائم فان المرء لا يستطيع تحديد من يعانون منه . ولكن ، على العموم ، فان نوتنجهام تعانى فعلا من ازمة اسكان بالمعنى النوعى ، واغلب المهاجرين الملونين بها يعيشون فى هذه الازمة .

ويوضح المؤلف ان علاقات السلالات تتأثر بوضع الاسكان وان تحليله لهذه النقطة **قد بناه على التحليل الذى قدمه** rex & moor اللذان اوضحا ان العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الصناعية تتحدد بنمط الصراع في المصالح رغم عدم اعتبارهما ان الصراع على الاسكان هو انعكاس لصراع الطبقات فى الصناعة. **فقد لاحظا وجود اختلاف كبير فى تسهيلات** الدخول فى مجالات الاسكان بالنسبة للمشتركين فى نفس العلاقة فى مجال ملكية ادوات الانتاج (الطبقة) وهما هنا يتابعان ماكس فيبر عندما يقول (ان الصراع الطبقى يميل للظهور عندما تسمح حالة السوق السائدة بمداخل مختلفة للتملك وهنا يظهر الصراع الطبقى ليس فقط **بالنسبة لوسائل الانتاج الصناعي ولكن** بالنسبة للملكية العائلية ايضا) ، والقول بان اكثر من مبدأ من مبادىء السوق يعمل في عملية توزيع الاسكان فى بريطانيا لا يقتضي اكثر من تغير طفيف فى نظرية فيبر بالنسبة للنظام البيروقراطى لتوزيع المساكن لكى نصل الى **فكرة الاسكان الطبقى ، وهي فكرة هامة جدا في** تحليل البناء والعملية الحضرية ،وان العملية الاساسية التى تدعم التفاعل الاجتماعى الحضرى ــ كما يقول **ركس ومور** هى التنافس من اجل البيوت النادرة فى الضواحي وعلى اساس من عمومية هذه الرغبة فى الحصول على هذه البيوت وعلى اساس من ندرتها والاستقلال النسبي للصراع الطبقي من اجل المسكن عن الصراع الطبقي الصناعى فان ركس ومور قالا انه من المفيد أن تميز الطبقات **الاسكانية التالية وقدما سبع طبقات عن** السكان طبقا لنوع المسكن ونوع علاقتهم به مثلا (ملاك في مناطق مرغوبة ملاك ملكية جزئية بمناطق مرغوبة ــ مستأجرون لمساكن المجالس المحلية ــ ... الخ) . وكل مجموعة من هذه المجموعات السبع تمثل طبقة مختلفة عن غيرها . وتختلف حالة السكان المهاجرين **عن السكان الاصليين فى مجال الاسكان فهو يواجه التفرقة العنصرية عند محاولته** السكنى أو الحصول على مسكن فى الضواحي. كما ان المناطق الداخلية قد شغلت شوارعها بسكان من مناطق البيض ثابتين نسبيا وهنا فان المهاجرين لديهم خيار ضئيل فى ان يصبحوا اما مؤجرين من ملاك افراد أو من مؤجرين آخرين . ومركز المهاجرين السيء فى **سوق الاسكان لا يجلب عليه عطف السكان** الاصليين من البيض بل أنه بالاضافة الى العداء الناجم عن العوامل الثقافية والشخصية فانه ينظر الى المهاجرين باعتباره شخصا **يعمل على اكتظاظ السكن ، ويقوم بتخريب** البيوت التي يسكنها ، ومركزه هذا فى سوق الاسكان يحدد مركزه في نظر الاهالي البيض. ويوضح المؤلف رفضه للقول بأن سكان انجلترا يتنافسون من أجل السكنى فى الضواحي . كما يوضح ان البحث الميداني قد أوضح انه لا يوجد تنافس بين المهاجرين والاهالي على الاسكان الا انه أوضح قوله للتصنيف الطبقي فى مجال الاسكان الذى ساقه كل من ريكس ومور ولكنه أضاف اليه طبقتين أخريين لتصبح الطبقات السكانية عنده تسع طبقات وقد تابع المؤلف هذه الطبقات وتوزيعها مقارنا **موضحا فيها بين المهاجرين والسكان الاصليين** فى نوتنجهام . كما استعرض الصعوبات التي يواجهها المهاجرون فى مجالات الاسكان ، **موضحا انهم يواجهون صعوبة امكانية** الحصول على مسكن في المناطق الراقية ، ولا يمكنهم الشراء فيها . وأنهم يدفعون سعر **فائدة عالية ــ او ان الثمن الذى يطلب منهم** يبالغ فيه عادة بسبب اللون وضيق السوق امامهم . أو يطلب منهم تأمين عال جدا .. الخ . كما أنهم لا يحصلون على أية مساكن من المساكن المملوكة للدولة . وقد اوضح أن ٤١٪ من العائلات المهاجرة التي تركت مسكنها فى مناطق مختلفة قد تحركوا الى مناطق مختلفة ايضا . ويقول أن سبب ذلك هو مواطنهم الاصلية ، ومن ثم فان التكلفة

الاضافية فى مسكن افضل لا تبدو استثمارا معقولا لاموالهم من وجهة نظرهم وعموما ورغم هذه الظروف كلها فان الاسكان لا يمثل مثارا لصراع بين السلالات .. أو على الاقل لم يؤد الى صراع ظاهر بينها . فالنسبة المتبرمة من ساكنيها من الملونين قليلة . ولم يثبت أن هناك تنافسا على المساكن النادرة الغالية . كما ان بعض البيض فى صراع على المساكن فى المناطق التى يسكنها الملونون انفسهم وفيما بينهم .

ويناقش المؤلف في **الفصل الخامس** العلاقات **السلالية والتوظف ـ فيقول ان اغلب مهاجرى** الكومنولث يقيمون فى مناطق ذات طلب على عنصر العمل ويقل اقامة الملونين فى المناطق التي يكون فيها الطلب على عنصر العمل خفيفا او متوسطا ، وهم عموما يحلون فى مجال **العمل محل البيض فى المناطق التي لم تنجح** فى جذب عدد كاف من البيض . ويستعرض المؤلف التاريخ الصناعي والخدمي لمدينة نوتنجهام موضحا كيف أصبحت تشترى الآن بالصناعات الراسمالية فى مجال التصدير والمجال المحلى ، وأن النسبة الغالبة من المهاجرين قد جاءت اصلا للبحث عن عمل ، وأن البحث الميداني قد اوضح أن هناك ٣٪ فقط منهم عاطلون حاليا ـ ثم قام الباحث بمتابعة توزيع المجموعات السلالية على مختلف الصناعات ويوضح أن ثمة زيادة فى عدد العمال غير المهرة بن المهاجرين عنها بين البيض . وانهم ، اى المهاجرين ، يعملون باعمال غير مرضية وغير جذابة عموما للبيض . وعموما فان فجوة التوظف بين الملونين وبين البيض فجوة واضحة . ولم تشكل هجرة الملونين الى المدينة أى خطر على الاهالي البيض من الناحية الاقتصادية ، فالعمل متوفر للجميع **ولا يشغل الملونون من الوظائف ، او الاعمال** عموما ، الا مالا يقبله البيض . ومن ثم لم يشكل مجال العمل مثارا للنزاع السلالي .

ويقرر المؤلف أن كثيرا من الاعمال لا زالت تميز بين الملونين وبين غيرهم من القوى العاملة وان ٦٧٪ من المبحوثين البيض قالوا بوجوب اعطاء البيض اولوية فى مجال العمل . وان اهم اسباب عدم رضى الملونين عن اعمالهم هو **التفرقة التي يلاقونها فيه بل ذلك احساسهم** بامكانية اداء أفضل مما يقومون به بينما ان المهاجرين ليس لديهم نفس الفرصة للحصول على العمل بنفس المؤهلات التى لدى الانجليزى الابيض وذلك بسبب اللون . بينما قالت نسبة ٤٢٪ من العينة للبيض بوجود التفرقة بين السلالات فى مجالات العمل والتوظف .

ويناقش المؤف فى **الفصل السادس** السياسة والعلاقات السلالية ـ فيناقش السلوك السياسي والبدائل السياسية المتاحة امام الملونين ، موضحا ان كثيرا من أولئك الدين صوتوا منهم فى الانتخاب العام لم يفعلوا ذلك بحماسة تذكر وانهم انما فعلوا **ذلك بسبب انه لا يوجد اى بديل امامهم .** ذلك أن الملونين لا يعتقدون أن أيا من الحزبين الرئيسيين (محافظين وعمال) مختلف عن الآخر ولا يختلف الامر بالنسبة لهم أن يفوز اى منهما ، ذلك أنهم اذا كانوا قد صوتوا لصالح المحافظين في الانتخابات الاخيرة فقد فشل المحافظون فى الحصول على تأييد كاف لدخول السوق الاوروبية والحقيقة أن الخطوات التي اتخذتها الحكومة اخيرا فى مجالات الدخول والاسعار لم ترض الناخبين عموما . كما أن القرارات التي اتخذها كلا الحزبين بصدد الهجرة والمهاجرين لم تقابل بالرضى من كل من المهاجرين انفسهم ، وكذا من المواطنين البيض ، وهذه النظرة تنطبق على قوانين الهجرة التي صدرت فى اعوام ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١ . اذ ينظر **الملونون الى هذه القوانين على انها تؤكد**

التمايز بين السلالات وذلك بالنسبة لقوانين ١٩٦٨ ، ١٩٧١ وانها تحقر من شأنهم . بينما ادت القوانين التي قدمتها حكومة العمال فى ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ الى تهيج هذا الشعور (وقد لا حظ المؤلف أن اغلب المبحوثين لا يعرفـون أن قوانين وتشريعات منع التفرقة العنصرية قد ظلت باقية) وعموما فقد نظر الملونون الى قوانين ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ومابها من ضعف على انها تعكس تذبذب حزب العمال . كما نظر اليها الكثيرون من البيض على انهـا تعمل على وضع الملونين فى مركز ممتاز . ويقرر المؤلف فى النهاية ان مختلف المحاولات التـي بذلت في سـبيل تحسين العـلاقات السلالية لم تنجح بسبب عدم وجود القوة التي تساند القوانين التي تصدر فى هـذا الشأن وان المبحوثين من الاهالي اى المواطنين البيض ـ أو من المهاجرين الملونين لا يشعرون بأن النظام الحزبي الحالى يقدم من الوسائل والطرق ومايحقق مصالحهم. ويشير المهاجرون هنا الى انه لا يوجد فى المجالس المحلية اى هندى أو باكستاني أو جمايكى .

ويعالج المؤلف فى **الفصل السابع** (المنظمات وعلاقات السلالات) موضحا أنه يوجد الكثير من المنظمات المهتمة بعلاقات السلالات فـى مدينة نوتنجهام سـواء من الاشـخاص او الهيئات الرسمية . فثمة ١٤ منظمة رسمية تهتم بالعلاقات السلالية فى نوتنجهام تشرف عليها جهـات عدة مثـل الصليب الاحمـر البريطانى والمكتب الاسقفى للشئون الاخلاقية وغيرهما ، وقد ركز المؤلف فى هذا الفصـل فقط على اللجنة الوطنية الاستشارية للكمنولث وما ترتبط به من علاقات بغيرها من المنظمات، مبررا ذلك بأنها اللجنة الوحيدة الرسمية في نوتنجهام التي تتلقى المساعدات المالية ، وانها المسئولـة مسئولية مباشرة عـن تحسـين العلاقات السلالية. والسبب الثانى هو ماذهب اليه الكثيرون من أن هذه اللجنة قد قدمت الكثير من أجل تحسين العلاقات السلاليـة بالفعل . والسبب الثالث هو ما ذهب اليه كيتز نلسن من أن هذه اللجنة قد لعبت دورا دقيقا فى علاقات بناء المدينة السلالية ، ويزعم المؤلف ان هـؤلاء قد غالـوا في أهمية هـذه اللجنة ويقول ان ما قدمته لم يؤد الا قليلا من المزج فى العلاقات السلالية فى هذه المدينة وان الاهتمام الكبير الذى احيطت به اكـبر بكثير من دورها الحقيقى . وليس معنى هذا انها لم تقم بعمل شيىء مفيد ، الا ان الغالبية الساحقة من الملونين ، وكذا النمط العـام للعلاقات السلالية لم يتأثر بمجهودات هذه اللجنة الا فى القليل النادر . ويسـتعرض **المؤلف فى هذا الفصـل دراسة كيتز نلسـن** لاعمال هذه اللجنة وتاريخها وتطورها . كما يستعرض موقف المهاجرين منها قائلا انها لا تحظى بحماس الكثيرين منهم ، خاصـة **الباكستانيين والسود .**

واخـيرا يستعرض المـؤلف فى الفصـل الثامن وهو الخاتمة ما انتهى اليه من نتائج ومحددا ان المهاجرين فى مجموعهم يشعرون بانهم غرباء وان اغلبهـم لم يأت للاسـتقرار الدائم بل للعمل ثم العودة لبلده ، ومستعرضا ملخصا سريعا لنتائج الفصول السابقـة ، وموقف المهاجرين فى مجالات الاسكان والتوظف وغيره مما سبق عرضه تفصيليا .

ومع ان الموضوع الذى يتناوله المؤلف هو الهجرة الا انه يركـز على المهاجرين انفسهم بقدر ما ركز على علاقاتهم بالمواطنين الاصليين، وقد اعطى المؤلف صورة كاملة عن هـذه العلاقة بالفعل الا ان الكتاب لم يظهر العلاقات بين مجمـوعات المهاجرين مـن دول الهنـد وباكستان وجمايكا ، اذ لم يركز المؤلف على العلاقة بين كل جماعة من هـذه الجماعات وغيرها من الجماعات ، ولا شك ان هذه نقطة كانت جديرة بالبحث خاصة اننا سبـق أن

اوضحنا ان العلاقات السلالية هي النقطة الاساسية فى هذا الكتاب . كما ان المؤلف لم يتناول بالدراســة العلاقات الداخلية بـين افراد كل جماعة من هذه الجماعات المهاجرة رغم انه ذكر فى المقدمــة ان فهم العلاقــات تلعبه العوامل الثقافيــة والبنائية في هـذه العلاقات فى الرؤية المتبادلة بين المهاجريـن الملونين من جانب الاهالي من جانب آخر . ولا شك ان عدم اهتمام المؤلف بالعلاقــات الداخلية بين مهاجرى كل جماعة من الجماعات المهاجرة قد عمل على غياب عنصر بالغ الاهمية فى تفسير عدد كبير من النقاط والنتائج التي توصل اليها الباحث ، والتي لم يقدم تفسيرا كافيا لها ، مثل قوله بان الملونين لا يتبرمون بظروف السكن السيئة التى يعيشونهــا . وقوله بان الملونــين عموما غير متحمســين للتنظيمات السياسية ولا للمنظمات الخاصة بالعلاقات السلالية ، وقوله بأن الجمايكيين قد تمثلوا نسبيا للمجتمع البريطاني بينما لـم يتمثل الباكستانيون والهنود . وقوله بأن غياب الصراع الظاهر فى العلاقات السلالية يرجع الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية وغير مقصودة فى مجالات العمل والاسكان . ولا شك ان العلاقات الداخلية بين افــراد كل جماعة كانت ستشكل اساسا تفسيريــا هاما لهذا كله . . . أو على الأقل أحد الاسس التفسيرية له .

ولعل عــدم متابعة العلاقــات الداخليــة بالتحليل ترجع الى اعتماد المؤلف على المنهج السوسيولوجى كلية ، المتمثل فى الاعتمــاد على الاستمارة واستخدام المقابلة على عينة محددة (٣٠٠ حالة) من مجموع سكان المدينة من البيض ومهاجرى الكومنولث الملونين مع استخدام الاسئلة المغلقة .

وعلى اية حاله فان الكتاب يتعرض لموضوع امتدت اليه يد البحث مرات عديدة في المجتمع البريطاني وهو العلاقات السلالية بين الاهالي الملونين من المهاجرين . وقد حصر نفسه تماما فى هذه النقطة مما جعل من الكتاب صورة واضحة عن هذه العلاقات دون أن يمس بعمق الصورة التي يعيش عليها المهاجرون انفسهم او المواطنون البيض انفسهم .



* * *

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

Abelson, Raziel, "Persons. A Study in Philosophical Psychology," The Macmillan Press Ltd., 1977.

Greeley, Andrew M,. "Ecstasy. A Way of Knowing," Prentice-Hall, Inc. 1974.

Jacob, François, "The Logic of Living Systems. A History of Heredity," Translated by Betty E. Spillmann, Allen Lane, 1970.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Whitby, M. C., Robins, D.L.J., Tansey, A.W., and Willis, K.G., " Rural Resource Development," Methuen & Co Ltd., 1974.

★ ★ ★

العدد التالى من المجلة

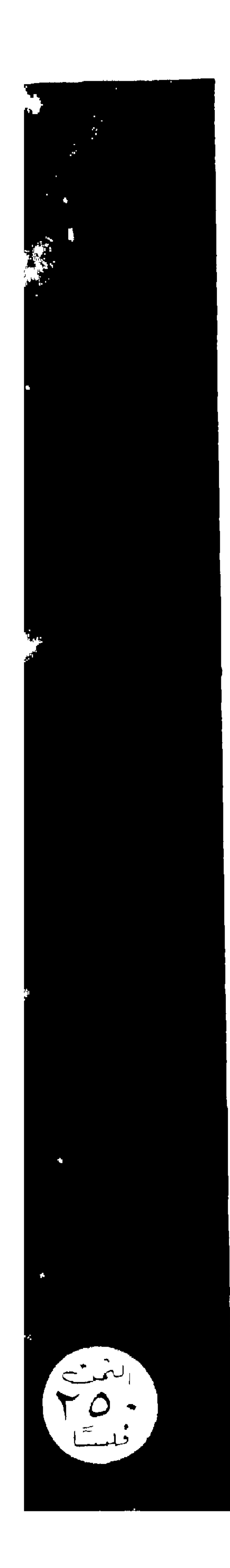
العدد الثالث ـ المجلد التاسع

اكتوبر – نوفمبر – ديسمبر

قسم خاص عن

العلم والتكنولوجيا

بالاضافة الى الابواب الثابتة



البلد	السعر	العملة	البلد	السعر	العملة
الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليما
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليما
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بيسة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت